

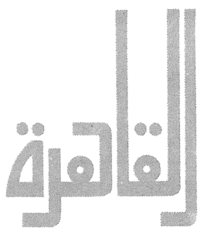
القاهرة

العدد (١٣٣) ديسمبر ١٩٩٣

حسن البنا والحركات الإسلامية الجديدة

اكتشاف ثقافي

رسائل محمد مندور إلى طه حسين



مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب



العدد (١٣٣) ديسمبر ١٩٩٣

الثمن فى مصر : ١٥٠ قرشا

الثمن فى الخارج

العراق ١١٢٥ فلساً ـ الكويت ١١٢٥ فلساً ـ قطر ١٥ ريالاً ـ البحرين ١٥٠٠ فلس ـ سوريا ٩٠ ليرة ـ لبنان ٣٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١١٢٥ فلساً ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ السودان ٣٥٢٥ ق ـ تونس ٣٣٧٥ مليماً ـ الجزائر ٢١ ديناراً ـ المغرب ٤٠ درهماً ـ اليمن ٧٥ ريالاً ـ ليبيا ١٢٠ ديناراً ـ الإمارات ١٥ درهماً ـ سلطنة عمان ١٥٠٠ بيزة ـ غزة والضفة والقدس ١٨٧٫٥ سنتاً ـ لندن ٣٠٠ بنس ـ الولايات المتحدة ١٫٥ دولاراً

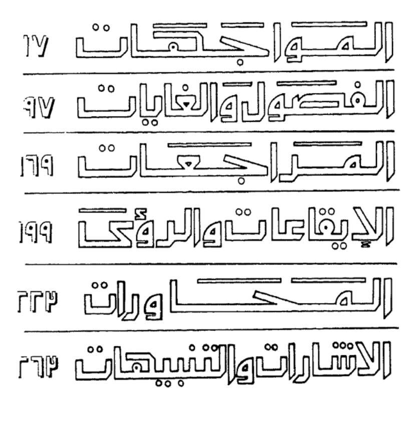
الإشتراكات فى مصر :

عن سنة (١٢ عدداً) ١٨ جنيهاً مصرياً شاملاً البريد .

الإشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عدداً] :

- البلاد العربية : أفراد ٣٠ دولاراً ، هيئات ٥٢ دولاراً شاملة مصاريف البريد .
- امريكا وأوروبا : أفراد ٤٨ دولاراً ، هيئات ٧٠ دولاراً شاملة مصاريف البريد .

العنوان : مجلة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ القاهرة ـ ١١١٧ كورنيش النيل ـ فاكس 754213 . ت / ٥٧٨٩٤٥٥



من المحرر

وداعا... ميشيل كامل

فأبى عام ١٩٩٣ أن يختتم مسيرته إلاّ بوداع قلم وعقل وقلب لن تقام له سرادقات العزاء فى إعلامنا السعيد لألف سبب وسبب. أولاً، لأن ميشيل كامل كان حتى الرمق الأخير قد عاش حياته معارضاً شريفاً فى ضوء الشمس. لم يُخفِ أفكاره وآراءه ومواقفه لحظة واحدة. ولم يناور ويراوغ ويركب أكثر من جواد فى وقت واحد. لم يأكل عى كل الموائد، ولم يكن رجلاً لأى عصر من العصور، بل مضت حياته رهاناً على عصر لم يأت بعد.

ولكن أحداً لن يجاهر، بهذا السبب، وإنما سيقولون إنه قد غاب عن مصر أكثر من عشرين عاماً، وقد نسيه الناس.غير أنهم لن يقولوا لماذا اغترب، ولا كيف عاش فى منفاه المزدوج، بالاضطرار والاختيار ، ولا كيف استطاع رغم البعد الجغرافى أن يحيا فى قلب الوطن طيلة الوقت المر.

وهكذا، فحين كان ميشيل كامل ملء السمع والبصر فى وطنه كان لعارفيه عن قرب نموذجاً أخلاقياً رفيع المستوى. وكانت شجاعته الأخلاقية النادرة المثال قرينة التواضع الحقيقى والبعد المطلق عن حسابات الأرباح والخسائر والمعارك الصغيرة . وحين يمسك بالقلم أو يجد نفسه فى موقف يرتبط بمصير الوطن لا يعرف سوى ما يعتقد أنه الحق ، وإذا بالرجل الوديع الهادىء الطباع المبتسم من القلب يتحول إلى مقاتل جسور عن فكره وآرائه ومواقفه، ويناضل عنها نضالاً شرساً أياً كانت العواقب.

وقد كان بقدر من المرونة التى لا تصل إلى حدّ التنازل أن يتبوأ فى وطنه ألمع الواجهات.. ولكنه لم يفعل، وآثر مرارة الغربة الطويلة على الحدود الدنيا من التكيّف. كان نموذجاً للمثقف العضوى الذى لا يفصل بين الفكر والعمل دون اهتمام بالأضواء المزيفة . ولكن قراء «صفحة الرأى» فى الأهرام ومجلة «الطليعة» خلال الستينيات يدركون أية بصمات مميزة تركها ميشيل كامل على صفحة الفكر المصرى المعارض لسلبيات التجربة الوطنية فى ذلك الوقت.



ميشيل كامل

وحين ذبحت هزيمة ١٩٦٧ أحلام المناضلين ، اختار ميشيل كامل موقعه فى طليعة الجبهة الفكرية ـ السياسية المقاتلة ضد صناع الهزيمة.. وكانت بيروت من أهم منابر هذه الجبهة قبل حرب لبنان وأثناءها. وعاش ميشيل كامل عروبته الحقيقية لحساب مصر . وكانت بصيرته السياسية الثاقبة أقوى من «عمى الألوان» الذى أصاب غيره من نيران الحرب الأهلية اللبنانية والحروب الباردة العربية.

لم يكن مفكراً سياسياً يكتب من مقاعد المتفرجين ، وإنما كان فى فكره مناضلاً عملياً وفى نضاله مفكراً نظرياً، يلتحم فى حياته اليومية الواقع بالمبادىء . وقد شغلته فى بيروت حتى العنق القضية الفلسطينية والقضايا العربية الأخرى دون أن ينسى لحظة واحدة أن مصر هى القضية المركزية والقيمة المعيارية لأى تقدم أو تراجع فى المنطقة كلها . وحين اضطرته الحرب ـ كاللبنانيين أنفسهم ـ للهجرة إلى أوروبا لم تكن باريس وحدها منبره، بل كانت أنظف المنابر العربية هى ساحته باتساع العالم.

ليت هذه السيرة النقية الفذة فى عطائها تجد من يكتبها ذات يوم وكأنه يضىء إحدى شموع الأمل وسط الظلام المحيط . ■

بدايات

الخطاب

(٥)

قد كان من الطبيعى أن يبدأ تفكك الإمبراطورية السوفياتية من محيطها المباشر فى أوروبا الشرقية، من بلد كبولندا مثلاً، فواقع الأمر أن نداء الديموقراطية كان يمكن أن يأتى من براغ ذات الربيع الذى لا ينسى عام ١٩٦٨، وكان من الممكن لهذا النداء أن يصل من بودابست ذات المبادرة التاريخية عام ١٩٥٦ حين صدقت المجر «سقوط الستالينية» المدوى بصوت خروشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفياتى. وكانت المجر بالذات مرشحة لإصدار هذا النداء بالذات، بعد انفتاحها الاقتصادى على الغرب. وكان من الممكن للنداء الديموقراطى أن يذاع فى بلجراد ويشيع فى جمهوريات يوغسلافيا التى تركها تيتو موحدة بقيادة جماعية، مستقلة عن موسكو وتحتل مكانة رفيعة فى العالم الثالث وكتلة عدم الانحياز.

كان من الممكن أن يحدث ذلك، لو أن «النداء» قد اقتصر على الديموقراطية السياسية، فأغلب عواصم أوروبا الشرقية كان يعانى من الهيمنة الإمبراطورية القادمة من الكرملين، ومن سطوة النظام الشمولى داخل الحدود.

ولكن النداء، جاء من ميناء بولندى يسمى جدانسك، ومن نقابة عمالية تنشد الاستقلال تدعى «تضامن». جاء النداء على مراحل تعددت أشكالها بدءاً من الإضرابات والاعتصامات والمنشورات، وانتهاء بطلب الاستقلال عن الحزب الشيوعى، وبدءاً من المطالب المهنية الخالصة وانتهاء بالمطالب السياسية الواضحة، وبدءاً من السجون والمعتقلات وانتهاء باقتسام السلطة ثم الانفراد بها.

وقد قيل فى أحداث بولندا التى سبقت البريستوريكا بخمس سنوات حين التف عمال جدانسك حول ليش فاليسا عام ١٩٨٠ إن البابا - البولندى الجنسية - يوحنا بولس الثانى هو الذى دفع الكنيسة الكاثوليكية فى وارسو إلى دعم الحركة العمالية. وإن هذا البابا ليس بعيداً عن الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية. هذا التفسير التآمرى لنشأة «تضامن» يعجز عن تفسير الطابع القومى الذى آلت إليه الحركة، والاستمرارية التى وصلت بها إلى «ريادة» التغيير الشامل لشرق أوروبا. وبالطبع، ليس من المستبعد أن تلعب الكنيسة البولندية دوراً فى الأحداث وليس من المستبعد أن تكون ثمة علاقة خارجية بين الفاتيكان والولايات المتحدة. ولكن «تركيب» حركة الأحداث على هذا النحو، وكأن ما جرى فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها مؤامرة أمريكية هو افتئات على الشعب البولندى وتضخيم لموقع الكنيسة من هذا الشعب ومبالغة فى قدرات المخابرات الأمريكية التى تكشف الوثائق المتاحة على أنها فوجئت تماما بما حدث، حتى ولو حاولت اللحاق بركب المتغيرات، وحتى أيضا لو بذلت الجهود فى توجيهها.

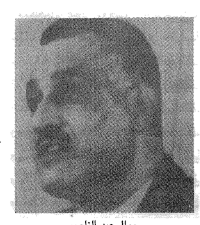
الاستهلاكى [٢]

إن البداية البولندية التى انتقلت منها الشرارة إلى بقية شرق أوروبا هى التى فرضت، ضمن عوامل أخرى داخل الأقطار الاشتراكية السابقة والاتحاد السوفياتى نفسه، أفكار جوربا تشوف. وكانت تلك البداية من الميناء البولندى قد أفضت بالتدريج - عبر تواصل رياح التغيير - إلى محاصرة موسكو ذاتها، فكانت البريسترويكا التى حاولت امتصاص «قوة الغضب» واحتواء كوامن الانفجار، ومن ثم ساندت سرا وعلنا بوادر التغيير هنا وهناك. ولكن الزمن كان قد فات، وأفلتت حركة الأحداث من جورباتشوف نفسه، وأضحت البريسترويكا فى فترة قياسية من الذكريات.

وذلك لأن النداء الديموقراطى القادم من جدانسك لم يكن مجرد نداء سياسى. وإنما كانت السياسة فيه وثيقة الارتباط أكثر من أى وقت مضى بالاقتصاد. كان المشهد العمالى فى بولندا مأسويا بحق، فالحزب الواحد والقائد والحاكم



رفاعة الطهطاوى



جمال عبد الناصر

يدعى تمثيل العمال، بينما العمال هم قادة الحركة نحو التغيير. وكانت بولندا بحكم موقعها الجغرافى وتاريخها من أكثر أقطار أوروبا الشرقية إطلالا على الغرب، فأقبلت ثورة الاتصال والمعلومات لتلغى تقريبا المسافات بينها وبين هذا الغرب الأوروبى ولم يعد الأمر مقصورا على تسويق نموذج الحياة الغربية فى الطعام والشراب والملبس والرفاهية - وهو جزء مهم فى الخطاب الاستهلاكى - ولم يعد مقصوراً على مبادىء حقوق الإنسان. وإنما تجاوزت ثورة الاتصال والمعلومات هذه «الموديات» الخلابة المظهر، أو غيرها من الخدمات الخفيّة كصناعة الأمن السرّى احترافا أو هواية. بل قامت ثورة الاتصال والمعلومات بإعداد السوق على مهل وشاركت فى تغذية الاحتياجات الفعلية والوهمية تغذية استراتيجية بالاقتراحات الهيكلية للإنتاج والبدائل الممكنة للملكية العامة والمفاهيم المحتملة لمجتمع المبادرات الفردية والصياغات المتعددة لاختلاف الطبقات

والمستقبلات التى يهيئها الاقتصاد الحر للأجيال الحاضرة والمقبلة. ولم يكن هذا كله ليتم خارج الإطار السياسى الذى يبدأ بانفصال بولندا عن المركز الشمولى فى النظام العالمى، والأخذ دون مواربة باقتصاد السوق والتعددية الحزبية.

ولم تكن ثورة الاتصال والمعلومات تخلق شيئا من العدم، وإنما كان الاقتصاد والسياسة والمجتمع والثقافة، تعانى من ضمور حقيقى فى الوسائل والغايات، ومن ثغرات فادحة الاتساع بين الواقع والشعارات. ولم تفعل هذه الثورة سوى أنها ساعدت المخيلة القومية على الحلم وتصور البديل «المنقذ». كان الارتباط بين الاقتصاد البولندى واقتصاد المنظومة الاشتراكية، وبين حلف وارسو والأمن الإمبراطورى السوفياتى، وبين الفكر المكبوت أو المعلن أحيانا وعقيدة الدولة من أخطر الحواجز وأعلاها بين الناس وأحلامهم. وجاءت حركة «تضامن» العمالية فوق السطح والشعبية تحته، كمحاولة جسورة لاختراق هذه الحواجز. لم تكن بولندا فقيرة، ولم تكن تفتقر إلى القاعدة التكنولوجية للإنتاج. ولكنها بفضل الحواجز أمست عمليا دولة فقيرة تابعة مقهورة. هنا برز الخطاب الاستهلاكى فى صميم الحركة العمالية الأكثر فقرا كإجابة على الخطاب الاستهلاكى لفساد الشريحة الحاكمة ونظامها.

غير أن الجواب الاستهلاكى على سؤال الاستهلاك لا يحقق الأحلام على أرض الواقع دفعة واحدة. قد يحقق الاستقلال عن موسكو والانفصال عن حلف وارسو، ولكنه يمتنع عن تحقيق الإنتاج اللازم لاشباع الاستهلاك. يضاف فى الوقت نفسه قوانين السوق العالمية المستعدة دائما لإغراق الأسواق الجديدة وزيادة القروض، فتدخل أقطارها عصر الأزمة الدائمة، ولا تخرج مرة أخرى من عنق الزجاجة بل تضرب رؤوسها فى الحائط المسدود.

وهذا هو السبب الذى عاد من نتائجه الشيوعيون البولنديون واللتوانيون إلى الحكم فى انتخابات حرة، وكأن الناس يستبدلون الحلم القديم باليأس. ولأن الحلم القديم مستحيل، فإن الأوضاع البولندية لا تنتقل إلى شقيقات وارسو القديمة بحذافيرها. ينتقل الخطاب الاستهلاكى المزدوج الدلالة (خطاب الجماعة الوطنية أو العرق أو الطائفة، وخطاب الفئة المركزية الحاكمة)، ويتخذ مكانه بين عوامل أخرى وتتفاعل فتغدو بولندا فى مأزق خانق بينما تتوحد ألمانيا وينفصل التشيك عن السلوفاك سلميا. وتستقل أولا دول البلطيق بعد مصادمات دامية. ثم تستقل بقية الجمهوريات فى الاتحاد السوفياتى السابق. وتبدأ الحروب الأهلية بين هذه الجمهوريات وبعضها البعض ثم داخل هذه الجمهوريات بين الأعراق والأديان حتى تصل هذه الحروب داخل الاتحاد الروسى نفسه إلى ان تخترق موسكو ذاتها. وينقلب المشهد المأساوى من «انقلاب» أغسطس (آب) ١٩٩١ حيث كان البرلمان قلعة يلتسين فيصبح هذا البرلمان - البيت الأبيض - بيتا أحمر من دماء ألف قتيل فى مذبحة أين منها دماء ثورة أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩١٧.

والجوهر العميق للتفكك الدموى الهائل، هو الخطاب الاستهلاكى الذى استحال عليه استبدال الحلم الجديد بحلم قديم فربحت الفاشية حربها ضد الشيوعية دون الحاجة إلى حرب عالمية ثالثة، بل أصبح بعض قادة الشيوعية القدامى من أبرز أعلام الفاشية الجديدة.

كان التفاعل بين الخطاب الاستهلاكى والأوضاع الخاصة بكل إقليم، قد فعل فعله بدءا من استقلال القوميات إلى استقلال الأعراق والطوائف بموجب الجغرافيا الأنثروبولوجية. ودفعت هذه القوميات والأعراق والطوائف ثمن الاستراتيجية الستالينية فى تذويبها

والهيمنة الروسية عليها. عرقيًا واقتصاديا وسياسيا.

بدأت البريسترويكا إذن بالاستقلال الديموقراطى وانتهت عمليا بالتفتت العرقى. ولم يعد الأمر مجرد تفكك إمبراطورى محدود بالإطار الجغرافى للاتحاد السوفياتى السابق وتوابعه فى أوروبا الشرقية، بل تفتتا عرقيا ملازما لفاشية نظام الحكم. ليست هناك جمهورية واحدة تخلو من الدم فى آسيا الوسطى. ومضى خيط الدم فاقعا إلى أفغانستان حتى وصل إلى البلقان فى قلب يوغسلافيا السابقة.

وهكذا ارتبطت أنواع الإرهاب كافة، بدءا من إرهاب الدولة والدويلات والأعراق والطوائف إلى إرهاب المليشيات والأفراد، بالخطاب الاستهلاكى ارتباطا وثيقا. وكانت الجغرافيا البشرية هى الجسر الذى التقى عنده الاستهلاك بالإرهاب.

ما أبعد النهايات عن البدايات، فلم تكن المبادرة البولندية قبل عشر سنوات من الانهيار السوفياتى أكثر من نداء ديموقراطى تداعت له الكوامن العميقة التى تجاوزت الحدود الإمبراطورية إلى أرجاء العالم بدءا من أحداث لوس انجيلوس فى الولايات المتحدة وانتهاء بالنازية الجديدة فى ألمانيا والسويد والفاشية الجديدة فى إيطاليا.

ومن ثم يصبح السؤال : أحقا كانت بولندا هى البداية، أم أن الاختلال بين الإنتاج والاستهلاك فى العالم المتقدم داخله وخارجه، كان البداية والنهاية؟

(٦)

ربما كانت المرة الأولى الدامغة التى يتنكر فيها الغرب لمبادىء الديموقراطية المعلنة فى وثائقه الدستورية وخطابه السياسى، حين اتخذ موقفا جماعيا ضد البرلمان الروسى لحساب الانقلاب العسكرى المكشوف الذى قاده يلتسين والجنرالات ضد الديموقراطية. وهو انقلاب مازال مستمرا من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧٣ إلى اليوم والغد.

أقول إنها قد تكون المرة الأولى الدامغة التى يتنكر فيها الغرب لمبادئه، لأننى أعلم أن هذا التنكر يكاد يكون يوميا، ولكنه فى هذه المرة تنكر تاريخى بكل معنى الكلمة، فقد أعطى المشروعية لجراحة استراتيجية فى إحدى أهم مناطق العالم لحساب الفاشية الجديدة. لم ينظر لغير مصالحه الآنية المباشرة، فأعطى الضوء الأخضر لا للمذبحة التى سقط فى بحيرتها الدموية ألف قتيل بل للمذابح المقبلة لا فى روسيا وحدها بل فى مختلف أرجاء العالم.

لم يكن قادة البرلمان من الشيوعيين الجدد، فهم أقرب الأصدقاء وأقوى الحلفاء فى انقلاب يلتسين على جورباتشوف. وإنما كانوا من القوى القومية التى غيرت مثله تماما جلودها الحمراء لحساب الاقتصاد الحر. ولكن هذه القوى لاحظت أن يلتسين يركب القطار السريع على جثة الأمن الاجتماعى والأمن الوطنى معا. وظل مطلب البرلمان هو التخفيف قليلا من سرعة القطار الذى يشاركون فى قيادته حتى لا يخرج على القضبان ويفقد الاتجاه فتقع الكارثة للجميع.

ولكن هذا البرلمان المنتخب كالرئيس تماما بموجب الدستور الذى مازال يحكم البلاد حتى الآن فوجىء بالرئيس يحله ويلغيه كأى ديكتاتور فى العالم الثالث بل فى أسوأ أقطار العالم الثالث. واعترف يلتسين علنا بخرق الدستور. ولم يسأل كلينتون نفسه، هل يستطيع أن يحل الكونجرس، ولم يسأل ميتران نفسه هل يستطيع أن يحل الجمعية الوطنية ولم يسأل ميجور نفسه، هل يستطيع أن يحل مجلس العموم، بل قام الجميع والغرب كله من ورائهم بتأييد الرئيس «الديموقراطى».

ويبدو أن هذا هو الخطأ الأول فى حسابات قادة البرلمان، فقد ظنوا أن الغرب إن لم يقف إلى جانبهم فإنه

سيقدم على الأقل حلا وسطا، فبادروا إلى عزل يلتسين على الورق، واعتصموا بمبنى البرلمان. وكان الخطأ الثانى أنهم راهنوا على حياد العسكر جيشا وقوات أمن ومخابرات. بينما كان يلتسين قد أعد انقلابا عسكريا كامل الأوصاف، شاركت فى دعمه المباشر الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية. وكان الخطأ الثالث هو الرهان على «الشارع». وقد وقع قادة البرلمان فى فخ الإغراء حين استجابت لنداءاتهم مجموعات مسلحة أقرب للمليشيات قليلة العدد. أما الشارع فلم يكن على استعداد من قريب أو بعيد للانحياز هنا أو هناك. كان الشارع خاوى البطون جائعا وهى الحالة المثلى للإحباط واليأس. وكان الشارع لا يفرق فى خاتمة المطاف بين يلتسين وروتسكوى، نائبه الأثير.

وخلال أسبوعين من المناورات لم يتوقف الغرب عن تأييد يلتسين ودعمه بكافة الوسائل، لدرجة أن السفارات الغربية «المحترمة» خانت تعهداتها لقادة البرلمان أنهم عند الاستسلام لن يصيبهم أذى. ولكن الهجوم المسلح لقوى الانقلاب اكتسح فيما اكتسح هذه التعهدات، ولم يترك البرلمان إلا وقد أصبح خرابة محترقة تلوثت جدرانها والشوارع المحيطة بها، باللون الأحمر القانى.

وقطع يلتسين عهدا أمام الرأى العام المحلى والعالمى ،بانتخابات رئاسية مبكرة.

وصفق الغرب طويلا للزعيم «الديموقراطى». ولكنه بادر إلى حجب الصحف ومنع أحزاب المعارضة من الاشتراك فى الانتخابات النيابية، وتوج هذا التراجع المنظم بالإعلان المدوى:

لا للانتخابات الرئاسية المبكرة. وكان إعلان حالة الطوارىء فرصة العمر لاعتقال المعارضين .

واستمرالغرب فى الدعم والتأييد على حساب « المبادىء » ولمصلحة الاستراتيجية القائمة لا على تعميم الاقتصاد الحر وما يرتبط به من تعددية سياسية، بل على اعتبار المعسكر الاشتراكى السابق سوقا وغنيمة الحرب الباردة.

ولكن حسابات الغرب ليست دقيقة، فالجيش الذى خرج لإنقاذ يلتسين أصبح من حقه المكتسب كجيوش العالم الثالث التدخل فى السياسة. والقومية الروسية المستأنسة فى ظل الاتحاد السوفياتى السابق، لن تعود كذلك والحنين إلى الحكم القيصرى لن يكتفى برومانسية المظاهر .

والقوميات المنتشرة داخل الاتحاد الروسى وخارجه لن تكتفى بالحكم الذاتى . والميليشيات المسلحة لن تعود إلى جحورها سواء تحت رايات الاستيراد والتصدير والتهريب والدعارة وتجارة السلاح والمخدرات أوتحت رايات العرق والدين والطائفة.

إن سيولة الحالة الروسية أكثر خطرا من صلابة الحالة الإيرانية بالرغم من الطابع الشمولى فى كلا النظامين فروسيا تهيمن إلى الآن على الجمهوريات المستقلة بما فيها الجمهوريات الإسلامية. وروسيا ماتزال ترسانة مسلحة قادرة على البيع والشراء من الأبواب الأمامية والخلفية . وتحت ذرائع الجوار والمصلحة والعرق حينا والنفوذ التاريخى أحيانا، تصل بضاعتها الوحيدة- السلاح - إلى أبعد نقطة فى الكرة الأرضية. ولا بأس فى هذه الحال من تغذية الصراعات القبلية التى تسود العالم. وفى روسيا أيضاً يجتمع إرهاب الدولة الفاشية الجديدة وإرهاب النزعات والنزاعات السلفية فى بواطن الشارع الشعبى وخفاياه الدفينة. لذلك فليس الحكم وحده هو المرشح لعودة القيصرية فى ثياب فاشية جديدة، وإنما أضحت حالة السيولة الجارفة هى التى تفرض إرهاباً مقابلا من تحت. لم تتناقض الوسائل مع الغايات، فهذه الاخيرة لاوجود لها إذا غضضنا البصر عن الشعارات اللامعة باقتصاديات

السوق . أما الديموقراطية فتشهد مذبحتها على فضيحة العصر حين باركها الغرب فى صلواته الصباحية والمسائية .

لذلك فالمشهد الروسى المؤهل لأن يكون مخزنا لتصدير الإرهاب الدولى لم يكن بعيدا فى أى وقت عن الخطاب الاستهلاكى المصنع محليا وعالميا. ومن ثم لم يكن فى أى وقت بعيدا جداعن مأساة البوسنة والهرسك عبر علاقاته المستمرة مع الصرب تحت رايات « سلافية » زاعقة وكاذبة فى آن. ولعله من المثير أن يلتقى العالم كله فى الساحة اليوغسلافية السابقة حول العاصمة سراييفو وداخلها دون أن يستطيع هذا العالم أن يحقن الدماء المنزوفة على أطلال الفقر للمسلمين والكاثوليك والأرثوذكس دماء الفقراء من كل الطوائف، هى الحصاد الذى تجنيه إيران وروسيا من خلف الستار ويجنيه الأوروبيون والأميركيون فى مقدمة المسرح بالصمت أولا والمسكنات الحضارية (المعونات) ثانيا، وبمنع المغلوبين على أمرهم من الدفاع عن أنفسهم ثالثا . والنتيجة ليست تمزيق يوغسلافيا السابقة وحدها بل الدول الصغيرة: البوسنة والهرسك . هذا التفتيت المتعمد والأكثر بشاعة من تمزيق قبرص قبل عشرين عاما ومحاولة تمزيق لبنان مرورا بتمزيق فلسطين وأكلها وهضمها هو الجراحة الاستراتيجية للغرب الذى يمضى بمصالحه فى طريق معاكس: وحدة ألمانيا ثم توحيد أوروبا بل إن هذا الغرب يقاتل حتى تستقل أيرلندا الشمالية عن المملكة المتحدة (بريطانيا العظمى سابقا) وكما أن واشنطن تقاتل من أجل الديموقراطية فى هايتى وتدعم الدكتاتورية فى روسيا كذلك قاتلت بريطانيا لضم جزيرة تبعد عنها آلاف الأميال تجاور الأرجنتين اسمها فوكلاند، كذلك تقاوم فرنسا - كما سبق أن قاومت فى الجزائر - استقلال «كاليدونيا الجديدة» القريبة من استراليا.

يقاتلون من أجل الوحدة بينهم والضم إليهم، ويقاتلون أيضا من أجل تفتيت الشعوب. والنتيجة الحتمية لذلك هى استمرار الجيش السرى الأيرلندى فى عملياته المسماة إرهابية، واستمرار الفرق المختلفة فى مناطق الباسك خاصة أسبانيا. وهكذا يمتد التفتت العرقى من الشرق الأوسط إلى الاتحاد السوفياتى إلى الاتحاد اليوغسلافى السابق إلى العالم بأكمله ولأن الخطاب الاستهلاكى هو العنوان الصحيح للإرهاب العالمى، فإن أحداث لوس أنجليس شمال الولايات المتحدة تكاد تكون الرقم الدقيق لهذا الخطاب.. فأمريكا الشمالية أغنى مناطق العالم وشمالها أغنى مناطقها، ومع ذلك فإن «الفيلم» الذى صوَّره أحد الهواة لحادث الزنجى والأبيض والمحكمة المنحازة و«الخروج الأسود» الكاسح لفاترينات المحال التجارية يبرهن على أن الحدث التاريخى بكل ما يدل عليه هذا المصطلح يقطع بأن زعيمة العالم الحر «مازالت تنهشها العنصرية، وأن البلد الأكثر ثراء فى العالم مازال قابلا للتحطيم على صخرة الخطاب الاستهلاكى وأن مجتمع الجريمة بامتياز مازال قادرا على الإرهاب حتى ولو كانت أدوات هذا الإرهاب مستوردة من الخارج. ولكن هذا الاحتمال نفسه ضعيف، لأن المخابرات الأمريكية التى مارست الإرهاب فى كافة أرجاء العالم هى الأداة الأولى والأخطر شأنا فى تهيئة الإرهاب الداخلى الذى راح ضحيته عدة رؤساء أميركيين. وهى المخابرات التى لعبت دورا حاسما فى تربية الكوادر الإرهابية فى بلاد أخرى ثم قامت بتصديرها إلى المناطق الآمنة لهزّ استقرار النظم الوطنية. وهى التى قامت باستيرادها لاستخدامها «ورقة» عند اللزوم لتأديب من تشاء تأديبه.

ولعله من المفارقات الساخرة فى دلالتها أن بلدا كفرنسا تأوى آلافا

ممن تدعوهم بالأصوليين الإسلاميين، ثم تمتنع فى الوقت نفسه عن إعطاء تأشيرة لبعض علماء المسلمين. ولم يعد من الأسرار المقدسة أن زعماء الإسلام السياسى تأويهم أكبر عواصم الغرب وتمنحهم حرية الحركة وحيزا مدهشا من الإعلام المرئى والمسموع والمكتوب. وأيًا كانت المصالح المباشرة للغرب من أفق ضيق ونظر قصير، كالحصول على المعلومات والتحسب للمستقبل، فإن ما تدعيه من ظروف إنسانية وحق للجوء السياسى لا يثبت على قدميه لحظة واحدة أمام الممارسات الفعلية حيث تدعم نظما تهدر حقوق الإنسان يوميا، وحيث تحمى رموزا للإرهاب والنظام الشمولى باسم الدين.

ولقد كانت ألمانيا التى ترحب بالمهاجرين ومازال هى المسرح الدموى لوحشية النازيين الجدد فى قتل وحرق الأتراك المسلمين على أرضها. ولا تحاول السياسة الألمانية الحاكمة أن تربط بين حماية مخابراتها لعناصر الإرهاب الأجنبية منذ عشرات السنين، وبين ظهور النازية الجديدة كانعدام اربطها بين الإرهاب والاستهلاك. حتى السويد التى كانت مثلا بين الدول غير العنصرية أمست مسرحاً لجرائم بشعة ضد الأجانب. ذلك أن الخطاب الاستهلاكى الداخلى هو الذى يغذى فى أوروبا النزعات العدوانية على الأجانب ويخلق أوكار الإرهاب، كما أن الخطاب الاستهلاكى العالمى هو الذى يغذى فى الأقطار الفقيرة المتخلفة نزعات الهجرة الجماعية إلى الشمال حيث يضيفون للإرهاب المحلى فى الغرب وقودا متجددا وذرائع للعنصرية العمياء.. فهى دائرة جهنمية مغلقة عنوانها مكتوب بالتفصيل الدموى على الخطاب الاستهلاكى.

ولكن هذه الأبعاد العالمية للخطاب المزدوج - الاستهلاك والإرهاب - لا تنفصل لحظة واحدة عن الأبعاد المحلية التى تشارك بخصوصيتها فى صنع الظاهرة العالمية - ولكن هذه الخصوصية هى التى تستوجب إمعان النظر فيما يجرى فوق أرضنا.

(٧)

لعل النشأة الأولى للخطاب الاستهلاكى هى تلك البيئة قبل الرأسمالية وما قبل النقود، أى حين كان يتم التبادل السلعى بأسلوب المقايضة. فى ذلك الوقت كان الخطاب استهلاكيا بدائيا على طريقة «من اليد إلى الفم». أما مجتمع الإنتاج الذى اكتشف النقود على نطاق واسع، فقد عرف معنى التراكم. وتلازم الإنتاج والاستهلاك منذ ذلك الوقت فى توازن يختل أحيانا حسب أحوال «السوق».

لم يعرف الخطاب الاستهلاكى القديم فكرة الإرهاب الحديثة، لأنها - هذه الفكرة - اقتصرت على جانب واحد هو جانب كبار الإقطاعيين من الفرسان والنبلاء والرهبان من كاردينالات الكنيسة فى العصور الوسطى الأوروبية، أو من الملتزمين وعساكر الوالى فى العصور العثمانية.

أما الإرهاب الحديث فقد نشأ برفقة التحولات الراديكالية فى العصور الحديثة لفكرة الدولة، سواء بواسطة الثورة الفرنسية أو بواسطة الثورة الروسية أو بواسطة ولاية محمد على باشا على السلطة فى مصر، فيما يعرف بثورة ١٨٠٥.

كان هذا أول بدايات إرهاب الدولة الذى خفّ من غلوائه ليبرالية الغرب الاقتصادية والسياسية وشدّ من قبضته شمولية الستالينية فى الشرق وضاعفت من وحشيته نظام الحكم العثمانى فى ولايات الإمبراطورية ومن بينها مصر. وكان هو النظام العالمى الوحيد الذى يرتدى عباءة الدين. وبينما كانت المجتمعات الرأسمالية البازغة فى الغرب تستطيع أن تنظم العلاقة بين الإنتاج

والاستهلاك عبر السوق فتغدو المبادرة الفردية حافزا للعرض والطلب، فإن المجتمعات الاشتراكية البازغة كانت تستطيع سدّ خانات الكفاف بتوزيع الإنتاج الضعيف والخدمات القوية. ولذلك كان قمع الاستهلاك مضمرا فى خطاب الحرية البرجوازية، ومضمرا كذلك فى الخطاب الأيديولوجى للبروليتاريا.

أما فى بلد كمصر، فقد كان الخطاب الاستهلاكى عاريا من ورقة التوت. كان الأوروبيون فى «عصر حديث»، سواء بالإنتاج أو بالتراكم، بالدولة القومية أو بالدولة الاشتراكية. أما فى بلادنا فقد كنا نعيش عصرا ممتدا من العصور الوسطى بأغلب ملامحها: امبراطورية تتفكك تعتمد مواردها على استنزاف الولايات التابعة الفقيرة المقهورة المتخلفة. وقد أتيح لمصر أحد الولاة التاريخيين الذى أراد الاستقلال بها عن الإمبراطورية المتداعية الأركان، فقامت نهضتها خلال المقاومة على جبهتين: من أجل الشرعية ومن أجل التحديث. الاستقلال فى إطار الشرعية الدينية، وليست الخلافة بالضرورة مرادفا أو تجسيدا لها. وقطع المسافة بين التخلف والتقدم، وأوروبا بالضرورة أحد مصادره سواء فى نظم الإدارة والتجارة والصناعة والحرب والتعليم أو فى الأفكار التى تدور حول إعمال العقل.

ولم تعرف بلادنا النهضة فى خط مستقيم أو فى خط حلزونى، فقد كان ما يبنيه محمد على يهدمه عباس والأوروبيون (اتفاقية ١٨٤١) وما يبنيه اسماعيل يهدمه توفيق والأوروبيون (الاحتلال البريطانى ١٨٨٢) وما يبنيه مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول (ثورة ١٩١٩ ـ دستور ١٩٢٣) يهدمه الملك فؤاد والإنجليز. وما يبنيه مصطفى النحاس يهدمه الملك فاروق والإنجليز. وما يبنيه جمال عبدالناصر يهدمه أنور السادات والاسرائيليون والأمريكان. وهكذا كانت مراحل النهضة قصيرة غاية القصر، ومراحل السقوط أطول. وفى يونيو (حزيران) ١٩٦٧ كان الرصيد دائنا، ليس على حساب نظام بعينه، وإنما لحساب التراكم الشامل لأزمنة السقوط، فقد فازت على النهضة فى خاتمة المطاف.

ولم تكن الهزيمة حاصل جمع أزمنة السقوط وحدها، وإنما كانت أولا بسبب جرثومة السقوط فى النهضة ذاتها.

كانت النهضة فى أكثر عهودها ازدهارا حاصل جمع السلفية والتغريب.. ولكنها السلفية التى تعنى البحث عن المبادىء الشرعية التى تسوغ استهلاك تكنولوجيا الغرب لإقامة بنية إنتاجية. والتغريب الذى يعنى تبنى القيم العامة التى لا يكون الإنتاج من دونها، أى قيم التفكير العلمى فى تطوير مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى. فليست السلفية فى معادلة النهضة مرادفا لما ندعوه الآن بالإسلام السياسى، ولم يكن التغريب مرادفا لاحتذاء أوروبا، وقد كان أمرا مستحيلا. وقد كانت النهضة توأم الثورة من أجل الاستقلال الوطنى فى لحظات صعودها وكان السقوط حين يحدث تعبيرا عن الهزيمة فى مقاومة الأجنبى.

وكانت جرثومة السقوط الكامنة فى قلب النهضة هى عملية «التوفيق» بين السلفية والتغريب فلم يكن ثمة تركيب لعناصر النهضة المطلوبة من أصول الاحتياجات الحقيقية للتقدم فى اتجاه التقدم بالوطن ومجموع الشعب: وكان المشهد الكامن تحت السطح هو الانقطاع التاريخى بين ذروة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وصدمة اللقاء بالغرب. وهو الانقطاع الذى ملأته الخلافة العثمانية بسطوتها وشرعيتها الدينية وتخلفها الذى آلت إليه. وهو التخلف الذى لم يحل دون فتوحاتها العسكرية الواسعة، ولكنه حال بشكل أكيد دونها والكشوف العلمية والتقنيات التكنولوجية والفتوحات

الفكرية والاجتماعية لانعدام الصلة بينها وبين ما كانت قد وصلت إليه حضارة الإسلام من إنجازات باهرة فى العلوم والرياضيات والفلسفة. ولكن النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للخلافة العثمانية لم يرث هذه الإنجازات العملاقة فى تاريخ الحضارة الإنسانية، بل عمل على تبديد التركة العظيمة. واعتمد بدلا من ذلك على التحالف بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية. بينما كانت أوروبا أول من «ورث» منجزات الحضارة الإسلامية وتقدم بها حتى سقوط الأندلس وبدءا من عصر نهضتها إلى العصر الحديث. وبرهن التاريخ مرة أخرى على أن تعويض سقوط الأندلس بالفتوحات العسكرية لا يعنى شيئا طالما غابت الفتوحات الحضارية الأكثر أهمية فى تقدم الشعوب. هذه الفتوحات التى تفضى حتما إلى الفتوحات العسكرية. وهو ما حدث.

هذا الانقطاع التاريخى عن جذوة توهج الحضارة الإسلامية كان من شأنه أن يجعل من ابن خلدون وابن رشد ميراثا عقليا لأوروبا، بدلا من أن يسهما فى تطوير العقل العربى الإسلامى. أضربهما كمثلين بارزين فى مجال العلوم الإنسانية (التاريخ الاجتماعى والفلسفة). ومن ثم فقد كان الفكر الإسلامى الذى يتعين التوفيق بينه وبين قيم الحضارة الجديدة الوافدة فى مركز ضعف شديد لا بسبب المقومات الأساسية لهذا الفكر. وإنما بسبب المكونات الدخيلة عليه من عصور الانحطاط والآليات التى تمحورت فى تركيبه العام من أزمنة التخلف. كان هذا الفكر المرتبط بتخلف المسلمين بعيدا عن عصور ازدهارهم قد استحال قيما وسلوكا وأنماطا للتفكير وضوابط للشعور والعادات والتقاليد بين الناس. ولم تكن المدونات وحدها مصدر هذا الفكر بما تشتمل عليه من فتاوى الفقهاء لتبرير كل ما يأتى به السلطان من أفعال. وإنما كانت هناك أيضا أكوام من الخرافات وأكداس من الشعوذات التى لا علاقة لها بالقرآن والسنة. هذا هو الفكر الذى أوصلته وحافظت عليه السلطنة العثمانية، فى أدمغة مواطنيها وخيالاتهم وقيمهم المعيارية. لذلك كانت الشرعية ضرورية لإسباغها على تحديث محمد على وغيره، شرعية الأخذ بمنجزات التقنية الغربية. أى شرعية «تسخير» ما ينتجه الغرب لاستهلاكنا. كانت إذن شرعية الاستهلاك.

كانت هذه هى بداية الخطاب الاستهلاكى فى عصرنا العربى الحديث. وهى بداية مغايرة تماما لما جرى فى أوروبا لمحتوى هذا الخطاب. كان لابد من إقناع الناس بأن منجزات الآخرين (الكفرة) مسخرة لخدمتنا، ولا يتناقض استهلاكها مع صحيح الدين. وأنها ليست من أعمال العفاريت أو الشياطين، بل من صنع بشر مثلنا، وعلومهم التى نتعلم بعضها نأخذ منها ما «ينفعنا» ونرفض ما يتنافى وعقيدتنا وتقاليدنا. وكان لابد من أن يقوم بهذه المهمة الصعبة الأزهريون الكبار من الشيخ حسن العطار إلى الشيخ رفاعة الطهطاوى إلى الشيخ محمد عبده. ولم تخرج اجتهاداتهم جميعا على التسويغ الشرعى لاستهلاك التكنولوجيا الغربية وتأصيل ذلك فى النصوص الدينية المعتمدة ولما كان الطهطاوى قد مضى شوطا أبعد مما دعوناه بالإصلاح الدينى فى وصف محمد عبده فقد استطاع أن يصل بالترجمة والمطبعة والتأليف إلى بداية البدايات فى تأسيس المجتمع المدنى وبالرغم من الفجوات الدورية بين انتصارات النهضة وانكساراتها المطولة، فقد تمكنت بذور الطهطاوى من أن تجد من يتعهد بالرى كعلى مبارك وبعضها الآخر بالنمو كسعد زغلول تلميذ محمد عبده وكطه حسين تلميذ أحمد لطفى السيد وكعلى عبدالرازق تلميذ الأزهر وشيخه الأكبر فيما بعد. تلك كانت إحدى ذروات النهضة ردا

على إجهاض الغرب لمبادرات إسماعيل (مجلس الشورى ومسودة الدستور) عام ١٨٦٦ وردا على إجهاض توفيق والانجليز للثورة العرابية. ولكن ما إن اقترب طه حسين من «العقل» وما إن اقترب على عبد الرازق من الحكم، بعد سقوط الخلافة العثمانية فى مهدها، حتى كانت النهاية المزدوجة: ضرب العقلانية بمحاكمة طه حسين وعلى عبدالرازق ومصادرة كتابيهما (فى الشعر الجاهلى، والإسلام وأصول الحكم). وولادة التنظيم السياسى الأول لدعاة الدولة الدينية (جماعة الإخوان المسلمين). تم ذلك خلال ثلاث سنوات (١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٨). وكانت دلالته البعيدة المدى هى أن جرثومة فساد النهضة من داخلها قد كبرت وأعلنت عن نفسها فى انفراط معادلة النهضة من أساسها التوفيقى.. فالسلفية أضحت راديكالية لا ترضى باقتصار الفتوى على تسويغ الحادثة الغربية، وإنما لا بديل للشرع عن اكتماله في نظام الحكم. كذلك فإن الضرورات العملية لاستهلاك التكنولوجيا لا تقتضى الأخذ بأفكار الآخرين أيًا كان الآخرون وأينما كانوا مهما كانت هذه الأفكار الدنيوية والقيم الوضعية.

منذ تلك اللحظة فى أواسط العشرينيات اقترن على الفور الخطاب الدينى بالخطاب الاستهلاكى اقتران وجهىّ العملة الواحدة. وشاع تحريم الحرية الفكرية. ذلك أن «التوفيق» بين ما سمى تراثا وما سمى الحداثة الغربية، كان من الهشاشة والبراجماتية بحيث لم يصمد عند أول احتكاك بين العقل والجمهور الواسع.. فليس ازدهار الإخوان المسلمين حينذاك قادما من فراغ، ولم تكن محاكمة طه حسين وعلى عبدالرازق ضد «الرأي العام» أو «الجماهير». وإنما كانت جرثومة الفساد كامنة فى عملية «التوفيق» ذاتها. وبانتصار السلفية الراديكالية فى الإعلان عن نفسها ثم بالالتفاف الجماهيرى من حولها، لم يعد الأمر مجرد محاكمات برلمانية أو صحفية أو أزهرية لطه حسين وعلى عبد الرازق، أو مجرد ردود فقهية عليهما أو مصادرتهما. وإنما أضحى الأمر ردا ثقافيا سياسيا شعبيا يتجاوز الأفراد إلى المجتمع، ويتجاوز المؤلفات إلى إعداد البديل للدولة شبه المدنية.

وقد أراد رواد النهضة المحدثون فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن أن ينازلوا رواد السلفية الراديكالية على أرضهم، فكتب طه حسين إسلامياته وكتب العقاد عبقرياته وكتب هيكل والحكيم وأحمد أمين. ولكن هذه المقاومة الجسورة لم تؤثر فى غير النخبة أما الشارع الشعبى فقد ظل نهبا للخطاب الاستهلاكى - الدينى الذى يعنى نظريا بالآخرة، ويلتمس العزاء فى الدنيا بالقيم اللاعقلانية والحكم المطلق، وخيرات الغرب المسخرة لاستهلاكنا دون إنتاج.

ولما حاول جمال عبدالناصر أن يعيد الاعتبار للدولة المدنية، وحاول أيضا أن يؤسس ثنائية جديدة للنهضة تقول بالقومية العربية والعالم بدلا من التراث والعصر، فإنه أنشأ المدخل ولم يتم البناء. ولم يتجاوز نظامه، بالرغم من إنجازات الهيكل الإنتاجى الجديد، الحدود الوسطية لمعادلة النهضة القديمة. ومن ثم كانت الفجوة بين التنمية الثقافية والتنمية الاقتصادية بحيث تمكنت السلفية الراديكالية من البقاء بالرغم من الضربات الأمنية الموجعة. كان الخطاب الاستهلاكى مضمرا فى الخطاب الدينى الشائع، وكان الخطاب الدينى قادرا بذيوعه الشعبى الواسع عبر الإعلام والتعليم والأمية ومحاربة اليسار على الالتفاف من أسفل حول جذور الدولة المدنية. وعند أول رياح عاتية بالهزيمة ورحيل الناصرية كان من الطبيعى أن يكشف الخطاب الدينى عن وجهه الاستهلاكى.

ليس ذلك فقط، وإنما كان هذا الخطاب قد ارتبط منذ بدايته

بالإرهاب الدموى منذ الأربعينيات إلى اليوم.

(٨)

ارتبط الخطاب الاستهلاكى بالإرهاب فى مصر من خلال مفهوم «الجهاد» الذى نادت به جماعة الإخوان المسلمين وبعض الأحزاب الوطنية فى فترات متقاربة. ولكن عام ١٩٢٨ فى جميع الأحوال سيظل نقطة بارزة بظهور الإخوان المسلمين. وبالرغم من أن الحزب الوطنى و«مصر الفتاة» لم تكن أحزابا دينية إلا أن الطابع العثمانلى للحزب الأول، والطابع العسكرى للحزب الثانى، لم يبتعد بهما كثيرا عن مفهوم الجهاد. واقترنت منذ ذلك الوقت بين الثلاثينيات والأربعينيات التنظيمات التي داعبت الفاشية والنازية بعمليات الاغتيال السياسى.

كانت أنوار ثورة ١٩١٩ قد أشاعت مناخا من الحرية الفكرية والسياسية، وما أن تم إجهاضها بالخروج عن الدستور وتقييد الحريات حتى ازدهرت الدعوات الأوتو - ثيوقراطية التى تمنح العرش صلاحيات مطلقة. ثم أقبلت الأزمة الاقتصادية العالمية التى انعكست على مصر من خلال تبعيتها الاقتصادية انعكاسات حادة، كان من شأنها إنعاش مفهوم الجهاد عبر الخطاب الاستهلاكى - الإرهابى. ولم تكن مصادفة أن يجرؤ إسماعيل صدقى على الانقلاب الدستورى بإلغاء الملك فؤاد لدستور ١٩٢٣ واستبدال دستور ١٩٣٠ به حتى كانت «المسألة المصرية» فى عنق الزجاجة.

ولم يكن ثمة التباس فيما يمكن تسميته بالإرهاب الوطنى إلا قليلا، حيث كانت النازية الألمانية والفاشية الإيطالية فى صعودها البطئ نحو السلطة والحرب. وكانت المشاعر الوطنية ضد الاحتلال البريطانى قد اختلطت بسطوع نجم هتلر ونجم موسولينى حتى منتصف الأربعينيات. ومن ثم كان «العنف» الذى اهتدى إليه الإخوان المسلمون فى التدريب العسكرى للشباب تحت راية الكشافة، و«العنف» الذى اهتدت إليه «مصر الفتاة» فى تجنيدها لفرق «القمصان الخضر».

وليس من المصادفات أيضا أن تلك الفترة هى التى شهدت فى لبنان مولد «حزب الكتائب» الذى درب شبابه فى ذلك الوقت المبكر تحت راية «الكشافة». ولكنها فى واقع الأمر كانت كتائب عسكرية هى النواة التاريخية للمليشيات الطائفية المسلحة فى حرب لبنان.

وإذا كانت جماعة الإخوان المسلمين قد تلقّت عند نشأتها الأولى تبرعا من الشركة العالمية لقناة السويس مقداره خمسمائة جنيه، وبالرغم من العلاقات الودية المتقطعة مع الانجليز، فإن الكتائب المسلحة للإخوان وجدت فرصتها فى حرب فلسطين لتنفيذ مفهوم الجهاد، باعتبار فلسطين جزءا محتلا من دار الإسلام. وكانت إحدى الفرق الوطنية الأخرى قد وجدت فرصتها فى اغتيال السير لى ستاك والوزير أمين عثمان.

وبالرغم من العلاقات الودية شبه المستمرة بين الإخوان المسلمين والعرش وأحزاب الأقليات السياسية، فإن الاغتيال السياسى من جانب الإخوان لم يصب فى واقع الأمر سوى الرموز الكبرى لهذه الأحزاب كاغتيال أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى الذى أدى مقتله إلى رد الفعل المضاد باغتيال حسن البنا.

وإذا كان الإخوان قد اشتركوا مع الفرق الوطنية المتطرفة فى استخدام العنف وكراهية حزب الأغلبية الشعبية (الوفد)، فإن الذين حاولوا اغتيال النحاس باشا كانوا من الفرق المتطرفة وليسوا من الإخوان. وما إن ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦ حتى انضم الإخوان وغيرهم إلى الحرب الفدائية على ضفاف القنال عام ١٩٥١.

وباستثناءات نادرة كانفجار قنبلة فى سينما مترو أو الاعتداء على بعض الكنائس يمكن القول إن أزمة الثلاثينيات التى امتدت إلى الأربعينيات لم تكن فحسب أزمة اقتصادية - اجتماعية طاحنة بل كانت أزمة النظام السياسى ككل، فلم يعد هذا النظام قادرا على التعبير عن مجمل التطورات التى أعادت تشكيل القوام الاجتماعى المصرى. كان النظام الذى تدعمه قوى الاحتلال والعرش وكبار الملاك قد أصبح آيلا للسقوط. ولم تكن القوى الوطنية قادرة بعد إجهاض اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ وسقوط فلسطين فى العام التالى، ان تشكل البديل. ومن هنا كانت «الأزمة» العاتية التى عبرت عن نفسها فى الاستقطاب بين اليمين واليسار من ناحية، وبروز الخطاب المزدوج للاستهلاك والإرهاب من ناحية أخرى.

وإذا كان هذا الخطاب فى حركته قد استخدم آليات مفهوم الجهاد عبر الخطاب الدينى فقد ظل العنف فى هذا الإطار محصورا بين الأشتراك فى حرب تحرير دار الإسلام، من جهة والاغتيال السياسى الفردى من جهه أخرى. ولم يتجاوز هاتين المنطقتين إلا فى أضيق الحدود.

كانت الحرب الفدائية على ضفاف القنال ذروة الازدواجية بين الجهاز الوطنى الفاعل فى صفوف الشعب (حكومة الوفد) وبين السلطة المتداعية للاحتلال وللعرش وكبار الملاك. ولم يكن الجهاز الوطنى نفسه خاليا من هذه الازدواجية ذاتها بين الطليعة الوفدية المتجهة يسارا وكبار الملاك المتوجهين يمينا. وكان لابد من أن تصل هذه الذروة بمعزل عن الحركة الوطنية، إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه: الانفجار. وليس الثورة.

وفى ٢٦ يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٢ عرفت مصر أكبر حادث إرهابى فى تاريخها الحديث: حريق القاهرة.

وقد اختلف المؤرخون واتفقوا وسوف يختلفون ويتفقون فى المستقبل حول هذا الحادث - الحدث ولكن أحدا لن يمارى فى أن النيران المشتعلة فى منطقة القناة كان لابد أن تطفئها نيران القاهرة. وسواء أكان الجالس على العرش والإنجليز أو بعض الفرق الوطنية المتطرفة قد اشتركوا جميعا دون تنسيق فى إحراق القاهرة، فقد اشتعلت النيران عمليا فى ثيابهم وأجسادهم وأرواحهم للمرة الأخيرة. ولم يكن الرماد الذى تخلف عن الحريق سوى رماد النظام بأكمله.

أى أنه إذا كان العرش والانجليز قد اتفقوا بليل على إحراق الفدائيين بنيران القاهرة، فقد جاء الحريق على العرش والاحتلال بعد أشهر قليلة. وإذا كانت بعض الفرق الوطنية قد شاركت دون قصد أو تنسيق، فقد أحرقت النيران أصابعها، باعتبارها - حتى لو كانت فى صفوف المعارضة السرية أو العلنية - كانت جزءا من النظام الآيل للسقوط.

ولكن عينا أخرى يجب أن تسجل هذا الحريق التاريخى من أسفل.. فهو لم يكن مجرد احتراق لسلطة محاصرة أو معزولة، وإنما كانت الفاترينات اللامعة والمحلات «الراقية» والسينمات الملعلعة والبنايات الفاخرة والشوارع المغسولة هى محط أنظار الذين سلبوا ونهبوا وسرقوا واختفوا فى الطوفان.

إنه الارهاب وليس الثورة، بل هو إسقاط لنظام وإجهاض لثورة. ولكن هذا الإرهاب الجماعى (أو الفوضوى) كان عنوانا دقيقا لقمع الخطاب الاستهلاكى المنظم. وهو الخطاب الذى أعلن بأفصح بيان إفلاس النظام والمعارضة الوطنية معا. وهو الخطاب الذى حمل أسفله توقيعات الجميع بدءا من السراى والاحتلال والحكومة وانتهاء بقطاعات لايستهان بها من الشعب نفسه. لأهداف متناقضة امتدت الأيدى

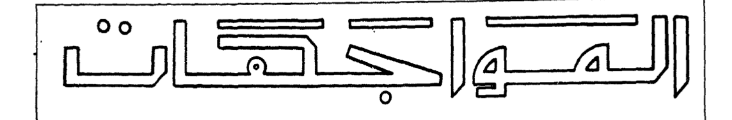
بالبنزين وأعواد الثقاب، وامتدت الأيدى الأخرى بالسلب والنهب فى مشهد أسطورى كأنه يوم القيامة.

ولكنه كان يوم السقوط المدوى. أغلقت الأبواب فى وجه حرب التحرير، ولم تعد الاغتيالات الفردية ذات معنى، فكان الإرهاب الجماعى نفيا للأهداف المعلنة: إرهابا للذات والآخر، إرهابا «للأشياء» ودلالاتها، إرهابا من اللاوعى الجمعى للوعى الزائف، وإرهابا من الوسائل لغايات مختلطة وشبه معدومة.

وفى ظلال الفجوة بين السقوط الفعلى للسلطة والثورة معا، وفى ظلال الفراغ الأسود حيث لافراغ فى السياسة - كانت هناك مجموعة من الضباط أقبلت أساسا من إخفاق حرب فلسطين لتحرير دار الإسلام، ومن إخفاق الاغتيالات الفردية ومن أفكار الإخوان المسلمين ومن المشاعر الوطنية المختلطة بالنازية والفاشية، وفى الأغلب من عائلات متوسطة وأدنى من المتوسطة.. وأساسا من الجيش والانضباط العسكرى والتنظيم السرى. ومن أزمة شاملة فى الدولة والمجتمع.

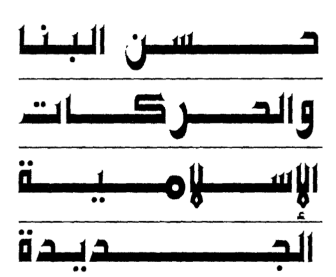
وكان يسيرا على هذه المجموعة من العسكريين الشباب أن تلتقط السلطة الملقاة فى عرض الطريق. وكان صعبا غاية الصعوبة أن تواجه خطاب الاستهلاك الملتبس فى المخيلة الشعبية بالإرهاب، وأن تواجه الإرهاب الملتبس فى المخيلة الوطنية بمفهوم الجهاد.■





حسن البنا
والحركات الإسلامية الجديدة


حسـن البنا



قى هذا المحور «مادة» غير تقليدية، فهى تكاد تكون المرة الأولى «على ما نعلم» تخصص فيها مجلة عربية جزءاً خاصاً لدراسة مكتبة أحد أعلامنا، وإن كنا نختلف معه، إلا أننا فى سبيل العلم نفتح صفحاتنا لدراسته فهو، على ما نعتقد، الواجب الأول لنا.

يحتوى المحور على جزءين أساسيين.

الأول :دراسة لمحتويات مكتبة حسن البنا.

الثانى : قراءة تحليلية للإهداءات التى عثر عليها الباحث «إبراهيم البيومى غانم» مكتوبة على كتب لمؤلفين أهدوا كتبهم إليه الأمر الذى ربما أفاد فى تبيان العلاقة الشخصية بين هؤلاء المؤلفين وحسن البنا، ثم مذكرة كان حسن البنا قد أرسلها إلى طه حسين تعليقاً على مشروعه التربوى الذى سجله فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر».

وحتى تكتمل جوانب الصورة كان لابد من إسناد هذه الأوراق إلى باحثين هما رفعت السعيد، وعاطف أحمد، لاستطلاع آرائهما وهما على معرفة واسعة بالموضوع وننشر هنا تعليقيهما. رغبة فى إثارة حوار خلاق حول القضية التى نحن بصددها

الجزء الثانى من هذا المحور جاء على هيئة «ندوة» أقامتها المجلة فى مقرها وحضرها أربعة من الباحثين، اثنان منهم، وهما «على جمعة» «إبراهيم البيومى غانم» يمثلان التيار الإسلامى ، واثنان يمثلان التيار العلمانى، هما سيد القمنى وجهاد عودة الذى ساهم أيضا بتقديم الورقة الأساسية للندوة.

ونظن أننا بذلك قد قدمنا مادة غنية، نعتقد أنها ستثير كثيرا من النقاشات الجادة .

التحرير



حسن البنا
والحركات
الإسلامية
الجديدة

المصادر الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم* علم الإنسان ما لم يعلم)

صدق الله العظيم

قيل إن الكتب آلة من آلات تحصيل العلم «فينبغى لطالب العلم أن يعتنى بتحصيل الكتب التى يحتاج إليها ما أمكنه شراء أو إجارة أو عارية»[1] وليس كل من جمع الكتب صار عالماً بالضرورة، ما لم يكن مهيئاً بأمور كثيرة منها أن يكون حافظاً وواعياً، ناقداً ومفكراً.

وللكتب التى يعتنى طالب العلم بتحصيلها «شراء أو إجارة أو عاريّة»، دلالة مزدوجة فهى من ناحية موضوعاتها تشير إلى مجالات اهتمامه، وهى من ناحية عددها وكميتها تشير إلى مدى استعداده وحبه للعلم، وفوق هذا وذلك فإن الكِتاب يمنح قارئه فضله أو بعضاً منه، فإذا ماصار هذا القارئ عالماً، يعمل ويجوِّد بما علم حيث تنداح الحياة، اكتسب الكتاب من صاحبه قيمة مضافة إلى قيمته، لكونه كان من أدواته وآلة من آلاته، ولايظهر ذلك غالباً إلا بعد أن يطوى الموت صاحبه. هذا عن الكتاب فى مكتبة العالم، أما مكتبته ككل بما تحويه من أصناف الكتب فهى بالنظر فيها وفحصها ترسم خريطة بتضاريس تكوينه الفكرى ومساراته التى سلكها. كما تؤدى المعرفة بها إلى تتبع أصول أفكاره ومصادرها، التى لاغنى عنها عند دراسة تلك الأفكار وتمحيصها ونقدها ونقد المصادر التى أخذ منها أيضاً طبقاً لما تقضى به القواعد النظرية للنقد التى أرساها العلماء المسلمون[2].

وينصب الوصف والتحليل التالى، على المكتبة الخاصة بالشيخ حسن البنا، موضوع اهتمامنا حيث مكثت أربعة أيام بلياليهن بين كتب مكتبة الشيخ حسن البنا الخاصة بذلت فيها وسعى فى سبيل معرفة محتوياتها منقباً فيها ومسجلاً لعناوين الكتب وأسماء مؤلفيها. ماأمكن ذلك، وناقلاً لما عثرت عليه من ملاحظات وتعليقات وآثار كتبها الشيخ حسن البنا بخط يده فى هوامش الكتب أو على أغلفتها الخارجية أو الداخلية، وذلك بعد أن تم التأكد من رسم خط يد الشيخ حسن رحمه الله، عن طريق نجله الأستاذ سيف الإسلام حسن البنا، ومضاهاة ذلك ببعض توقيعاته الخطية الواضحة التى كان يمهر بها بعض مقالاته ورسائله المنشورة بصحف ومجلات الإخوان المسلمين القديمة.

وقبل المضى فى وصف وتحليل محتويات المكتبة وإبداء الملاحظات حولها، لابد من الإشارة إلى أن الموجود بها من كتب، يمثل فقط جزءاً من محتويات المكتبة الأصلية للشيخ حسن البنا، قدره الأستاذ سيف الإسلام حسن البنا بحوالى

عرض وتحليل محتويات مكتبة حسن البنا الخاصة، بوصفها مصادر فكرية مقروءة، تثير عدة تساؤلات حول التكوين العقلي له.

إبراهيم البيومى غانم

للإمام حسن البنا

النصف. أما النصف المفقود فقد صادرته السلطات من مقر مجلة الشهاب بعد قرار حل جماعة الإخوان المسلمين فى ديسمبر ١٩٤٨. وكان الشيخ حسن البنا قد نقل جزءاً كبيراً من مكتبته الشخصية إلى مقر «الشهاب» ليستعين به فى تحرير موادها وكانت مجلة متخصصة على نمط مجلة المنار للشيخ رشيد رضا التى كان البنا قد تابع إصدارها بعد وفاة الشيخ رشيد ولكن سرعان ما أوقفتها السلطات أيضاً .. وهذه الملابسات تؤكد ما ذكره الأستاذ سيف الإسلام نجل الشيخ حسن البنا من أن الكتب التى صودرت من مقر الشهاب كانت فى معظمها من الأمهات والمراجع الكبيرة المتخصصة فى فروع العلم المختلفة.

وإضافة إلى ما سبق، فإن الأستاذ سيف الإسلام أخبرنى بأنه يحتفظ بعدد من «النوت» أو المذكرات الصغيرة الحجم ، كان الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ يوجز فى وريقاتها أهم الموضوعات التى قرأها فى كثير من الكتب والمقالات ليسهل عليه ـ فيما يبدو ـ الرجوع إليها وقت الحاجة بيد أنه لم تتح لى فرصة الإطلاع على تلك «النوت» .

المكتبة :

وصف وتحليل وملاحظات

وسوف يتضمن الوصف التحليلى التالى للمكتبة، ماعن لى من ملاحظات حولها وبخصوص مه فيها من كتب ودوريات.

أولاً: حالة وحجم المكتبة: العدد التقريبى لما بقى بها من كتب ودوريات:

تمكنت من تقدير أعداد الكتب والدوريات الموجودة بالمكتبة وذلك بعد حصر معظمها فكان العدد حوالى ثلاثة آلاف مطبوعة (قليل جداً منها مخطوط) ما بين كتب كبيرة ورسائل متوسطة وصغيرة ومجلات دورية (شهرية وأسبوعية) وكان من العسير القيام بعمل حصر دقيق مائة فى المائة لعدة أسباب تتعلق بحالة المكتبة أثناء فحصها فمعظم الكتب موضوعة بطريقة غير منسقة، وموزعة فى أماكن متفرقة فى حجرتين كبيرتين وصالة، زاحمتها أشياء أخرى، بعضها فوق أرفف والآخر فى صناديق ومعظمها فى حالة جيدة مجلدة تجليداً قوياً غير أن عدداً كبيراً منها - خاصة الكتب ذات الطبعات القديمة التى يرجع تاريخ بعضها إلى العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجرى، الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى - فى حاجة إلى بعض الترميمات.

ثانياً : وسائل اقتنائه للكتب وحصوله عليها: (الشراء والإهداء)

وقد اتضح من فحص الكتب الموجودة بالمكتبة والتأمل فى العبارات والكلمات المسجلة بخط اليد على معظمها، أن حسن البنا اقتنى

وحصل على الكتب من طريقين الأول الشراء، وقد ذكر ذلك بنفسه فى مذكرات الدعوة والداعية فى قوله ص ٣٤: «وقد كونت لى - بناء على هذا التوجيه (من والده) وما تولد منه من شغف بالمطالعة وإقبال عليها - مكتبة خاصة فيها مجلات قديمة وكتب متنوعة. وكنت وأنا فى المحمودية فى المدرسة الإعدادية أترقب الشيخ حسن الكتبى يوم السوق بفارغ الصبر لأستأجر كتباً بالأسبوع لقاء مليمات زهيدة ثم أردها إليه لآخذ غيرها وهكذا، وكان يقوم بشراء ما يعجبه منها، وعندما ذهب إلى القاهرة ملتحقاً بدار العلوم كان أول نزوله عند تاجر كتب ميسور الحال من أهل القاهرة (مذكرات الدعوة والداعية ص ٤٠) وفى لقاء أجريته مع الأستاذ أحمد جمال الدين البنا شقيق الشيخ حسن البنا، ذكر أن أخاه المرحوم حسن البنا كان يأتيه أحد بائعى الكتب المعروفين بحى الأزهر باستمرار ليعرض عليه ما لديه من كتب وردت إليه حديثاً فيشترى منها ما يشاء.

أما الطريق الثانى لحصوله على الكتب فهو الإهداء وقد ذكر أيضاً فى مذكراته أن أول من أهداه الكتب هو والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، من باب تشجيعه على القراءة وترغيبه فى العلم (ص ٢٤ من مذكرات الدعوة والداعية) حيث يذكر عناوين عدة كتب أهداها إليه والده، عثرنا عليها فى مكتبة الشيخ حسن البنا ومنها «الأنوار المحمدية للنبهانى، ومختصر المواهب اللدنية للقسطلانى ونور اليقين فى سيرة المرسلين للشيخ الخضرى» وأثناء فحص الكتب لاحظت وجود عدد منها مُهدىً إلى الشيخ حسن البنا (خمسة وستون كتاباً) إما من مؤلفيها وذلك فى أغلب الحالات، أو من أشخاص آخرين، ومعظمها مؤرخة الإهداء خلال الأربعينيات، ويلاحظ أن عامى ١٣٦٦ - ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧ - ١٩٤٨م كثرت فيهما الكتب المهداة إلى الشيخ حسن البنا بصورة ملحوظة عنها فى الأعوام السابقة.

ومن بين الإهداءات ذات الدلالة التى تستحق التسجيل هنا مايلى:

١- أقدم إهداء: وأقدم ما عثرت عليه من الكتب التى أهديت إلى الشيخ حسن البنا هو كتاب: الحق فى الحق والخلق تأليف محمد الحافظ ابن عبد الله الجزائرى التيجانى طريقة ونص إهدائه إلى الشيخ البنا هو:

(إنى إذ أدفع هذا الكتاب إلى أخى وحبيبى سيدى حسن أفندى البنا، فأنا أقدم إليه ما كتب له خاصة، معبراً عن عظيم امتنانى بنفسه الطاهرة، وولهى بحاله الروحى وتقديرى لمستقبله الباهر الزاهر فى الدعوة إلى قدس الحقيقة المطلقة).

المؤلف محمد الحافظ التيجانى / بور سعيد فى ١٦ ديسمبر ١٩٢٧.

وإذا عرفنا أن الشيخ حسن البنا كان قد انتقل بعد تعيينه مدرساً، إلى الإسماعلية وتسلم عمله بها «يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧» حسب ما جاء فى خطاب استقالته [٣] من العمل كمدرس بوزارة المعارف، يتضح أنه لم يمض على وجوده بالإسماعلية سوى ثلاثة أشهر حتى جاءه الإهداء المذكور الذى كتبه واحد من أتباع الطريقة التيجانية الصوفية، وكلمات الإهداء لها دلالة من وجهين الأول يتعلق بصاحب الإهداء إذ يبدو أنه كان يتمتع بشفافية وبصيرة نافذة. والثانى يتعلق بشخص المهدى إليه وهو الشيخ حسن البنا الذى كان خلال ثلاثة أشهر قد ذاع صيته وامتد نشاطه فى مدن القناة.

٢- إهداء من مؤسس الجمعية الشرعية الشيخ محمود خطاب السبكى، فقد أهداه كتابه المسمى «المقامات العلية فى النشأة الفخيمة النبوية» ونص الإهداء هو:

«إلى حضرة الأستاذ الجليل المرشد العام للإخوان المسلمين» (غير مؤرخ)

٣ـ إهداء من الشيخ على عبد الرازق، مؤلف كتاب الإسلام وأصول

الحكم حيث أهداه كتابه «الإجماع فى الشريعة الإسلامية) ونص الإهداء هو:

«لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المرشد الشيخ حسن البنا. تحية تقدير ومودة» على عبد الرازق / ١٧ مايو سنة ١٩٤٧.

٤- إهداء من الشيخ على الغاياتى، الشاعر الوطنى المعروف، أهداه ديوانه الشعرى «وطنيتى» ونص الإهداء هو: «هدية وديَّة من المؤلف إلى حضرة الأستاذ المرشد العام الحاج حسن البنا» على الغاياتى - ١٩٤٧/٢/٩.

٥- إهداء من مسيحى، هو جفرى بطرس غالى، أهداه كتابه «فلسطين: تقرير مقدم إلى الاتحاد البرلمانى الدولى عن هجرة الجماعات» ونص الإهداء هو:

«إلى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا مع أصدق تحياتى» جفرى بطرس غالى - ١٩٤٦/١٢/٢٩.

٦- إهداء من لبنان حيث أهدى إليه كتاب «من صميم لبنان» من مؤلفه أسد الأشقر ونص الإهداء:

«إلى حضرة المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا: عربون تقدير واحترام» أسد الأشقر/ ٢٥ نيسان ١٩٤٦.

٧- إهداء من الصين، حيث أهدى إليه كتاب «الصين والإسلام» من مؤلفه محمد تواضع ونص الإهداء:

« إلى حضرة فضيلة - الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين - للتذكار من المؤلف» محمد تواضع ١٩٤٥/٦/٢٤.

ثالثاً: تصنيف محتويات المكتبة: مجالات الاهتمام

سبقت الإشارة إلى أن محتويات المكتبة من الكتب غير منسقة، ولكنها مصنفة تصنيفات عامة طبقاً لموضوعاتها فكتب القرآن وعلومه مجموعة فى مكان، وكذلك كتب الحديث وكتب الفقه وكتب اللغة.. إلخ ومع هذا فقد لاحظت اختلاط بعض الكتب ذات الموضوعات المختلفة مع بعضها البعض، كما أن جانباً يقرب من ثلث حجم الكتب موضوع بطريقة عشوائية تماماً.

وأيا كان الأمر، فبعد الانتهاء من جمع عناوين وأسماء الكتب ومؤلفيها. قمت بتصنيفها تصنيفاً موضوعياً نظرياً، يمكن أن تقسم إلى خمسة وعشرين قسماً وفقاً للترتيب التالى:

١ - القرآن وعلومه:

ويندرج فى ذلك - عدد من المصاحف اثنان منها بخط اليد بالرسم العثمانى الملون - كتب تفسير وتأويل القرآن - كتب علم القراءات - كتب فى الناسخ والمنسوخ - كتب فى إعجاز القرآن - كتب فى فضائل القرآن - كتب فى فهرسة وترتيب آيات القرآن - كتب ورسائل صغيرة فى مسألة ترجمة القرآن.

٢ - الحديث النبوى وعلومه:

ويندرج فى ذلك: كتب رواية متون الحديث وأسانيده مثل صحيح البخارى، وصحيح مسلم، ومسند الإمام الشافعى. وكتب شرح الأحاديث النبوية مثل عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى، والفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيبانى وشرحه - وكتب فى فنون مصطلح الحديث وقواعد التحديث ونقد الرجال وأصول الجرح والتعديل - وكتب فى الأحاديث الموضوعة وعلل الحديث.

٣ - السيرة وتراجم الأعلام:

ويندرج فى ذلك - كتب السيرة النبوية وحياة الأنبياء - وكتب فى سير الصحابة - وكتب فى تراجم الأعلام ومناقب العلماء - وكتب الطبقات فى التعريف بعلماء المذاهب الفقهية والمفسرين ومشايخ الطرق الصوفية...إلخ.

٤ - الفقه وأصوله ومذاهبه:

ويندرج فى ذلك - كتب فى أصول الفقه - وكتب مختلفة فى شرح فقه المذاهب المتعددة، وتتنوع ما بين كتب

شاملة لمسائل الفقه المختلفة، وكتب خصص كل منها لبحث مسألة واحدة كأحكام المواريث، أو أحكام الوقف، أو أحكام الوصية.. إلخ - وكتب فى الفتاوى والقضاء وما يتصل بذلك.

٥ - كتب اللغة والأدب والنحو والصرف والبلاغة:

ويندرج فى ذلك - كتب فى فقه اللغة والألفاظ والتعريفات منها: فقه اللغة وسر العربية للثعالبى، والألفاظ الكتابية للهمذانى، والأضداد فى اللغة لابن بشار الأنبارى، والتعريفات للزمخشرى وغيرها كثير - متون فى النحو والصرف والإعراب وشرحها منها: شرح الحريرى على متن ملحة الإعراب، وألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل عليها، وشذا العرف فى فن الصرف للحملاوى.. إلخ - كتب فى البلاغة والبيان والبديع: منها نهج البلاغة للشريف الرضى وأساس البلاغة للجرجانى وزهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع للحملاوى، وبدائع البدائة لابن ظافر الأزدى.. إلخ - كتب فى أدب الكتاب والأدباء والشعراء منها: الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع، ومجانى الأدب للأب لويس شيخو والكامل فى اللغة والأدب للمبرد، وخزانة الأدب للبغدادى، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهانى.. كتب الخطب والرسائل والمراسلات منها: صبح الأعشى للقلقشندى، وجمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت، وسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى.. إلخ - كتب فى الأنساب والأوطان: منها القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم لابن عبد البر القرطبى والحنين إلى الأوطان للجاحظ.. - كتب فى الأمثال والحكم منها: كتاب الأمثال للثعالبى. ومجمع الأمثال للميدانى، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ورسالة لقط الحكمة... إلخ - كتب المسامرات والنوادر والأخبار منها: كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبى النيسابورى، والتطفيل للخطيب البغدادى، وفريدة العجائب لابن الوردى، والأذكياء لابن الجوزى وغيرها كثير - كتب فى تاريخ اللغة العربية وآدابها معظمها كتب ومذكرات دراسية بدار العلوم - بعض القصص والروايات المسرحية منها: سيرة الأميرة ذات الهمة، وهى فى واحد وثمانين جزءًا كل جزء فى حوالى ٢٠ إلى ٣٠ صفحة، ومجموعة قصص لمحمود تيمور، وبيركليس أمير صور، ومجدولين.. إلخ - بعض دواوين الشعر مثل ديوان الخنساء، وشرح التبيان للعكبرى على ديوان المتنبى، ولامية العرب، ولامية العجم... إلخ.

٦ - كتب التصوف وآدابه :

ويندرج فى ذلك - كتب فى تاريخ التصوف والمتصوفة منها: كتاب التصوف الإسلامى لعبداللطيف الطيباوى، وتلبيس إبليس لابن الجوزى - كتب فى آداب التصوف وسلوك الطريق منها: الغنية لطالبى طريق الحق لسيدى عبدالقادر الجيلانى، والميزان للعارف الصمدانى والقطب الربانى سيدى عبدالوهاب الشعرانى، والبركة فى فضل السعى والحركة لابن عبدالله الوصابى، وتائية السلوك إلى ملك الملوك للشرنوبى، وتحفة الإخوان فى آداب الطريق للشيخ الدردير - كتب الأوراد والأذكار والوظائف والرقائق وهى كثيرة منها : هياكل النور للسهروردى الملقب بالشيخ المقتول، ومجموعة وظائف وأحزاب وأوراد تخص ثلاث عشرة طريقة، وقاموس الأناشيد للإخوان الشاذلية للشرشير. - كتب فى مناقب الصالحين من الأولياء وشيوخ الطرق وكراماتهم، منها: جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم وأوصافهم لأحمد بن ضياء الدين الكمشخانلى، ومنازل السائرين إلى الحق عز شأنه للهروى الحنبلى، والملامتية والصوفية، وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى، والمنهل الصافى فى مناقب السيد حسنين الحصافى للجعفراوى - كتب حكم

ومواعظ أقطاب التصوف منها: حكم ابن عطاء الله السكندرى وشرحها لابن عجيبة، الفرج بعد الشدة للتنوخى، وتسلية الأحزان لسيدى مصطفى البكرى.. الخ.

٧ - كتب الأخلاق والسلوك ومناهج التربية :

ويندرج فى ذلك - كتب فى التربية؛ تاريخها ومناهجها، منها : تاريخ التربية للشيخ مصطفى أمين، وهداية الناشئين لعبدالوهاب عبدالسلام، والتربية الاستقلالية، أو إميل القرن التاسع عشر لألفونس إسكيروس (مترجم).. إلخ - كتب فى الأخلاق منها: مكارم الأخلاق للطبرسى، وجوهر التقوى فى الأخلاق والتربية للشيخ طنطاوى الجوهرى... إلخ - كتب فى البدع والعادات المستحدثة فى التدين، منها طريق الوصول إلى إبطال البدع بعلم الأصول للشيخ العدوى، والباعث على إنكار البدع والحوادث لأبى شامة، وإصابة السهام فؤاد من حاد عن سنة خير الأنام للشيخ محمود خطاب السبكى.. إلخ.

٨ - كتب العقيدة وعلم الكلام والفلسفة :

ويندرج فى ذلك - كتب التوحيد وأصول العقيدة منها كتاب التوحيد لابن خزيمة، وقطرة من بحر التوحيد لبديع الزمان سعيد النورسى، ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وكتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب.. وشرح الطحاوية فى العقيدة السلفية للأذرعى. إلخ - كتب فى علم الكلام منها أساس التقديس فى علم الكلام للفخر الرازى، والإبانة عن أصول الديانة لأبى الحسن الأشعرى.. - كتب فى الفلسفة. منها آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى، وتهافت الفلاسفة للغزالى، والكلم الرومانية فى الحكم اليونانية لابن هندو.. إلخ.

٩ - كتب الفِرق والنِّحل :

ويندرج فى ذلك - كتب عن الفِرق القديمة، منها: الفصل فى الملل والنحل للشهرستانى والكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية لابن القيم - كتب عن الفرق الحديثة، منها : الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية ترجمه عن الفارسية أحمد فائق رشد، ومكاتيب عبدالبهاء وهى رسائل زعيم البهائية، والآداب الماسونية لشاهين مكاريوس.. كتب فى المساجلات بين الفرق المختلفة منها: الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية للسويدى العراقى. واجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المعطلة والجهمية لابن القيم. والهدية السعدية فيما جرى بين الوهابية والأحمدية أتباع أحمد المسيح الإسلامى بالهند، والرد على الدهريين للأفغانى.. إلخ.

١٠ - كتب فى المسيحية واليهودية :

ويندرج فى ذلك - عدد من الأناجيل منها: إنجيل متى، وإنجيل لوقا ونسختان من إنجيل برنابا ترجمة الدكتور خليل سعادة - كتب فى أصول الديانة المسيحية منها: البراهين العقلية والعملية فى صحة الديانة المسيحية للقائمقام ترتم بفرقة المهندسين بالجيش المصرى، ومحاضرات فى النصرانية لأبى زهرة - كتب فى الجدل بين المسلمين والنصارى منها: أبحاث المجتهدين فى الخلاف بين النصارى والمسلمين لنقولا يعقوب غبريال، والسؤال العجيب فى الرد على أهل الصليب لمحمد الجنبيهى المسكين.. - كتب عن نشاط المبشرين المسيحيين منها: خفايا المبشرين فى تنصير أبناء المسلمين لأحمد سالمان.. - وكتاب فى فقه الطوائف اليهودية من معاملات وعبادات وعلاقاتهم بغيرهم لمراد فرج اليهودى المصرى.

١١ - كتب فى التاريخ الإسلامى قديماً وحديثاً:

ويندرج فى ذلك - كتب التاريخ القديم وفيه: كتب الفتوحات الإسلامية منها: فتوح البلدان للبلاذرى، وفتوح الشام للواقدى.. إلخ - وكتب فى تاريخ دول الإسلام

لشمس الدين الذهبى، والكامل فى التاريخ لابن الأثير، ونشأة الدولة الإسلامية لأمين سعيد الحلبى والبهجة البدرية فى الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب.. وكتب فى الحضارة الإسلامية ومدنيتها منها: تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان، وانتقاد كتاب التمدن الإسلامى لجورجى زيدان تأليف أحمد عمر الإسكندرى، والعزة فيما قيل فى المزة (بالشام) لابن طولون، والبيمارستانات فى الإسلام لأحمد عيسى بك، ومدنية العرب فى الأندلس لجوزيف ماك كيب ترجمة تقى الدين الهلالى.. إلخ ـ كتب فى علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول منها كتاب حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية لأمين سعيد، ورسالة أبى الربيع إلى قسطنطين ملك الروم.. إلخ ـ كتب فى الحروب الصليبية منها: الأخبار السنية فى الحروب الصليبية للحريرى. وذكرى موقعة حطين. جمع محب الدين الخطيب... إلخ.

وكتب التاريخ الحديث للعالم الإسلامى وفيه ـ كتب عن البلاد الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار الغربى منها حاضر العالم الإسلامى لاستودارد ترجمة عجاج نويهض. والإسلام تحت الاستعمار تأليف أوجين يونج ومعرب عن الفرنسية، وصفحة من الأيام الحمراء «الثورة السورية الكبرى» بقلم الزعيم العسكرى محمد سعيد العاصى، ونبذة من أعمال إيطاليا فى طرابلس للشيخ عبدالحميد الطرابلسى.. إلخ ـ كتب ورسائل عن حركات المقاومة والتحرير من الاستعمار منها، رسائل حزب الشعب الجزائرى (ويوجد منها أعداد كبيرة تضم وثائق ومنشورات خاصة بالجزائر والاستعمار الفرنسى وحركات المقاومة والجهاد منذ بداية الاستعمار حتى قبيل وفاة الشيخ حسن البنا) ورسائل ومنشورات مكتب المغرب العربى وتضم عدداً من الوثائق والمنشورات، وكتاب غمرة النضال ومطلع الحرية لنقولا شادى: ومستقبل أندونيسيا السياسى لقهر الدين يونس الأندونيسى... إلخ.

١٢ - كتب فى تاريخ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية:

ويندرج فى ذلك ـ كتب فى نشأة الدولة العثمانية وسلاطينها: كتاب الجماعة العثمانية لجرجس خولى، والتحفة الحلمية فى تاريخ الدولة العلية لإبراهيم بك حليم: وتاريخ الدولة العلية لمحمد بك فريد ـ كتب فى أوضاع الدولة العثمانية أواخر عهدها منها: العثمانيون فى المائة رسالة تاريخية فى (دحض مفتريات الإنجليز لأحمد الخضر منسى، وخواطر نيازى؛ صحيفة من تاريخ الانقلاب العثمانى الكبير للقول أغاسى أحمد نيازى الرسنة لى. والمعلوم والمجهول لولى الدين يكن ـ كتب فى المسألة الشرقية عامة منها: تاريخ المسألة الشرقية لحسين لبيب، ودفاع يلقنا لعظيم حقى زادة (من حرب الشرق بين الدولة العثمانية والروس... إلخ).

١٣ - كتب عن المجتمع المصرى وتاريخه:

ويندرج فى ذلك ـ كتب فى تاريخ مصر القديم منها: العقد الثمين فى محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين لأحمد كمال باشا. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى. والحضارة المصرية القديمة لغوستاف لوبون ترجمة صادق رستم.. كتب فى تاريخ مصر الحديثة (منذ محمد على) منها: تاريخ الجبرتى، وإبراهيم فى الميدان لحبيب جاماتى، وتاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة. ومصر فى أفريقيا الشرقية لإبراهيم محمد صبرى.. إلخ ـ وكتب فى الشئون الاجتماعية والثقافية والفكرية للمجتمع المصرى منها: الخلاصة الوفية فى الأراضى المصرية وزكاة الحنفية لأحمد إبراهيم جاب الله والتقدم العمرانى لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى لمحمد حسنين مكاوى، ومشكلة الفقر فى مصر لمحمد عبدالرحيم عنبر، وتقرير فضيلة مفتى الديار المصرية الشيخ

محمد عبده فى إصلاح المحاكم الشرعية، والمرأة المصرية قيمتها واحترام حياتها قديماً وحديثاً لأحمد أفندى يوسف، وتحليل نتائج التعداد فى مصر للسيد صبرى، وحركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر لجاك تاجر. ومحاضرات جماعة الثقافة بأسيوط (وهى جمعية مسيحية).. إلخ - كتب تتعلق بجغرافية مصر. ومنها: النخبة الأزهرية فى تقويم الكرة الأرضية (نصفه فى تفاصيل جغرافية القطر المصرى بمدنه وقراه وتقاسيمه الإدارية..) واكتشاف مصدر النيل لحمود حامد وجمال الفندى. كتب خاصة بنظام الحكم وتاريخ الثورات منها: تاريخ الحركة القومية ونظام الحكم فى مصر للرافعى فى ثلاثة مجلدات. وفى أعقاب الثورة المصرية للرافعى فى ثلاثة مجلدات. ومعارك حاسمة فى تاريخ مصر (دمياط والمنصورة)، ومذكرات خمسة وخمسين شهرا فى مخبأ للكرداوى وهى عن ثورة ١٩١٩.

١٤ - كتب فى القضايا السياسية المركزية : وهى تضم الآتى:

(أ) قضية استقلال مصر ووحدة وادى النيل: وفيها كتب منها: مصر المستقلة لمحمد أمين يوسف (وهو مُترجمٌ عن الإنجليزية - غير مكتوب اسم المترجم - والترجمة عبارة عن مخطوطة بخط اليد مهداة من المؤلف إلى رياض بك الصلح، ومصر للمصريين لسليم خليل نقاش (ستة مجلدات) وفظائع الاحتلال البريطانى: الرعب فى دنشواى لبرناردشو، وفظائع العدالة البريطانية فى مصر لولفرد سكاوان بلنت، تعريب محمد نجيب ومحمد على المستكاوى، والكتاب الأبيض الإنجليزى ترجمة إبراهيم عبدالقادر المازنى، وتقرير لجنة ملنر، ومذكرات اللورد إدوارد سيسل المستشار المالى الأسبق للحكومة المصرية تعريب محمد التابعى. وترجمة عربية لتقرير الحزب الوطنى المرفوع بالفرنسية من مصطفى كامل لمؤتمر السلام، ومشكلة الأرصدة الاسترلينية المتجمعة لعبد الحكيم الرافعى بك، وصحيفة من مساوئ الاستعمار فى وادى النيل (من رسائل الإخوان) وبيانات النقراشى باشا أمام مجلس الأمن عن القضية الوطنية، وتاريخ الحرب السودانية لجبرائيل حداد، والمسألة السودانية للأمير عمر طوسون.. إلخ.

(ب) قضية فلسطين والخطر الصهيونى: وفيها كتب منها : حجج وحقائق ووثائق فى سبيل حل المشكلة الفلسطينية لوديع البستانى، وكتاب فلسطين لجفرى بطرس غالى، والنار والدمار فى فلسطين - وثائق عن وحشية الاحتلال البريطانى والعصابات الصهيونية - والشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية فى فلسطين وخلاصة قرار اللجنة، والصهيونية نشأتها وأثرها الاجتماعى لميشيل بك كفورى، ونزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ليوسف رزق الله.. وغيرها كثير.

(جـ) قضية التحرر من الاستعمار عامة: وفيها كتب ورسائل منها: ثورة العرب: مقدماتها وأسبابها ونتائجها تأليف أحد أعضاء الجمعيات العربية - لم يذكر اسمه - والثورة العربية الكبرى لأمين سعيد (مجلدان) ومجموعة المعاهدات والوثائق التاريخية فى حياة الأمم العربية جمعها محمد توفيق جانا، وسلسلة الخباز عن حركات التحرر ضد الاستعمار الفرنسى (عدة كتب) وتقرير بشأن القضية الطرابلسية، والإسلام والنظام العالمى الجديد لمولاى محمد على ترجمة أحمد جودة السحار (أنظر أيضاًماورد تحت بند كتب التاريخ الحديث للعالم الإسلامى) وكتاب الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية لمؤلفه ف . أ. لينين ترجمة راشد البراوى، وحرب البترول فى الشرق الأوسط لراشد البراوى (الذى أهدى نسخة منه للشيخ حسن البنا) وكتاب غاندى والحركة القومية فى الهند لسلامة

موسى (وقد جلد الشيخ حسن نسخته من كتاب غاندى مع كتاب آخر - عنوانه غير واضح - تدور فصوله حول الجهاد فى الإسلام وما يتعلق بوسائله وفضائله).

(د) قضية الوحدة العربية: وفيها كتب منها وأهمها: الدولة العربية المتحدة لأمين سعيد (مجلدان) وحركة الوحدة المغربية فى المنطقة الخلفية (وثائق) وأعمال مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة فبراير ١٩٤٧، ونهضة الشرق لأحمد رفعت، وعدة وثائق وبيانات خاصة بقيام جامعة الدول العربية، والاتحاد العربى فى القاهرة (وثائق) مُهداة إلى الشيخ حسن البنا.

(هـ) قضية الخلافة الإسلامية: وفيها كتب منها: الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية لرشيد رضا، والإسلام وأصول الحكم بحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام لعلى عبدالرازق. والخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ بخيت، والنكير على منكرى النعمة من الدين لمصطفى صبرى... إلخ.

(و) قضية السلام العالمى والنظام الدولى الجديد: وفيها كتب منها: اختلال التوازن العالمى لغوستاف لوبون (مترجم إلى العربية) وإخفاق الفاشستية لعصام الدين حفنى ناصف، ووثائق مؤتمر دبمارتن إكس الخاصة بإنشاء هيئة الأمم المتحدة.

١٥ - كتب فى المذاهب العصرية السياسية والفكرية:

ويندرج فى ذلك - كتب فى نظرية التطور والمذهب المادى منها: فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء لأرنست هيجل الألمانى ترجمة حسن حسين، وموقف الماديين والمؤمنين فى علم الغيب، والقول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون للشيخ مصطفى صبرى، وعلى أطلال المذهب المادى فى معالجة داء العصر «الإلحاد» لكاميل فلامريون وترجمة محمد فريد وجدى.. إلخ - كتب فى المذاهب السياسية والاقتصادية منها: البيان الشيوعى - بيان الحزب الشيوعى - لكارل ماركس وفردريك إنجلز (مُترجمٌ إلى العربية). ونقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين. ومقالات العرابى (محمود حسنى العرابى) والاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنسانى لإسماعيل مظهر.. إلخ.

١٦ - كتب فى تاريخ أوروبا وأدب الرحلة إليها:

ويندرج فى ذلك - كتب فى تاريخ أوروبا القديم منها: خلاصة تاريخ اليونان والرومان لجرجى زيدان، واتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شرلكان (مسبوقا بتقديم عن الجمعيات فى أوروبا منذ انقراض الدولة الرومانية إلى أوائل القرن السادس عشر من المسيحية، وترجمه عن الفرنسية خليفة أفندى فى عدة مجلدات كبيرة موجود منها ثلاثة) وتاريخ أساس الشرائع الإنجليزية لدافيد واطسون - معرب - والتاريخ القديم تأليف ج. إدجار ومحمد شفيق غربال.. إلخ - مذكرات بعض زعماء أوروبا وقادتها منها: مذكرات غليوم الثانى ترجمة أسعد داغر ومحب الدين الخطيب، ومذكرات لينين عن الحروب الأوروبية ماضيها وحاضرها تأليف لينين وترجمة أحمد رفعت - كتب الرحلات إلى أوروبا الحديثة منها: رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا فى سنة ١٨٨٩ لحسن أفندى توفيق، والسير والنظر (وهى رحلة إلى أوروبا وتونس والمغرب).. وعلاقتها بالاستعمار لمحمد طلعت: ورحلات عبدالوهاب عزام بك لعبد الوهاب عزام، والرحلة العلمية لناظرات المدارس الأميرية إلى أوروبا صيف ١٩٢٦ بقلم سنية عزمى.. إلخ.

١٧- كتب فى الجغرافيا والمساحة:

ويندرج فيها: كتب عامة فى الجغرافيا منها: الدروس الجغرافية لأحمد عبد الهادى سابق، والجغرافيا

العمومية لمحمد فهيم ومحمد عوض إبراهيم، والجغرافيا الحديثة لمحمد فريد أبو حديد - كتب فى جغرافية مصر وتقسيماتها الإدارية منها: النخبة الأزهرية فى تقويم الكرة الأرضية (مزود بخرائط وإحصاءات تفصيلية عن التقاسيم الإدارية لمصر وموجز عن بقية العالم) كتاب عيون المسائل من أعيان الرسائل لعبد القادر الطبرى وبه متن النقاية للسيوطى ويحتوى على عدة رسائل فى المساحة والثقل النوعى. جغرافية مصر (يوضح القرى والمدن وما تشتهر به من محاصيل وما يؤخذ منها من ضرايب ومكوس... إلخ) به خرائط توضيحية كثيرة - غير موضح اسم المؤلف.

١٨- كتب فى الفنون والصنائع والحرف:

ويندرج فيها: كتب عامة فى مختلف الفنون وأحوال أهل الحرف المختلفة منها: كتاب الدر المكنون فى الصنائع والفنون للخواجة جرجس طنوس عون. كتب فى بعض الحرف والفنون منها: هدية الزارع لمحمد توفيق، والحديقة الندية فى تحضير واستخراج الروائح العطرية (بدون مؤلف) والبدور السافرات فى فن الاستحكمات لمحمود أفندى فهمى مدرس الفنون الحربية بالمدارس الحربية.. والنسخة الموجودة صورة لمخطوطة باليد. وفن إدارة الحرب تأليف الليفتنانت جنرال فون درجولتز، تعريب الملازم أول حامد نيازى. والحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعى التوكل فى ترك العمل لأبى بكر الخلال... إلخ.

١٩ - كتب فى تدبير الصحة وسياسة الجسد منها ما يلى:

تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكى (مجلدان) والتدبير العام فى الصحة والمرض للدكتور محمد رشدى. وكتاب الصحة لزعيم الهند الأكبر المهاتما غاندى ترجمة الشيخ عبد الرازق المليح أبادى، ودستور التغذى لمحمد فريد وجدى، والأقوال المعربة فى أحوال الأشربة لحسن الجبرتى الحنفى، والأشفية مع بيان أمراض القلب للدكتور عبد العزيز راشد، وعلم الصحة لنجيب مترى وقانون الصحة المنزلية لجون سليكس (معرب) وعدة كتب فى الإسعافات الأولية... إلخ.

٢٠ - كتب عن المرأة وما يتعلق بها منها الآتى:

كتب تتعلق بآداب النساء مثل: حسن الأسوة فيما ورد عن رسول الله فى النسوة لصديق حسن خان. ومحمد والمرأة: محاضرات للشيخ عبد القادر المغربى، ومحاسن الأنبياء عن أميال وعادات النساء لمحمود كامل فريد. وأخبار النساء لابن القيم وأحكام المرأة فى الشريعة الإسلامية لأحمد إبراهيم بك.. كتب تراجم وسير أعلام النساء منها: أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام لعمر رضا كحالة. والدر المنثور فى طبقات ربات الخدور للسيدة زينب بنت على بن حسين بن عبيدالله العاملى السورية. ونساء العالم لمحمود كامل فريد. - كتب تتناول بعض قضايا المرأة منها : نداء للجنس اللطيف يوم المولد النبوى الشريف فى حقوق النساء فى الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدى العام للشيخ رشيد رضا، والمرأة المصرية قيمتها واحترامها قديماً وحديثاً (مشكلة الزواج) لأحمد يوسف، ومركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى... إلخ.

٢١ - كتب فى علم الاقتصاد منها ما يلى:

مبادئ الاقتصاد السياسى لمحمد فهمى حسين، والموجز فى علم الاقتصاد لبول لروابوليو ترجمة حافظ إبراهيم وخليل مطران، والاكتساب فى الرزق المستطاب لمحمد الحسن الشيبانى، والمال وهو عبارة عن كتابين الأول: المال العام: الشرك المذل فى الحكم بغير ما أنزل

الله: قواعد عامة ـ والثانى الاحتكار والشرك المذل، والكتابان فى ثمانية أجزاء متوسطة الحجم.

٢٢ – كتب الحكمة السياسية ونصائح الملوك منها الآتى:

سلوك المالك فى تدبير الممالك لشهاب الدين بن أبى الربيع، وسراج الملوك للطرطوشى، والعقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم محمد بن طلحة الوزير، والهدية الأولى الإسلامية للملوك والأمراء فى الداء والدواء لمصطفى إسماعيل المصرى الأباضى مذهباً، وتاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين لأبى عبدالله المغيلى، والتبر المنسبك للسخاوى.. إلخ.

٢٣ – بعض مصنفات قيادات بعض الطرق والجمعيات الإسلامية الحديثة وسيرهم منها الآتى:

(أ) السنوسية: ومن كتب شيوخها: إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن لمحمد بن على السنوسى، والمسائل العشر: بغية القاصد فى خلاصة المراصد لمحمد ابن على السنوسى، والسلسبيل المبين فى الطرائق الأربعين لمحمد بن على السنوسى والدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية ثم كتاب فى نقد الطريقة السنوسية وهو كتاب الفروع الكافية لإزالة غياهب الأنوار القدسية فى مقدمة الطريقة السنوسية لمحمد بن يوسف الكافى التونسى.

(ب) الوهابية، ومن الكتب المتعلقة بها ورسائل مؤسسها: مسائل الجاهلية التى خالف فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وكتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد تحقيق محمد حامد الفقى، ومن الكتب التى تنتقد الوهابية: الدرر السنية فى الرد على الوهابية للشيخ أحمد زينى دحلان، والصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية لسليمان بن عبدالوهاب فى الرد على أخيه محمد بن عبدالوهاب، والنقول الشرعية فى الرد على الوهابية للشيخ مصطفى الشطى، والضياء الشارق فى الرد على شبهات المآزق المارق لابن سحمان.. إلخ.

(جـ) الجمعية الشرعية (السبكية) وتوجد معظم كتب مؤسس الجمعية الشيخ محمود خطاب السبكى ومن أهمها:الدين الخالص، والمقامات العلية فى النشأة الفخيمة النبوية، والمقالة الشرعية فى الفقه وأصوله، والعهد الوثيق لمن سلك الطريق، وتعجيل القضاء المبرم لمحق من سعى ضد سنة الرسول الأعظم، وفصل الخطاب بين الشيخ مصطفى الحمامى والشيخ محمود خطاب للعدوى.. إلخ.

٢٤ – كتب فى مجالات ثقافية عامة:

ويندرج فى ذلك ـ كتب فى مبادئ العلوم والموسوعات منها: مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمى ومفاتيح العلوم للخوارزمى أيضا، والأعمال والمصالح فى أصول الأديان وشرائع العمران للطرابلسى، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ـ كتب فى الدعوة للإصلاح وطريق النهضة منها: الإسلام فى عصر العلم لمحمد فريد وجدى، وهذى هى الأغلال لمحمد بن على القصيمى، وتنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله للشيخ السعدى، ومكانة العلم فى القرآن للدكتور أحمد الدرديرى، وهداية الأمة المحمدية فى الحكم المحمودية السنية للشيخ خطاب السبكى، والطريقة المثلى فى الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو أولى لأبى الطيب نور الحسن، والدعوة إلى الإصلاح للشيخ الخضر حسين، وطبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبى والرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية لحسين أفندى الجسر ومسموم الأسنة

والسهام فى الرد على من شوهوا الأفكار بدعوى تنوير الأفهام لحمد الجنبيهى المسكين... إلخ ـ كتب فى أصول الاجتماع والعمران منها: جزء من الحياة لمحمد فريد وجدى، ومقدمة ابن خلدون. وإبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون لأحمد بن محمد الصديقى، ومحاكمة وزيرين فى أمرين خطيرين وابن خلدون فى المدرسة العادلية محاضرات لعبدالقادر المغربى... إلخ ـ كتب فى موضوعات متفرقة منها: أبو الدنيا وأم الدنيا لعلى أحمد الشهيدى، وعالم الغد ترجمة عبدالحميد يونس وحافظ جلال، ومقالة فى الإسلام لجرجس سال الإنجليزى (مترجمة) وفضل العرب على الجراحة لحسن الهراوى، والفكر المتمرد لحنا أبى راشد، و المطالع العصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية للوفائى الهورينى، والمجالس الفاخرة فى مآتم العترة الطاهرة للموسوى العاملى، والرسالة الخالدة لعبدالرحمن عزام باشا... إلخ.

٢٥ - الدوريات والمجلات :

وقد وجدت أعداد ومجلدات أربع عشرة من المجلات والدوريات بعضها كاملة من بدء صدورها إلى قبل وفاة الشيخ حسن البنا، وبعضها يوجد منه عدة مجلدات وأعداد متفرقة وهى ـ مجلة العروة الوثقى (كاملة) مجلة التقوى (إسلامية شهرية) معظمها ـ مجلة المنار للشيخ رشيد رضا (كاملة) ومجلة المقتطف (كاملة) ومجلة الهلال (كاملة) ومجلة العلوم (كانت تصدر عن جمعية المعلمين) معظم أعدادها ـ ومجلة الحياة لفريد وجدى (معظمها) ومجلة العالم الإسلامى لمصطفى كامل (بعض أعداد منها) وصحيفة اللواء لمصطفى كامل (بعض أعدادها خلال السنوات التالية ١٩٠٠ ـ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤) ومجلة الشئون الاجتماعية (كانت تصدرها وزارة الشئون الاجتماعية) موجود بعض أعداد منها ـ ومجلة تحرير المجلة لمحمد حسين آل كاشف الغطاء مطبوعة بالنجف الأشرف فى العراق (بعض مجلداتها).

رابعا : منهج الشيخ حسن البنا فى اقتناء الكتب وتكوين المكتبة:

يتضح من تصنيفنا لمجالات اهتمامه فى البند السابق ـ بالإضافة إلى استقراء عناوين الكتب المذكورة، الملحقة ـ أنه كان يسير فى اقتنائه للكتب وتكوين مكتبته وفقا لمنهج محدد تحكمه ثلاث قواعد أساسية:

الأولى هى قاعدة التنوع التى تعنى الشمول لمعظم مجالات اهتمام الفكر الإنسانى، من أشرف العلوم (القرآن وعلومه وعلوم الدين فى فروعها المختلفة بصفة عامة) إلى علوم ومعارف الدنيا حتى الفنون والصنائع والحرف، مرورا بعلوم اللغة وآدابها (ومن الواضح أن لها أولوية أساسية فى اهتماماته) والتاريخ وقضايا السياسة والنهضة ... إلخ.

أما الثانية فهى «قاعدة التتبع» التى تعنى تقصيه للكتب والمراجع التى تغطى معظم موضوعات اهتماماته على امتدادها الزمنى، فهو يقتنى ما كتب بخصوص كل موضوع عبر الفترات الزمنية المختلفة قديما وحديثا، ويمكن ضرب ثلاثة أمثلة على ذلك من مجالات اهتماماته الموضحة سابقا.

(أ) فى علوم القرآن لديه من التفاسير القديمة تفسير الطبرى وتفسير الفخر الرازى وتفسير ابن كثير.. كما أن لديه تفسير الألوسى وتفسير المنار وتفسير الجواهر وتفسير المراغى وهى من التفاسير الحديثة.

(ب) فى الفقه ومذاهبه: لديه من القديم على سبيل المثال: المغنى لابن قدامة الحنبلى والمجموع للنووى الشافعى، ورد المحتار لابن عابدين الحنفى ولديه من الحديث على سبيل المثال: الفقه على المذاهب الأربعة،

ونيل الأوطار للشوكانى والمقالة الشرعية فى الفقه وأصوله للشيخ خطاب السبكى.. إلخ.

(جـ) فى اللغة والأدب، لديه من القديم على سبيل المثال: ألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل. والتعريفات للجرجانى، وبدائع البدائه للأزدى، وقصة الأميرة ذات الهمة، وديوان المتنبى.. إلخ ولديه من الحديث على سبيل المثال: شذا العرف فى فن الصرف للحملاوى، والألفاظ الكتابية للهمذانى، وزهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع للحملاوى، وقصص لمحمود تيمور ورواية مجدولين وديوان وطنيتى لعلى الغاياتى.. إلخ.

(د) فى التصوف وآدابه: لديه من القديم على سبيل المثال الطبقات الكبرى للشعرانى، ومن الحديث على سبيل المثال الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى.

(هـ) فى التاريخ: لديه من القديم مثلا: كتب الفتوحات الإسلامية المختلفة ولديه من الحديث كتب تعالج أوضاع العالم الإسلامى فى ظل الاستعمار.... وهكذا فى بقية المجالات المتعلقة بتاريخ الدولة العثمانية وتاريخ المجتمع المصرى.. إلخ.

والقاعدة الثالثة هى الالتزام بأدب فقه الخلاف وهو ما يعنى فى مجال اقتنائه للكتب، عدم اكتفائه بالنظر إلى القضية التى تكون محلا لاختلاف الآراء، من جانب واحد فقط، ولحسن الحظ أننى عثرت أثناء تنقيبى فى مكتبة الشيخ حسن البنا على قصاصة من الورق موضوعة فى طيات كتاب هذى هى الأغلال للقصيمى مكتوبة بخط يد الشيخ حسن البنا بها ملاحظاته وبعض تعليقاته على كتاب القصيمى ومن بين ما كتبه فيها قوله بالحرف: (ويل للذين ينظرون إلى الأشياء من جانب واحد.. ويل لهم وويل للإنسان منهم.. ولن تجد على وجه الأرض أشد منهم ظلما ولا أسقم فهما..) أ. هـ بالنص. وبالإضافة إلى ذلك فإنه باستقراء عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها يمكن ضرب عدة أمثلة توضح التزام الشيخ حسن البنا بهذه القاعدة الثالثة ومن ذلك:

(أ) قضايا التصوف والمتصوفة:

ومعظمها كما هو معروف محل للخلاف الدائم والجدل الذى لا ينقطع من قديم الزمان، نجد لديه على سبيل المثال كتب أقطاب التصوف وشيوخ الطرق مثل الميزان للشعرانى، وغنية الطالب للجيلانى، إلخ ولديه فى الوقت نفسه كتب تنتقد التصوف وأحوال المتصوفة وأتباع الطرق مثل تلبيس إبليس لابن الجوزى والعهد الوثيق لمن سلك الطريق للشيخ خطاب السبكى... إلخ.

(ب) قضية الخلافة الإسلامية:

كانت - ومازالت - محل جدل شديد قبيل وبعد إلغائها رسميا، فنجد لدى الشيخ حسن البنا كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلى عبدالرازق، وهو يهاجم الخلافة ويرى أنها ليست من الإسلام فى شىء، وكتاب النكير على منكرى النعمة من الدين لمصطفى صبرى وكتاب نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للخضر حسين وغيرها من الكتب التى تفند آراء على عبدالرازق بهذا الصدد وتحاول أن تثبت عكس ما ذهب إليه.

(جـ) قضية النهضة وكيف السبيل إليها؟

وهى كبرى قضايا الخلاف والجدل بين صفوف النخبة الفكرية منذ ما يزيد على قرن ونصف من الزمان، فنجد لدى الشيخ حسن البنا كتابا مثل كتاب هذى هى الأغلال للقصيمى وهو يحمل فيه بشدة على التراث الإسلامى بما فيه - فى نظر القصيمى - كثير من الأحاديث النبوية وأقوال العلماء والأئمة السابقين.. ونجد لدى الشيخ حسن أيضا كتابا مثل كتاب تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله للشيخ السعدى، وكتاب مسموم الأسنّة والسهام فى الرد على من شوهوا الأفكار بدعوى تنوير الأفهام للشيخ الجنبيهى المسكين.. وغير ذلك

من الكتب التى تعرض للقضية من وجهات نظر المختلفين حولها.

(د) القضايا المتعلقة بالحركات الإسلامية الحديثة كالوهابية والسنوسية:

فعن الوهابية مثلا نجد لديه كتب مؤسسها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولديه أيضا عدة كتب تنتقد وتهاجم بقسوة الوهابية والوهابيين منها على سبيل المثال كتاب الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية للشيخ سليمان بن عبدالوهاب، وكتاب الدرر السنية فى الرد على الوهابية.. إلخ. أما عن السنوسية فلديه كما سبق معظم كتب مؤسسها محمد بن على السنوسى، ولديه كذلك عدة كتب تتناولها بالنقد منها على سبيل المثال كتاب الفروع الكافية لإزالة غياهب الأنوار القدسية لمحمد بن يوسف التونسى.. وهكذا.

خامسا : قيمة الكتب من حيث نوعيتها (أساسية - ثانوية):

وهناك ملاحظة تتعلق بنوعية الكتب التى كان يجمعها الشيخ حسن البنا ليكون منها مكتبته، من حيث اعتبار الكتاب أساسياً فى موضوعه أو فى بابه، أم هو ثانوى فرعى؟ وبهذا الصدد يمكن تقسيم كتب المكتبة إلى ثلاثة أقسام رئيسية : أولها الكتب الأساسية، ويقصد بها ما يسمى بأمهات الكتب وما يعتبر من أصول هذا العلم أو ذاك وتضم مكتبة الشيخ حسن البنا من الكتب الأساسية بالمعنى السابق، عددا كبيرا يشمل معظم المجالات مثل القرآن وعلومه والحديث وفنونه. والفقه ومذاهبه واللغة والأدب والعقيدة والتصوف والتاريخ. وهذا واضح من استقراء عناوين الكتب فى كل مجال من تلك المجالات. أما القسم الثانى فيضم الكتب الشاملة التى تتناول موضوعات شتى كالموسوعات مثل دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى، أو تتناول مبادئ ومقدمات العلوم كمفاتيح العلوم للخوارزمى.. إلخ. ويضم القسم الثالث الكتب الفرعية أو الثانوية فى كل مجال من المجالات المختلفة. مثل الكتب التى تتناول قضية واحدة ومحددة أو جزئية صغيرة منها كتاب فى أحكام الوصية أو كتاب فى فن الموسيقى أو آخر فى أحكام لبس العمامة والطيلسان وحمل المسبحة.. إلخ أو كتاب يتعلق بقضية التوبة أو كتاب يبدى رأيا فى إخفاق الفاشستية أو حول الاشتراكية... إلخ.

ويمكن اعتبار الكتب «ثانوية» من جهة أخرى وذلك بكونها كتبا شارحة على الأصول أو المتون، والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة ما يتعلق بكتب المذاهب الفقهية أو شرح العقائد.. منها فى الفقه كتاب رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين الحنفى. شرح قانون الوصية لأبى زهرة. ومنها فى العقائد شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية للأذرعى أو شرح عقيدة السفارينى.. إلخ.

سادسا : آثار وملاحظات الشيخ حسن البنا التى دونها فى هوامش بعض الكتب:

وتوجد عدة ملاحظات حول ما سجله الشيخ حسن البنا بخطه فى هوامش بعض الكتب وحواشى صفحاتها أو على أغلفتها. أول هذه الملاحظات. أنه كان حريصا فيما يبدو على تسجيل اسمه على الكتب التى يقتنيها وذلك إما على الصفحة الأولى من الكتاب أو على عرض الحافة الخلفية له إن كان مجلدا، وكثيرا ما سَجل فى المكانين معا فى أول صفحة بقلم رصاص أو كوبيا أو حبر بألوان مختلفة من كتاب لآخر. وفى كعب الكتاب بماء الذهب كما ه متبع عند تجليد الكتب، وبالإضافة إلى ذلك كثيرا ما لاحظت أن الشيخ حسن البنا يكتب بجوار اسمه على الكتاب ما يشير إلى ثمن شرائه ومن ذلك ما كتبه على الصفحة الأولى من

كتاب إصابة السهام فؤاد من حاد عن سنة خير الأنام للشيخ محمود خطاب السبكى، كتب البنا اسمه (حسن أحمد البنا و٥ قروش ثمن الكتاب). وكان من عادته أن يضم عدة كتب بعضها إلى بعض ويجلدها فى مجلد واحد لتقارب موضوعاتها أو أحجامها.. ومن أطرف ما وجدته بهذا الخصوص ما سجله الشيخ حسن البنا بقلم رصاص بمجموعة تضم: حاشية القناوى على الدردير وشرح الشيخ خالد فى النحو ورياض الأسماع للصيادى.. وغيره إذ كتب يقول: «كل هذه المجموعة ملك العبد الفقير إلى الله حسن أحمد الساعاتى وهو يسجلها خوف الاعتداء» وبجوار ذلك ختم كتب بداخله «تجليد أحمد عبد الرحمن الساعاتى» وفى صفحة الغلاف الداخلى أيضاً كتب حسن البنا حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه «تفكروا فى كل شئ ولاتتفكروا فى الخالق فإن الخالق لاتحيط به فكرة».

أما بالنسبة لملاحظاته التى سجلها بهوامش الكتب أو حواشى الصفحات فهى بصفة عامة قليلة إذا قورنت بقيامه بوضع خط أو علامة أمام بعض الفقرات فى صفحات معظم الكتب مما يشعر بقراءته وأن أمراً لفت انتباهه، ومن أهم ما سجله من تعليقات بخطه ما هو موجود بهوامش كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق وكتاب شرح الحكم العطائية، وقصاصة بكتاب هذى هى الأغلال للقصيمى وهنا نصوص مما كتبه بتلك الكتب.

(أ) فى كتاب الإسلام وأصول الحكم: الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ / ١٩٣٥م، يقول على عبد الرازق فى ص ٤ بخصوص الخليفة «وأن يكون له وحده الأمر والنهى وبيده زمام الأمة وتدبير ما جل من شئونها وما صغر» فكتب حسن البنا أمام تلك الفقرة «مهلاً مهلاً» وفى ص ٨ يقول المؤلف: (وإذا أنت رجعت إلى كثير مما ألف العلماء، خصوصاً بعد القرن الخامس الهجرى، وجدتهم إذا ذكروا فى أول كتبهم أحد الملوك أو السلاطين رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد عن مقام العزة الإلهية) كتب البنا معلقاً على ذلك فى هامش الصفحة نفسها (لايصح أن يكون هذا دليلاً إلا على ضعف النفسية فقط). وتعليقاً على ما أورده المؤلف بالصفحة السابقة من «أن للمسلمين مذهبين بخصوص الخليفة الأول أنه يستمد سلطانه من سلطان الله وقوته من قوته» كتب البنا تعليقاً على هذه النقطة يقول (لايؤيد هذا المذهب رأى ولا دليل ولا ندرى من أين أتى حضرة مؤلف الكتاب بذلك، وكل ما بعده ليس معناه ما يقصد إليه المؤلف وفى الصفحة التاسعة من الكتاب يقول المؤلف: «وجملة القول إن استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار على الألسنة فاش بين المسلمين» فكتب البنا أمام تلك الفقرة كلمة (كلا). وفى الصفحة الحادية عشرة شبه المؤلف الخلاف بين المسلمين فى شأن الخلافة بالخلاف بين الأوروبيين فى شأن سلطان الملوك المقدس وذكر عدة أسماء لأوروبيين فكتب حسن البنا فى حاشية الصفحة نفسها منتقداً تشبيه المؤلف. فقال: (هذا التشبيه خلط وخبط وخطأ من المؤلف أداه إليه أنه يريد أن يتمالح بذكر أسماء هؤلاء الأوروبيين، وإلا فما فهم مسلم واحد على وجه الأرض أن الخليفة مقدس السلطان كما فهم الإنجليز فى الملك جون مثلاً. فليخسأ المؤلف) أ. هـ.

(ب) فى كتاب شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى لابن عجيبة: سجل حسن البنا عناوين عدد من موضوعات الكتاب مشيراً إلى كل منها بأرقام صفحاته وبالباب الذى يقع فيه ومن تلك الموضوعات «قصة الجنيد وأصحابه وتستمر إلى ص ٢٢٦ من شرح ابن عجيبة» (الكلام على العمل الباب الأول آداب الحضرة: الباب الثانى أمراض النفوس الباب السابع وهكذا).

(جـ) فى كتاب هذى هى الأغلال لعبدالله القصيمى النجدى: عثرنا على بعض تعليقات الشيخ حسن البنا على هذا الكتاب فى قصاصة موضوعة بين صفحاته وهذا نص ما فيها بخط حسن البنا: (إن المؤلف يحمل بعنف على الغزالى والشعرانى بيد أنى أجلهما إلى حد الغرام والهيام وما كان ذلك ليمنعنى (كذا كتبت وشطب عليها.. ثم استأنف...) وما كان لحملته تلك أن تجعلنى أحكم بكفره وأطالب بشنقه.. ويل للذين ينظرون إلى الأشياء من جانب واحد.. ويل لهم وويل للإنسان منهم، ولن نجد على وجه الأرض أشد منهم ظلماً ولا أسقم فهماً.. (زهو - فقر - جهل - تواكل - تخلف عن الركب - جهل بالله - جهل بالحياة - كفران بالنفس - كفران بالمواهب - عواطف بليدة - عقول مريضة) من كلمات مؤلف الكتاب - لمصلحة من تدعوننا أيها الناقمون لأن نبتلع هذه الكمية المرعبة من السم الوبيل.. وهل موضوع الكتاب إلا صرخة مدوية - هذى هى السموم فحاذروها (وكتب فوقها كلمة فحاسبوها) هذه هى الأغلال فحطموها وإن فى الكتاب شروداً عاطفياً (الشرك والحلف بالله إلخ) وهكذا شأن كل ذى دعوة أو فكرة خير يريد أن يضعها فى شرفة النور فهو فى سبيل ذلك يكافح بعنف الغيوم المتراكمة والسحب القاتمة وقد يندفع قلمه إلى حيث لايريد» أ. هـ. بنصه.

سابعاً: بعض الكتب النادرة:

وإضافة إلى ما سبق وجدت من بين محتويات مكتبة الشيخ حسن البنا عدداً من الكتب التى تعتبر نادرة إما فى موضوعها وإما فى وجودها ومن ذلك:

(أ) مخطوطة كتاب «بارقة السيوف الداغستانية فى بعض الغزوات الشاملية ألفها العالم محمد طاهر القراخى الشرالدى «وهو عبارة عن ترجمة لحياة الأمير شامل وغزواته وحروبه فى القفقاس».

(ب) مخطوطة كتاب الوقائع الحروبية والمعارك الواقعة فى أقطار الداغستانية الجنوبية تأليف حيدر بك، ويتناول جوانب من تاريخ الجمهوريات الإسلامية فى روسيا وجهاد الأمير شامل بالقفقاس أيضاً، ويعد هذان الكتابان من الكتب النادرة فى موضوعها وفى وجودها معاً، أما الكتب النادرة فى وجودها فمن أمثلتها:

محاضرات جماعة الثقافة بأسيوط وهى جماعة صغيرة لم يكن قانونها يسمح بأن يزيد عدد أعضائها عن عشرين عضواً من الشباب المسيحى. وقد عرفت الجماعة نفسهافى مقدمة المجموعة الأولى من محاضراتها - وهى موجودة فى مكتبة الشيخ حسن البنا - بالآتى: «الجماعة هم بعض أعضاء جمعية الشبان المسيحية بأسيوط رأوا فى أنفسهم ميلاً للمطالعة وحباً فى البحث وشغفاً بالأدب عددها خمسة عشر عضواً ولايسمح قانونها بأن يزيد عن عشرين عضواً، تكونت فى بدء سنة ١٩٣٠ ولعلها أول جماعة تأسست من نوعها فى القطر المصرى أغراضها تثقيف أعضائها علمياً وأدبياً.. ،نشر ثقافتهم فى أوسع دائرة ممكنة» أ. هـ من مقدمة المجموعة الأولى من محاضرات جماعة الثقافة بأسيوط، مطبوعة بالمطبعة الأهلية بأسيوط لصاحبها هلال عبيد قيصر بدون تاريخ.

وبالإضافة إلى ما سبق، فهناك عدة كتب تعتبر طريفة فى موضوعها، وربما نادرة منها:

(أ) در الغمامة فى ذر الطيلسان والعذبة والعمامة لابن حجر الهيتمى الشافعى.

(ب) الدعامة لمعرفة أحكام سنة العمامة لجعفر الكتانى الحسنى.

(جـ) تحفة أهل الفتوحات والأذواق فى اتخاذ المسبحة وجعلها فى الأعناق تأليف فتح الله بن أبى بكر البنانى (مجلد كبير).

(د) إيضاح الدلالات فى سماع الآلات للشيخ عبدالغنى النابلسى.

خلاصة فى العلاقة بين مصادره الفكرية المقروءة وتكوين شخصيته القيادية على ضوء متغيرات الواقع الذى عاصره

يثير عرض وتحليل محتويات مكتبة الشيخ حسن البنا الخاصة. باعتبارها مصادر فكرية مقروءة، عدة تساؤلات أهمها: ما هى قدرات العقل التى يمكن أن تسهم فى تثقيفه وصياغة أفكاره مثل تلك المصادر من الكتب المختلفة؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر تفرضه طبيعة شخصية الشيخ حسن البنا وهو: هل يكفى أن يتوافر هذا العدد الضخم - نسبيا - من الكتب، وهذا التنوع فى موضوعاتها وشمولها لمعظم مجالات الفكر الإنسانى هل يكفى ذلك لكى يظهر من خلال قراءتها واستيعاب ما فيها - مفكر وقائد حركى مثل الشيخ حسن البنا؟

وبصدد السؤالين السابقين يمكن القول إن إجابة الأول لابد أن تشير إلى القدرة على الاستيعاب وسعة الأفق وغزارة المعرفة وشمولية الرؤية ورسوخ القدم فى ميدان العلم. أما إجابة السؤال الثانى فليس من حكم العادة ما يؤكد. ولا يدل ما هو مشاهد. على أن كل من توافرت لديه الكتب والمصادر الفكرية الكثيرة والمتنوعة صار بالضرورة مفكراً وقائدا. وعلى سبيل المثال فإنه مهما قيل وما يمكن أن يقال عن كثرة وتنوع المراجع والكتب التى قرأها الشيخ حسن البنا، فإنها لا تمثل - من حيث حجمها ونوعياتها - سوى جزء بسيط مما كان لدى أفراد آخرين عاصرهم الشيخ حسن البنا لعل أبرزهم أحمد باشا تيمور الذى كانت - ومازالت - مكتبته الخاصة ومقتنياته من الكتب والمخطوطات النادرة فى كل علم وفن. من أغنى المكتبات ليس فى مصر وحدها وإنما فى المشرق الإسلامى عامة، وصحيح أن أحمد تيمور كان علماً من أعلام الأدب واللغة والثقافة بيد أنه لم يكن أكثر من ذلك وقس على هذا كثيرين.

إذن فلابد من البحث عن أبعاد أخرى تفسر ظهور القيادة الفكرية الحركية التى تسعى بمجتمعها نحو التغيير والإصلاح العام. وذلك إضافة إلى سعة الاطلاع وكثرة مصادر العلم والخبرة التى تستوعبها تلك القيادة.

ومن تلك الأبعاد الأخرى التى تهيىء لظهور القيادة. ما يتصل بشخصية الفرد نفسه وتكوينه النفسى واستعداده الفطرى، ومنها ما يتصل بالوضعية الاجتماعية التى تتميز بها بيئته التى ينشأ فيها ويتحرك ضمن إطارها العام. ومنها ما يتصل بالمناخ الثقافى والفكرى الذى يتشبع به من تأثيرات المجتمع وجماعاته، طبقا لرؤى الفرد الخاصة وما يحكم تصوراته من مبادىء ومنطلقات وأطُر مرجعية. وبعبارة موجزة يمكن القول إن ما يحيط بالفرد من بيئات ونظم اجتماعية وثقافية. وطبيعة اللحظة التاريخية التى يعاصرها فى تعامله مع تلك النظم. تسهم كلها فى بلورة وظهور القيادة الساعية للتغيير مع عدم إغفال جانب التكوين الفكرى الذاتى لتلك القيادة.

ولئن كان بروز دعوة سياسية يستوجب «تبنى عقيدة ما» ومن أن الشخص القيادى لابد «أن يتشبع من هذه العقيدة ويعمل على انتصارها ويجعل نفسه حاملا لرسالة شاملة»؛ طبقا لذلك كله فإن عمل ودور تلك القيادة لابد أن يمهد له عادة بتعديل بطىء فى البنيات المادية والعقلية فى المجتمع، وفى مصر كانت تلك التعديلات والتمهيدات تتم ببطء نسبى منذ ما يقرب من قرن قبل حسن البنا.. وبلغت تلك التمهيدات أشدها كما هو معروف خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين فى البنيات المادية (الاستقلال السياسى الشكلى، والنظام الليبرالى وبدء نهضة اقتصادية مع طلعت حرب...) وفى البنيات العقلية (المعارك الكثيرة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، والتحولات الفكرية من الاتجاه العلمانى إلى اتجاه وسطى يوفق بين العقلية الغربية والإسلامية فى صورة

تحول بعض كبار مثقفى العلمانيين والليبراليين من أمثال محمد حسين هيكل، وإسماعيل مظهر، ومنصور فهمى إلى الاقتراب من الفكر الإسلامى أو التوفيق بينه وبين الفكر الغربى.. إلخ) وفى ظل تلك الظروف كان نجم حسن البنا آخذا فى الصعود أوائل الثلاثينيات وحتى بداية الأربعينيات ليكتمل كواحد من أبرز قيادات العمل السياسى والفكرى فى مصر وفى المنطقة كلها بعد الحرب العالمية الثانية.

إذن يتضح أن ثمة علاقة وثيقة بين «العقليات» من جانب، «والنظم والبنيات» القائمة فى المجتمع، أو التى ستقوم من جانب آخر. فعندما لا يكون التوافق بين العقليات والنظم القائمة تاما ومنسجما، يبدأ الاعتراض على تلك النظم، فتفقد قوتها، وتتدهور شرعيتها شيئاً فشيئاً لأن الناس لا يحترمون حقا إلا القوانين والأطُر التى يؤمنون بها، ويمكن إرغامهم على الطاعة لا على الرضا، وعندئذ تبدأ المقاومات السافرة أو الخفية. وتصبح حالة المجتمع كله فى وضع ثورى. ولما كان النموذج الليبرالى القائم خلال العهد الملكى مفروضا ويحمل فى طياته كثيرا من القيم والمبادئ التى تتعارض - كما قدمتها النخبة الليبرالية - مع ما تؤمن به أغلبية المجتمع. فقد كان من شأن التوجه الإسلامى الأصولى الذى مثله حسن البنا أن يؤدى إلى تبنى نمط من التنشئة السياسية الجديدة التى تتعارض مع النموذج الليبرالى القائم ليس فى أشكاله التطبيقية فحسب وإنما فى أسسه ومصادره الأصلية أيضا، ومن ثم فالحركة التى يقودها حسن البنا وبصفة خاصة خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية حيث بلغت الحركة أقصى قوتها كانت تهدد النظام القائم، والنظم المماثلة فى المنطقة من الجذور وتهدد بالتالى مصالح الدول الاستعمارية المستندة على تلك النظم، وفى تلك الظروف لم يكن من مخرج سوى صعود الحركة الاجتماعية إلى مرحلة التغيير الثورى وإعادة الاتساق بين «النظم والبنيات» وبين القيم والمعتقدات التى يؤمن بها المجتمع فى أغلبيته، وليس سوى الثورة. كظاهرة اجتماعية سياسية، هى التى تلبى حاجة التوفيق وتحقيق التوازن القيمى الاجتماعى السياسى، ومن ثم كان طبيعيا أن ينظر إلى حركة التغيير ضد النظام والاستعمار. والتى صارت تقودها جماعة الإخوان المسلمين حول منتصف القرن، على أنها تمثل أعلى مصادر الخطر فى المنطقة كما كشفت عن ذلك تقارير السفارة البريطانية فى القاهرة فى تلك الفترة فقد ورد بواحد منها كتبه المستر آلن - بالخارجية البريطانية: «إننى أعتقد أن العمل الصارم ضد الإرهابيين (يقصد فدائيى الإخوان المسلمين فى منطقة القناة) هو التصرف السليم ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار المجازفة بأن المصريين قد لا يستسلمون وقد يكون رد فعلهم بطريقة نجد أنفسنا معها متورطين فى حكومة عسكرية، بكل ما تتضمنه من مساوئ» (٤). ■

الهوامش :

(١) انظر فى ذلك - على سبيل المثال - كتاب الشيخ عبدالباسط بن موسى بن محمد العلموى (ت ٩٨١هـ/١٥٧٢م) المسمى المعيد فى أدب المفيد والمستفيد (دمشق: مطبعة الترقى ١٣٤٩هـ) ص١٣٠ - ١٣٩.

(٢) انظر - على سبيل المثال - كتاب الحافظ شمس الدين الذهبى، ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، تحقيق محمد على البجاوى (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٨٢هـ) ط١، ص١ ص١٦ أيضا كتابه سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنئوط (بيروت: مؤسسة الرسالة. ط٢، ١٤٠٢هـ) ص٦١.

(٣) لدى المؤلف صورة طبق الأصل من خطاب استقالة الشيخ حسن البنا من وزارة المعارف، محرر فى ٢١ جمادى الثانية ١٣٦٥هـ الموافق ٢٣ إبريل ١٩٤٦م، ومرفوع «لحضرة الأستاذ المحترم ناظر مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة لاتخاذ اللازم» وهى آخر مدرسة عمل بها الشيخ حسن البنا قبل أن يتفرغ تماماً لحمل أعباء الدعوة.

(٤) لمزيد من التفاصيل الهامة بهذا الشأن انظر:
Minute by Allen, 20.12.51, Fo 371 190150: «I think probably that stern action against the Terrorists in the Canal Zone is the right kind of action, but we have to set against it the risk that the Egyptian may not give up and may react in such a way that we find ourselves committed to military government, with its disadvantages».




الكتب
المهداة
إلى
حسن البنا
ودراسة
تحليلية لها





١ - الكتب المهداة إلى حسن البنا

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
١	محمد الحافظ بن عبد الله الجزائرى التيجانى طريقة	الحق فى الحق والخلق	« إنى إذ أدفع هذا الكتاب إلى أخى وحبيبى سيدى حسن أفندى أحمد البنا، فأنا أقدم إليه ما كتب له خاصة، معبراً عن عظيم امتنانى بنفسه الطاهرة وولهى بحاله الروحى وتقديرى لمستقبله الباهر الزاهر فى الدعوة إلى قدس الحقيقة المطلقة. المؤلف محمد الحافظ التيجانى بور سعيد فى ١٦ ديسمبر ١٩٢٧ ».	هذا أقدم اهداء عثر عليه الباحث مكتوباً على أحد الكتب وكلماته تدل على شفافية كاتبها.
٢	محمد بن أحمد بن محمد عبد السلام خضر الشقيرى	السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات	« من أخيكم فى الله عز وجل محمد أحمد بعد السلام إلى سيادتكم أيها الأخ الأستاذ حسن أفندى البنا المرشد العام «للشبان المسلمين». ١٣٥٣ / ١٩٣٤	كتب صاحب الإهداء أن الشيخ حسن البنا هو المرشد العام للشبان المسلمين سهواً فيما يبدو.
٣	محمد كامل حتة	الرسالة المحمدية وأثرها فى العالم	« إلى حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل ومرشدنا الملهم الأستاذ حسن البنا. المخلص / محمد كامل حتة ١٩٣٧/٧/١٣.	هذا الإهداء هو الوحيد الذى ذكر فيه صاحبه كلمة الملهم وصفاً لحسن البنا ـ ثم استخدمها بعد ذلك بعشرات السنين المرحوم عمر التلمسانى فى عنوان كتابه عن حسن البنا الملهم الموهوب.
٤	محمد الهادى عطية (المحامى الشرعى) بالسويس	فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم	«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد.. وبعد :	أضاف المهدى فى بعض النسخ الخمس كلمات «فى علوم القرآن»

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
		التفسير (خمسة مجلدات) سجل الإهداء على كل مجلد منها	فيسعدنى أن أهدى هذا الكتاب إلى أستاذنا وطبيب نفوسنا ومرشدنا إلى الله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الماجد السيد/ حسن البنا ـ أيده الله بروح منه ليكون ذلك ذكرى لتلك الدروس القيمة النافعة التى يلقيها الأستاذ حفظه الله بدار الإخوان المسلمين بالقاهرة، وأرجو أن يشرفنى فضيلة الأستاذ بقبول هذه الهدية المتواضعة مشكوراً والسلام: السويس فى ٥ ذى الحجة الحرام ١٣٥٨ من المخلص : محمد الهادى عطيه	والحديث» بعد قوله «الدروس القيمة النافعة التى يلقيها الأستاذ»
٥	محمد على بن صالح	الرجولة الكاملة	« إلى حامل لواء النصر المبين وجامع شتات المتفرقين محى القلوب ومنعش الأرواح سيدى الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين أتشرف بإهداء هذا الكتاب». الجندى الصغير/ محمد عى صالح ٧ صفر ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤	
٦	حامد البدرى الغوابى (الطبيب)	الطب الحديث يترسم خطى الإسلام	«هدية المؤلف إلى حضرة الأستاذ الكبير حسن أفندى البنا، المرشد العام للإخوان المسلمين، اعترافاً بجهوده فى سبيل الدعوة يقدمها جندى من جنود الإخوان المسلمين الدكتور الغوابى» ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ	
٧	محمد أمين إسماعيل (مراقب عام جمعية الإخوان المسلمين وتحفيظ القرآن)	إشراق الضياء فى أذكار الصباح والمساء	«هدية لحضرة الأستاذ المحترم الشيخ حسن البنا. المرشد العام لجمعيات الإخوان المسلمين. الأخ المخلص محمد أمين إسماعيل» ١٩٤٠/٥/٧	الشيخ محمد أبو زهرة (الششتاوى) هو العالم المعروف، خريج دار العلوم دفعة حسن البنا حيث تخرجا فى عام واحد.
٨	الشيخ محمد أبو زهرة	محاضرات فى النصرانية	«لحضرة صديقى المجاهد المحتسب التقى الأستاذ/ حسن البنا وفقه الله وسدد خطاه و أمده بروح منه » محمد أبو زهرة ١٩٤٢/٦/٢٨	

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
٩	محمد عبد الرحيم عنبر (إخصائى بمكتب البحوث الفنية بوزارة الشئون الاجتماعية)	مشكلة الفقر	إلى حضرة الأستاذ الكبير/ حسن البنا رئيس جماعة الإخوان المسلمين مع وافر تقديرى وتمنياتى. المخلص/ محمد عبد الرحمن عنبر ١٩٤٢/٥/٢٦.	هذا الإهداء هو الوحيد من بين الإهداءات التى وصفت حسن البنا «رئيس جماعة الإخوان»
١٠	محمد تواضع	الصين والإسلام	«إلى حضرة فضيلة الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين للتذكار من المؤلف/ محمد تواضع». ١٩٤٥/٦/٢٤	الكتاب واحد من سلسلة إصدارات قسم العالم الإسلامى بجماعة الإخوان المسلمين
١١	رزق عبد السيد البرماوى (مسيحى) وآخرون * عبد الله على علام * محمود سلامة	أقاصيص اجتماعية	« إلى حضرة الأستاذ الفاضل صاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا. المرشد العام الأمين للإخوان المسلمين، ندعو الله أن يديم عليه (الحمد) والإيمان للعمل لخير الإخوان وبنى الإنسان. رزق عبد السيد البرماوى . ١٩٤٦	يلاحظ أن صاحب الإهداء هو المسيحى من بين مؤلفى الكتاب ـ وجاء فى إهدائه بعض الكلمات غير المألوفة مثل «يديم عليه الحمد .. وبنى الإنسان .. وهى صحيحة»
١٢	أسد الأشقر	من صميم لبنان	«إلى حضرة المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا عربون تقدير واحترام ». أسد الأشقر ٢٥ نيسان ١٩٤٦.	أطرف إهداء «عربون تقدير واحترام» ! !
١٣	على الغاياتى (الشاعر المعروف)	وطنيتى	«هدية ودية من المؤلف إلى حضرة الأستاذ المرشد العام الحاج حسن البنا» على الغاياتى ١٩٤٧/٣/٩.	احتفظ الباحث بصورة من نص الإهداء وهى الصفحة الأولى من الكتاب ويلاحظ الخط الجميل الذى كتب به على الغاياتى إهداءه بحبر شينى أسود.
١٤	على عبد الرازق الشيخ والقاضى	الإجماع فى الشريعة الإسلامية	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المرشد حسن البنا تحية تقدير ومودة.	لدى الباحث صورة من نص الإهداء بخط على

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
	سابقاً		على عبد الرازق ـ ١٧ مايو سنة ١٩٤٧.	عبد الرازق وهى الصفحة الأولى من كتابه المذكور
١٥	على فكرى	القرآن ينبوع العلوم والعرفان	«هدية لفضيلة الأستاذ الجليل حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مع احترامى». المؤلف على فكرى ١٩٤٧/٥/٨	
١٦	محمد بن كمال أحمد الخطيب (بن شهيد معركة ميسلون)	نظرة العجلان فى أغراض القرآن	«هدية المؤلف لفضيلة المرشد الأكبر الأستاذ حسن بن البنا المعظم» محمد بن كمال الخطيب ٢٧ شوال ١٣٦٥ ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧	يلاحظ ألفاظ التعظيم والمبالغة فيها ـ وهى عادة الشوام
١٧	محب الدين الفقى التونسى	مأساة عرش : سلسلة من الحقائق التاريخية والوثائق السياسية ـ مكتب استعلامات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى التونسى	«إلي فضيلة الإمام المجدد الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين أبقاه الله وأيده بروح منه، من محب الدين الفقى التونسى » ٢٣ شعبان الأكرم ١٣٣٧ هـ.	الإهداء الوحيد الذى وصف فيه حسن البنا بأنه «مجدد»
١٨	عبد الله المزروع	نصحيتى إلى إخوانى فى الدين والنسب	أهدى هذه الرسالة إلى المجاهد الكبير الأستاذ حسن البنا، وفقه الله ونفع به، عبد الله المزروع مكة المكرمة ١٥ ذوالحجة ١٣٦٤ نوفمبر ١٩٤٥.	توجد عدة إهداءات من الحجاز بالمملكة السعودية
١٩	محمد مراد	على هامش المشكلة النوبية	إلي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين من مؤلفه محمد مراد جماد آخر ١٣٦٦هـ .	
٢٠	جفرى بطرس غالى	فلسطين : تقرير قدم إلي الاتحاد	إلي حضرة صاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا، مع أصدق تحياتى /جفرى بطرس غالى.	يبدو أن صاحب الإهداء هو شقيق بطرس غالي

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
		البرلماني الدولي عن هجرة الجماعات	١٩٤٦/١٢/٢٩م	
٢١	راشد البرواى (الدكتور المعروف)	حرب البترول فى الشرق الأوسط	هدية إلى الأستاذ الجليل حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مع التحية والتقدير. المخلص راشد البراوى ١٩٤٦/٦/٢٩.	
٢٢	على نورونتوفتش ومحمد سيد الحموى	الإسلام فى بولونيا	هدية إلى أستاذى الكبير ومرشدنا الأعلى الأستاذ حسن البنا. محمد سيد الحموى ١٩٣٦/١٣٥٤	
٢٣	محمد نجيب المستكاوى المحامى ومحمد على المستكاوى المهندس (مترجمان)	* فظائع الاحتلال البريطانى: الرعب فى دنشواى لبرناردشو * فظائع العدالة البريطانية فى مصر ـ ولفرد سكاوان بلنت	إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ١٩٤٧/٨/١٤ محمد نجيب المستكاوى	
٢٤	محمود حامد محمد وجمال الدين الفندى	اكتشاف مصدر فيضان النيل نتائج جديدة على ضوء النظريات الميترولوجية الحديثة	هدية لحضرة صاحب الفضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا مع الاحترام الوافر والإخلاص المتناهى من المؤلف محمود حامد ١٩٤٤/٤/٢٣.	
٢٥	محمد أبو زهرة الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول	مالك : حياته وعصره آراؤه وفقهه	لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ حسن البنا حفظه الله وسدد خطاه محمد أبو زهرة ١٩٤٧/١٠/٢٨.	
٢٦	محمد حسين مكاوى باشمهندس بلدية ميت غمر	التقدم العمرانى لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى	هدية إلي فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا محمد حسنين مكاوى ١٩٤٢/٥/٢٥.	

م	اســم المــؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حســن البنــا	نص إهداء المؤلف إلى حســـن البنـــا	مــلاحظــات
٢٧	أنور ودود	مهازل البهائية على مسرح السياسة والدين	نقدمه لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين. المؤلف ١٩٤٧/١١/١٧.	
٢٨	أحمد أبو الخضر منسى	كيف تنجح الحياة؟ ٨٠٠ حكمة وحديث لأعاظم المشاهير	مهداة من المؤلف ولاء وإكباراً إلي فضيلة الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين أحمد أبو الخضر منسى فى ١٩٤٧/٥/٢٧.	
٢٩	عبد الرحمن بن ناصر السعدى	تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله	إهداء لفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا. عبد الرحمن بن ناصر ١٣٦٦هـ.	كتب عليه/ طبع على نفقة محمد نصيف بجده ومعظم الكتب المهداة من السعوديين كتب عليها نفس العبارة
٣٠	مصطفى أحمد الزرقا (وكيل كلية الحقوق بجامعة دمشق)	فى فكرة الحق والالتزام، نظريتى الأشخاص والأموال فى الفقه الإسلامى معالجة بالأسلوب الحقوقى الحديث	هدية المؤلف إلى فضيلة الأستاذ الكبير المرشد الشيخ حسن البنا المعظم. دمشق ٢٤ رجب ١٣٦٧. ٢ حزيران ١٩٤٨. مصطفى أحمد الزرقا	
٣١	أحمد تقى الدين	أحمد حسنين باشا فقيد مصر العظيم	هدية من المؤلف إلى الرجل العظيم إلى حامى ديار الإسلام من النفاق إلى المرشد الكبير حسن البنا، هدية إخلاص وإعجاب وولاء ـ المخلص أحمد تقى الدين مطار المزة فى ١٩٤٨/٣/٢٥.	هذا أغرب إهداء صادف الباحث
٣٢	أحمد قهر الدين الأندونيسى	هذه هى أندونيسيا أثر المواد الأولية فى مستقبل أندونسيا السياسى	إلى أستاذى الكريم المرشد العام للإخوان المسلمين فضيلة الشيخ حسن البنا. اعترافا بمبادىء الإخوان السامية وتقديراً لحسن صنيعهم نحو العالم الإسلامى وخاصة أندونيسيا وأملا فى الوحدة الإسلامية الكبرى مع عظيم الاحترام. قهر الدين الأندونيسى ١٩٤٧/١٣٦٧/١/٢٥.	
٣٣	محمود شلبى	معجزة القرآن فى جنة الرضوان	هدية لفضيلة الأستاذ الجليل حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مع احترامى. المؤلف محمود شلبى ١٩٤٧/٥/٨.	

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
٣٤	عبد المغنى سعيد	العالم بعد الحربين	إلى فضيلة الأستاذ الكبير المرشد العام للإخوان المسلمين مع عظيم تقديرى وأطيب تمنياتى . عبد المغنى سعيد	عبد المغنى سعيد كاتب ومؤلف معروف مخضرم مازال على قيد الحياة (بدون تاريخ للإهداء)
٣٥	يحيى أحمد الدرديرى/ الدكتور فى العلوم السياسية	مكانة العلم فى القرآن دعوة الإسلام إلى العلم والعمل لخير الجميع وآثار ذلك فى المدينة الغربية	إلى أخى وصديقى الأستاذ الكبير حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مع أطيب تمنياتى المؤلف الدكتور/ يحيى أحمد الدرديرى.	الدكتور يحيى من مؤسسى جمعية الشبان المسلمين (بدون تاريخ للإهداء)
٣٦	عبد الله عفيفى	الفتح المبين فى العمل بالدين المتين	إهداء إلى الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين . عبد الله عفيفى.	(بدون تاريخ للإهداء)
٣٧	عبد الرازق سلامة رئيس قسم القضايا	مكافحة الأمية	مهداة إلى فضيلة أستاذنا المرشد العام باكورة أرجو بدعواتكم أن توفق. عبد الرازق سلامة	(بدون تاريخ للإهداء)
٣٨	على الغزالى الجبيلى مفتش بالأوقاف	حق الفرد كإنسان	أهدى رسالتى هذه إلى حضرة صاحب الفضيلة المجاهد الإسلامى الكبير الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين مع أحسن تمنيات النجاح، على الغزالى الجبيلى ١٩٤٨/٦/٢ هـ	صاحب الإهداء شقيق الحاجة زينب الغزالى ـ المعروفة ـ
٣٩	عباس كرارة	الدين والأدب	هدية وفاء وإخلاص من المؤلف إلى زميلى وأخى الحج فضيلة المرشد العام الأستاذ الشيخ حسن البنا حفظه الله. عباس كراره ٢٨ ذى الحجة ١٣٦٣ هـ	
٤٠	الشيخ محمود محمد خطاب السبكى	المقامات العلية فى النشأة الفخيمة النبوية	إلى حضرة الأستاذ الجليل المرشد العام للإخوان المسلمين. محمود خطاب السبكى	صاحب الإهداء هو مؤسس ورئيس الجمعية الشرعية
٤١	محمد أبو الفيض المنوفى	كتاب الوجود: مباحث فى الله والطبيعة والإنسان	من المؤلف لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين هدية تقدير واحترام . محمد أبو الفيض المنوفى.	(بدون تاريخ للإهداء)
٤٢	محمد عبد الظاهر بن محمد نور الدين الفقيه	حياة لقلوب بدعاء علام الغيوب	هدية تذكارية للأخ الأستاذ الفاضل الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين محمد عبد الظاهر	بدون تاريخ للإهداء

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
٤٣	محمد عبد العظيم الزرقانى	مناهل العرفان فى علوم القرآن	إلى فضيلة المرشد الكبير صديقى الأستاذ حسن البنا أهدى هذا الكتاب تحية للإخوان المسلمين ودعوتهم. المخلص محمد عبد العظيم الزرقانى	
٤٤	عبد الرحمن بن ناصر السعدي (من علماء عنيزة بالمملكة العربية السعودية)	القواعد الحسان لتفسير القرآن	إهداء لفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا.	(بدون تاريخ للإهداء)
٤٥	إبراهيم السيد القلش (مدرس)	منار الرشد	هدية المؤلف إلى حضرة الفاضل حسن أفندى البنا رئيس جمعية الإخوان المسلمين إبراهيم السيد المدرس بمدرسة الحسينية الأميرية.	(بدون تاريخ للإهداء)
٤٦	محمد عبد العزيز الخولى	القرآن - وصفه - هدايته - أثره - إعجازه	هدية لفضيلة الأستاذ الجليل المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا . «إدارة مجلة التقوى»	
٤٧	علوى بن عباس المالكى	المذهب اللطيف فى أحكام الحديث الشريف	هدية من المؤلف إلى حضرة فضيلة العالم الجليل الشيخ حسن البنا ويطلب المهدى الدعاء والإجازة والإرشاد بالنصائح الغالية كما أنى أخص جماعة الإخوان المسلمين بالسلام وأرجوكم تبليغ سلامى إليهم. علوى	(بدون تاريخ للإهداء)
٤٨	أنور الجندى	كفاح الذبيحتين فلسطين والمغرب	إلى أستاذنا وإمامنا فضيلة المرشد العام حفظه الله نهدى الرسالة الثانية من سلسلة رسائل تاريخ الفكرة الإسلامية . الجندى المخلص / أنور الجندى	صاحب الإهداء هو الكاتب والمؤلف المعروف
٤٩	مسعد محمود سلام (طبيب)	دم جديد	إلى فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين وقائدهم الأمين. أهدى كتابي لعله يزكينى جنديا من جنود الدعوة . مسعد محمود سلام كلية الطب	دون تاريخ للإهداء وهو الإهداء الوحيد الذى عثر عليه الباحث يطلب صاحبه فيه الانضمام إلى الإخوان المسلمين

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
٥٠	عبد الرحمن بن يوسف الأفريقى	توضيح الحج والعمرة	هدية من المؤلف إلى حضرة الأستاذ المرشد الأعظم الشيخ حسن البنا الموقر. المدينة المنورة/ عبد الرحمن الأفريقى	(بدون تاريخ للإهداء)
٥١	صبْرى أبو المجد	وحى الوطنية	إلى الأستاذ الفاضل زعيم الإخوان المسلمين إلى داعية الحق أستاذنا الكبير صاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا، يهدى أحد تلاميذه إليه كتابه صبرى أبو المجد من الإخوان المسلمين بالمنصورة	الإهداء الوحيد الذى صادف الباحث وصرح كاتبه بأنه من الإخوان المسلمين.
٥٢	حسين الهوارى (دكتور)	فضل العرب على الجراحة	لمثل الزعامة الإسلامية ومجدد شباب الإسلام فضيلة الأستاذ الكبير المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا. حسين الهراوى.	
٥٣	أمين حافظ شرف	اللحن الملكى وزهر الثلج	يا زعيم المجاهدين وأمل المؤمنين الأخ العالم الفاضل نابغة الزمن الأستاذ/ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين أعزه الله. عرة المحرم ١٣٦٧/ ـ ١٩٤٧/١١/١٤ أمين حافظ شرف.	

٢ ـ كتب مهداة إليه وهى ليست من تأليف من أهدوها

م	اسم كاتب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص الإهداء	ملاحظات
٥٤	محمد نصيف (جدة)	رسالة الشرك ومظاهره تأليف/ مبارك محمد الميلى	هدية لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين ١٩ صفر ١٣٥٧ جدة/ الحجاز محمد نصيف	أهدى الشيخ محمد نصيف عدة كتب لحسن البنا
٥٥	عبد الرحمن رضا	خفايا المبشرين فى تنصير أبناء المسلمين تأليف أحمد محمد سالمان	إهداء : إلى أستاذى ومولاى ومرشدى حسن أحمد البنا . ١٩٣٤/٥/٢٣ عبد الرحمن رضا .	
٥٦	عبد الهادى ..(الاسم غير كامل)	الأوقاف الإسلامية: محاضرة الأستاذ عبد القادر السيس	تقدم إلى الأستاذ حسن أفندى البنا. المرشد العام للإخوان المسلمين فى مصر ١٣٣٦/١١/١٢ رئيس جماعة الإخوان المسلمين بحلب عبد الهادى.	
٥٧	حسن محمود الحجال	القصد المجرد فى معرفة الرسم المفرد، لابن عطاء الله السكندرى	ذكرى حب وإخاء فى الله إلى حسن البنا أفندى الداعى إلى ربه أكثر الله فى الأمة الإسلامية أمثال حضرته ، المخلص حسن محمود الحجال ٢٠ الحجة ١٣٤٩ هـ	
٥٨	محمد حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية	الأشفية :مع بيان أمراض القلب	ذكرى لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين لزيارته لجماعة أنصار السنة المحمدية مساء السبت ٢٩ رجب ١٣٥٧. محمد حامد الفقى .	
٥٩	محمد السعيد أحمد (دكتور)	الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للإمام النووى	إلى صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين أهدى تلك القدوة الصالحة بمناسبة سفرى إلى الأقطار الحجازية. دكتور محمد السعيد أحمد/ شعبة المحلة الكبرى. سنة ١٣٥٨هـ	

م	اسم المؤلف صاحب الإهداء	عنوان الكتاب المهدى إلى حسن البنا	نص إهداء المؤلف إلى حسن البنا	ملاحظات
٦٠	السيد تصدق حسين القادرى	الإسلام والنظام العالمى الجديد تأليف مولاى محمد على رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور ترجمة أحمد جودة السحار	للنقد والتقريظ هدية لحضرة صاحب الفضيلة المجاهد الكبير حسن البنا المحترم المرشد العام للإخوان المسلمين بالقاهرة. من السيد تصدق حسين القادرى باب الأنمار شارع الرشيد بغداد ٢٩ شوال ١٣٦٥ هـ.	
٦١	عبد الرؤوف (الاسم غير كامل)	التوجيه الأدبى . تأليف أحمد أمين ـ طه حسين ـ عبد الوهاب عزام ـ محمد عوض محمد	أستاذى الجليل بعد التحية : لم أستطع أن أحدد أماكن خاصة فى هذا الكتاب كى تقرأ فكله ذو خاصية واحدة هى ما أعرفه وتعرفه عن الدكتور طه حسين. خادمكم عبد الرؤوف.	بدون تاريخ للإهداء .
٦٢	محمد نصيف يحيى الجمانى	صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان	إهداء إلى حضرة الشيخ حسن البنا المحترم .. من طرق محمد نصيف يحيى الجمانى.	بدون تاريخ للإهداء .
٦٣	يس محمود زيان (واعظ)	مكارم الأخلاق لأبى منصور الثعالبى	إهداء من الأخ يس محمود زيان واعظ منطقة الجمرك بالإسكندرية إلى فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا .	بدون تاريخ للإهداء
٦٤	محمد خليل الخطيب	الفتوح لمعرفة أحوال الروح تأليف عبد الهادى بن الإبيارى	إلى من أوتى الحكمة وفصل الخطاب إلى حجة الله على الشباب إلى إمام الأتراب إلى مرشد الضالين إلى العزيز التواب إلى أطيب النفوس من الأوصاب إلى أخى وأستاذى حسن أحمد البنا المرشد العام للإخوان المسلمين أهدى خير كتاب ألف فى هذا الباب. محمد خليل الخطيب.	

ب ـ دراسة تحليلية وثائقية للإهداءات

تضم المكتبة الخاصة بالشيخ حسن البنا مجموعة من الكتب المهداة إليه إبان حياته ـ إما من مؤلفيها مباشرة ـ وكان هذا هو الغالب ـ أو من أناس آخرين غير مؤلفيها فى بعض الحالات. وكان أول من أهداه كتباً هو والده الشيخ أحمد، وقد تحدث عن ذلك فى «مذكرات الدعوة والداعية» وذكر أن الكتب التى أهداها إليه والده تركت فى نفسه «أعمق الأثر» مثل كتاب «الأنوار المحمدية» للنبهانى، و«مختصر المواهب اللدنية» للقسطلانى، و«نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين» للشيخ الخضرى . وقد عثرت على نسخ تلك الكتب فى مكتبته الخاصة أثناء عملى بها، ولكن غير مدون بأى منها نص إهداء من والده .

أما الكتب المهداة إليه ، وعليها نصوص إهداءات الذين أهدوها، فعددها حوالى مائة كتاب فى موضوعات شتى كما سنرى . ولا يمثل هذا العدد الا نسبة ضئيلة من إجمالى عدد كتب مكتبته الموجودة حالياً (عدد الكتب المهداة يساوى $\frac{1}{35}$ من إجمالى كتب المكتبة تقريباً). وبعد حصرها، ومعرفة ما فيها، تبين لى أن لهذه الكتب المهداة إليه أهمية فكرية وثقافية وسياسية متشعبة الدلالات، وتفوق أهميتها العددية إذا قارناها بإجمالى ما فى مكتبته من كتب.

فظاهرة «التهادى بالكتب» بصفة عامة هى من الظواهر التى عرفت بدرجات متفاوتة ـ فى التاريخ العلمى والثقافى والأدبى للحضارة العربية الإسلامية، بل إنها عرفت أيضاً فى تاريخها السياسى، وخاصة فى عصور الازدهار والتألق العلمى؛ إذ أدى حب الخلفاء والأمراء والسلاطين للكتب والمؤلفات فى مختلف مجالات العلم، إلى رواج عملية إهدائها إليهم، وخاصة تلك الكتب التى كانت تخلو منها خزائنهم، وذلك كوسيلة للتقرب منهم، ونوال رضاهم وعطاياهم، والفوز بالصلات أو المناصب.

ولايزال المشتغلون بالعلم والثقافة والأدب يتهادون بالكتب فيما بينهم تاكيداً لروابط الصداقة والتعارف، أو طلباً للرأى والنصيحة، أو حتى من باب الإعلام والإعلان عن أعمالهم. وأياً ما كان الغرض من إهداء الكتب، فإن مقدمها ـ أو مستقبلها ـ لايشترط فيه الغنى، ولا الجاه أو المنصب، كما لا يمنع أن يكون من هؤلاء، ولكنه لابد أن يكون متعلماً. وهو إلى ذلك قد يكون صديقاً، أو جاراً، أو مريداً، أو ذاحاجة. وقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على الهدية لتأليف القلوب فقال «تهادوا تحابوا».

• وكلما تنوعت فئات الذين يقومون بإهداء الكتب إلى شخص بعينه، دل ذلك على أنه موضع احترام فى نظرهم، وربما فى نظر الوسط الثقافى الذى يمثلونه، والطبقات الاجتماعية التى ينتمون إليها أيضاً. كما أن تنوع موضوعات الكتب المهداة، واختلاف القضايا التى تتناولها، يدلان على تنوع اهتمامات المهدى إليه، واتساع أفقه، وقدرته على إقامة علاقات طيبة مع أصحاب الآراء والأفكار والاهتمامات المتباينة. وإلى جانب كل ذلك، فإن اختيار «كتاب» ليكون هدية إلى شخص ما، يدل من ناحية المهدى على حُسن ذوقه، ورقى سلوكه أما من ناحية المهدى إليه فيدل على شهرته بحب العلم وتقديره للكتب.

تلك إذن نبذة عن أهم الدلالات التاريخية، والفكرية، والاجتماعية، والسياسية العامة لظاهرة التهادى بالكتب. فهل كانت للإهداءات التى

تلقاها الشيخ حسن البنا من الكتب مثل هذه الدلالات؟

لقد قمت أثناء فحصي لمكتبة الشيخ في صيف سنة ١٩٨٩ برصد و تسجيل عناوين الكتب التى أهديت إليه، وأسماءمؤلفيها، وأصحاب الإهداءات، واستهوتني - بصفة خاصة - نصوص الإهداءات المكتوبة على وجه الصفحة الأولى - عادة - من كل كتاب مهدى إليه، وتاريخ الإهداء إن كان موجوداً. ولم أنفض يدى من المكتبة إلا بعد أن أتيت على ما فيها من كتب كتاباً كتاباً، مسجلا بياناتها، وناقلاً لنصوص الإهداءات كلما عثرت على نص منها، ثم صنفت تلك الإهداءات، ورتبتها ترتيباً زمنياً، وفقاً لتواريخ الإهداءات نفسها، وسجلت حصيلة هذا العمل فى الجدول، الذى سنقدمه هنا بتمامه - وتنفرد مجلة القاهرة بنشره لأول مرة - وذلك بعد تحليل محتواه فى ضوء الدلالات العامة السالف ذكرها عن ظاهرة التهادى بالكتب . ولهذا التحليل ثلاثة محاور أساسية: أولها يدور حول «مؤلف الكتاب وصاحب الإهداء» وثانيها حول عنوان الكتاب المهدى وموضوعه، وثالثها حول نص الإهداء المكتوب وتاريخه. أى أننا سوف نتحدث عن «صاحب الهدية» و «موضوع الهدية» وعن «شخص المهدى إليه» من خلال نصوص الإهداء .

أولاً : من هم أصحاب الكتب المهداة؟

الذين أهدوا كتباً للشيخ حسن البنا - من واقع أسمائهم، ومهنهم، وما نعرفه عن المكانة الاجتماعية والأدبية لبعضهم - كانوا جداً متنوعين، بحيث يمكن القول إنهم فى جملتهم يمثلون عينة من مختلف أقسام الانتلجانسيا المصرية الجديدة ذات التعليم المدنى الحديث، وعينة من فئة علماء الأزهر وقادة الجمعيات الإسلامية ذوى الثقافة الدينية والتراثية .

ولم تأت الإهداءات من شخصيات تنتمى لطبقة اجتماعية دون غيرها، أو من أبناء مهنة واحدة، أو حتى أبناء وطن واحد أو دين واحد، وإنما هم خليط من كل هذا ، ومن مستويات ثقافية متباينة. فمنهم من كان يعد رمزاً من الرموز الفكرية التى أثارت جدلاً سياسياً وثقافياً ودينياً حاداً فى بدايات العهد الملكى، وهو الشيخ على عبد الرازق، مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم الذى أثار هذا الجدل المشار اليه.ولم يكن الشيخ حسن البنا قد تخرج من دار العلوم عندما صدر كتاب الشيخ على سنة ١٩٢٥، وعثرت على نسخة (طبعة أولى) من الكتاب فى مكتبته ، وقد سجل على هوامش بعض صفحاتها ملاحظات وتعليقات بخط يده ، يؤكد فيها على اختلافه مع الشيخ على فيما ذهب إليه فى هذا الكتاب.

ولا تحدثنا مصادر تلك الحقبة عما إذا كانت هناك علاقة مابين الشيخ على عبد الرازق والشيخ حسن البنا أم لا ؟ وذلك قبل أن يهديه كتابه «الإجماع فى الشريعة الإسلامية» وكان نص إهدائه هو «حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المرشد حسن البنا، تحية تقدير ومودة .على عبد الرازق ١٧ مايو سنة ١٩٤٧»ويبدو - على أية حال - أن العلاقة بينهما كانت قائمة على المودة والتقدير المتبادل لا التدابر أو التنافر .

ومن الذين أهدوا الشيخ حسن البنا كتبا، قيادات بارزة فى مجال الدعوة والإرشاد كانوا أكبر منه سناً، وسبقوه بتأسيس جمعيات إسلامية قبل أن يؤسس هو جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨. مثل الشيخ محمود محمد خطاب السبكى، مؤسس الجمعية الشرعية سنة ١٩١٢، الذى أهداه نسخة من كتاب له بعنوان «المقامات العلية فى النشأة الفخيمة النبوية» وكذلك أهداه الشيخ محمد حامد الفقى، مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٩٢٢، نسخة من كتاب له بعنوان «الأشفية مع بيان أمراض القلب» . والدكتور يحيى أحمد الدرديرى وهو من مؤسسى جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧ أهداه نسخة من كتاب له بعنوان «مكانة العلم فى القرآن، ودعوة الإسلام إلى العلم والعمل لخير الجميع، وآثار ذلك فى المدنية الغربية».

ومنهم أساتذة جامعة، مثل الدكتور راشد البراوى الذى أهداه نسخة من كتابه «حرب البترول فى الشرق الأوسط» وذلك بتاريخ ١٩٤٦/٦/٢٩. والشيخ مصطفى أحمد الزرقاء، الذى كان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة دمشق حين أهداه نسخة من كتابه «فى فكرة الحق والالتزام...» وكذلك الشيخ / محمد أبو زهرة الأستاذ بكلية الحقوق -

جامعة فؤاد آنذاك ـ أهداه عدة نسخ من كتابه «مالك: حياته، وعصره ، وآراؤه، وفقهه» ، ونسخة من كتابه «محاضرات فى النصرانية» .

ومنهم، أيضاً ، الأديب والشاعر والكاتب الصحفى، أمثال : الشيخ على الغاياتى منشىء مجلة «منبر الشرق» والشاعر الوطنى ذائع الصيت. وقد أهدى إلى الشيخ حسن البنا نسخة من ديوانه «وطنيتى». وعبد المغنى سعيد ـ الصحفى والكاتب ـ أهداه نسخة من كتابه «العالم بعد حربين».

وصبرى أبو المجد، الصحفى ، أهداه نسخة من كتابه «وحى الوطنية».

ومنهم كذلك، مهنيون من المحامين والأطباء والمهندسين والمدرسين، أمثال محمد الهادى عطية، المحامى الشرعى بالسويس ـ آنذاك ـ الذى أهداه نسخة من كتابه «فتح القدير فى علم التفسير» (خمسة مجلدات) ، ومحمد حسين مكاوى ، باشمهندس بلدية ميت غمر ـ آنذاك ـ الذى أهداه نسخة من كتابه «التقدم العمرانى لمدينة القاهرة، والمدن المصرية الأخرى» وأهداه الطبيب مسعد محمود سلام ـ بكلية الطب ـ نسخة من كتاب له بعنوان «دم جديد» وكذلك الدكتور حسين الهراوى أهداه نسخة من كتابه «فضل العرب على الجراحة» وأهداه المدرس ابراهيم السيد القلش نسخة من كتاب له بعنوان «منار الرشد».

وكان منهم موظفون بسطاء بالجهاز الإدارى للدولة، أو بالمؤسسات الحكومية مثل : محمد عبد الرحيم عنبر ـ إخصائى بمكتب البحوث بوزارة الشئون الاجتماعية آنذاك ـ أهداه نسخة من كتابه «مشكلة الفقر» وأهداه عبد الرازق سلامة ـ رئيس قسم القضايا آنذاك ـ نسخة من كتابه «مكافحة الأمية»... الخ

وبعضهم كان من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، منهم : محمد أمين إسماعيل ـ كان مراقباً عاماً بجمعية الإخوان ـ وأنور الجندى الكاتب الإسلامى (من إخوان القاهرة)، ومحمد السيد أحمد (طبيب من إخوان المحلة الكبرى) ... الخ

وكان بعضهم من الأقباط أمثال : جفرى بطرس غالى، ورزق عبد السيد البرماوى وبعضهم الآخر من أبناء الأقطار العربية والإسلامية أمثال : أسد الأشقر من لبنان، ومحمد بن كمال الخطيب من سوريا، ومحب الدين الفقى من تونس، وعبد الرحمن بن ناصر السعدى من السعودية، وأحمد قهر الدين من أندونسيا...

ويشير هذا التنوع والتعدد فى الانتماءات الاجتماعية والمهنية والثقافية للذين أهدوا كتباً للشيخ حسن البنا إلى أحد أمرين أو هما معاً:

الأمر الأول هو شمول صلاته واتصالاته بمختلف تلك الفئات والطبقات والمستويات الثقافية فى المجتمع، ويبدو هذا متسقاً مع شمول دعوته إلى الإسلام، كما يبدو متفقاً مع رأى أستاذنا الكبير طارق البشرى فى الشيخ حسن البنا أنه كان «شخصية مجمعة تألف وتؤلف»

أما الأمر الثانى فهو أن الدعوة التى نادى بها، والخطاب الذى مارسه عبر وسائط متنوعة، مثل الكتابة فى الصحف والمجلات، وإلقاء الخطب فى الاحتفالات العامة، وإصدار الرسائل، وإقامة المشروعات الاجتماعية والاقتصادية؛ هذه الدعوة وذاك الخطاب قد جذبا عناصر من فئات شتى. ولقيا قبولاً واستجابة لدى أبناء قطاعات مختلفة من المجتمع.

ثانياً : تصنيف وتحليل الكتب المهداة

بتنوع انتماءات واهتمامات الذين أهدوا كتباً إلى الشيخ حسن البنا؛ تنوعت عناوين كتبهم المهداة إليه، ومن ثم تعددت موضوعاتها والمجالات العلمية والثقافية التى تنتسب إليها.

ومن خلال عناوين تلك الكتب، وبمراجعة موضوعاتها، والقضايا التى تناولتها أمكن تصنيفها فى ثلاثة عشر مجالاً من مجالات العلم والفن والأدب والثقافة وهى :

١ ـ علوم القرآن وتفسيره

٢ ـ علم الحديث النبوى

٣ ـ السيرة النبوية

٤ ـ الفقه وأصوله

٥ ـ العقيدة

٦ ـ الرقائق والأذكارومكارم الأخلاق

٧ ـ علوم التصوف

٨ ـ الفلسفة الإسلامية

٩ ـ التاريخ والسياسة

١٠ ـ الأدب والفنون

١١ ـ الطب والصحة

١٢ ـ العلوم الطبيعية والعمران

١٣ ـ فى الثقافة العامة.

والأمثلة من الكتب المهداة إليه فى كل مجال من تلك المجالات كثيرة، ومثبتة فى الجدول المرفق بعناوين الكتب المهداه وأسماء أصحاب الإهداءات ونصوص إهداءاتهم.

ولعل أهم ما نلاحظه بخصوص تنوع عناوين الكتب المهداة إليه وتعدد موضوعاتهاهو أنها رغم هذا التنوع والتعدد لم تكن جديدة على الشيخ حسن البنا أو غريبة عن اهتماماته؛ إذ نجد فى الكتب التى اقتناها بنفسه كتباً تناولت نفس الموضوعات التى تناولتها الكتب التى أهديت إليه، بل وأكثر منها عدداً ـ بطبيعة الحال ـ وتنوعاً على نحو ماهو وارد بهذا الملف في الجزء الخاص بتحليل مكونات مكتبته الخاصة.

ويدل هذا التنوع الكبير فى الكتب المهداة إليه، على أنه اشتهر، وعرف باتساع أفقه، ورحابة صدره، وحبه للعلم، وحرصه على تحصيله مما دفع معارفه ومحبيه وراغبى التعرف عليه إلى إقدامهم على إهدائه نسخاً من كتب من تأليفهم، أو من تأليف قوم آخرين. وثمة دلائل كثيرة تؤكد صحة هذا الاستنتاج، لاحاجة إلى التفصيل فيها هنا، وإنما لفت نظرى بيت من الشعر (رجز) كثيراً ماسجله الشيخ حسن البنا على أغلفة كتب مكتبته، أو فى هوامش صفحاتها كما فى كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لمحمد بك دياب، فقد كتب على صفحة الغلاف الداخلى له «العلم شيء حسن فكن له ذا طلب» .

ومن واقع ما شاهدته فى مكتبته، وما تركه هو من آثار مكتوبة على صفحات وأغلفة الكتب، يمكن القول باطمئنان إن حسن البنا كان طلاّبا للعلم، قرّاءً للكتب، جمّاعاً لها أنى وجدها، وأنه لم يحصر نفسه فى مجال واحد من مجالات العلم والمعرفة، بل انفتح عليها قدر طاقته، وقد تبين ذلك من تحليلنا لمكونات مكتبته، التى ضمت إلى جانب كتب التراث وفروع العلوم المختلفة، كتباً مترجمة فى معارف شتى منها نسخة من كتاب «الآفات الاجتماعية» تأليف تولستوى ، وترجمة محمد رضا، ونسخة من كتاب «التربية الاستقلالية» ، أو إميل القرن التاسع عشر «تأليف ألفونس اسكيروس» وترجمة عبد العزيز محمد. ونسخة من قصة بيركليس «أميرصور» ترجمة محمود لطفى ثابت ، و «مقدمة الحضارات الأولى» لغوستاف لوبون، وترجمة محمد صادق رستم. ونسخة من رائعة شلى «برومثيوس طليقاً» ترجمة الدكتور لويس عوض . ونسخة من «البيان الشيوعى» لماركس وإنجلز، مترجم ومطبوع فى دمشق سنة ١٩٤٣ . ونسخة من كتاب لينين «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» ترجمة الدكتور راشد البراوى، ونسخة من مذكرات لينين عن الحروب الأوروبية: ماضيها وحاضرها مترجمها عن الفرنسية أحمد رفعت سنة ١٩٢٢ بالقاهرة . ونسخة من قصة حياة د. كاجاوا الزعيم اليابانى المشهور ، تأليف وليم كسلنج، وترجمة حبيب سعيد. وهل نذكر نماذج أخرى لبعض الكتب ذات الطبيعة الخاصة التى اقتناها الشيخ حسن البنا وضمها لمكتبته مثل : كتاب «نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان» ، كتاب «الأرج فى الفرج» ورسالة «الموسيقى العربية» لحكيم الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى ؟ وهذا مما لا تعليق عليه .

ثالثاً : تحليل نصوص كلمات الإهداء .

تعبر نصوص كلمات الإهداء عن الشحنة الانفعالية التى دفعت صاحبها إلى تقديم هديته . إنها نافذة على مكنون صدره تجاه الشخص الذى يتوجه إليه بها ، حتى ولو اتسمت تلك الكلمات بشيء من المبالغة فى الإطراء ، والإسراف فى إسباغ الألقاب والنعوت الجليلة على متلقى الهدية؛ فالقلم الذى يكتب إهداء على الورق يمتدح من عقل وقلب صاحبه معاً ، وفى هذا يصدق قول ابن المقفع «القلم بريد القلب، يخبر بالخبر، وينظر بلا نظر» .

ويمكن تحليل «نص الإهداء» باعتباره «رسالة قصيرة» مصاغة فى عدد محدود من كلمات التكريم والمجاملة؛ التى عادة ما تتضمن عدة ألقاب يصف بها المهدى صاحبه «المهدى إليه» ، وقد يشفعها «بدعاء» أو رجاء يومئ إلى غرضه من الإهداء، ثم يذيله بتوقيعة وتاريخ تقديمه للهدية وذلك فى معظم الحالات.

وأول ما نلاحظه على «نصوص الإهداءات» التى جمعناها من الكتب المهداة إلى الشيخ حسن البنا؛ أن نص الإهداء، من حيث طوله أوقصره، لا يقل عن عشر كلمات (وأمثلته

كثيرة) ولم يزد عن سبعين كلمة (وهو نص إهداء الشيخ محمد الهادى عطية) وأن النصوص مكتوبة بلغة عربية سليمة، وبخطوط بعضها واضح وجميل (مثل خط الشيخ على الغاياتى فى إهدائه)، وبعضها يقرأ بصعوبة (مثل خط محب الدين الفقى التونسى فى إهدائه) . كما أن بعض الإهداءات مذيل بتوقيع صاحبه وتاريخ إهدائه ، وبعضها الآخر غير مذيل إما بالتوقيع، أو التاريخ، أو هما معاً .

وفى ضوء ما سبق ذكره عن أصحاب الإهداءات وانتماءاتهم، وعن الكتب المهداة ذاتها وأصنافها؛ يمكننا الآن إخضاع نصوص تلك الإهداءات للتحليل العلمى للوصول إلى خلاصة عامة حول «صورة حسن البنا» فى مدركات الآخرين من معاصريه، من خلال هذا المصدر المادى المكتوب (الإهداءات) وذلك من خلال العناصر الأربعة التالية :

١ ـ الألقاب الواردة بالإهداءات .

٢ ـ الغرض العام من الإهداءات .

٣ ـ الغرض الخاص منها .

٤ ـ الدعاء المتضمن فيها .

وبيان ذلك هو الآتى

١ ـ تحليل الألقاب :

تضمن كل إهداء لقبين على الأقل (ومثاله : إلى حضرة ـ المرشد العام..) واثنى عشر لقباً على الأكثر (ومثاله الوحيد هو ماورد بنص إهداء الشيخ الهادى عطية) وبمتوسط ستة ـ أو خمسة ـ ألقاب فى نص الإهداء الواحد (ومثاله : حضرة ـ صاحب الفضيلة ـ المجاهد الإسلامى ـ الأستاذ ـ المرشد العام ...) .

والجدول التالى يوضح أهم تلك الألقاب الواردة بنصوص الإهداءات، وعدد مرات تكرار كل منها على حدة فى جميع الإهداءات (مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب عدد مرات ورودها) .

و«اللقب» ـ فى أصله اللغوى ـ يعنى «النَّبْزَ» ، وهو ما يذكر من عيوب الشخص ، ويحب هو ستره قال تعالى : «ولا تنابزوا بالألقاب» ، ثم تطور استعماله، وأجيز فى موضع النعت الحسن ، وكثر استعماله بهذا المعنى ـ بمرور الزمن وتغير الأحوال ـ حتى شاعت دلالته على التشريف والمرح والتكريم . ولكن كيف يكتسب شخص . بعينه ـ لقباً أو عدداً من الألقاب ؟

وقد يكون اكتساب اللقب بطريقة «قانونية رسمية» ، فتختص بمنحه الدواوين أو الهيئات الحكومية، أو الخليفة أو السلطان أو الملك، كما كان يحدث فى الماضى، وكما كان يحدث فى مصر إلى عهد قريب قبل سنة ١٩٥٢ . وقد يكون اكتسابه بطريقة شعبية . جماهيرية ـ غير رسمية ـ كما هو الحال بالنسبة لألقاب العلماء، والزهاد، والأولياء، وأصحاب الجاه .

م	اللقب	عدد مرات تكراره	م	اللقب	عدد مرات تكراره
١	الأستاذ (أستاذى ـ أستاذنا)	٥٣	٨	الجليل	٦
٢	المرشد العام (المرشد ـ مرشدى)	٥٠	٩	الأخ (أخى)	٥
٣	حضرة	٢٥	١٠	أفندى	٤
٤	فضيلة	٢٤	١١	المجاهد	٤
٥	الشيخ	١٩	١٢	الإمام	٣
٦	صاحب الفضيلة	١٥	١٣	الحاج	٢
٧	الكبير	١٢	١٤	الأمين	٢

● **حسن « أفندى » البنا**

ولم يكتسب حسن البنا لقباً من الألقاب التى عرف بها بطريقة قانونية رسمية سوى لقب «أفندى» الذى حمله رسمياً بعد تخرجه فى كلية دار العلوم سنة ١٩٢٧، وذلك بموجب القرار الوزارى الصادر فى ديسمبر من تلك السنة، والذى نص على تلقيب طلبة وخريجي الدار بلقب أفندى بدلاً من لقب «الشيخ».

ولقب «أفندى» أصله يونانى of-fentis ويعنى «القائد المطلق». وذكر ابن بطوطه فى رحلته أن هذا اللقب كان يطلق علي شقيق السلطان فى بعض السلطنات التى زارها. واستعمله بعض الأوروبيين فى عصورهم الوسطى بمعنى «الأمير» أو «البرنس». أما الاستخدام المصرى له فى الحقبة التى عاشها حسن البنا، فقد كان يشير - من الناحية الثقافية إلى ذى مستوى تعليمى متوسط أو عال. أما من الناحية الاجتماعية فقد كان يشير إلى الشرائح المتوسطة فى المرتبة الاجتماعية، إلا أن دلالته على التخرج من المؤسسة التعليمية الحديثة قد غلب على استعماله فى تلك الفترة، وارتبط - منحه لطلبة خريجى دار العلوم بتغيير زيهم السابق الذى كان يتناسب مع لقب «الشيخ»، فخلعوا الجبة والقباء والعمامة، وارتدوا زى الأفندية (البذلة والطربوش)، وكانت هذه العملية جزءاً من المعركة الكبرى التى دارت رحاها فى المجتمع المصرى آنذاك بين أنصار القديم وأنصار الجديد أو الحديث. ولم يمتنع الشيخ حسن البنا عن تغيير زيه، ولبس مع زملائه البذلة والطربوش، بعد أن أقنعه ناظر دار العلوم بأنه «يحسن عدم الظهور بمظهر المنقسمين: فريق معممون، وفريق مطربشون» وقد كان المتمسكون بالعمامة هم الأقل عدداً، طبقا لما أورده البنا فى «مذكرات الدعوة والداعية».

وفيما عدا لقب أفندى، اكتسب البنا بقية ألقابه بطريقة شعبية جماهيرية. وتفاوتت هذه الألقاب من حيث مدى شيوعها والتصاقها به. وعلى أية حال فقد ثبت له لقب «أستاذ»، ولقب «المرشد العام»، ولقب «الشيخ» ولقب «الإمام» وأضيف إليه وصف «الشهيد» بعد اغتياله فى فبراير سنة ١٩٤٩.

● **الأستاذ**

أما لقب «الأستاذ»: فهو أشهر ألقابه، وإذا أطلق فى أوساط الإخوان قصد به حسن البنا أو «المرشد العام». وأصل كلمة «أستاذ» أعجمى، وهى تعريب كلمة «اصطى» الفارسية وهى تعنى الماهر العظيم الجامع لدين الأنبياء، وتدبير الحكماء وسياسة الملوك،ويدلنا تكرار هذا اللقب فى نصوص الإهداءات - وهو أكثر الألقاب تكراراً إذ ورد ٥٣ مرة فى ٦٤ نص إهداء يليه «المرشد العام» ٥٠ مرة على إقرارهم بوجود ما يفيد من الجوانب التى يشير إليها هذا اللقب فى شخص حسن البنا.

● **المرشد العام**

وأما لقب «المرشد العام» فهو أهم ألقابه على الإطلاق، وترجع أهميته إلى كونه اللقب الذى يشار إليه به فى الوثائق الرسمية لجماعة الإخوان (مثل قرارات الهيئة التأسيسة، ومكتب الإرشاد، ولائحة النظام الأساسى للجماعة، وقانونها الأساسى ... الخ). كما ترجع أهميته أيضا إلى دلالته على تطلع جمهور الناس إلى ظهور قائد كبير «مصلح» أو «مرشد»، ومايرغبونه فيه من صفات، وخاصة فى أوقات الشدائد والأزمات، طبقاً لما لاحظه توينبى من أن ألقاب القادة والحكام - عادة ماتشير فى مضمونها إلى ما يتطلع إليه الشعب، ومايرجوه من خصال فيمن يقوده إلى الخلاص والرقى.

وقد ثبت لقب «المرشد العام» الشيخ حسن البنا، على غير سابق مثال فى ساحة العمل السياسى والاجتماعى فى مصر، إذ لم يعرف أحد غيره من قادة الحركة الوطنية، والعمل السياسى بشكل عام بمثل هذا اللقب.

وإلى جانب ما للقب «المرشد» من جذور لغوية عربية لها إيحاءات دينية، فإن له أصوله فى تراث وتقاليد التصوف الإسلامى على وجه الخصوص. ويدور المعني اللغوى له حول «الهداية إلى طريق الصواب، وإصابة وجه الأمر» طبقاً لما أورده ابن منظور فى «لسان العرب» مادة «رشد». أما فى تراث وتقاليد التصوف فهو لقب معروف وشائع، وخاصة فى الممارسات ذات الصلة بعلاقة المريد بشيخه أو بمرشده «ومسلكه على طريق الحق».

وقد كانت للشيخ حسن البنا قراءات واسعة فى تراث التصوف، وصلة قوية وخبرة عملية فى طريقة

من طرقه هى «الطريقة الحصافية». وقد تحدث فى مذكراته عن قراءاته في تلك الكتب، ومنها كتاب : «المنهل الصافى فى مناقب السيد حسنين الحصافى»، لمؤلفه على الجعفراوى. ويشيع فى هذا الكتاب استخدام لقب «مرشد» للإشارة إلى شيخ الطريقة.

وعلى أية حال، فقد تكرر فى نصوص الإهداءات، استخدام «لقب المرشد العام »خمسين مرة (من إجمالى ٦٤ إهداء)، واستقر له هذا اللقب، كما أنه استمر لمن بعده من تولوا قيادة جماعة الإخوان المسلمين.

وأما بالنسبة لبقية الألقاب الواردة فى الإهداءات مثل «حضرة» ـ من ألقاب الكناية المكانية ـ ومثل «صاحب الفضيلة» و «فضيلة» و«الفاضل» فهى من ألقاب العلماء وذوى المكانة الرفيعة من رجال الإسلام. وكذلك بالنسبة للقب «الشيخ» فهو يطلق عرفاً على العلماء وكبار السن وقد كان يمنح رسمياً لخريجى دار العلوم إلى ما قبل السنة التى تخرج فيها حسن البنا كما ذكرنا آنفاً. إلا أنه اكتسب هذا اللقب إلى جانب ألقابه الأخرى اعتداداً ـ من الناس ـ فيما يبدو بعلمه وتفقهه فى الدين، على نحو ماعرف عنه، وخاطبه الناس به، ومن ذلك ماورد بنصوص الإهداءات التى نتحدث عنها.

أما لقب «الإمام» ـ الذى ورد ثلاث مرات فى ثلاثة إهداءات من ٦٤ إهداء فمعناه «القدوة»، وكان يطلق قديما على الخلفاء، وأطلق أيضاً على كبار العلماء والمتفقهين . ولم يكن هذا اللقب شائعاً لحسن البنا فى حياته ـوتؤكد ذلك قلة وروده فى نصوص الإهداءات كما سبق ـ وإنما شاع وانتشر بعد اغتياله، فيقال «الإمام الشهيد» ويقصد به حسن البنا .

٢ ـ الغرض العام من الإهداءات :

تشترك الإهداءات كلها فى غرض عام يجمع بينها رغم اختلاف عباراتها، وتعدد صيغ إنشائها .وهذا الغرض هو التعبير عن مشاعر التقدير والمودة. ومثال ذلك نص إهداء الشيخ على عبد الرازق وفيه «تحية تقدير ومودة» وإهداء الشيخ على الغاياتى وفى نصه « هدية ودية من المؤلف ». وتعبر الإهداءات أيضاً عن التبجيل والاحترام والولاءأو الإعجاب أحيانا، والأمثلة على ذلك كثيرة فى معظم النصوص ؛منها على سبيل المثال نص إهداء محمد الحافظ التيجانى وفيه « ... أنا أقدم إليه ما كتب له خاصة، معبراً عن عظيم امتنانى بنفسه الطاهرة، وولهى بحاله الروحى، وتقديرى لمستقبله الباهر ... الخ» وهو أقدم إهداء عثرت عليه فى مكتبة الشيخ حسن البنا ، وكلماته تدل على شفافية كاتبه، وقد كتبه بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٢٧ . ومن الأمثلة أيضا ما ورد فى إهداء الدكتور راشد البرواى وفيه « مع التحية والتقدير» ، وفى نص إهداء د. جمال الدين الفندى « مع الاحترام الوافر والإخلاص المتناهى ..» الخ .

٣ ـ الغرض الخاص من الإهداءات :

تكشف بعض نصوص الإهداءات عن أن أصحابها كانت لهم «أغراض خاصة» إضافة إلى الغرض العام سالف الذكر.

وهذا الغرض الخاص قد يكون مرتبطاً بشخص صاحب الإهداء ، ورغبته فى التقرب من المهدى إليه ، إما حباً فيه ، أو فيما يرمز إليه ، أو كنوع من الملق والنفاق، وفى هذه الحالة الأخيرة غالباً ما يلجأ كاتب الإهداء إلى المبالغة المفرطة فى الإطراء ، وإخفاء غرضه الحقيقى وراء كلمات المدح والتعظيم .

وقد يكون الغرض الخاص مرتبطاً بشخص المهدى ، والمهدى إليه معاً ؛ رغبة فى حفظ ذكرى التعارف، والأمثلة على ذلك كثيرة منها إهداء الشيخ الهادى عطية وفى نصه . «ليكون ذلك ذكرى» ، وإهداء حسن الحجال وفى نصه » ذكرى حب وإخاء فى الله» وإهداء الشيخ محمد حامد الفقى وفى نصه «ذكرى لفضيلة الأستاذ المرشد ... لزيارته لجماعة أنصار السنة ...» .

وقد يكون الغرض الخاص ـ أيضاً ـ طلباً لصالح الدعوات والنصائح من شخص المهدى إليه . ومثاله إهداء الشيخ علوى بن عباس المالكى وفيه « ويطلب المهدى الدعاء والإجازة والإرشاد بالنصائح الغالية... الخ » ، وقد يكون إعلاماً بالرغبة فى الانضمام إلى دعوة الإخوان ومثاله إهداء د. مسعد محمود سلام . وفى نصه «أهدى كتابى هذا لعله يزكينى جندياً من جنود الدعوة » .

وأخيراً فقد يكون الغرض الخاص متعلقاً بموضوع الهدية ذاتها أى «الكتاب المهدى» فيطلب كاتب الإهداء

رأى المهدى إليه فى الكتاب ومثاله إهداء السيد تصدق حسين وفى نصه : «للنقد والتقريظ هدية لحضرة ... الخ » .

٤ ـ الدعاء فى الإهداء :

الدعاء فى نص الإهداء هو نوع من الأغراض الخاصه له وهو يأتى على سبيل التشريف الشخصى من المهدى إلى المهدى إليه ، وتضمينه فى الرسائل والمكاتبات عادة قديمة ؛ ترجع إلى عهود الخلفاء والسلاطين ، وكانت له قواعد وأصول وآداب لدى كتاب الرسائل والدواوين ، لمراعاة مقامات الناس وحفظ أقدارهم على نحو ما تكشف عنه كتب التراث فى هذا المجال مثل كتاب «الصناعتين» لأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) وكتاب « حسن التوسل» لابن فهد الحلبى (ت ٧٢٥هـ) ، وكتاب « صبح الأعشى ..» للقلقشندى (ت٨٢١هـ) وغير ذلك كثير .

وتتضمن بعض نصوص الإهداء التى تلقاها حسن البنا أدعية تطلب له من الله التأييد ، والحفظ ، والتوفيق ، والسداد ، والإيمان ،و والبقاء . ومثال ذلك إهداء الشيخ الهادى عطية وفيه «أيده الله بروح منه » و «حفظه الله»، ونص إهداء الشيخ أبو زهرة وفيه «وفقه الله ، وسدد خطاه ، وأمده بروح منه » ، وفى نص إهداء عبد السيد البرماوى « ندعو الله أن يديم عليه الحمد ،و الإيمان ... الخ» ، وفى إهداء التونسى « أبقاه الله ، وأيده بروح منه ..» .

وقد أتت الدعوات فى نصوص إهداءات كتبها للشيخ حسن البنا من هم فى مقام أساتذته مثل «الهادى عطية» أو من أقرانه وزملائه ومنهم فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة، وهو متخرج فى دار العلوم مع حسن البنا فى سنة واحدة (١٩٢٧) وقد أهدى له نسخة من كتابه « محاضرات فى النصرانية» سنة ١٩٤٢ ، وعدة نسخ من كتابه «مالك: حياته وعصره ، وآراؤه وفقهه» سنة ١٩٤٧.

خلاصة عامة :

يلقى التحليل السابق ضوءا من زواية جديدة على شخصية «حسن البنا» ، وصورته كما أدركها عدد من أبناء جيله ، وتلامذته ، وممن عاصروه واحتكوا به أو احتك هو بهم أو سمعوا عنه من مختلف الفئات والمستويات الاجتماعية والثقافية من مصر ، ومن بعض الأقطار العربية، والإسلامية أيضا . وتكشف لنا تواريخ الإهداءات عن أن أول إهداء كان فى سنة ١٩٢٧ قبل سنة من تأسيسه جماعة الإخوان ، وأن آخر إهداء كان فى يونيه سنة ١٩٤٨ أى قبل اغتياله بسبعة أشهر . وبقية الإهداءات كانت على مدى عشرين سنة تقريباً (١٩٢٧ ـ ١٩٤٨) .

ويمكننا الآن أن نستنتج ـ من مصادر ثقافته العامة، ومن التحليل السابق ـ دليلاً إضافياً بطريق التحقيق العلمي، يدل على أن الشيخ حسن البنا كان يتمتع بثقافة غنية ومتنوعة، وكان موضع احترام وتقدير، من الكثيرين ـ من أتباعه، ومن غيرهم ـ رغم ما قد يكون بينه وبينهم من اختلاف فى وجهات النظر، فقد كان حريصاً على ألا يفسد اختلاف الرأى للود قضية. وبالرغم من صحة مقولة «المعاصرة حجاب» إلا أن كثيرين من معاصرى حسن البنا قد شهدوا له، واعترفوا بفضله، رغم إقذاع بعض خصومه فى سبه، وإهالة التراب عليه. وما هكذا يكون التعامل مع كبار الرجال ورموز الوطن، مهما تعددت مشاربهم، واختلفت توجهاتهم. ورحم الله الشيخ حسن البنا .

وفوق كل ذى علم عليم ■



حسن البنا
الحركة
الإسلامية
الجديدة

من حسن البنا

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريرا فى ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ هـ

قاسيدى صاحب ... أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبع هداه . وأرفع إليك تحية الإخوان المسلمين فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يا صاحب .. إن من أمتن دعائم النهضة وأقوى أركانها وحدة الفكرة ووحدة العاطفة ووحدة الشعور ووحدة الآلام والآمال وذلك كله يتمه وحدة الثقافة، لهذا كانت فكرة توحيد المدارس الدينية والمدنية إلهاماً مباركاً فى هذا الوقت الذى نتهيأ فيه للعمل والنهوض، ولكن الفكرة وحدها لا تكفى بل لابد من الإنفاذ والعمل والإنفاذ وحده لا يكفى بل لابد من التفكير فى أفضل طرقه ووسائله حتى لا تنحرف بنا الطريق فنضر أكثر مما نفيد . لهذا كان من واجب الغيورين أن يتقدموا بما عندهم من ملاحظات وآراء والحقيقة رهن البحث والتفكير .

إننا يا صاحب .. أمة متحدة فى كل شىء إلا فى شىء واحد لعله أهم مظاهر الوحدة وهو الثقافة والتفكير ولقد طفت هذا القطر المصرى الكريم من أقصاه إلى أقصاه وجبت مدنه وقراه واتصلت بأوساطه المختلفة وبيئاته العديدة فوجدت الوحدة تشمل كل مظاهر حياته من نظام معيشة وتقاليد وعادات إلا بعض الخلاف الموضعى الذى هو وليد الظروف الخاصة فقط وليس هناك تخالف جوهرى فى نظم الحياة العامة فنظام حياة الطبقة الوسطى مثلاً فى أسوان هو نظام حياة هذه الطبقة فى القاهرة وفى طنطا وفى الزقازيق وفى غيرها شرقا وغربا فالمأكل واحد والمشرب واحد والملبس يكاد يكون واحدا وهكذا ولكن الخلاف الصارخ. الخلاف العظيم فى التفكير والثقافة والآمال والآلام ؛ ولهذا لاتكاد تلتقى وجهات النظر إذا دار بحث قضية من القضايا فى مجتمع من مجتمعاتنا المصرية .

هذا الخلاف طبيعى بالنسبة للظروف التى اجتازتها الأمة قديماً وحديثاً ولخطوات التطور التى نخطوها ولعصر الانتقال الذى نجتازه. مما جعل ثقافة الأمة ذات طابعين متميزين تميزا تاما لا يكاد يلتقى أحدهما بالآخر وإن أخذا يتقاربان فلقد أتى على مصر زمان كانت ثقافتها فيه تدور حول محور واحد هو فروع الدين وتنحصر فى معهد واحد هو الأزهر وفروعه ففى الأزهر يتخرج العلماء والأئمة والوعاظ والقضاة والحاكمون وأبناء الأزهر هم الذين يثقفون الأمة ويطبعونها بالطابع الذى يريدون واستمر ذلك وقتا رسخت فيه أصول هذه المدرسة وثبتت دعائمها ثم جاء دور الاتصال بأوروبا والنقل من أوروبا والنقل عن أوروبا فى أطواره المختلفة فأنشئت المدارس المدنية إلى جوار الأزهر وعدتْ على

مذكرة الإخوان المسلمين إلى معالى وزير المعارف ، وفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر حول كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر لـ .. طه حسين»

إلى طه حسين

مستقبل الثقافة فى مصر للحقيقة والتاريخ

اختصاصاته واحداً فواحداً حتى حصرته فى نطاق ضيق هو نطاق الفكرة الروحية وأخذت منه كل المظاهر العملية تقريبا وتعددت أنواع التعليم وتكاثرت وتكررت التجارب فإذا بنا نرى سلسلتين من أنواع المدارس.

فهناك الأزهر وأقسامه وفروعه من الابتدائى والثانوى والكليات وأقسام التخصص ويلحق به فى مهمته مدارس المعلمين الأولية والمدارس الأولية إن شئت ذلك.

وهناك كذلك المدارس المدنية من رياض الأطفال والابتدائى والثانوى والجامعة ويلحق بها المدارس الخصوصية والفنية من زراعية وصناعية وتجارية إن شئت ذلك وهناك معهدان حائران بين القسمين هما دار العلوم ومعهد التربية.

لكل من هاتين السلسلتين أثر بالغ فى نفوس قسم من أقسام الأمة وكل نوع من هذه المدارس يهيمن على عقول وأفكار ويوجهها - كثيرا مايكون - بعيدا عن توجيه القسم الآخر وفى ذلك مافيه من الخطر على أمة ناهضة لاسناد لها إلا الوحدة وإذن لابد من أن نبحث فى وحدة الثقافة ولابد من أن نعمل على تحقيقها.

يظن كثير من المدنيين أن فى مقدور الحكومة وفى مقدور الصحف وغيرها من دعاة الفكرة المدنية القضاء على آثار الفكرة الإسلامية وتخليص الأمة منها وصبغ كل شىء بالصبغة المدنية البحتة ويحتجون لذلك بما فعلته بعض الأمم الشرقية فى هذا السبيل وهم يتحمسون لفكرتهم هذه ويوجهون إليها الشعب بمختلف الوسائل والدعايات وفاتهم أن الحال فى مصر غيره فى البلاد الأخرى .

فقد امتزج الإسلام بدم كل مصرى وتغلغل فى قلبه وروحه ودمه وعروقه وآمن به إيمانا هو أبقى على الزمن الباقى من الزمن.

فكل محاولة فى سبيل هدم هذا الإسلام فى نفوس المصريين محاولة فاشلة إن أخفت مظاهره حينا فلن تقضى عليه وإنها لتظهر بأقوى مجاليها فى أحيان أخرى كثيرة والواقع أعدل شاهد على ذلك فقد ظن الناس فى وقت قريب أن الإسلام قد وهن فى نفوس الشعب حتى عجز عن حماية نفسه وإذا بهذا الإسلام ينتفض فتتحطم باسمه هيئات راسخة وتتغلب باسمه حكومات وطيدة ويهزم الدهر بعد ذلك والإسلام إسلام.

وظن كثير من الدينيين أن هذه المظاهر المدنية شر كلها وأن تخليص الأمة من شرورها وآثامها هين ممكن فهم يتحمسون لفكرتهم بدورهم ويدعون الناس إليها بمختلف الوسائل والأساليب وإن كانت أجهزتهم أضعف وأسلحتهم أقل ولكنهم يجدون من الشعب تعزيزاً وتأييداً . وهؤلاء متغالون كذلك فإننا لن تستغنى أبداً عن هذه القوة المادية ولن نتغلب على أعدائنا إلا إنْ سبقناهم فى ميادين علومهم ومعارفهم وأعددنا أنفسنا بمثل مايعدون لنا إن لم يكن فى الكم ففى الكيف على الأقل.

وإذن فلا محيص من المزج بين الفكرتين ، وبخاصة والإسلام دين مرن فسيح يساعد على الإصلاح ولا يقف فى طريقه ويحض على التعلم ولو بأقصى الأرض ويأخذ الحكمة وهى ضالة ولا يبالى من أى وعاء خرجت ويجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وذلك هو واجبنا لتوحيد الفكرة وللقضاء على هذه الفوضى وتكوين الأمة القوية العزيزة الموحدة الأهداف والغايات هو الذى يجعلنا نستقبل فكرة توحيد المدارس الدينية والمدنية فى الدور الابتدائى والثانوى بسرور وفرح واستبشار ولهذا يتقدم الإخوان المسلمون بهذه الملاحظات معتقدين أنها ستلقى من عنايتكم ما يتكافأ مع الغاية التى أملتها والشعور النبيل الذى أوحى بها

أولاً ـ نرجو ألا يكون ذلك على حساب الفكرةالإسلامية وألا يكون معناه تقليد الغرب فى سلخ مناهج التعليم عن الفكرة الدينية والعدول بها إلى العلمانية البحتة بالتدريج بل لابد أن يكون المقصود بذلك تكوين الطالب فى أدوار فعلية تكوينا صالحاً تتكافأ فيه معلوماته الدينية ومشاعره الروحية وتربيته الخلقية مع ثقافته العلمية.

ثانيا ـ نرجو أن يكون هذا التوحيد فاتحة تعديل تام فى مناهج التعليم تعديلاً يجعلها غذاء صالحاً للعقول والأرواح فى كل المعاهد ويبعد بها عن الحشو واللغو ويربط سلسلة التعليم بعضها ببعض فيتكون نظام المعاهد فى مصر على النحو الآتى مثلا:

أ ـ التعليم التحضيرى أو الأولى ومنه رياض الأطفال ويكون إجبارياً ذا منهاج يتناسب مع مدارك عقل الطفل فى هذه السن ومع مطالبه النفسانية.

ب ـ التعليم الابتدائى ـ ويستمد من سابقه وتحذف منه اللغات الأجنبية بتاتاً وتضاف دروسها إلى اللغة الوطنية والعلوم الإسلامية الخلقية وهذا الرأى وهو حذف اللغات الأجنبية من المدارس الابتدائية يقول به معظم حضرات رجال المعارف المختصين بالتربية ودراسة علم النفس وقد نادوا به من قبل وهو المعمول به فى كل الأمم الأجنبية حيث يخصص هذا الدور من التعليم لإتقان لغة البلاد.

ج ـ (التعليم الثانوى) ويستمد من سابقه وتدرس فيه لغتان أجنبيتان لغة شرقية ولغة غربية بدلاً من لغتين غربيتين وذلك هو المتفق مع نهضتنا وآمالنا ومطامحنا وصلتنا بالشرق ويعنى فيه بالدروس الإسلامية والخلقية وتاريخ الإسلام والتربية الوطنية ويلحق بهذا التعليم ويكمله أو يبنى عليه التعليم الفنى

والخصوصى ومدارس المعلمين الصغيرة بعد تخصص فى التربية وعلم النفس .

د ـ التعليم العالى أو الجامعى ويستمد من سابقه وتتفرع الجامعات فيه إلى الجامعة الأزهرية بأقسامها الحالية بعد تعديل وزيادة بحسب حاجة الأمة ومقتضيات الأحوال والجامعة المصرية بأقسامها بعد تعديل كذلك والجامعات الأخرى التى ستتطلبها النهضة ويلحق بهذا القسم المدارس العسكرية ومدارس المعلمين الراقية بعد تخصص فى التربية وعلم النفس كذلك ، أو تكون هذه الدراسة فى كليات جامعية مع توحيد الدرجات وتحديد الاختصاصات فى كل الكليات ويعنى فى جميعها بالدراسات الإسلامية وتاريخ الإسلام على تفاوت يتناسب مع مهمة كل منها بحيث يخرج الطالب وقد حذق تعاليم الدين والعقائد .... وبذلك تتم مراحل التعليم العادية فى الأمة ويفتح المجال أمام من أراد الاستزادة من عبادات ومعاملات إلخ بما رأوا فى إطالته .

وحبذا لو فكر فى اختيار طائفة من خريجى الكليات الإسلامية والعربية المقترحة فى متانة من الخلق وغنى من الثروة يحتلون هذا المسجد العتيق (الأزهر) ويتفرغون للبحث والتنقيب والكتابة والتأليف وإمداد العالم الإسلامى بما هو فى حاجة إليه من فتاوى ،ونظم وأحكام وتجرى عليهم أرزاق كافية ويكونون بعيدين كل البعد عن تقلبات السياسة وعواصف الحكومات وتحكم الملوك والأفراد يخدمون العلم للعلم ويقولون الحق للحق ويتمكنون من دراسة دين الله ويختصون بهذه البحوث فى شريعته ويختارون من بينهم شيخهم فيكون هو شيخ الإسلام وبذلك ينفصل منصب شيخ الإسلام عن منصب مدير الجامعة الأزهرية وحبذا لو انفسح صدر هذا المجمع الإسلامى للعلماء من الأقطار الإسلامية الأخرى على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم فوسعهم وتعاونوا على إحقاق الحق وتقريب وجهات النظر وجمع شتات المسلمين ودعوتهم جميعا إلى الخير . وحبذا لو تم مشروع توحيد مناهج التعليم فى الأقطار الإسلامية فيسهل بذلك على الطلاب من كل قطر إسلامى أن ينتسبوا رأسا إلى كليات الجامعة الأزهرية .

بقى أمامنا مشكلة لابد من علاجها فى وضوح وجرأة وصراحة.

تلك هى مشكلة تحفيظ القرآن الكريم فقد درجت المناهج فى مصر وتقرر فى أذهان الناس أن تحفيظ القرآن جزء من مناهج التعليم لأول أدواره إذ أن هذه السن هى وقت قوة الحافظة والذاكرة ولا يتيسر حفظه فيما بعد ذلك. وصار هذا عرفا يجد الناس فى مخالفته كثيرا من الحرج ويخيل إليهم أن ذلك ضياعا لكتاب الله ونرى من جانب آخر أن اشتغال الطلبة بحفظ القرآن كله فى هذه السن يفوت عليهم كثيرا من استخدام مواهبهم العقلية ويعطل كثيرا من قواهم النفسانية ويرسم القرآن فى عقولهم وقلوبهم ألفاظا لا معنى لها ويعودهم القراءة بدون تفكير ولاتدبير فى مستقبل حياتهم فهذه الطريقة إن خرجتهم أوعية القرآن فقد حرمتهم لذة تدبره وثمرة التفكير فى معانيه ومقاصده والمشكل قديم وقد عالجه ابوبكر بن العربى وأشار إليه وأبان أن التحفيظ ابتداء طريقة المشارقة ونقد هذه الطريقة نقدا مرا وزكى طريقة المغاربة والأندلسيين ف البدء بتعليم اللغة وتذوق الأدب ثم يأتى دور دراسة القرآن بعد ذلك ونحن نريد أن نوفق بين حفظ كتاب الله والمحافظة عليه وبين الانتفاع بكل القوى والمواهب فى الطفل وتربيتها جميعا تربية متناسقة بحيث يقوى بعضها بعضا ويمد بعضها بعضا ولنجمع بين الفائدتين نقترح أن يوزع حفظ ثلث القرآن على

الادوار الثلاثة من أدوار التعليم السابقة الأولى والابتدائى والثانوى فيحفظ التلميذ فى مدة دراسته التحضيرية أو الأولية جزءاً واحدا فقط وفى دراسته الابتدائية أربعة أجزاء مع استذكار الماضى وفى دراسته الثانوية خمسة أجزاء مع استذكار ما سبق وبذلك يكون كل متعلم فى الأمة قد حفظ شيئا من كتاب الله ويكون كل من تخرج من المدارس الثانوية قد حفظ ثلث القرآن وفى دور الدراسة العالية يحفظ كل طالب فى كليات الأدب أو الدراسات الإسلامية الثلثين الباقيين بحيث لا يجاز بشهادته إلا إذا أدى امتحانا دقيقا تاما فى القرآن كله ويحفظ كل طالب في الكليات الأخرى خمسة أجزاء ليتم بذلك حفظه لنصف القرآن ولا يعطى شهادته كذلك إلا بامتحان دقيق فى كتاب الله وللتغلب على صعوبة اختلاف الأديان فى المدارس يكلف غير المسلمين من الطلبة حفظ محفوظات مختارة من جيد النظم والنثر تحل درجتها محل درجة القرآن الكريم فى الشهادات والامتحانات المدرسية.

ويلفت دائما نظر الطلبة إلى أن القرآن شيء يتعبد به فهو للعلم وهو للعبادة فعليهم أن يقرأوه دائما كذكر لله يطلب به ثوابه ويتقرب به إليه حتى يدوم تعلقهم به وتستمر ملازمتهم له ويستذكرونه عن رغبة وإجلال لاعن عنف وإرهاق وبذلك نخدم كتاب الله ويكثر عدد الحفاظ المتفقهين ويقضى على الاحتراف بالقرآن الذى ما نزل إلا ليكون نوراً وهداية للناس جميعا وتنحل مشكلة تحفيظ القرآن على أفضل وجه ولايختص بدراسته قوم دون قوم.

ومن متممات هذا البحث أن نصارح بأنه لابد من التفريق بين مناهج التعليم وأماكنه بين البنين والبنات فى غير الدور التحضيرى فليس تكوين البنت كتكوين الغلام وليست مهمتها كمهمته ولابأس أن تتعلم ما تشاء وترقى فى درجات التعليم إلى ماشاءت ولكن فى حدود مايناسب تكوينها ومهمتها وفى بعد تام عن الفتيان بعد سن التعليم الأولى.

ولايعتذر عن ذلك بقلة الأماكن أو قلة الأموال فإن صيانة أخلاق الأمة وكيانها الأدبى أمر واجب لايكثر فى سبيله إنفاق وقد جربنا مضار هذا الاختلاط واكتوينا بناره وحسبنا هذه التجارب والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل.

تلك بعض المقترحات الإصلاحية نضعها بين يديكم لمناسبة التفكير فى إصلاح مناهج التعليم وتوحيد أنواعه رجاء دراستها وإنفاذها وهى نقاط إجمالية ليس هنا موضع تفصيلها والإخوان المسلمون على استعداد للتقدم بالتفصيل إذا طلب إليهم ذلك وصحت العزيمة على العمل كما أنهم على استعداد كذلك لأن يقاوموا بكل ما أوتوا من قوة كل نظام وكل توحيد وكل منهاج يراد به سلخ البقيةالباقية من المظاهر الإسلامية فى أية ناحية من نواحى حياة الأمة السياسية أو الاجتماعية أو التشريعية أو الثقافية فنحن أمة مسلمة قبل كل شيء لا تعدل بتعليم الإسلام شيئا ونريد أن نستعيد ما فقدنا من إسلامنا لا أن نفقد ما بقى منه بين أيدينا وسنعمل لذلك مهما كان الثمن الذى سندفعه غاليا ومهما كانت التضحية التى نبذلها عزيزة كريمة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

حسن البنا

العدد ٦: السنة الثانية ـ الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٥٨ من جريدة النذير الأسبوعية .



الطمأنينة عمود الجهل

للفنان منير الشعرانى



حسن البنا والحركة الإسلامية الجديدة

تعليق :

الفرق بين

«لم أزل أذكر واقعة القبض على أستاذ الطبيعة فى مدرستى الثانوية الأستاذ أمين تكلا فى عام ١٩٤٩. وجدوا لديه كتبا ماركسية فسأله المحقق، لم تقرأ الماركسية إن لم تكن شيوعيا؟ فسأله الأستاذ أمين: لقد وجدتم أيضا رواية لأرسين لوبين فهل معنى هذا أننى حرامى؟»

تذكرت هذه الواقعة وأنا أطالع البحث المعنون «المصادر الفكرية» للإمام «حسن البنا» وابتداء أشير إلى أن قلة قليلة منحازة جدا هى التى تضفى على فضيلة المرشد صفة الإمام.

والعنوان هو ماأثار شهيتى للتعليق فما علاقة المكتبة بالمصادر الفكرية؟

ولعل الأخ إبراهيم البيومى يخلط بين «الفكر» و «المعرفة». فالكتاب هو مصدر للمعرفة، والمعرفة قد يتم استقبالها بالسلب أو بالإيجاب، بالرفض أو بالقبول. والموقف من عملية المعرفة هو الذى يشكل الموقف الفكرى.

وإلا فكيف يفسر لنا الأستاذ إبراهيم وجود «البيان الشيوعى» بين مقتنيات المرشد العام؟

ولعله من المفيد أن أشير إلى أن مكتبة دير الآباء الجزويت فى الدراسة تحتوى على مجموعة كبيرة من النشرات والمطبوعات الأولى لجماعة الإخوان، فأية دلالة يمكن اشتقاقها من ذلك، ولعل دهشة الأستاذ إبراهيم تزداد إذا عرف أن جزءاً من هذه المجموعة كان ضمن مكتبة « هنرى كورييل»، وأن كورييل عندما أبعد عن مصر طلب إلى والدته إهداء مكتبته الشخصية إلى الدير .. تقديرا منه لدور الآباء الرهبان فى تعليمه.

هكذا يصبح العنوان الصحيح للبحث هو « محتويات مكتبة .. فلان» ومن هنا يخرج البحث من إطار السعى لاشتقاق الموقف الفكرى إلى تسجيل محتويات مكتبة، تماما كما فعل عندما سجل قائمة الكتب المهداة إلى المرشد .. وعبارات الإهداء، وهى عادة ماتكون من باب المديح المبالغ فيه، فليس من المفترض أن يهدى إنسان كتابا لشخص بعبارة قاسية .. أو حتى بعبارة محايدة.

وللانصاف فإن محاولة الأستاذ إبراهيم ليست الأولى من نوعها، فقد حاول باحث أمريكى التعرف على شخصية جمال عبد الناصر من خلال فحص سجل الاستعارة فى مكتبة الكلية الحربية، وقد تهلل تماما عندما وجد أن الطالب جمال عبد الناصر قد استعار كتابا عن نابليون. لكن البحث هنا لايبدو علميا، ولايكون كذلك إلا إذا سجل كل استعارت عبد الناصر وتلاحظ فيها السير فى ذات الاتجاه وهو ما لم يتحقق. وكذلك إلا إذا سجل أسماء كل من استعار من الطلاب كتاب «نابليون» ومدى تأثرهم به فيما بعد.

تعليق يرى أنه ليس من الضرورى أن تكون مكتبة شخص ما ، هى التى تسهم بشكل كامل فى تكوينه وانحيازه تجاه فكرة محددة .

رفعت السعيد

الفكر و المعرفة

لكن الشىء المؤكد أن مكتبة إنسان ما لاتنم عن توجهه الفكرى. وفيما أنا أكتب الآن حانت منى التفاتة إلى الكتب المتراصة فى مكتبتى .. تاريخ، وأدب واقتصاد وفلسفة، وماركسية، وإسلاميات، والموسوعة البريطانية، ورف كامل للمذكرات ابتداء من مذكرات تروتسكى إلى مذكرات الداعية (حسن البنا) .. فكيف يمكن استخلاص التوجه الفكرى، من مجموعة كهذه؟

هذا عن المجمل .. أما المتن فلنا عليه ملاحظات ..

* يقول الباحث إن مافحصه هو جزء فقط من المكتبة هو قرابة النصف والنصف الآخر فقد.. وهذا دليل على أن عينة البحث غير كاملة. ولعل هذا كان جديرا بالباحث أن يتأنى قبل أن يقرر أن الجزء الذى فحصه كاف لتحديد «المصادر الفكرية» لصاحب المكتبة.

* يقول الباحث إن وسائل اقتناء الأستاذ المرشد للكتب كانت الشراء أو الإهداء .. فهل ثمة سبيل آخر؟

ولكن إذا كان الشراء يتم بإرادة المشترى، فإن الإهداء يأتيه وفق إرادة الآخرين. فلست أنا شخصيا ولاغيرى بقادر على تحديد نوعية الكتب المهداة لى.

وحتى فى حدود القائمة التى أرفقها الباحث ببحثه والمتضمنة أسماء الكتب المهداة للأستاذ حسن البنا نجد كتبا بعيدة عن مجال اهتمامه مثل:

الرجولة الكاملة - مشكلة الفقر - أقاصيص اجتماعية - من صميم لبنان - وطنيتى - مأساة عرش - حرب البترول فى الشرق الأوسط - اكتشاف مصدر فيضان النيل ، نتائج جديدة على ضوء النظريات الميترولوجية الحديثة - كيف تنجح الحياة - أحمد حسنين باشا فقيد مصر العظيم .. وهكذا

فكيف يستدل من عملية تراكم غير إرادية على تحديد توجه فكرى هو بالضرورة إرادى.

* ثم هل من الضرورى أن يقرأ الإنسان كل مالديه من كتب .. فهل قرأ المرشد كتاب الرجولة الكاملة؟ أو قرأ فى النظريات الترولوجية الحديثة؟

* والغريب أن الباحث نفسه قد أتى فى آخر المطاف ليؤكد على أنه: «ليس من حكم العادة ما يؤكد، ولا يدل على ما هو مشاهد، على أن كل من توفرت لديه الكتب والمصادر الفكرية الكثيرة والمتنوعة صار بالضرورة مفكراً وقائداً».

فإذا كان الأمر كذلك ففيم كل هذه العناوين الضخمة والحديث عن المصادر الفكرية؟

* ثم نأتى إلى العبارات الأخيرة فى هذا البحث وهى تجسيد لانحياز باحث، لا يخفى انحيازه .. وسأعلق على عبارتين.

الفـــرق بين الفكر والمعـــرفـــة

العبارة الأولى تقول «ولما كان النموذج الليبرالى القائم من خلال العهد الملكى مفروضا، ويحمل فى طياته كثيرا من القيم والمبادئ التى تتعارض - كما قدمتها النخبة الليبرالية - مع ماتؤمن به أغلبية المجتمع. فقد كان من شأن التوجه الإسلامى الأصولى الذى مثله حسن البنا أن يؤدى إلى تبنى نمط من التنشئة السياسية الجديدة التى تتعارض مع النموذج الليبرالى القائم..» ثم تقول العبارة » ولم يكن من مخرج سوى صعود الحركة الاجتماعية إلى مرحلة التغيير الثورى .. وليس سوى الثورة كظاهرة اجتماعية سياسية هى التى تلبى حاجة التوفيق وتحقيق التوازن القيمي الاجتماعى السياسى». ولعله تصور أن كلمة «الثورة» قد تستر أو تبرر أو تمرر النزعة الإرهابية التى سادت تصرفات الجماعة فى آخر أيام مرشدها الأول. على إية حال فإن هذه العبارة تحتاج إلى فحص.

فهل دعا الأستاذ المرشد إلى فعل ثورى؟ وهل قبل مجرد قبول بمبدأ الثورة ؟

«الثورة التى تعنى الحركة الشعبية الشاملة فى مواجهة الخصم، وليس تحرك نخبة محدودة العدد ذات تشكيل عصابى مغلق، بما يترتب عن ذلك من اللجوء إلى الإرهاب الفردى كرد فعل حتمى للانعزال عن مجمل الحركة الشعبية.

وأكتفى بالرد على الأخ إبراهيم بعبارة للأستاذ المرشد نفسه تقول «ماكان لجماعة الإخوان أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه .. ماكان لها أن تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة تعلم أن إهاجه العامة ثورة وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة فى النار»

(حسن البنا - مقال: الإخوان المسلمون والدستور المصرى - مجلة النذير العدد ٣٣)

وإذا كنا فى دراستنا لتاريخ المرشد وتاريخ الجماعة قد اعتدنا منه على اللجوء إلى «إيهام القول» و «التقية» والقول بغير الحقيقة وممالأة الحكم انتظارا لفترة الاستقواء فإن ذلك لم يكن يقتضى من الأستاذ المرشد أن يصف «الثورة» «بأنها فتنة».

..والحقيقة أن الأستاذ المرشد وأن جماعته قد بنت كامل مخططها بعيداً عن فكرة «الثورة»، بل نقيضاً لها، واعتمدت دوماً على تشكيلات نخبوية، كانت تقتادها بالضرورة إلى سلوك طريق العمل الإرهابى كسبيل لفرض إرادتها على المجتمع.

* أما الأسطر الأخيرة فتورد فقرة من وثيقة بريطانية تقول «إنني أعتقد أن العمل الصارم ضد «الإرهابيين» هو التصرف السليم والمثير للدهشة هو أن الباحث يفسر كلمة «الإرهابيين» قائلاً «يقصد فدائيى الإخوان المسلمين فى منطقة القناة».

ولأننا فى مجال نقاش على صفحات مجلة فإننى سأكتفى بالانتقاد مؤكداً أن هذا التفسير ليس فقط منحازاً بطريقة غاشمة لكنه ضد الحقيقة أيضاً، فالفدائيون كانوا خليطاً من سياسيين وغير سياسيين، والسياسيون منهم كان من بينهم إخوان وأعضاء فى مصر الفتاة وشيوعيون ووفديون .. فكيف نختزل ذلك كله وفقط وفى اجتراء سافر على تاريخ واضح لحساب جماعة معينة.

هذا لأننا فى مجال نقاش على صفحات مجلة .. أما لو أننا فى مجال تقييم أكاديمى فإن عبارة كهذه وغيرها من التى تناثرت فى أرجاء الورقة كفيلة بأن تعطي صاحبها صفراً. فما كان لبحث أكاديمى أن يطمس الحقيقة وأن يقول بعكسها سعياً لتحقيق انتماء سياسى أو فكرى ما.

وما كان لبحث أكاديمى أن يقبل بمثل هذا الامتهان الفج للحقيقة التاريخية ■.



للفنان عادل السيوى



حسن البنا والحركة الإسلامية الجديدة

حسن البنا

قام من خلال توصيف محتويات مكتبة حسن البنا الشخصية، يحاول الأستاذ إبراهيم البيومى غانم أن يحدد مصادر ثقافته العامة وفكره.

وقد أجرى عملية التوصيف هذه بإسهاب واقتدار فقدم لنا خمسة وعشرين بنداً توزعت عليها محتويات المكتبة، وحدثنا عن حالة وحجم المكتبة، وعن وسائل اقتنائه للكتب، وقدم أمثلة لمختلف أنواع الكتب التى تنتمى لفروع متنوعة، والتى تتبنى جهات نظر مختلفة فى بعض القضايا الهامة.

وقد فعل كل ذلك وهو يدرك مدى محدودية تلك الطريقة فى الكشف عن المكونات الفعلية لفكر حسن البنا وبالذات لشخصيته.

فهى لا تكشف لنا ما الذى قرأه وما الذى لم يقرأه من تلك الكتب، ولا أياً منها درسه بعمق وأياً منها مر عليه بنظرة عابرة. ومن بين ما قرأه باهتمام ما الذى تأثر به فى تفكيره وممارسته وعلى أى نحو.

واضح أن تلك الأمور لا تحدد من خلال التعرف على محتويات المكتبة، وإنما تتطلب دراسة لأقواله (كتاباته وخطبه) ولمواقفه، دراسة تفصيلية منهجية، ثم العودة منها إلى ما درسه أو اهتم به فى مكتبته.

ويظل الحكم بعد ذلك بعيداً عن أن يكون مؤكداً، وتظل قيمة كل ذلك موضع تقييم النقاد والباحثين.

رغم ذلك فقد يفيدنا الاطلاع على محتويات المكتبة الشخصية فى تكوين انطباع ما عن بعض سمات شخصية صاحبها. فهى تشير على الأقل إلى مجال اهتمامه الفكرى أو الفنى، النظرى أو العملى، وقد تشير أيضاً إلى نوع توجهاته وطموحاته الشخصية.

واستناداً إلى ذلك يلاحظ الباحث فى مقاله ثلاث سمات أساسية تميز المكتبة:

التنوع، الذى يعنى الشمول لمعظم مجالات اهتمام الفكر الإنسانى، والتتبع، الذى يعنى تقصيه للكتب والمراجع التى تغطى معظم موضوعات اهتماماته على امتداد الزمن.

والالتزام بأدب فقه الخلاف، وهو ما يعنى فى مجال اقتنائه للكتب، عدم اكتفائه بالنظر إلى القضية التى تكون محلاً لاختلاف الآراء من جانب واحد فقط.

فأما التنوع فقد يلاحظ بعض القراء أن الوزن النسبى لما تحتويه المكتبة من كتب علوم الدين واللغة والتاريخ الإسلامى يفوق كثيراً ما بها من كتب فى الفروع الأخرى، وأن بعض فروع العلوم الإنسانية والطبيعية يندر ما نجده فيها من كتب. وهو ما يفصح عما نعرفه جميعاً من أن حسن البنا كان زعيماً دينياً. وبالتالى فكل ما يتعلق بالدين واللغة يدخل فى الدائرة المركزية لاهتماماته.

ولعل الرؤية تكتمل بصورة أفضل حينما نلقى نظرة فاحصة على ما تحتويه المكتبة من دراسات فى المجتمع المصرى وتاريخه، وفى القضايا السياسية المركزية، والمذاهب السياسية والفكرية، وفى جغرافية

تعليق يرى أن الباحث قدّم عملية توصيف ورصد لمكتبة حسن البنا دون الكشف العميق عمّا قرأه وتأثر به فكراً وممارسة .

عاطف أحمد

فقه الاختلاف

مصر (بما فيها تقاسيمها الإدارية ومدنها وقراها). مما يشى بأن الاهتمامات السياسية كانت قريبة أيضاً من الدائرة المركزية لاهتمامات حسن البنا، لتصبح صورته لدينا متفقة مع ما نعرفه عنه من أنه كان زعيماً سياسياً دينياً.

وهذا هو ما يؤسس السمة الثانية التى لاحظها الكاتب وهى سمة التتبع. فمتابعة ما يصدر من دوريات ودراسات تتيح له إدراك ما يدور حوله فى مجال اهتمامه وتمكنه من التعامل معه وهو على بينة منه.

أما السمة الثالثة وهى الالتزام بأدب فقه الاختلاف فقد توحى للقارىء بأن حسن البنا كان يتسم بتقبل الرأى الآخر ويؤمن بتعددية وجهات النظر. والكاتب يدعم ذلك الانطباع لدى القارىء حينما يوحى له فى الجزء الأخير، أن حسن البنا كان يمتلك «القدرة على الاستيعاب وسعة الأفق وغزارة المعرفة وشمولية الرؤية ورسوخ القدم فى ميدان العلم»، وهى عبارة يوردها الكاتب دونما أدلة أو قرائن، ويقفز بها خارج سياق البحث، لكنها إذا تضافرت مع فكرة إلتزام حسن البنا بأدب فقه الخلاف، فإنها تجعل القارىء يتصور أنه أمام عقلية متفتحة تؤمن بتعددية الرأى وتتعامل مع الرأى الآخر بموضوعية ناجمة عن اقتناع داخلى باحتمال صوابه.

وقد وجد عبارة لحسن البنا، تعليقاً على أحد الكتب تقول «ويل للذين ينظرون إلى الأشياء من جانب واحد.. ويل لهم وويل للإنسان منهم .. ولن تجد على وجه الأرض أشد منهم ظلماً ولا أسقم فهماً» ففهم منها أن حسن البنا يرفض النظرة إلى الأشياء من جانب واحد، بمعنى أنه ينظر للمسائل والقضايا الفكرية فى مختلف المجالات من عدة جوانب، بما فيها الجوانب التى تتعارض مع وجهة نظره هو. أى أنه يحترم حق الاختلاف وحرية الرأى وتعددية الفكر.

لكن نظرة واحدة على سياق هذه العبارة يجعل المسألة تبدو مختلفة. فهى عبارة وردت فى تعليق على كتاب «هذى هى الأغلال» للقصيمى الذى يحمل بشدة على التراث الإسلامى بما فيه كثير من الأحاديث النبوية وأقوال العلماء والأئمة ـ معنى العبارة إذن: أن القصيمى يرى الأشياء (التراث الإسلامى) من جانب واحد (هو الجانب النقدى) ـ فويل له، فليس هناك من هو أشد منه ظلماً ولا أسقم فهماً. ذلك أن المؤلف يحمل على الغزالى وعلى الشعرانى بيد أن حسن البنا يجلهما إلى حد الغرام والهيام، رغم ذلك ـ وهذا كلام البنا ـ فهو لا يحكم بكفره ولا يطالب بشنقه (وكأن المفروض أو الطبيعى أن يفعل ذلك)، ثم يذكر البنا بضع كلمات وردت فى الكتاب ويعلق عليها قائلاً «لمصلحة من تدعوننا أيها الناقمون لأن نبتلع هذه الكمية المرعبة من السم الوبيل». ثم يوضح لنا البنا لماذا رغم ذلك لا يحكم بكفره ولا يطالب بشنقه، ذلك أنه «دعوة أو فكرة خير يريد أن يضعها ـ أى مؤلف الكتاب ـ فى شرفة النور فهو فى سبيل ذلك يكافح الغيوم المتراكمة والسحب القاتمة وقد يندفع قلمه إلى حيث لا يريد».

والمعنى من كل ذلك واضح. فلو لم يشعر البنا أن القصيمى حسن النية وأن حماسه دفعه إلى قول ما

لا يريد، لحكم بكفره وطالب بشنقه. وحسن النيه هنا يعنى أنه مؤمن بالإسلام مدافع عنه، مثلما كان حسن البنا نفسه أو بتعبير أدق على النحو الذى كان حسن البنا يؤمن به.

لم ير البنا فى القصيمى إذن رأياً آخر، بمعنى وجهة نظر مختلفة جذرياً عن وجهة نظره هو، وإلا لجاز له أن يحكم بكفره وأن يطالب بشنقه.

رغم ذلك لم يسلم القصيمى من عبارات السباب التى تحمل إدانة أخلاقية مباشرة: لن تجد على وجه الأرض أشد منهم **ظلماً** ولا أسقم فهما .. **لمصلحة من** تدعوننا أيها **الناقمون** لأن نبتلع هذه الكمية المرعبة من **السم الوبيل**.

هذه النظرة الأخلاقية هى بمثابة البؤرة المركزية للمنظومة الفكرية التى ينتمى إليها حسن البنا. وهى ترى الرأى الآخر من منظور أخلاقى وليس معرفيا. من هنا تأتى الإدانة والاتهام، ومحاكمة النوايا، والتجريح الشخصى.

ولعل منهج حسن البنا فى التعامل مع الرأى الآخر والحكم عليه يتضح بصورة أوضح فى تعليقاته على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق.

فقد طرح على عبد الرازق قضية الخلافة وطبيعتها ومصدر شرعيتها للبحث العقلى ربما لأول مرة فى تاريخنا الفكرى، وطرح معها أسئلة شديدة الجرأة فى مسائل شديدة الحساسية مرتبطة ارتباطاً عميقاً بالوجدان الدينى الإسلامى: هل الخلافة ركن من أركان الدين، هل لها مصدر فى القرآن أو السنة. هل أقام النبى دولة سياسية، هل وضع نظاماً سياسياً لمن أتى بعده. هل كانت حروب الردة حروباً دينية. هل ظل طابع الحكم بعد النبى طابعاً دينياً.

وقد أجاب على عبد الرازق على هذه الأسئلة جميعاً بصراحة سافرة وبقدر ما هو متوافر لدينا من معلومات.

فبعد وفاة النبى (ص)، قام الخلفاء من بعده مقامه فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به. وسمى القائم بذلك خليفة وإماماً، خليفة لكونه يخلف النبى (ص) فى أمته، وإماماً تشبيهاً بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به.

وهو ينزل من أمته بمنزلة الرسول (ص) من المؤمنين، له عليهم: الولاية العامة، والطاعة المطلقة، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده، وينفذ شرائعه، وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضاً.

وليس للخليفة شريك فى ولايته، ولا لغيره ولاية على المسلمين، إلاّ ولاية مستمدة من مقام الخلافة، بطريق الوكالة عن الخليفة. فعمال الدولة الإسلامية وكل من يلى شيئاً من أمور المسلمين فى دينهم أو دنياهم من وزير أو قاض أو وال أو محتسب أو غيرهم، كل أولئك وكلاء للسلطان ونواب عنه. وهو وحده صاحب الرأى فى اختيارهم وعزلهم.

من أين يستمد الخليفة هذا السلطان؟

هناك مذهبان .. الأول أن الخليفة يستمد سلطانه من الله تعالى وقوته من قوته:

- ففى البداية اختلف فى تسمية أبى بكر، خليفة الله، فمنهم من أجازه، ومنهم من منع الجمهور عنه. وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به، وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله. [مقدمة ابن خلدون: ص ١٨١]

- عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا «ظاهراً وباطناً». [حاشية الباجورى على الجوهرى].

- طاعة الأئمة من طاعة الله وعصيانهم من عصيان الله [أبو هريرة. العقد الفريد جزء -١- ص ٥].

- زعم أبو جعفر المنصور أنه إنما هو سلطان الله فى أرضه [العقد الفريد جزء ٢ ص ١٧٩].

- والعلماء إذا ذكروا فى أول كتبهم أحد الملوك أو السلاطين رفعوه فوق صف البشر:

[خطبة نجم الدين القزوينى فى أول «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية، قطب الدين الرازى: شارح تلك الرسالة فى خطبة شرحه، عبد الحكيم السيالكونى فى حاشيته على الشرح المذكور] .

فجملة القول أن استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار لعلى الألسنة، فاشٍ بين المسلمين.

● والمذهب الثانى أن الخليفة إنما يستمد سلطانه من الأمة [الحطيئة فى شعره، العلامة الكاسانى فى كتابه البدائع، رسالة الخلافة وسلطة الأمة: المجلس الوطنى بأنقرة. مطبعة الهلال ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م].

ومثل هذا الخلاف بين المسلمين فى مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الأوروبيين، وكان له أثر فعلى كبير فى تطور التاريخ الأوروبى. ويكاد المذهب الأول يكون موافقاً لما اشتهر به الفيلسوف «هوبز» من أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوى. وأما المذهب الثانى فهو يشبه أن يكون نفس المذهب الذى اشتهر به الفيلسوف «لوك».

ويستمر على عبد الرازق فى تفنيد رأى من يستمدون من القرآن أو السنة دليلاً على وجوب تنصيب خليفة. إذ لا تجد فى القرآن ذكراً لتلك الإمامة العامة أو الخلافة، كمالا تجد حديثاً واحداً يفيد وجوب تنصيب خليفة، ثم ينقد فكرة الإجماع مبيناً أنها دعوى غير صحيحة ولا مسموعة. ثم ينقد حجة أنها - أى الخلافة - تتوقف عليها إقامة الشعائر وصلاح الرعية.

وينتهى إلى أن الخلافة أو الإمامة العظمى لم تكن شيئاً قام على أساس من الدين القويم أو العقل السليم، وإلى أن ما زعموا أن يكون برهاناً لها إذا نظرت وجدته غير برهان.

وينتقل على عبد الرازق إلى بحث نظام الحكم فى عصر النبوة. فإذا نحن تجاوزنا عمل القضاة والولاية (وهى لم تكن شيئاً مطرداً وكانت تحصل لأوقات محدودة) إلى غيرها من الأعمال، التى لا يكمل معنى الدول إلا بها، كالعمالات التى تتصل بالأموال ومصارفها (المالية) وحراسة الأنفس والأموال (البوليس) وغير ذلك مما لا يقوم بدونه أقل الحكومات وأعرقها فى البساطة، فمن المؤكد أننا لا نجد فيما وصل إلينا من ذلك عن زمن الرسالة شيئاً واضحاً يمكننا ونحن مقتنعون مطمئنون، أن نقول إنه كان نظام الحكومة النبوية.

وأعمال الرسول التى قد تبدو مظهراً للملك والدولة لم تكن إلا وسيلة من الوسائل التى عليه أن يلجأ إليها: تثبيتاً للدين، وتأييداً للدعوة.

لذلك لم يسم الرسول(ص) خليفته من بعده. وهو أمر ذو دلالة.

كذلك لم يعرف عنه أنه تعرض لشىء من سياسة الأمم أو القبائل العربية المختلفة فى زمنه، ولا غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم، ولا مما كان لكل قبيلة من نظام إدارى أو قضائى، ولا وضع قواعد لتجاراتهم ولا لزراعاتهم ولا لصناعاتهم.

ويمضى على عبد الرازق فى إجابة التساؤلات التى طرحها، ويبين كيف تحولت الخلافة إلى سياسة بحتة تستعمل الدين لإضفاء شرعية على ما تريد أن تفعله لدوافع وأغراض مدنية دنيوية.

فكيف قرأ حسن البنا هذه الدراسة التى أثارت جدالاً عظيماً وتعرض صاحبها بسببها للطرد من زمرة علماء الأزهر، وهى التى تعالج موضوعاً على درجة عالية من الأهمية بالنسبة للمنظومة الفكرية التى يتبناها حسن البنا؟

فحينما يتحدث على عبد الرازق عن سلطان الخليفة، وكيف أن له وحده الأمر والنهى وبيده زمام الأمة وتدبير ما جل من شئونها وما صغر، يعلق حسن البنا قائلاً «مهلاً مهلاً». فهو معترض على شمولية سلطان الخليفة دون أن يبين أية أدلة أو وقائع تدعم وجه اعتراضه. وإنما يعبر عن اعتراضه بعبارة إنشائية تعجبية وحسب. رغم أن تاريخ الخلفاء هو تاريخ قراراتهم الشخصية وصراعاتهم الشخصية التى تطال رقاب أى فرد من «الرعية»، وكانت قراراتهم فى أى أمر مصحوبة بالتنفيذ الجبرى والشخصى.

وحينما يتحدث على عبد الرازق عن رفع الكتاب للملوك والسلاطين إلى ما فوق صف البشر، يعلق البنا قائلاً:«لا يصح أن يكون هذا دليلاً إلا على ضعف النفسية فقط». ولايرى فى الأمر أية عوامل موضوعية قائمة فى الواقع السياسى حينذاك تدعو

إلى ذلك منها قدرة الحاكم على رفع من يشاء وخفض من يشاء أفراد المجتمع من واقع تفرده المطلق بالسلطة، كما ورد فى كتب التاريخ والتراث التى استند إليها على عبد الرازق. وحينما يتحدث على عبد الرازق عن المذهب القائل باستمداد الخليفة سلطانه من الله، يعلق قائلاً: «لا يؤيد هذا المذهب رأى ولا دليل ولا ندرى من أين أتى حضرة مؤلف الكتاب بذلك، وكل ما بعده ليس معناه ما يقصد إليه المؤلف «والعبارة الأخيرة تشير إلى أبيات من الشعر أوردها على عبد الرازق ويحق للبنا أن يفهمها على نحو مخالف، أما أن هذا المذهب لا يقوم عليه دليل واحد فهو يتناقض مع رفض أبى بكر تسميته خليفة الله. فهى واقعة تفترض ضمناً أن هناك من دعاه بذلك؛ كما أنه يتجاهل ما جاء فى حاشية الباجورى على الجوهرة، وما جاء فى العقد الفريد عن أبى هريرة. ثم نفاجأ بقوله إنه «ما فهم مسلم واحد على وجه الأرض أن الخليفة مقدس السلطان كما فهم الإنجليز فى الملك جون مثلاً». فالذين دعوا أبا بكر خليفة الله، والذين قالوا بأن طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله، والذين رفعوه إلى ما فوق البشر من الذين يعانون من «ضعف النفسية فقط» كما أشار البناء، ألا نرى فى فرد واحد منهم من أضفى قداسة على منصب الحاكم ومن ثم على شخصه؟.. وماذا يقول البنا فيمن رفع نفسه شخصيا إلى مقام القداسة فأعلن أنه إنما هو سلطان الله فى أرضه؟ فهل نستطيع بعد ذلك - أو حتى قبل ذلك - أن نتحدث عن أنه ما فهم **مسلم واحد على وجه الأرض** أن الخليفة مقدس السلطان.

وحينما يتحدث على عبد الرازق عن أن الفكر الأوروبى قد عرف أيضاً نفس المذهبين فى مصدر سلطان الحاكم مما كان له أثره فى تطور التاريخ الأوروبى، وذكر اسم ممثل لكل مذهب منهما. علق حسن البنا قائلاً: «هذا التشبيه خلط وخبط وخطأ من المؤلف أداه إليه أنه يريد أن يمالح بذكر أسماء هؤلاء الأوروبيين». ثم ينهى التعليق بالسباب قائلاً: «فليخسأ المؤلف».

فهل صحيح أن على عبد الرازق كان يتمالح بذكر أسماء هؤلاء الأوروبيين؟ لقد أشار إلى اتجاهين فى الفكر الأوروبى وضرب مثلاً للاتجاه الأول رأى الفيلسوف توماس هوبز، وضرب مثلاً للاتجاه الثانى رأى الفيلسوف جون لوك. وأشار إلى المرجع الذى استمد منه ذلك. وقد عدت إلى ذلك المرجع* وبحثت عما ورد فيه عن هذين المفكرين.

فأما هوبز فيقول بأن إرادة الدولة - ممثلة فى الملك أو فى السلطة - فإنها ذات سيادة عليا غير محدودة وغير قابلة للخروج عليها. فالعقد الاجتماعى لم يتم بين الناس من ناحية، وبين الحاكم من ناحية أخرى وإنما هو تعاقد بين الناس بعضهم البعض، والحاكم ليس طرفاً فيه، وبالتالى، فلا يوجد من بين أفعاله أياً كانت ما يمكن اعتباره خرقاً للتعاقد بحيث يعطى مبرراً للتمرد عليه، فالتمرد لا يمكن أن يبرر قانوناً، لأن صاحب السلطة هو فى ذاته مصدر القانون .. فالملك قد منح سلطة سلمت له بحرية، وبمجرد تسلمه لها فلا يمكن استردادها منه. إذ ماذا يعنى استرداد السلطة منه ؟ يعنى أن المجتمع لن يعود قائماً، وأننا لن نجد من يفصل فى المنازعات، وأن الفوضى الأهلية ستعود ثانية، وهذه حالة يفضل عليها سلطة الحاكم أياً كانت مستبدة (ص ٢٢٨ - ٢٢٩).

وأما جون لوك فقد دافع عن حرية المواطن فى الدولة على أساس قاعدة الصلاحية أو المنفعة، معارضاً بذلك الاعتقاد اللاعقلانى، المبنى على التقليد الأعمى، والذى يعبر عن نفسه فى نظرية الحق المقدس للملوك. ولوك هنا إنما يجعل من نفسه المتحدث باسم ثورة ١٦٨٨، بأن يعالج مسألة الحكومة على أنها ببساطة، وسيلة لخدمة مصالح الشعب. وهو يتفق مع هوبز، فى أن الحكومة تنشأ عن التعاقد، لكنه تعاقد يدخل فيه الملك ويخضع لشروط مقيدة محددة، تعاقد يخلو من التصلب الذى وسمه به هوبز. فالإبقاء على الأشكال القديمة

رغم تغير الظروف معناه التخلى عن الغرض الأساسى الذى نشأت من أجله الحكومات، فإذا تخلى الحاكم فى أية لحظة عما وثق الناس به لأجله، وإذا لم تتحقق المنافع التى منح السلطة بهدف تحقيقها، فيجب أن تعود السلطة هنا للشعب، وتصبح الثورة مبررة. (ص ٢٩٤).

على عبدالرازق إذن لا يتمالح بذكر أسماء أوروبيين، وإنما يشير إلى مسألة هامة علينا أن نتفهمها جيداً. هى أن ما طرحه التاريخ الإسلامى يطرحه أيضاً التاريخ الأوروبى، مما يعنى أن المجتمعات فى تطورها السياسى والفكرى تمر بمراحل وتطرح تساؤلات وتبحث عن حلول متشابهة. وأن ما وصلت إليه أوروبا من تقدم فى النظم السياسية والاجتماعية إنما جاء عبر صراع طويل نعانى نحن حالياً من آلام مراحله الوسيطة. فنحن لسنا حالة فريدة خارج الزمن وخارج تاريخ المجتمعات البشرية.

هذا هو المعنى المتضمن فى فقرة على عبد الرازق، نقرؤه بعيون مفكرة فنجد له دلالات، ولا نقول إنه تمالح بذكر أسماء أوروبية، ولا نقول (فليخسأ المؤلف).

ورغم أهمية موضوع الخلافة بالنسبة لحسن البنا، بوصفه زعيماً سياسياً دينياً، فإننا لم نعرف له بحثاً مفصلاً فيها. فكل ما ورد عنه فى مسألة الخلافة هو عبارات من مثل «إن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، وظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير فى أمرها والاهتمام بشأنها»*.

هذا على المستوى النظرى، أما على المستوى العملى السياسى فلنقرأ بضع فقرات لرفعت السعيد ** حول هذا الموضوع:«وبينما كانت مصر كلها تغلى بالنضال ضد الاستعمار، والمظاهرات تملأ الشوارع مطالبة بالجلاء، والجامعة تلتهب بالعمل الثورى ضد الاحتلال وعملائه، نجد مؤتمر طلاب الإخوان ينحرف بالقضية كلها نحو ضرورة التركيز على «استرجاع الخلافة الضائعة».

وفى رسالة «نحو النور» يورد البنا ما أسماه بالموبقات العشر .. ويضع الاستعمار على رأسها ثم يورد خمسين مطلباً من المطالب العملية للدعوة تحت عنوان «بعض خطوات الإصلاح العملى» ولم يرد بها مطلب واحد يتعلق بالقضية الوطنية أو بالجلاء أو بالاستقلال أو بمقاومة الاستعمار، وكل ما هناك عبارة تقول «تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعاً وبخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدى العملى فى شأن الخلافة الضائعة».

ويتساءل رفعت السعيد قائلاً: «ولعل من حقنا أن نسأل هل كان الإخوان بكل ما علقوه من آمال على الملك الفاسد فاروق كما أكد البنا نفسه عندما قال «إن لنا فى جلالة الملك المسلم أيده الله أملاً»، وبكل ما قام بينهم وبين القصر من علاقات .. هل كانوا وهم يتحدثون عن الخلافة الضائعة يلوحون بها للملك الفاسد أم أى خليفة آخر كانوا يريدون؟ ..»

كانت فكرة الخلافة إذن بالنسبة للإخوان، على المستوى العملى بديلاً للوطن، وبديلاً للقومية العربية، وكانت على مستوى نظام الحكم بديلاً للديمقراطية والتعددية الحزبية.

أما على المستوى النظرى، فكانت ذات شحنة عاطفية هائلة فى تغذية حلم عودة التاريخ، واستعادة المكانة والسيادة فى عالم قذف بنا إلى الظل. لذلك لم تصبح أبداً، بالنسبة للتيار الذى يمثله حسن البنا، موضوعاً يخضع للبحث العقلى ■

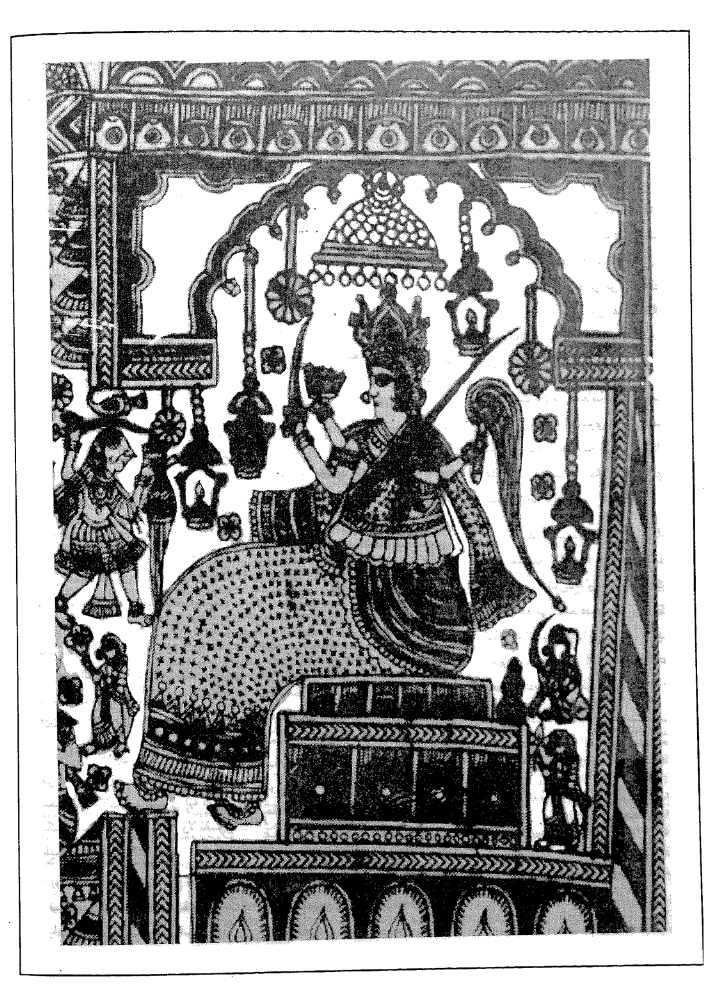
---

* د . محمد عمارة: الاسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٢.

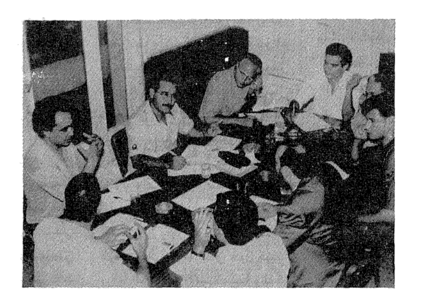
- Astudent's Histoty of philosophy. Arthur kennnyon Rogers.
  N.Y. The Macmillan company. 3-rd edition.

* مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا: دار الدعوة. القاهرة ١٩٩٠ ص ١٩٨.

* * د . رفعت السعيد: حسن البنا: متى وكيف ولماذا؟. كتاب الأهالى رقم (٢٨). أكتوبر ١٩٩٠ ص ١٤١ .



الإسلام بين أزمة الواقع ومتطلبات العصر



ندوة شارك فيها

- سيد محمود القمنى : باحث متفرغ له العديد من الدراسات الهامة فى مجال الفكر العربى والتاريخ الإسلامى .
- على جمعة : مدرس أصول الفقه، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر .
- إبراهيم البيومى غانم : باحث فى العلوم السياسية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية
- جهاد عودة : باحث فى العلوم السياسية، له العديد من المؤلفات، يعمل فى مؤسسة «الصحفيون المتحدون» (مسئولا عن مركز الأبحاث بها) أعد ورقة النقاش .
- وأسرة التحرير

الإســـــلام
بين
أزمـــــة الـواقـع ومـتطلبـات العصـر

* **جهاد عودة :**

فكرة الندوة هذه الليلة فكرة جريئة فى حد ذاتها، وجراءة الفكرة لها أكثر من مصدر . أولا : هى جراءة التوجه العام وهى أنه فى مناخ ثقافى يقوم أساسا على الاستبعاد؛ استبعاد الفئات ، واستبعاد الأفكار فى مواجهة بعضها البعض تسعى هذه الندوة إلى رد الاعتبار لكافة الأطراف وأن تعطى الاعتبار لأفكارهم مهما كان الاختلاف معهم . هذا أول مصدر من مصادر الجراءة ، مصدر آخر من مصادر الجراءة ، ولابد أن يشار فى هذا إلى جراءة أسرة تحرير هذه المجلة التى يمكن القول إن فلسفتها الأساسية هى التنوير ، ووفق المواريث فى الثقافة المصرية يفهم التنوير بمعنى ضيق وبمعنى استبعاد فإن يأت مثقف ويرد أن يصحح مفهوم التنوير بالمعنى المصرى لكى يشمل أطرافا عدة فهى جراءة فى حد ذاتها . أيضا فهى جراءة من الحاضرين فنحن فى مصر تملؤنا الهواجس فى الحقيقة وتملؤنا الشكوك من بعضنا البعض فإن يوافق الحاضرون ويعلنوا استعدادهم لتبادل الرأى حول القضايا بقصد الوصول إلى تحديد الإشكاليات التى يجب النقاش حولها هذه أيضا جراءة ، بمعنى آخر فى عبارة مختصرة أنه ما كان لمجلة أو مكان يمارس الريادة، والريادة هى جوهرها جراءة .

هذا مجال للتبادل الخلاق للأفكار بدون أى هواجس وبدون شعور بضرورة الدفاع عن الذات، هذه نقطة هامة محددة لحوارنا ومرشدةً لتفاعلنا.

والمقصود من هذه الندوة وعنوانها «الإسلام بين أزمة الواقع ومتطلبات العصر»، ليس تسجيل مدى الاختلاف بين المشاركين فنحن نعرف أن المشاركين مختلفون وليس المقصود منها طرح تصورات مختلفة ومتعارضة، فنحن هنا لا نسعى لتكرار وإعادة إفراز ما نعلمه، ولكن الهدف الحقيقى من هذا اللقاء هو السعى أن يكون الاختلاف مدخلا للوصول إلى نقاط اتفاق حول كيفية ورؤية الحركة الإسلامية والفكر الإسلامى من منظو ر موضوعى بعبارة أكثر بساطة أن الاختلاف مشروع ولكن يصبح بناء عندما يكون هو وسيلة لفهمنا بعضنا البعض، ومعرفة كيف نفكر وكيف يمكن أن نلتقى، وانطلاقا من هنا، هذا ليس حوارا يتم فيه مجرد إبداء الرأى هذا أكثر من حوار لإبداء الرأى، هذا أكثر من حوار وأعمق هذا لقاء بقصد وضع أسس مفهومية كيف يدار حوار، اذا كان يمكن أن يدور فى وقت ما، على أسس لبناء رؤية مشتركة تحمل عناصر الاختلاف وتعبر أيضا عما هو مشترك بيننا، لهذا فالحاضرون نخبة من المثقفين المصريين، وليسوا أسماء عادية، أو جديدة، هى أسماء لها خبرة عملية فى الثقافة وخبرة نظرية بالمفاهيم ولها روح تريد أن تجد حلا للأزمة التى نعيشها، وهذا مهم بالنسبة لنا، ولكى لا أطيل فقد قصدت من هذه الوقفة فى البداية أن أضع إطارا عاما للحوار.

ونحن عندنا ورقة وقد كتبتها وليس المقصود منها إثبات ما هو الخطأ فيها، ولكن هى فاتحة للحوار أو اللقاء فنبدأ بالمحور الأول ثم هناك محور ثان، وعندما ننتهى من تبادل الرأى حول المحور الأول «حول قضية الإسلام ومنابع التنوير» والقضية كما عرضت أن التفكير الإسلامى استهدف زهاء قرنين إثبات الذات وتجسيد الهوية الموروثة فى المقام الأول بدون أن يتعدى ذلك إلى تخليق مفاهيم إسلامية تسمح للفرد بالانطلاق فى مواجهة الأفكار المضللة. الأمر الذى أكد فى النهاية أن التفكير الإسلامى يرتبط أكثر بتجسيد الهوية الموروثة أكثرمنه بناء تصور عن المستقبل، أقصد المستقبل الثقافى وليس مجرد شعار سياسى أو ما الى ذلك.

فى هذا الإطار يمكن أن نتبادل الرأى حول نسبية هذه العبارة أو هذا التأكيد: كيف يمكن فعلا تحقيق مفاهيم تسمح للفرد المسلم أن ينطلق فى أطر الحضارة الإسلامية ويتوافق مع التطور العصرى، وأن يصبح عصريا ومستنيرا، وفى نفس الوقت لا تكون القضية هى قضية الإسلام فى مواجهة العصر، أو الإسلام أحسن من الثقافات الأخرى، هى تصبح قضية استبعادية، نحن ننظر نظرة مختلفة، ثم بعد ذلك ندخل إلى المحور الثانى، والحوار سيدور بين المدعوين، ولكن الحاضرين يمكن أن يساهموا فى الحوار اذا جاءت مناسبة أو فرصة.

د. على جمعة:

فى ظل هذا الإطار الذى رسمه جهاد عوده هناك سؤالان تنظيميان: هل نحن مرتبطون بوقت؟ هل يمكن أن يكون هناك جلسات امتدادية؟

فأنا أرى أنه لابد لتحقيق هذا الهدف الذى أشرت اليه أن يكون هناك مطلق مشترك بين الجالسين حتى لو اختلفوا، ولكن جلوس المختلفين من غير مطلق مشترك لا يوصلنا إلى النتيجة التى تقول إننا نريد بيانا مشتركا فى الاتفاق، بمعنى أنك قد افترضت أصلا أن هناك نقاط اتفاق، فلابد من تحديد النقاط حتى ننطلق منها ونعود إليها ونجعلها معيارا للقبول والنقاش والحوار الخ.

هل يمكن ان نجعل المشروع المصرى هو نقطة اللقاء ؟ نحن كلنا مصريون ونريد صالح هذا البلد، وقد يكون هذا هو المشترك، أى أننا نريد لهذا الشعب أن يكون متقدما أى أن يكون انتماؤنا لوطننا انتماء يؤدى إلى التطور وهو الانتماء لبناء مشروع مصرى، كيف نبنيه، وكيف نطبقه؟ ويأتي الإسلام كطرح من الأطروحات الموجودة أو إطار لجميع المشروعات ولكن نجعل المشروع المصرى هونقطة اللقاء، وهذا أحبذه لأننا فى حاجة إليه عمليا ، وقد يكثر الكلام عن وجود مشروع مصرى بعد الناصرية وهذا يؤدى إلى فقد الذات، وذوبان الهوية الخ من المشكلات.

وأجب أن أنبه إلى مشكلة قد تكون إجرائية ولكنها مهمة جداً وهى أن تنوع الثقافات قد يؤدى إلى فقد لغة التفاهم، بمعنى أن يكون اللفظ له معنى في ذهن المتحدث وله معنى آخر فى ذهن السامع، ويأخذ تبادل الأفكار يجرى على طاولة الاجتماع بالرغم إنه ليس هو القائم فى ذهن المتكلم.

وهناك خلل عضوى عظيم فى هذا الأمر خاصة بين المنتمين إلى الحركة الإسلامية وبين المعادين لها، وفى كثير من الأحيان يصير الخلاف لفظياً أو غير محدد، أو أن هناك نقاشاًحتى لو كان حقيقياً إلا أن هناك ثقافات ضخمة جدا ولاتصل لشئ، وكان يمكن أن تصل لشئ لو أنها قد صاحبت لغة التفاهم أو روعى ذلك فى الخطاب.

أتكلم فى المحور الأول وهو الإسلام ومنابع التنوير، يطرح اشكاليتين أساسيتين على المتحاورين:

أولهما: إن التفكير الإسلامى فى مجمله خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ومن منظور التنوير الدال على القدرة على نقد الأفكار المجردة بقصد تحرير الفرد من سيطرتها عليه أصبح التفكير الإسلامى مرتبطاً بمعانٍ تعيق التحرير،بعبارة قصيرة أن التفكير الإسلامى استهدف خلال هذين القرنين إثبات الذات وتجسيد الهوية الموروثة فى المقام الأول، بدون أن يتعدى ذلك إلى تخليق مفاهيم إسلامية تسمح للفرد بالانطلاق فى مواجهة الأفكار المضللة التى سبق الإشارة اليها، وأضرب مثلا بالأستاذ على عبد الرازق والأستاذ خالد محمد خالد فى محاولاتهما الجريئة لتخليق مثل هذه المفاهيم الإسلامية، ولكن فشل هذه المحاولات وانقطاعها أكد إشكالية ارتباط التفكير الإسلامى ونزوعه نحو إثبات الذات، وتجسيد الهوية الموروثة.

نحن وضعنا عدة نقاط، الأولى هى مسألة الثابت والمتغير والمطلق والنسبى فى الفكر الإسلامى.

المسلمون يرون أن هناك ثابتاً لا يجوز المساس به وهو النص، وجعلوا النص محوراً لحضارته وفسروا المجوزية بأنها منها ينطلق الإنسان وإليها يعود وبها يتم التقويم، وتخدم بواسطة الفنون والعلوم والآداب وكل البرنامج الحياتى.

هناك جزء قطعى من هذا النص إما فى ثبوته وإما فى دلالته وهناك جزء ظنى إما فى ثبوته أو فى دلالته، الثابت والمطلق لايجوز الاختلاف فيهما، وهكذا كانت عناوينهم فى الماضى كتاب اسمه «ما لايجوز الخلاف فيه».

وهناك نسبى يجوز الخلاف فيه، وعليه فقد اختلف الناس إلى أن فصلوا الفرع الواحد فى تطبيق هذا الحكم على الواقع إلى ثمانية عشر قولا فى قضية تامة وفى إطارها الثابت.

الثابت يمكن أن نعبر عنه بأنه هو الأفكار الحاكمة أو هى الأفكار الأساسية أو الإشكاليات الكبرى التى يجيب عنها النص بتصور الإنسان للكون والإنسان والحياة... إلخ.

هذا النص له علاقة مع الواقع ، وهذا النص إذا أسميناه المعيار وجدنا أن الواقع دائمامن العصر النبوى إلى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة منحرف عن هذا النص ، فالنص يمثل المثالية التى لم يدّع أحد من المسلمين وليس هناك نص يقول إنه سيأتى يوم من الأيام أو إنه سيكون هذا أن ينطبق النص تماماعلى الواقع ولا يكون هناك انحراف معيارى مابين الواقع وبين النص ، وعلى هذا فقد فهم المسلمون أن عملية الاجتهاد هى عملية تحاول أن تدرس النص فى صورة إجراءات قابلة للتطبيق فى الواقع ودون أن تدرس الواقع لتهيئةالتطبيق عليه .المفكرون المسلمون ابتعدوا عن الواقع ، فأصبحوا محصورين فى غير جانب التنفيذ ،سواء كان ذلك التنفيذ على المجال الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى أو فى مؤسسات الدولة المختلفة، هذا العزل أدى إلى أن أصبح أولئك المسلمون يفكرون فى جانب واحد وفى شطر واحد فقط ، وليس فى الشطر الآخر لأنهم معزولون عنه ، ولا يمكن إيجاد الاجتهاد فى معزل عن الواقع،بمعنى أن الحاكم لايسألهم ،والذى بيده القرار على أى مستوى من مستوياته أوفى مجال من المجالات لا يأتى بهم أولايتحرك هو فى ظل هذا الاجتهاد ولا يريد أن يجتهدوا، ويريد أن يكون إطار الأفكار الحاكمة الكلية. فعزل الاجتهاد عن.الواقع أدى إلى عدم وجود اجتهاد ، والاجتهاد لايمكن أن يتم إلا فى الواقع، فلو أردنا أن نعرف السبب الرئيسى فى هذه الظاهرة فى أنه أراد إثبات الذات وتجسيد الهوية ويدافع عن ذاته، ويريد أن يحفظها .ولا يجد واقعا ليطبقها فيه لأن الأفكار الأساسية من كون أن الإنسان مخلوق للخالق، ومن كون أنه سيد فى الكون، ومن أن هذا الكون الأصل فيه الاتساق وليس الصراع، ومن كون أنه لا ينزع حرمة الأشياء، لأن للأشياء حرمة وخصائص، الذى يقابلها فى الفكر الغربى على سبيل المثال أن الإنسان مستقل، وهنا أن الإنسان مكلف، ويمكن أن يسمى الإنسان هناك حراً، لكنى أسميه منفلتا، يعنى ليس له مرجعية يرجع إليها وهى الوحى، ونزع القداسة من الأشياء فالمسلم لا يستطيع أن ينزع القداسة من الأشياء لأنه يعتبر نفسه سيدا فى الكون، وهذا مبنى على أن هذا الكون منشؤه الصراع وهذا أخطر فى تعريف علم الإدارة وعلم السياسة حتى فى تعاريف العلوم .... وهكذا إذا أردنا أن نسعى فلنسع إلى تقليل الصراع أو من هذا القبيل فكأنه يرى الأصل فى الكون هو الصراع ويرى. أن الأصل فى النفس الإنسانية أنها صفحة بيضاء وأنها مستراكس أو مستر واى أى أنه كسول بطبعه وهكذا، ويؤثر هذا فى علم الادارة وعلم السياسة وعلم النفس وهكذا.

صاحبنا الثانى لا يرى هذا، يرى أن الفطرة ملهمة، فألهمها فجورها وتقواها ويعتقد فى هذا ويبنى بناء يؤثر حتى فى مناهجه التى تعالج العلوم الاجتماعية والإنسانية حتى فى مضمون هذه العلوم ... الخ.

اذن فثلاث النقاط هذه مهمة

أولاها مطلق مشترك، والدكتور جهاد يقول نريد أن نبنى أسساً مفهومية لإدارة الحوار، نعم إذا أردنا ذلك، فعلينا أن نصبر على أنفسنا فى لغة التفاهم، وأن يعيد أحدنا الكلام المرة والثانية والثالثة حتى نتوصل إلى مصطلحات محددة تنطق المفاهيم القائمة فى الأذهان حتى نفهم وليزول أغلب الخلاف، وفى ذلك معضلة من المعضلات القديمة للنقاش وتبادل الأفكار، فابن حزم يقول: لو اتحد الناس فى مصطلحاتهم لانتهت ثلاثة أرباع خلافات الأرض، ليس فقط الموضوعون فى خندق واحد.

والمحور الآخر : أننا أمام تصور معين أعرضه الآن، إن النص ينبغى أن يكون محوراً لحضارتنا، وأن هناك آليات لتطبيع هذا النص على الواقع ودراسة هذا الواقع، حتى يتأهل للنص، وبذلك تبنى الحضارات، وخاصة لشعب كان مسلما مدة أربعة عشر قرنا ومازال مسلما، فلا يمكن الخروج على هذا. فإذا أردنا مشروعا وطنيا فينبغى علينا أن نرجع إلى مسألة النص لمحور الحضارة وينبغى علينا أن نوجه أبحاثنا فى كيفية دراسة هذا النص وتطبيقه فى هذا الواقع وكيفية دراسة هذا الواقع لتطبيق النص عليه، وبذلك نحقق الهوية والذات ونعيش الواقع ونبنى الحضارة مرة ثانية التى من أسسها المهمة الجدية بخلاف الاستهانة التي شاعت فى ا لناس، هذه الاستهانة أتت فى ظنى لعدم وجود مشروع يلتقون حوله، فلو وجد المشروع، فيمكن أن يكون هذا المشروع عودة إلى الحضارة، ويمكن أن نغيره أيضا، نقول إنه لو كان غير ذلك لما وصلنا إلى المقصود ولحدث تناقض وخلل وعدم اتساق عند هذا الشعب، وبذلك لا نستطيع أن نبنى أى مشروع ألا من خلال المشروع الإسلامى .

د . سيد القمنى :

سأدخل فى الموضوع مباشرة فأقول حول الإشكالية الأولى، التفكير الإسلامى المعاصر والموجود استهدف خلال ما بين قرنين إثبات الذات، وتجسيد الهوية الموروثة فى المقام الأول، بدون أن يتعدى ذلك إلى تخليق مفاهيم إسلامية تسمح للفرد بالانطلاق فى مواجهة الأفكار المضللة. هنا كما لو كان الدين هوية بينما فهمت من الدكتور على فيما سمعت منه الآن شكلا مستنيرا من الفهم الإسلامى، وهو حدد المشكلة بأنها يجب أن نتفق أولا على أنها مصرية كحد أدنى وأضيف إليها أنها أيضا إشكالية حضارية فى مواجهة الآخر، ذلك الآخر الذى يمثل دائما شكلا ضاغطا على التكوين النفسى والعقلى للإنسان فى هذه المنطقة .

الثورة أيضا ليست مصرية وحضارية إنما هى انتماء لعالم برمته يمكن أن نسميه ولو مجازا، بالعالم الثالث، بكل مشكلاته مثالا لذلك أسلمة قضية البوسنة بينما هى قضية كان يمكن ان تأخذ شكلها الأفضل وتأخذ مناصرتها من انضوائها تحت ما نس.. ـ العالم الثالث، رغم الاعتراض حتى على هذا الاصطلاح، فعندما تكون الهوية إسلامية لمواطن فى مصر، هذا سيخلق أمامنا إشكاليات أخرى وستصبح هوية المصرى المسيحى نصرانيا الخ هذه الإشكاليات التى ستثور إزاء تحديد أن الإسلام هوية.

لكن فى اعتقادى أنه عقيدة ولها شروط لمن يؤمن بها أو من يريد الدخول فيها، وهذه الشروط تضغط على من يريد أن يخرج عنها، هذه مسألة يجب بداية من وجهة نظرى أنا أن يكون هناك اتفاق حول كونها عقيدة أم هوية.

فالإسلام لا نستطيع أن نتصوره منظومة تقف فى جانب ، والعالم الآخر كله فى جانب آخر، هذا هو سمت العنصرية بالتحديد، النقاط الثلاث التى خرجت بها من حديث الصديق الدكتور على يقف فى بدايتها إيجاد مطلق مشترك.

حقيقة أنا أتصور أنه يريدنا أن نتفق على مفاهيم هى فى الأساس إسلامية السمت والمصدر، فنتفق حولها أولا يكون هناك مساحة من الحوار، لكن أرى أن بناء أسس مفهومية لإدارة الحوار يجب أن نتفق عليها أى أن يكون هناك

أسس مفهومية واضحة فى ذهن الجميع بحيث لا تحمل اللبس عند الآخر.

النقطة الثانية أيضاً يمكن أن تصور محورا للخلاف وليس الاتفاق وهى أن يكون النص محورا لحضارتنا. ثم إن هذا النص هو محور حضارة امتدت لمدة اربعة عشر قرنا، وهذا ظلم للإسلام ولنا جميعا. إن تصورنا أن النص كان محوراً للحضارة طوال أربعة عشر قرنا. لأنه فى خلال الأربعة عشر قرنا كان هناك من السلبيات أن قلنا إن النص كان محورها فإن هذا سيرتد على النص بوجوب البحث فيه عن ثغرات أدت إلى نكسات كبرى، ثم لا أستطيع أن القى بظل الأزمة التى يعيشها المصرى المسلم أو المسيحى بأنها نتيجة تخليه عن النص ثم الاستعمار. هنا نقطتان تثاران باستمرار، فإلى حد ما أننا لا نستطيع أن نملك الواقع لنؤهله لقبول النص ، يعنى يجب أن يكون الواقع ملك أدواتنا نطوعه ليقبل النص، ونحن بشر والنص إلهى ثم الواقع أيضاً هو ملك الإرادة الالهية أى لو حتى أردنا التطويع فالتطويع فى النهاية للإرادة الإلهية حسب الفهم الدينى للأمر.

مسألة أن يكون النص محورا للحضارة هذا أمر يحتاج بحثا أطرحه الآن ولا أريد أن أقول كلمتى الآن حتى لا أسبق الحوار، هذا الأمر يحتاج أن نحدد المقصود به، كيف يمكن أن نؤهل الواقع لقبول النص، ذلك الواقع الذى لم يقبل النص طوال أربعة عشر قرنا هو ما يحكيه لنا التاريخ ، هذا حتى نبنى الأسس المفهومية المطلوبة للحوار، أى نجد المساحة المشتركة التى سيسعى بعضنا البعض حولها لنحدد ماهى؟

إذن سأعود هنا إلى ماقاله الدكتور جهاد وهو أن نعود بداية لتحديد الإشكاليات .

أنا أتصور أن أول الإشكاليات فاتنى أن أقول إن الاستعمار لم يكن السبب فى تخلفنا، وهذا ليس دفاعا عن الاستعمار، لقد كنا متخلفين جاهزين، ولأننا متخلفون استعمرنا، وكان النص معنا وكنا محكومين به، سواء كان هذا زائفا أو كان حقيقيا فقد كانت هناك الخلافة، ثم أنه هناك الإشكالية الأخيرة: إيجاد مطلق مشترك، أى أننا يجب أن نقدم فهماً واحدا بيننا لأصول شرعية وإيمانية نتفق حولها، هذا الفهم سيكون فهمنا نحن وآخرون سيعطون فهما آخر، أى أن النص فى حالة محاولة الاتفاق على فهم مشترك سيكون بين أيدينا زئبقيا، جانب آخر، لو قلت إن الإسلام فيه مطلق يجب أن نلتقى حوله جميعا، وأن هذا المطلق ثابت منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، فإن هذا سيعنى إشكالية أخطر من الإشكاليات الأخرى، وهى أنه ليس هناك ثابت لا يقبل التغير، وحين نحاول فهمه سندخل فى مسألة الاجتهاد أو مانسميه التأويل، أو مايسميه آخرون التلفيق، هذه كلها إشكاليات نريد أن نحددها حتى لا تكون مساحة الخلاف واسعة. نحن نريد أن نتفق على مساحة مشتركة، نتحدث فى ضوئها ونعتقد أن من يسأل عن الزمن كان محقا لأن ورقة النقاش مملوءة بإشكاليات كبرى ربما تحتاج لأكثر من جيل للاتفاق حولها، ولكننا نحاول أن نخلق مدخلا، فإذا كان هناك مطلق مشترك فمن الذى سيحدده؟ أنا سأختلف فى المطلق المشترك لأنى قلت من البداية إن الدين عقيدة، وأنا أعتقد بهداية عقلى وضميرى وثقافتى وممكناتى وخصوصيتى وهذا يحيلنا إلى نقطة صغيرة أرجو أن تؤخذ فى الاعتبار، فأنا لم أتفق مع جماعة المسلمين على الموت والجهاد والهجرة ووو ، وأيضا أن آخذ النفقة والغنائم ، فإن العقد فى دولة لازالت تبنى فى بكارتها أكون هنا خائنا خيانة عظمى، فيجوز أن يقول على وأبوبكر بحد الردة وهذا يقودنا إلى مسألة التكفير، لأن فى الورقة هذه الجزئية، وكيف يجوز هذا وهل يمكن؟ وهل حرية الاعتقاد نستطيع أن نكفلها للمواطن؟ هذه مسألة جوازية اذا كنا نتحدث عن مصر، حرية الرأى حرية الاعتقاد، حرية القول، حرية الخبز، ما هو المطلق المشترك الذى نتفق عليه؟ بلا أسس مفهومية، نحن متفقون، لا خلاف، والفهم واضح بين بعضنا البعض، وأنا أتكلم بشكل لا مداراة فيه، كيف يكون النص محوراً لحضارة ؟ فهو

إما نص ثابت جامد، أوكل منّا سيسقط مفاهيمه عليه وهكذا سنؤول النص بشكل تلفيقى، أو تنزع آية من سياقها التاريخى، ومن وقت حدوثها، والظرف الذى نزلت فيه هذه الآية لتحل إشكالية أو نسقط على هذا النص الماضوى التاريخى فهما معاصرا كما يفعل البعض، ثم كيف ندرس الواقع كى يتأهل للنص أو نضع واقعا نؤهله للنص الخ نص كما سبقت الإشارة يمضى عليه أربعة عشر قرنا من الزمان وهو إذا كان مطبقا فهناك خلل، واذا كان لم يطبق خلال هذه القرون فكيف نطبقه اليوم وما هو السبيل؟

• ابراهيم بيومى غانم

فى البداية أحب أن أقول كلمة شكر واجبة لمنظمى هذه الندوة، وهذا الملتقى، وربما يكونون من القلائل السباقين إلى اختراق حواجز الاستقطاب وحالات التقاطع والتدابر بين الجماعات السياسية والمفكرة فى هذا البلد، فنادرا ما يجتمع الشامى على المغربى، وأعتقد أن هذا اجتماع ضرورى ومهم لكى تقترب وجهات النظر، أو يعرف كل منا صاحبه عن قرب، فلا يتحدث عنه بعد ذلك عن طريق الصور النمطية، أو الانطباعات المسبقة، ولكن من واقع ما سمع بالضبط، وليس عن طريق السماع من بعيد، وهذه ميزة لهذه الندوة ولغيرها من الندوات التى تسير على هديها، والهدف من الندوة كما هو موجود فى الورقة أنا أتفق معه، واختلف فى نفس الوقت.

سوف أقدم بعض الملاحظات العامة حولها، ثم أدخل فيما تبقى من ملاحظات.

بالنسبة للهدف من الندوة فأنا أتفق بالفعل معه «من أن يكون سعيا للوصول إلى اتفاق حول كيفية رؤية الحركة الإسلامية. والفكر الإسلامى من منظور وتحليل موضوعى، وهذا أمل محل اتفاقنا جميعا، ولكن أختلف فى كيفية الوصول إلى الهدف، وقبل أن نسعى لاهثين إلى الهدف . قبل الوصول إلى الغاية التى لا يختلف عليها اثنان، وهى الاتفاق على كذا، يجب أن نتفق على أن نختلف على أوسع مدى، كل منا يطرح وجهة نظره، والنقاط الخلافية لا تعنى أننا فى حرب صدامية أو عدوانية، نحن نريد أن نصل إلى هدفنا الفعلى. وبالتالى حتى نصل إليه ، يجب ألا نقفز على نقاط الاختلاف ، وكما تبين لى شخصيا مما قال الدكتور على والدكتور القمنى، هناك وجهتا نظر مختلفتان تماما،. كل منهما ينطلق منها ويرجع إليها، ويحتكم إليها فى نفس الوقت ، ويصحح كلام الآخر من خلال منظومة محددة لا يستطيع أحد أن ينكرها.

هناك مرجعية لكل وجهة نظر . نريد أن نبدأ من هذه المنظومات، وأنا أقول فيما يخص ما قاله الدكتور على جمعة عن المطلق المشترك إنه بتعبير آخر هو المرجعية العليا التى أحتكم إليها، التى هى لدىّ لها سلطة مطلقة لها كل اعتبار، يعنى لا يرد عليها شىء ، يعنى هذه المرجعية العليا فى الفكر الإسلامى هى «النص» هى الوحى، هى القرآن والسنة، ومن خلال أدوات الاقتراب منها كما هى معروفة فى التراث الإسلامى. إذن فهذه نقطة أولى يجب أن نؤكد عليها، وأن ننطلق منها، ألا تكون مزعجة لنا، ولا تثير أى نوع من أنواع الحساسية، الأمر الثالث هو بالنسبة للخطاب السائد فيما بين الفرقاء .

هذه ملاحظة عامة سريعة .

إن هذا الخطاب السائد يعالج أزمة ذات ثلاث شعب. أزمة مفاهيم. ولا أختلف مع الدكتور القمنى حين يقول نبنى على أسس مفهومية. هو يقصد بمفهوم التنوير شيئا وأنا أقصد شيئا آخر.

ثم ثانيا : أزمة منهج، أى كيفية الاقتراب من الظواهر والتفاعل معها ومحاكمتها ثم ثالثا :أزمة وعى. وأزمة الوعى مركبة من ثلاث :

أزمة الوعى بالواقع، وأزمة الوعى بالمنهج، وأزمة الوعى بالفكرة لو أخذنا مثالا على ذلك من المحور الأول وهو الإسلام ومنابع التنوير.

ولدى الكثير من التساؤلات فى هذه الجزئية. ما هو مفهوم التنوير؟ وهل

يمكن أن نتفق على مفهوم واحد للتنوير؟ أنا لا أتفق ، ولا أقصد المفهوم الوارد هنا فى الورقة لأنه فى حاجة إلى تعريف والتعريف فى حاجة إلى تعريف. نقول إن التنوير هو القدرة على نقد أفكار مجردة، ما هى الأفكار المجردة، أريد أن أعرف ما هى؟ نقصد تحرير الفرد من سيطرتها عليه ثم تسيطر عليه لماذا؟ . ما الذى يحل محلها لكى تسيطر على الفرد. سندخل فى إشكالية تعريف يقودنا إلى الدخول فى إشكاليات معقدة جدا، لأنها مرتبطة هنا بمفهوم كامن ومستتر غير معلن . فالتنوير فى ذهنى مختلف تماما عما فى ذهن الدكتور جهاد. هل يستطيع ان يقول لنا كل واحد وجهة نظره ؟ كل واحد يطرحه بمفهوم لابد أن يختلف لارتباطه بمنظومة المفاهيم العليا التى يؤمن بها وينطلق منها ويؤسس وجهته فى الكون والحياة عليها. اذن فمسألة المفاهيم لا يجب التوقف أمامها طويلا. وفى الجزء المتعلق بالإسلام ومنابع التنوير أنا سألت عن الجملة المكتوبة: إن المجمل خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من منظور التنوير ـ وأنا لن أقف عند المفردات، ـ سأقول إن المحاكمة أو المناظرة كى نتابع الفكر الإسلامى خلال قرنين من الزمان مدة طويلة ، فمن المجازفة أن أقيم عليها حكما مطلقا أو شاملا . أن أنظر إلى خلاصة هذا الفكر، فمن منظور التنوير لم أصل إلى نتيجة. ما التنوير ؟ أتعنى إشكالية تحديد مفهوم التنوير ؟

سأكلمك باعتبار الاقتراب، ونقل المجتمع من حالة التخلف الاجتماعى والاقتصادى والاقتراب من نموذج الحياة الاجتماعية. وهى القضية الموجودة فى الغرب، التنوير عندى هو أن أرد الناس إلى العقيدة الصحيحة ، وأن يكون الفرد مؤمنا ملتزما بتعاليم الإسلام فى شئونه الخاصة وشئون بيته وشئون مجتمعه والى آخر هذه السلسلة المرتبطة بهذه المنظومة فلا يهمنى الا النتيجة.. المقدمة، فليس من المقدمات أن أحصل على تقدم اقتصادى رهيب وألحق بالغرب، وهذا الكلام كله يأتى كنتيجة تابعة، وليس هدفا أساسيا ويمكن أن يكون الإنسان سعيدا فى غاية السعادة ، وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئا وهناك تجارب كثيرة.

يمكن أن التفكير الإسلامى خلال هذين القرنين استهدف إثبات الذات، وتجسيد الهوية الموروثة، ولا أقول إنه قام بالوظيفة التى ما كان له أن يتخلف عنها فى هذين القرنين فهذه هى المهمة الأساسية فى إثباتها والقيام بها فى مواجهة الهجمة الغربية، وأنا أختلف اختلافا جزئيا مع د . القمنى فى قوله إن الاستعمار ليس سبب تخلفنا هذا صحيح، ولكنه على الأقل قام بحراسة هذا التخلف، وقام بتكريسه وتثبيته، هناك بالفعل القابلية للاستعمار قبل أن يأتى، فأسبابه كثيرة ومتعددة، فالاستعمار أدى إلى استمرارنا على الوضع الذى كنا عليه هناك فرق بين الاستعمار والقابلية للاستعمار فهما مشتركان فى هذا.

أركز على الجزئية الثانية فى المحور الأول، وهى الإشكالية التى وقعت تحت مأزق الازدواجية وطرقها العالم الغربى. أعتقد أن عكس هذا تماما هو السائد.إذا دخلنا فى التقليد الأعمى والتعميم الأغلب، فكثير من كتابات الحركة الإسلامية، إذا كنا نتحدث عن التنظيمات الإسلامية. واذا سمحتم لى أرجع إلى التعريفات.

فما هى الحركة الإسلامية؟ ما هو التفكير الإسلامى؟ ما هى التنظيمات الإسلامية؟ كل مصطلح من هذه علينا أن نحدده على الأقل لتكون الأمور واضحة فى أذهاننا.

فى كتابات الكثير من التنظيمات الإسلامية عكس هذه المقولة، والموجود أن العلم والحداثة الغربية مرتبطان بالنفس والمشاعر الغربية، وعلى هذه المقدمة يبنى كثير من التنظيمات الإسلامية أفكارها ومنظروها يعلنون رفضهم لكثير من التقدم والحداثة الغربية فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو التكنولوجى. هذه مقدمة أساسية مهمة جدا. هذه المقولة أنا لا أتفق معها، أيضا خُيّل إلىّ من الطرح

الأول الموجود أن عملية إثبات الذات عملية ليست إيجابية، فإثبات الذات مأزق وأنا أعتبره هكذا، فهذه مقولة لا تقل أهمية لأننا إذا نظرنا إلى البديل لها وجدناه هو الذوبان فى الآخر.

فإذا لم أثبت ذاتى، وأؤكدها بأى شكل من الأشكال فسأظل مستنفد الثروات ومستعبدا الى آخر هذه السلسلة. فيجب أن أثبت الذات وأحافظ على هوية الأمة.

● القاهرة : يبقى تعليق بسيط حول النقاط التى وردت فى الورقة، فهناك جملة طويلة تجاورت فيها القضايا مما سبب مشاكل كثيرة، وأعتقد أن د. على اشارللنقطة الأولى الخاصة بمسألة التنوير ومنابعه الأولى، وأتصورأن له رأيا فى اجتهاد خالد محمد خالد وعلى عبد الرازق.

● على جمعة: فى الحقيقة كما يقول سيد القمنى :إن الوقت ضيق لبحث هذا. وأنا أشرت في قضية محورية النص، وقضية الثابت والمتغير، وقضية فهم النص لتحويله إلى إجراءات ليكون قابلا لتطبيقه فى الواقع. ومادمنا نملك الواقع فيجب أن ندرسه بطريقة تجعل النص قابلا للتطبيق. وهذا يجيب بصورة شديدة العمومية على اجتهاد على عبد الرازق وخالد محمد خالد. ومن شدة التباس هذه الموضوعات، فعلى عبد الرازق وخالد محمد خالد قد رجعا عما ذهبا إليه أولا، مما يدل على أنها مسائل اجتهادية، وأنها تتغير بتغير الأشخاص والأحوال والأمكنة، فبحثها ينبغى أن يكون مستقلا، وإلا فنحن نرسم الأطر العامة بدون الدخول فى تفصيلات، قد يكون الكلام فيها بصورة مختصرة مضرا وغير نافع. وموقفنا الأساسى هوأن النص يصلح لأن يكون محورا للحضارة، وأن صلاحيته كمحورية للحضارة لا تعنى أن الناس الذين يحملونه أو يؤمنون به يطبقونه، فممكن جدا أن يوجد النص ولا توجد الحضارة لأنه ليس هناك تلك العملية والنسق والمنظومة، وممكن أن يطبق بصورة مختصرة تسبب مصائب كما حدث فى التاريخ الإسلامى. ولأننا قد فصلنا بين النص والواقع، فلم ننتج حضارة. وجعلنا دراسة الواقع منفصلة تماما بمناهج مستقلة تماما عن ارتباطها بالنص، كما هو حادث الآن فى العلوم الاجتماعية والإنسانية التى تدرس الواقع لتغيره وتهيئه فى مستوى السياسة والاقتصاد والاجتماع وتكون منطلقة من مناهج غربية. والمنهج مكون من شقين: الفلسفى والإجراءات. وجميع هذه المناهج غربية فى لحمتها وسداها. هذا يجعل دراسة الواقع منفصلة تماما عن محور الحضارة.

القضية أن هناك إسلاماً هو دين وعقيدة – نتفق مع سيد القمنى فى ذلك – ولكن هناك ما يسمى بالإسلام الحضارى، يستوعب الآخر وله آلياته فى التعامل مع الآخر. وهذه الآليات تتغير مع تغير الأزمان. ويمكن أن نصل فيها إلى ترضية هذا الآخر، وأنه يؤمن فعلاً أنه مسلم حضارة وليس ديناً وليس عقيدة ولكنه مسلم فى حضارته، فى ثقافته. ومصرمحور العالم الإسلامى وليس هناك عالم إسلامى بدون مصر. أنا لاأريد أن أفوت على بلدى الاستفادة، بل أريد أن أستغل هذا التراث وأستغل هذه الحضارة وأن أرجع للمصرى عزته عن طريق الإسلام، سواء كان هذا الإسلام ديناً أو حضارة، وبناء على هذا يدخل معى المسيحى ويدخل معى اليهودى إن كان مصرياً. ولذلك لما تصورت المطلق المشترك والمشروع المصرى تجاوزت النص. فالذى يؤمن بالنص أو لايؤمن ويمكن أن نعتبره محوراً لحضارته. وكل حضارة لها محور، ولابد أن هذا المحور مرتبط بالأفكار الأساسية كلها التى يعتقدها الإنسان كرؤية كلية: من أين أنا؟ من أين أتيت؟ ماذا أفعل هنا؟ ماعلاقتى بالآخرين؟ ما الذى يربط نمط سلوكى وحياتى؟ كل هذه الأشياء بعضها متصل بالفلسفة، وبعضها متصل بغير ذلك، المهم أنها تكوّن منظومة، وهذه المنظومة توجد فى الشيوعية والليبرالية كما توجد فى الإسلام. والأساس هو أن هذه الرؤية الكلية لتلك الأسئلةالحاكمة ينبثق عنها نظام .

واذا كان هناك اتساق بين النظام، والرؤية الكلية وصلنا إلى بناء الحضارة أياكانت هذه العقيدة بانحرافها وعدم انحرافها، وأيا كان هذا النظام، المهم أن يكون هناك اتساق. نحن ندعى أن هذا الاتساق حدث وأن النظام تولد عن العقيدة وبنيت حضارة إسلامية سطع نورها على الغرب فى العلوم والفنون. لا نقول إن المعيار قد طبق تماما وهذه طوباوية لم ندعها ولن ندعيها، ولن تكون إلا مثالا ثابتا، نحاول أن نقرأ به الواقع وأن نصل إليه، ولكن هناك فرق في السعى لتطبيق الواقع عليه أو تحول الواقع تماما إلى المعيار، ولو استطاع الإنسان ان يحل تلك الإشكالية، وان يحول الواقع إلى المثال، لما كان هناك حاجة للنص أصلا. ولما كانت هناك حاجة للمحور، كلا، المحور يمكن تطبيقه وليس من المستحيل، ولكن ينبغى أن يكون هو الحاكم على إنشاء المناهج التى ينتهجها الإنسان فى التعامل مع الكون، سواء كان أشخاصا أو علاقات أو مكانا أو زمانا .

كيف يتم هذا ؟ هذا تفصيل وله بيان، ولكن هذا هو الإطار الكلى الذى نرجع إليه، والحقيقة أن القاعدة لا تقف عند الرجال، على عبد الرازق وخالد محمد خالد قالا هذا، وهى فى هذا الإطار الذى ينبغى أن نختلف أو نتناقش حوله.

جهاد عودة : أريد أن أشير إلى أن الحوار بدأ ينزلق إلى قضايا، نحن نريد مسائل تعريفية، فالحوار من البداية يقضى على نفسه، فالدنيا والعلم ليسا قائمين على مسائل تعريفيه، بل قائمان على مسائل مفهومية، فالمفاهيم لا تحتاج إلى تعاريف. وهذه مسألة مهمة جدا .

التنوير ليس له إلا معنى واحدا . التنوير ليس عودة للأصول. فإذا كان هناك عودة للأصول فهى للانطلاق إلى المستقبل. التنوير والأفكار المجردة لها معنى واحد. فالواقع حقيقى بصرف النظر عن وجهات نظرك، فالسؤال: كيف يتجاوز الإنسان وجهة نظره ليرى الواقع ويعود بها إلى الواقع ليدعمها أو يثبتها أو ينقضها ويجعلها تسود أو يغيرها، وتغير الآراء هو معنى الاجتهاد فى حد ذاته. الاجتهاد فلسفة أساسية لهذا ، الاجتهاد والقياس هو الإيمان أن هناك واقعا خارج وجهة النظر. إن الدنيا ليست مجرد انعكاس لوجهات النظر. وأعتقد أن هذا مدخل هام، وأنا أرى من بداية الحوار نوعا من الاتفاق، فالدكتور على والدكتور سيد يزعمان أن هناك انحرافا والواقع لا يمكن أن يكون تطبيقا للنص. وتطورت القضية إلى: ماهى العلاقة بين المعيار والواقع؟ وتطورت إلى : كيف نحكم على الأشياء؟ والنقطة المهمة الأخرى فيما يتعلق بالمفاهيم. فهل هناك مفاهيم عربية ومفاهيم إسلامية ومفاهيم يونانية؟ فإننى أجد فى هذا اختزالا للقضايا إلى شعارات. ففي المفاهيم الغربية اثر هائل لتاريخ الإسلام، وأثر لتفاعله مع تاريخ شرق آسيا وأثر لتفاعله مع التاريخ الرومانى أو اليونانى فالقضية ليست مفاهيم غربية أ وغيرها . القضية كيف يمكن أن تكون المفاهيم الإسلامية قادرة على استيعاب هذه المفاهيم الغربية وتجاوزها ، هذا هو التحدى. التحدى هو رفض الإدانة أو القبول، يعنى أن الحضارة تحدث بالقدرة، وليس بإثبات أن لنا نمطا حياتيا مختلفاً.

الحضارة ليست مجرد أسلوب حياة وإنما القدرة على استيعاب الآخر، والتجاوز لمفاهيمه، وأن تصبح مفاهيمه جزءا من مفاهيمك. فالقضية إذن ليست هوية المفاهيم.

وأرى أن الحوار يسير فى هذا الاتجاه. فنعترف أن هناك واقعا خارجيا.

● **سيد القمنى**: إن إيجاد سلطة مرجعية مطلقة عليا هى النص، ويجب أن يحتكم إليها الجميع، هذا هو الأمر الذى عليه علامة استفهام .

ويصح أن يطرح كإشكالية، فمعنى ذلك فرضه على الآخر والآخر هنا أيضا فى مصر، إذا كنا نتحدث عن مشكلة مصرية كما طرح د. على : الذى حدثنا عن المفاهيم، فالمفاهيم كى نتفق عليها ليس لها أكثر من تعريف واحد. والمسألة يختلف عليها إذا كنت واضعا مرجعية مسبقة لدى، وأريد أن أفهم أى شىء

طبقا لهذه المرجعية، هنا نختلف لكن نتفق علي المفهوم بمعناه العلمى الذى لا يختلف عليه الآخر. أنا حين تحدد لى مرجعيتك سلفا وتقول لى: أنا أفهمها بهذا الشكل لن يكون هناك سبيل للاتفاق، ولن نخرج فى النهاية بثمرة من هذه الجلسة.

وحديثنا عن أزمة المنهج. المناهج تتعدد ولكل منهجه شرط أن تعطينى حرية اختيار منهجى قد تستخدم المناهج المتعددة فى بحث واحد فأنا لا أعترض على ذلك مادمت فى النهاية تبغى الوصول إلى ما ينفع الناس. وبالنسبة لأزمة الوعى . ما هو الوعى؟

الوعى هنا يعود إلى المنظومة الأساسية والمصدر الكلى للقدرة الذى أعطانا نصا أساسيا نعود إليه . كيف ؟ لا أصادر على هذا، ولكن لى وعى بتجربتى التاريخية .... الخ.

باختصار شديد يعني مسألة التنوير ـ ما هو التنوير؟ ! الاجابة ببساطة أن تتعدد الآراء بكل حرية، أن أفكر بكل حرية مادمت فى النهاية أؤدى عملا علميا، أن أتعامل مع النص بحرية أى نص : دينى، تراثى، نص علمى، اتعامل معه بالمنطق العلمى، وأنت تتعامل معه، وتتعدد الآراء وتتجاور ونتجادل، فتثمر. هنا نستطيع أن نصنع تنويرا. والسؤال: ماذا يحل محل الأفكار المرجعية المسيطرة ؟ يعنى محل أفكار الإسلام، كثير من العلوم الإنسانية أصبح لها قوانينها وقواعدها. هذه قواعد إيمانية تخصنى وتخصك، وكل منا بدرجة إيمانه واقترابه او بعده عنها، ولكن لا تكون محل خلاف بينى بينك، إزاء قضية وطن، وازاء أزمة نعيشها، أزمة حضارية خانقة. التنوير برأى د. على هورد الناس للعقيدة الصحيحة ملتزما بالمرجعية الإسلامية، أن يصلح الإنسان من داخله فالمسألة إصلاح أخلاقى. وأعتقد أن أوروبا تقدمت بذلك، تقدمت بالعلم وبتعدد الآراء بالحرية الليبرالية. هذا هو فهمى لكيفية التقدم. إنما أن تجعل النص مصادرا على حريتى فى تعدد الآراء فلن ينتج إلا خطابا مغلقا، والخطاب المغلق دائما ما يؤدى إلى انتكاسة لذاته لأنه لا يخصب نفسه، ولا يتخصب حتى من الخارج، فيسقط فى النهاية، الخطاب فى التطبيق الاشتراكى كان لا يخصب ذاته أيضا، فالمصادر دائما إماليني أو ماركسي ولذلك أشرت إلى ما حدث فى تاريخ الإسلام، فهذه الكوكبة من المفكرين لم تخرج ولم تبرز إلا بهذا التخصيب، وبهذه التعددية. ،وكان أروعها فى ظل الخليفة المأمون الذى سمح بهذا التعدد، وإذا كنا نعتز بهذه الكوكبة فعلينا أن نذكر كيف خرجت هذه الكوكبة من المفكرين ؟

وإثبات الذات الذى تكلم عنه د. إبراهيم وقال إنه رد على الهزيمة أمام الآخر، فأنا أتصور أنه هو الهزيمة بذاتها، أتصور ان محاولة الانقلاب للداخل او الانكفاء داخل الذات، وإقامة هذا السور الحديدى حول الذات، ومضغ الذات مع نفسها، هو إثبات الهزيمة والعكس هو الصحيح تماما.

ويفسر هذا علم الاجتماع : بأنه قد يكون مرضا اجتماعيا يصيب العقل الجمعى. بايجازما فهمته من د. ابراهيم أن الذات هى الإسلام، هوية الأمة. أى أمة تقصد، الأمة المصرية الأمة العربية، وهل الأمة العربية أمة عربية ؟ أم مجموعة شعوب عربية تتكلم اللسان العربى ؟ أم هى مجموعة شعوب التقت عرضاً وتسعى لأن تصبح أمة، هذه أيضا « حدوته » أخرى. إذن هو يقصد باختصار الأمة الإسلامية ويصبح هنا الإسلام وطنا، وليس مصر هى الوطن، هذه أيضا نقطة خلافية واشكالية يجب أن نلتقى حول إذا ما كنا نريد أن نحدد الإشكالية، والتراث الإسلامى يقبله المسيحى عندما يتحدث عنه كحضارة، ولكن التراث المصرى ليس هو الإسلام فقط فالإسلام جزء من مأثور هائل، وهو جزء فى هذه البنية، وقد يكون الأكبر، وقد يكون المناط الأخير، لكنه ليس وحده. وإذا أردنا أن نتعامل مع المفهوم بهذا المعنى كبان للحضارة، فبانى الحضارة المصرية ليس الإسلام، لكن قد يكون قمة الهرم، أو اللبنة التى شكلت فى النهاية الشكل الحالى، رغم ما دخل عليها أيضا من تمصير ليصبح إسلاما

مصريا مصطبغا بالمأثور المصرى القديم.

إن الخطاب الذى لابد أن يعطينى مرجعية أساسية وينعكس داخل ذاته ليصبح هو الذات، وهو الهوية، ويطلب من الآخر التسليم بذلك، هو يتصور امتلاك الحقيقة كاملة باعتبار أن الحقيقة واحدة جاءت من عند الله، وأن هذا وحى، ولا خلاف على ذلك، ولكن المشكلة هى تعدد المفاهيم بشأنه فأيهم سيكون صحيحا؟ الأمر الثانى أنه يجعل النص مرجعية معرفية، وأتصور أن النص ليس وسيلة وأداة للمعرفةبقدر ما هو موضوع للمعرفة والعلم، وليس وسيلة أو أداة خاصة إذا كنا صادقين مع ما تعلمناه من المناهج شريطة أن نربطه بظرفه وسياقه التاريخى،وزمن المستوى المعرفى الذى كان سائدا فى زمن الوحى، ليعلم الناس وفق مستواهم المعرفى، وما وصلوا إليه من تراكم فى تطورهم الاقتصادى والسياسى.

وألاحظ أيضا على الخطاب شكل التمنى، إنه تمن، هو إسراف فى العمليات النفسية أكثر منه فى العمليات العقلية، فالأمر لا يتحول فجأة بمجرد الالتزام بالسلوك القويم، إنما هو يحتاج إلى جهد حقيقى وصراع حقيقى من أجل تحقيق منجزات حصلها الآخر المسيطر. فالضمير لم يؤد إلى تقدم الغرب، وأعتقد أن الاستعمار الغربى لا يملك ضميرا، والحل فى رأيى هو «علمنة» هذا المجتمع، على الأقل مرحليا على المستوى الثقافى، بمعنى أن نترك الساحة حرة لكل الآراء، وأن النص لم يحكم دائما فالذى حكم هم بشر لهم أهواؤهم ونزعاتهم .

جهاد عودة: أريد أن أقول إن ما أضافه د. سيد القمنى هو مدخل قوى للمحور الثانى الذى يدور حول فكرة تفسير الواقع، والمحور الثانى يضم ثلاث أفكار تثير النقاش. الفكرة الأولى قائمة على أن إطار التفكير الإسلامى الحالى قادر على أن يقوم بإفراز مفاهيمه الخاصة وهى تكون أكثر استجابة لأزمات هذا الواقع.

الفكرة الثانية أن هناك رجوحا فى الفكر الإسلامى لعدم رؤية الواقع ككل، ويرى الواقع كعناصر، لا ككل منسجم، وبالتالى يشهدون النص عليه، هذا حقيقى أم لا؟

وفكرة الاستمرارية تأتى من الأنثروبولوجيا، إن استمرار ثقافات قديمة حتى يومنا هذا ليس دليلا على الاستقلال النسبى للواقع عن عناصره الأولى المكونة له، يعنى حتى استمرار الإسلام يدل على هذا، والأفكار تستمر مع الوقت.

ثالثا إن تقدير الواقع يختلف من مكان لآخر، بنائيا ومفهوميا، رغم وحدة الزمن، فما يصلح هنا لا يصلح هناك، وما يصلح بالسودان لا يصلح بمصر، ونحن نعرف سياسيا أن هناك خلافا بين التنظيمات وأفكارها حول هذه القضية، ولاداعى للدخول فى أمثلة، وربما يكون تفسير ذلك ما أشار إليه الدكتور على بعدم ممارسة الاجتهاد .

● **على جمعة** : إن هناك ما يمكن تسميته بالهيكلية البنائية للإسلام تخرجه من أذهان المعتقدين فيه، والمعتنقين له من نطاق الفكر ووجهة النظر والرأى، إلى آخره، القضية مركبة كما يركب الهرم من قاعدته إلى قمته، الإنسان المسلم يعتقد فى عقيدة، هذه العقيدة كيف يعتقد بها، هذا أمر آخر، لكنه يعتقد، والاعتقاد هو إبرام حازم مطابق للواقع عنده، وناشىء عن دليل، وليس شكيا أو وهميا، وأنه مطابق للواقع وقائم على دليل، هذا الدليل قد يكون حسيا، أو قد يكون عقليا أو نقليا، لكن على كل حال هناك دليل، والدليل ما يتوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبرى - وهو الجملة المفيدة: كالله موجود. إن هذه الحياة فانية. إن هناك يوما آخر. وهذا متصل بسلوكيات. الآن ثم بعد ذلك يجب أن تكون أمامه أمور شديدة المحال مبنية على بعضها البعض. يجب وهو يقرأ النص ألا يكون بمعزل عن جلستنا الآن، وهذا ليس دخولا فى الجزئيات، فهذا خطاب له منظومته الهرمية، أى الهيكل البنائى، فهو نص غير تاريخى . فخطاب الله قديم، والقدم معناه أنه خارج عن

الحادث، ومعنى خروجه عن الحادث خروجه عن الزمان، ومعنى ذلك أنه نص غير تاريخي، خطاب إلهي. كأن يخاطب الآن ـ وهذا يعنى أنه غير مرتبط بوقائعه بناء على الهيكلية البنائية للعقيدة الإسلامية.

إن لكل مجتمع فى العالم مطلقات (ثوابت) ومن خلال هذه المطلقات تتم التعددية، ولو قلت إن المطلقات هى «العلمنة» لقلت شيئا خلاف الواقع الموجود. فالناس فى الشوارع تعتقد فى الهيكلية البنائية للإسلام ولا تصلحها العلمانية، سواء المسيحيون أو المسلمون، ومسألة الاتساق تأتى من الواقع وليس من الفكر.

إن المطلق الثابت الشائع بهذا المجتمع، باعتبار المجموع، لا الجميع، هو القضية الهيكلية البنائية للإسلام بمصادره. فكيف أتغاضى عن هذا كله وأطرح أن العلمانية هى التى تصلح مشروعا نستطيع به أن نفسر الواقع؟. إذن سيرفض الشعب هذه العلمانية. فماذا سيكون حكم نخبته، فنحن فى مشروع العلمانية من أيام الخديوى إسماعيل. ولم ينجح. إذن ينبغى أن نحدد المطلقات (الثوابت) التى يتم من خلالها التعدد حتى نفهم الواقع. ومن هنا تنقضى الثنائية التى ظهرت فى الذهن العربى عن الدين والعلم. فقد قال الفلاسفة القدماء : إن النصوص الشرعية متعلقة بالواقع الذى هو المدرك الحسّى، سواء كان هذا على سبيل الكونيات، أو العلاقات وأن العلم متعلق بنفس الأمر، وهو أنه يتغير من زمان إلى زمان.

أريد أن أقول إنه يمكن فى ظل الثوابت والمطلقات التى ينبغى أن نحددها أولا أن تتم عملية التعددية بأسرع ما يكون وأن تنشأ الحضارة على أحسن ما يكون، ولكنه من خلال الواقع الذى لا ينبغى أن نتغافل عنه، فهذا البلد مسلم وهذا واقع حاصل وليس خيالا، وموجود داخل كتلة من الدول الإسلامية، وليس هناك تناقض بين الواقع والأفكار الإسلامية.

ونحن لا نخالف الغير (الآخر) كليا أو نتبعه وكما أننا ندعو إلى الاجتهاد ندعو إلى التحرر من تبعية الغير، والتحرر من تبعية الماضى، الماضى في مسائله لا فى مناهجه. هؤلاء الناس أخذوا بمناهج، وهذه المناهج لابد أن ندرسها ونستفيد منها حتى نكون عقلاء في بناء بنيتنا فى المسائل لا المناهج، فى مسائله التى كانت موجودة ونعيش فيها، لكن المناهج نفسها (التى أشار اليها د . سيد القمنى وهؤلاء المفكرون الذين أخذوا بها لكى يصنعوا شيئا) نحن مؤمنون بها، ولم يعترض د . سيد القمنى، فكيف نأخذ منهم مرة ثانية؟ بأى كيفية نستفيد منهم الاستفادة التى تمكننا من كيفية الإنشاء والتحرر من تبعية الغير لأننى أدعو إلى استمرار النص من خلال نفى المقاربات والمقارنات، بمعنى أننى من الممكن جدا بعد التفكير المستقل أن أخرج بمنهج أراه مقاربا أو مشابها لتراث الإنسانية وليس الغرب فقط، فنحن نفرق ما بين المعلومة والعلم، المعلومة لا يختلف عليها اثنان وهى الساحة للإنسان كالمعلومات التى قلناها الآن. وهى موجودة فى مساحة ضخمة جدا ولكن كيف توظف؟ كيف تستغل؟ كيف يستفاد منها؟ كيف يتعامل معها؟ ما هو الفرق بين الفكر السطحى والفكر العميق والفكر المتغير؟ الفكر السطحى هو أن يرى ورقة النبات من الخارج ويصفها بأنها خضراء أو أنها جميلة، لكن الفكر العميق يضعها تحت الميكروسكوب ويرى فيها عملية التمثيل الضوئى، والفكر المستنير يربط ذلك بقضية أن الإنسان أوالعالم قد خلق لعبادة الله وعمارة الكون.

. إن حالة العالم الإسلامى قد وصلت إلى فكر سطحى فى مرحلة من مراحله تعلن عن نفسها هنا فيما نتحدث عنه من محورية النص وأوضاعه فى بعض العصور، وأننا ندعى أن الفكر الغربى قد وصل إلى حالة الفكر العميق ولا بأس بهذا، ولكننا لا نقف عند هذا عندما يدخل فى نسيجنا ينبغى علينا أن نتجاوزه إلى الفكر المستنير، وأن نربط هذا بما يمكن ان نقدم للإنسانية من سعادة فى الدارين: الدنيا والآخرة، فالقضية فى تصورى أنه لفهم الواقع

ينبغى أن نفرق ما بين المعلومة والعلم، وأن نعى تماما مسألة الهيكلية البنائية للإسلام التى يترتب عليها أن النص خارج الزمان، وأن ذلك يؤدى إلى إخراج النص عن حد الفكر والنظرية، والنص له آليات ضخمة جدا ستزيل جميع الشكاوى التى تثار بمعنى أننا قد نتفق مع د. القمنى فى أن كثيرا مما أشعر به من تخوف لن يكون موجودا فى ظل هذه الآليات الموجودة فى أسلوب الفكر وسيزول إذا ما اطلعنا بدقة على ما يسمى بأصول الفقه كمنهج من مناهج التناول.

● **إبراهيم بيومى غانم** : أعتقد أنه لا يوجد اتصال بين المحور الأول والمحور الثانى، والدليل على ذلك أن د. القمنى انتقل بسهولة من الأول إلى الثانى وأدخلنا فيه مباشرة، وأبدأ بالمحور الثانى، ومقصد الاتفاق مما ذكره جهاد عوده من أن التحدى الأكبر فى الاقتراب من الواقع هو كيف يمكن للمفاهيم الإسلامية أن تكون قادرة على استيعابه واستيعاب المفاهيم الأخرى إلخ، وتتجاوزها فى نفس الوقت. إذن نرجع هنا مرة أخرى إلى ما اعتبره جهاد وسيد القمنى بشكل أو بآخر أنه لا خلاف حول مسألة المفاهيم وألا يجب أن نتوقف عند هذه المسألة لأن المسألة إذا وقفنا عندها فسيدمر الحوار نفسه، فمن منطلق المفهوم الجميل الذى أسمعه لأول مرة فى حياتى، مفهوم العلمانية الذى قاله د. القمنى وهو تعدد الآراء بكل حرية، مادمت فى النهاية تؤدى عملا علميا بمعنى الكلمة، وإذا كانت هذه هى العلمنة فأنا أوافقه ما دامت حرية الرأى لكل فرد، وهذا المعنى يجمع الناس.

النقطة الثانية فى النظر إلى الواقع هى أنه لابد من التميز بين الثابت والمتغير، وعندما أتحدث عن الثابت فلابد أن أرجع إلى مرجعيتى فى كل لحظة، لا تقل لى العلم لأنى سأقول لك عرِّف العلم ومفهومه، ومفهوم العلم عندى أن أزنه بميزان المرجعية التى اؤمن بها، وانطلق منها وأرجع إليها فى كل لحظة وحين، الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان هى الكليات الخمس الكبرى الخاصة بالشريعة الإسلامية التى نزلت بها لكى تضمنها للبشر، أو المقاصد العامة للشريعة بتعبير الأصوليين، هى حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال، هل نستطيع أن نقول إن فى أمريكا يمكن أن يصدروا قانون ينص على أن كل واحد من الشرطة يقابله واحد «أسمر» يقتله؟ هذا ضد حفظ النفس، لا يمكن أن يصدر قانونا بهذا الشكل أبدا، وهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام، إنما هذه كليات لابد من توافرها وهى ثابتة رغم تغير الزمان والمكان فلابد أن أرجع إليها وأعرف مدى تحققها ، ،وهل إذا حكمت على الواقع فى هذه اللحظة التى نعيشها نرى أن السلطات القائمة فيها تقوم على حفظ هذه الكليات الخمس ، وتحققها وتضمنها أم لا ؟إذن أنا أحتكم إلى ثوابت وكليات عامة لا يختلف عليها اثنان وإلا فهل من المباح أن يصبح النهب والاعتداء قانوناً ؟ لايمكن .هذه الثوابت عندما أنظر بها إلى الواقع أعتقد أننى أتمكن من خلال منظورى ومرجعيتى من رؤية الواقع ومحاكمته والدعوة إلى تصحيحه وتصحيح مساره بطريقة إيجابية ،فالثوابت هى مرجعيتى فى النظر إلى الواقع .

● **القاهرة** :هل هذه ثوابت المرجعية أم ثوابت أتت المرجعية لتأكيدها؟

● **إبراهيم بيومى غانم** : أنا أتكلم عن الثوابت التى أعتبرها ثوابت عند النظر إلى الواقع وفهمه، هذه الثوابت أقرتها ونصت عليها المرجعية ، أنها مرجعية الفطرة ، والإسلام هو أصول الفطرة ، وأتى ليقرر الفطرة ولينص عليها ، وينبه الناس إليها . ويؤكدها ويقول لهم إن حفظ النفس والدين والعقل والمال والعرض أمور يجب على كل مستوى من المستويات أو مجموعة أو سلطة أو إدارة أو حكومة أن يقوموا ويتوفروا فى كافةجهودهم وأنشطتهم الحياتية والدنيوية على حمايتها ، هذه النظم والإجراءات والقواعد والأخلاقيات التى لا يمكن أبدا فى النظرية الإسلامية أن تنفصل عن أمر من هذه الأمور.

● **علي جمعة** : هذه قضية تثير تساؤلا وهو هل جاءت المرجعية لتؤيد الثوابت أم أن الثوابت جاءت من المرجعية؟. أثيرت هذه القضية فى الفكر الإسلامى بعنوان آخر هو الحسن والقبيح، وظلت مائتى سنة، يعنى من القرن الثانى الهجرى إلى الرابع والخامس الهجرى، وهم يناقشون مسألة هل القبح والحسن عقليان أم شرعيان ؟ بمعنى أن الثوابت جاءت بها الشريعة أم أن المرجعية هى التى أتت بها؟

تحت عنوان الحسن والقبح رأينا اتفاقا ورأينا فرقة المعتزلة، كان هناك معتزلة وأهل سنة ، وكثير من الباحثين يقول :إن هذه عوامل سياسية وأنا لا أرى ذلك، أنه تولدّ من الجدال صيغة ، وهذه الصيغة موجودة فى علم أصول الفقه، وكانت سبب انتهاء قضية المعتزلة، لأنهم اتفقوا على الصياغة المشتركة وهى أن الحسن والقبيح ليس لهما معنى واحد وانما لهما ثلاثة معان، وأن معنيين منهم عقليان بمعنى أنهما خارج المرجعية، وواحدا منهم شرعيا، بمعنى أنه وارد بعد المرجعية، وهذا التفصيل المعمول به أظن أنه لا يختلف عليه أحد من الجالسين حتى بناء على علمى بالتوجهات الموجودة.

معنى الحسن هو ما يلائم الطبع، والقبح ما لا يلائم الطبع، وهذا هو المعنى الأول، وهذا أصل، وقالب اتفاق، فالإنسان يتضايق من الرائحة الكريهة ويحب أن يشم الرائحة الذكية أى إنسان هو هكذا، ينفر من النجاسات وتجده يرتاح مع النظافة، فملاءمةالطبع وعدم ملاءمته هذا أمر مركب فى الإنسان وهو أمر عقلى، يستقل الإنسأن به دون شريعة، المعنى ما يترتب عليه المدح وما يترتب عليه الذم بالنسبة للقبح، وهذا أيضا عقلى، وهذا يجعل الكليات الخمس خارج المرجعية وجاءت المرجعية لتؤيدها، فكون أن القتل والاعتداء على خلق الله وأكل أموالهم بالباطل أمر ينفر منه الطبع، وأن الإنسان مجبول على معرفته للظلم والعدل إلى آخره . أمر يقبله العقلاء ، أما الأمر الثالث وهو الشرعى فإنه مايترتب عليه الثواب فى الآخرة والعقاب قطعا، فانا لاأعرف ما إذا كان الكذب سيدخلنى الجنة أم النار، فينبغى أن أقول اننى أصلا لن أصف الكذب بالحرمة أو الحل الا إذا كان هناك خطاب لأل الحل والحرمة عبارة عن خطاب لم يرد فيه إذن فليس له حكم . أما إذا ورد إذن فى هذا المعنى وهو أن هذه الثوابت تستوجب الثواب والعقاب فهو أمر شرعى، فلما اتفقوا على ذلك، كان أهل السنه قد تركوا شيئا عما كانوا يطلقونه من أن الحسن والقبح شرعيان ويسكتون ، واتفقوا على أن بعض معانى الحسن والقبح عقلى وأن المعتزلة قد تركوا ما كانوا عليه من أن الحسن والقبح عقليان مطلقا وعادوا إلى أن هناك نوعا من الحسن والقبح ينبغى عقلا أن يكون من الشرع وهو الثواب والعقاب .

وعلى ذلك فالعبارة تحتاج إلى التفسير، ونقطة ينبغى ألا ننساها وهى قد تؤدى إلى إقناع وهى قضية العلمنة ، فالمسلمون يفهمونها على أنها إنكار المطلق، ومعنى إنكار المطلق إذا أردنا الخطاب والحوار أننا نخاف من الفكر الغربى، أى أن يسوى بين الإنسان والصرصار، بل وقد يفضل فى يوم من الأيام الصرصار على الإنسان لأنه يؤمن بنسبية «نيتشه» وينكر المطلق ويصبح احتلال جنوب لبنان عدلا، فنسبية نيتشة تحولت إلى سلوكيات فى الغرب تبشرها الثورة الجنسية فى الستينيات، فيصير الظلم عدلا والعدل ظلما والإنسان متساويا مع الصرصار أو هو أدنى منه إذا كان هذا الصرصار يجرى عليه تجارب، والمصرى المتخلف هذا ليس له منفعة عنده، إننا نخاف من تمثيلية أذيعت فى الإذاعة المصرية تصور أنه فى يوم من الأيام سوف تعرض البنات والإنسان بشكل عام فى الفترينات وتضحك له وتقول : هل تريد أن تقتلنى؟ أى يدخل الإنسان المحلات ويختار من يشاء ليقتله وهو الذى جعلنا محالا الآن،نحن نقول وندعى ونستعد للنقاش إلى آخر مدى.

إن الفكر الغربى ـ طبعا ليس بعمومياته وإنما التوجه العام للفكر الغربى ـ يجوز من خلاله أن ينشأ مثل هذا التصور وأن

الاتجاه العام فى الفكر الإسلامى يرفض هذا التصور، بالرغم من أننا كلنا ونحن جالسون الآن نقول ما يقوله الفكر الإسلامى بالرغم من أننا عنوناه باسم العلمنة.هذه هى الفجوات التى يمكن أن نتفق عليها، ويمكن أن نتوصل كما قال د. إبراهيم إلى الاتجاه العلمانى، سيقول الطرف الآخر إن هذا سيوصلنى إلى أن أدعو إلى الإسلام إذا كان هذا هو إسلامكم إن هناك نموذجا معرفيا ، هذا النموذج سيقودنى إلى الإيمان بالنسبى وإنكار المطلق، وأنه سيؤدى إلى انهيار هذه الثوابت التى هى خارج المرجعية التى ينبغى للعقلاء أن يتفقوا عليها، وبالرغم من ذلك إلا أن هناك البعض لا يتفق عليها وسيؤدى نموذجهم المعرفى إلى شىء غير متصور، وهذا موجود الآن بالفعل فى صورة العنصرية وفى كثير من القرارات السياسية التى لا نستطيع تفسيرها إلا لأنهم يؤمنون بالنسبية وينكرون المطلق.

القاهرة : هناك أيضا تيار فى الفكر الغربى الآن للعودة إلى الثوابت فى أفكار حقوق الإنسان وفى أفكار الحقوق العامة وفى أفكار الطبيعة أو البيئة .

● **إبراهيم بيومى غانم** : أنا لدى نقطة اتفاق مع د. على جمعة بخصوص منهج النظر إلى الواقع والتعامل معه فى مسألة المحور الثانى، وهى أننى أتحرر من المسائل والمناهج الخاصة بالآخر، أى أننى رافض للمفهوم الغربى ولا أعتبره تقدما، ويقول د. سيد القمنى : هذا تقدم مادى وحدث بدون أخلاق، أنا يا سيدى لا أعتبره تقدما ، بل أعتبره همجية وانتهاكا لكرامة الإنسان ، سواء داخل المجتمعات الأوروبية أو خارجها فى المستعمرات بأشكال وصور متعددة من خلال قصة طويلة يمكن أن نأتى لها بالأمثلة، من نهب المستعمرات، وإبادة الشعوب المخالفة، إلى آخره .

كيف تُحاول أن تقنعنى أن هذا هو التقدم، أنا لا أعتقد أن هذا تقدم ، هل العلم يؤدى إلى خدمة الإنسان؟ وتحقيق الكليات الخمس؟ وإذا كان يحققها يصبح تقدما، وإذا لم يحققها وأهدرها يصبح استحالة ـ كما يقول د. على جمعة ـ موضوعية إذا حاولت أن أنتج شيئا مثل هذا، فلكى أصنع سلاحا كى أفنى به الخلق هذا لا يمكن أن أصنعه أبدا، وطالما يحقق ويضمن وينجز الكليات الخمس يصبح تقدما ، أنا أحكم عليه من داخل مرجعيتى، فلكى أحقق تقدما وارتفاعا فى مستوى المعيشة وأرى رأى أنجلز فى مقياس الحداثة، أى أنظر كم ساعة يشاهد الناس التليفزيون وكم مرة يقرؤون الجرائد، وكم مرة يأكلون الهمبرجر فى أسبوع، ويقول لى هذا مقياس الحداثة؟ هل هذا هو مقياس التقدم؟ أريد أن أرى المضمون، ماذا يحقق وماذا ينجز، هل الشاذ جنسيا يعد متقدما أم هذا الغلبان الذى يأكل لقمة العيش وهو جالس فى حاله؟ هذا هو التقدم فى رأيى، وهذا ارتباط بالمفهوم الأخلاقى والمفهوم المادى والانفصال بينهما لا أقبله ولا أعتبره.

إذن أتحرر من مسائل ومناهج الغرب لأننى لدى مرجعيتى أنظر فيها وآخذ ما يفيدنى فى هذا الإطار لأن معى ميزانا فلا أترك الميزان .

إشكالية أخرى تحدث عنها د. سيد القمنى فى إطار الكلام عن الواقع وهى إشكالية العلاقة بين مستويات الهويةالوطن ،هل هو مصرى عربى إسلامى أشد الأمور إزعاجاً أن هذه لا تمثل إشكالية من وجهة النظر الإسلامية وأنا أريد أن أشطبها من جدول الإشكاليات التى تطرح على الفكر الإسلامى، مثال بسيط وهو أن هذه الإشكالية متوهمة فى ذهن صاحب الرؤية العلمانية الذى يرى حدود امتناع بين هذه المستويات إذا نظر إليها من منظور الدين الإسلامى على وجه التحديد ، فالرؤية الإسلامية لا يوجد بها امتناع بمعنى انحسار مستوى دون مستوى آخر من المستويات الأربعة بإضافة العالمية والإنسانية إليها ولكن نبدأ بالوطن والعروبةوكل مسلم فى كل مكان والإنسانيةجمعاء والمشروع الإسلامى ليس مشروعاً خاصاً بوطن جغرافى محدود ، ولكن يمكن أن آخذ منه فى هذا الوطن هوأسبق لى كمصرى مسلم عربى ،ولكنه يمتد ليعطى

للإنسانية كلها ، وأنا أعود هنا إلى ماقاله د.. جهاد مرة أخرى ،وأنا عندى بالفعل مفاهيم وسطية وأضرب مثالاً أن الإنسانية فى حاجة إلى هذا المفهوم وسيثبت المستقبل أنه لم يكن لها فكاك من الدكتاتورية .إن حل مشكلة التسلط ،من ممارسات السلطة ،لا يكون إلا من خلال الشورى،وليس الديمقراطية فهو محكوم بسيادة الأغلبية ،ليس لها مرجعية خارجة عنها ،سوف آتى فى مصر وأقول لك سأقيم برلمانا ويصبح لى الأغلبية الأساسية من الأحزاب،وسيخرج هذا الحزب قراراً بأن هذا الآخر (غير صاحب الأغلبية) سأرميه فى النيل وسأعمل له تيهاً فى الصحراء ،وسأخرج قراراً رسمياً من القنوات الرسمية باسم صوت الأغلبية وصوت الشعب وروح الشعب تتكلم وسيادته والأمة تقول لابد من إعدام خمسة ملايين هم كذا وكذا . هذا ممتنع ومحال إذا ماأدرت العملية السياسية من منظور الشريعة الإسلامية، ولكن لا يكون ممتعاً ولامحالا إذا احتكمت إلى الأغلبية من منظور الديمقراطية الغربية.

القاهرة : لكن لنرى مايجرى فى بلد يقول البعض أنها تحكم بالشريعة الإسلامية،وهى فى الحقيقة تحكم على أبناء الشعب ولا تحكم على الأمراء أبداً، ولا على رجال الحاشية الموجودة والإشكالية المطروحة هنا هى أن أى شخص وأى سلطة وأى مجموعة بشر تصل إلى السلطةويقولون إنهم مسلمون من الممكن أن يحكموا أيضاً بهذه الطريقة .

د. إبراهيم بيومى غانم : المسألة لا يمكن أن تنفصل عن عمليات التنشئة الاجتماعية والتربية والمنظومة التعليمية والإعلامية ودوائر التثقيف العلمى فى المجتمع، كل هذه أمور توصل إلى بناء نموذج فى فكر هذا النظر من منظور إسلامى، ولابد من هذه الجوانب أن تكون متكاملة، أنا أضرب مثلا د. على جمعة قال إن العلاقة بين النص والواقع مسألة لا يمكن.أن أصل فيها إلى إعمال معيار، ولا يكون معياراطالما أنا عملته فى الواقع

أيضا فى مسألة اقتراح الحل لمعالجة الواقع بالعلمنة أرى أن العلمنة بالفعل فشلت كما قال د. على جمعةولم تنتج شيئا، وأنا أطالب د. سيد القمنى بأن يجيب :لماذا فشلت العلمنة فى مصر وفى معظم الدول الإسلامية على سبيل المثال.

سؤال آخر بماذا تفسر يا د. سيد القمنى تحول الرواد الأوائل إلى الفكر الإسلامى ومراجعةذاتهم ونقدها؟ وهناك أمثلة كثيرة جدا. محمد حسين هيكل، منصور مظهر، وفى تركيا نجيب فضل سيزايد فراكوس، جميل ملبش، وغيرهم كثير جدامن عتاة العلمنة رجعوا وأعادوا النظر مرة أخرى.

أريد أن أدرس الظاهرة يا د. سيد، هذه الظاهرة التى لها دلالة قوية جدا فى التعامل بمنهجين مختلفين، فى النظر إلى الواقع وتقويمه والانطلاق منه. ونقطة أخيرة وهى مسألة التعددية، والمنظومة الفكرية الوحيدة التى تضمن التعددية الفكرية على أوسع نطاق هى المنظومة الإسلامية، ومثال التعددية الدينية أنه لا يوجد دين يأمر أتباعه بأن يؤمنوا بكل دين سابق وبكل كتاب نزل قبل الإسلام، مثل الإسلام يعنى لا يكتمل الإيمان إلا بإيمانهم بذلك. «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» هذه الآية بسورة البقرة ذكرتهم بالاسم، هل هناك دين يقول للناس آمنوا بغيركم بهذا الشكل و لا يكتمل إيمانهم على النحو الأمثل إلا بهذا الشكل أعتقد أن التعددية الدينية مسألة مكفولة ، لكن النموذج الذى اقترحه ملخصه هو الآتى : إن هناك مرجعية عليا حاكمة هى الوحى أو النص وأن هذا الوحى قد تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم ليقوم بثلاث وظائف كبرى أساسية سيتفرع عنها أنشطة كثيرة مختلفة لن نقوم بتفصيلها وإنما هى باختصار وظيفة البلاغ والبيان ، وهذه وظيفة تعليمية فقهية،

وظيفة الفقهاء ومؤسسة الاجتهاد، هذه مؤسسة علمية لعلماء اجتهادترتبط بكل شكل من أشكال الحياة طالما أن كتاب الله سبحانه وتعالى الذى نزل هو الكتاب المتلو، يأمر الناس بأن ينظروا فى كون الله و الكتاب «المجلو»كما يقول السلف الصالح. هذه مهمة الاجتهاد ، والمهمة الثانية مهمة التنفيذ ومهمة الحكم وإدارة شئون الناس ، وهذه مهمة من المهمات الكبرى والأساسية، وهذه نتجت عنها مؤسسة فى التاريخ الإسلامى، وهى مؤسسة الجهاد أو الحكم أو الأمراء أو الحكام وهى مؤسسة سياسية قائمة بذاتها. والوظيفة الثالثة وهى وظيفة تزكية النفس وترسيخ الأخلاق وبنائها، وهذه الأخلاق تطورت فى مدارس مختلفة، ويمكن أن نجد لها تعبيرات فى بعض أدبيات الصوفية مثل تغذية النفس والدعوة إلى الله سبحانه الخ. بهذا الشكل يمكن بالتكامل ما بين هذه الأمور أن نصل إلى الواقع وأن نطور فيه وأن نسير فى اتجاه صحيح.

● **جهاد عودة** : أريد أن أشكر د. ابراهيم . وهنا ملاحظة أو خطأ تاريخى أن نقول إن العلمنة كانت مطبقة إن الذى كان مطبقا هو الحداثة، هناك فرق بينهما حتى فى الإنجليزية، فالحداثة هى أحد منتجات العلمنة، قد يكون منتجا فاسدا وقد لا يكون، وهناك اعتراف فى المدارس الغربية يجتاز محدودية هذا المنتج والجوانب السلبية فيه، هذا ليس إبداعا إسلاميا أو إبداعا من العالم الثالث، فى تركيا مسألة أخرى، فعندما نتكلم عن العالم الإسلامى المصرى والعربى خارج تركيا لأنها تجربة فريدة ، نجد أن الذى طبق هو الحداثة، وبالتالى اتبع نظاما تعليمياً ثنائيا، ونحن نشارك الغربيين فى اعترافهم، لأننا شاهدنا الآثار السلبية أكثر منهم لمعنى الحداثة، فالأشياء مشوهة ومقطوعة فى أفريقيا والتصحر وما إلى ذلك مثل المدن المكتظة بالفقراء من الريف القادمين إليها، هذا اعتراف كامل فى أدبيات التنمية .

تجربتان فى العالم هما اللتان حاولتا أن تتجاوزا الحداثة إلى التطبيق لمعنى الجوهر العلمانى، بمعنى الفصل ، أى إخراج فكرة الدين نهائيا من حياة الفرد وأنا أعتقد، وهذا اعتقاد قابل للنقاش: إن قضية العلمنة ليس المقصود منها إخراج فكرة الدين من حياة الفرد، ولكن إقصارها على حياة الفرد فى صورة مزيفة لحصرها. التجربة التركية هى تجربة ليست علمانية، ولكنها تجربة تفهم فى ظروفها التاريخية كرد فعل عنيف على التجربة العثمانية، أو مساوىء السلاطين والملوك، وأيضا التجربة التونسية تفهم فى سياقها التاريخى باعتبارها امتدادا متطرفا للأفكار الفرنسية، وتأكيدا لهذا الكلام أنها حالات تقترب من الاستثناء وغير منتشرة ، فالسائد والأغلب والأعم فى التجارب الإسلامية أو فى تجارب الشعوب الإسلامية هى التجارب التى جاءت ثنائية، وهى التى أخذت بفكرة الحداثة والتغاضى عن العلمنة، غير حقيقى إن هناك علمنة فى مصر أو فى سوريا أو الجزائر أو ليبيا أو علمنة فى الكيمياء أو علمنة فيزيائية أو فى كل هذه الأماكن ، هناك محاولات للعلمنة التى وجدت فى كذا تجربة وقد نجحت بعض الشىء فى بعض التجارب وقد فشلت فى بعضها الآخر، لكن الرجوع الذى نشاهده فى تركيا الآن وما نشاهده فى تونس هو الحقيقة عودة إلى الحداثة، وعدم قبول الشطط وأنا أريد توضيحا علميا لكى أصل إلى أنه كانت هناك علمنة نحن نرفضها.

● . **سيد القمنى** : ما يجب أن نتوقف عنده على مائدة التواصل ما قاله د . **على جمعة** عن الهيكلية البنائية للإسلام، واعتبرها أساسا مفهوميا لإدارة هذا الحوار المتواصل

إن المسلم يعتقد ويدرك جازما أن اعتقاده مطابق للواقع بدليل احسن أو عقلى أو نقلى وفى ظل مبدأ العلمنة الذى طرحته والذى أتحدث عنه لا علاقة لما طرحته بتقدم أو تخلف، ولك أن تعتقد ما شئت.

ثم نقطة أخرى مضطرأن أقف عندها، تقول إن المسلم يعتقد أن القرآن ليس نصا تاريخيا هو قديم خارج عن الزمان، هذه مسألة فيها أمور خلافية

كثيرة جدا وهى ترتبط بمدى مرجعية النص وهى الإشكالية المطروحة منذ بداية الحوار، فالقرآن الكريم جاء وحيا على مدى ثلاثة وعشرين عاما، لم يتنزل دفعة واحدة ولم يكن كألواح موسى استلمها منقوشة على الحجر جاهزة إنما خلال ثلاثة وعشرين عاما، كان الوحى الكريم يتابع المتغيرات، ويتفاعل مع الواقع ويتجادل معه ، يؤثر فيه ويتأثر به، فينسخ ويبدل آية مكان أخرى، ويساوق الحدث، مساوقة هى سر إعجازه، وليس العكس، وهذا هو درس الإسلام فى عقيدتى وفى فهمى ورؤيتى. وكما قلنا الفهم يتعدى الاسم، أنا أرى أن هذا هو سر السيولة المتفاعلة فى القرآن الكريم، وهذا الجدل مع الواقع، هذه العلاقة المتفاعلة دوما، هذه التاريخية، بالعكس إن من يتصورون قولنا بالتاريخية بأنه سحب جزء من القدسية عن النص، هم مخطئون تماما وربما يحملون ظنا فى الآخر.

المسألة ليست بهذا الشكل على الإطلاق، العكس هو الصحيح تماما، أن يتفاعل الوحى مع الواقع يعطى اتباعه درسا فى التحول مع المتغيرات ، وهو ما فهمه الفقهاء بما سمى بحساب المصالح والمنافع وعلم المتغير فى الآيات وفى النسخ كان من أجل مصلحة أعم فى فضلها، هذه جزئية لابد من الوقوف معها وتحتاج تعريفا طويلا لكن وقتنا لا يسمح بذلك.

يقول د . **على جمعه** الدس المؤمنة فى الشارع لا تؤمن بالعلمنة، ولو حاولنا فإن الشعب سيرفض وبالتالى سيكون حكم نخبة، الحقيقة أريد أن أركز على نقطة «حكم» الحديث، ايضا فيه «حكم» والعودة لمسألة من يحكم رغم أن الحديث غير مطروح بهذا الشكل لكنها مستبطنة دوما فى الحديث، د على يتحدث عن أننا فى مشروع علمنة منذ عهد اسماعيل. والحقيقة أن العلمنة ليست دينا آخر ، والعلمنة كما نطرحها ليست ضد أى دين. علمنة وأنا مسلم تماما، هل هناك إشكالية، علمنة وأنا على عقيدة ما، مسيحى حتى النخاع مثلا لكنى علمانى فيما يتعلق بشئون هذا البلد وحرية القول وحرية الخبز إلخ. أى أن العلمنة ليست دينا آخر يصادر الواقع كما ليست مصادرة للدين، أما إن احتكمنا إلى الجماهير الاعتيادية فى الشارع فأنا لا أستطيع أن إقول أن بيتهوفن ردىء وأحمد عدوية المنتشر بينهم محترم مثلا. المسألة لا تدخل فى هذا الإطار، يعنى ليست محل احتكاك ولن تكون لاتجاه واحد وإنما للتعددية، وإذا دخلنا فى الإطار السياسى فستكون ديمقراطية بالمعنى الليبرالى، وتداول السلطة الخ، الذى يضمن هذا هو ما يقوله عن علمنة المجتمع أن الذى سيأتى للحكم بالانتخاب علمانى، ليس صاحب نظام شمولى، إنما أن تأتى للانتخاب وأنت صاحب نظام شمولى وفى خلال أربع ساعات تعلن كما حدث فى الجزائر أننى سأصير شموليا إذن ستفشل التجربة، بالمناسبة كنا تماما ضد إسقاط هذه التجربة وكان لابد أن تنجح حتى لا يحسب على أى تفسير خاطىءنحن كنا مع استمرار التجربة.

أما مقولة أننا فى مشروع علمنة منذ عهد إسماعيل، هذا كلام - تاريخيا - ليس صحيحا، ثم تساءل د. على ما هى المطلقات الثوابت التى ينطلق منها التعدد. وهذا إصرار على أن هناك مطلقات ثابتة أى أنه حتى التعددية لابد أن تنطلق من ثابت أوحد، كيف يكون متعددا وهو ينطلق من ثابت أوحد، هنا تضارب فى المسألة، هل المطلوب الآن حكم إسلامى؟ أم نسلم أن الشارع مسلم، وهذا هو المطلق الثابت، في الشارع موجود عند الناس في ضمائرهم، فى ضميرى وفى ضميرك قائم وموجود لا يحتاج إلى سلطان، ونبدأ جميعا كل حسب اعتقاده يمارس ما أسميته العلمنة بالتعريف الذى قلته، وأعتقد أنه لو سألنا آخر عن العلمنة ويكون علمانيا حقيقيا - سيقول هذا التعريف، هذه خبرة الشارع فى التجربة واصطراع الآراء، وهذا ما تفرزه - العلمنة الحقيقية أن تترك الأفكار تصطرع وفى النهاية الحكم للجماهير.

يقول أيضا بالتحرر من تبعية الماضي فى مسائله، هذا جميل، لكن هذا مع خالص تقديرى للدكتور على جمعة هو

إلتفاف آخر حول المسألة، يعنى بالفعل هذا ذكاء مستنير، وما أحوجنا للمستنيرين هذه الأيام، يعنى المسلم المستنير.

ولأنه يدرك جيدا أن المسائل كانت ظرفية ترتبط بزمانها ومكانها وإشكاليات عصرها، لكنه يقول إن ما كان يصلح أيامها من منهج يمكن أن يصلح اليوم مع اختلاف المسائل، هذه أيضا أحجية تحتاج إلى التفاهم عليها. إن منهجا كان يصلح لزمان ومكان فى مسألة بعينها، اختلف الزمان والمكان، اختلف إفراز الظروف اختلافا كليا فكيف استخدم نفس المنهج؟ أيضا لك حقك فى التعامل معه فى ظل العلمنة، لكن هنا نريد أن نحدد الأمر فى إطار علمى . أيضا يجب علينا أن نتحرر من تبعية الآخر فى مسائله ومناهجه. نعم لكن ما هو الآخر/ إننى أريد أن أتحرر مثلك تماما فى كل شيء، لكن هل أملك الأدوات لأن أعود إلى الدعوة الداعية للبداية من الصفر فهذه المناهج التى اتفق عليها الآخر ليس هو صاحبها. هذه المناهج أنت ساهمت فيها، وأنا كذلك ساهمت فيها، والمصرى القديم ساهم فيها والبابلى والصينى والمسلم والكل، حتى وصلت إلى البشرية. هذا تصنيف طائفى للمنهجية. المنهج لا يعرف طائفة فهذا إبداع إنسانى.

أنتقل إلى الصديق د . ابراهيم غانم. الرجل منذ البداية اتفق معنا على أن العلمنة بالشكل المطروح يتفق معنا عليها، وأنا ومن على شاكلتى مستعدون أن نكافح فى سبيل تثبيت هذا المعنى، إذا لم يكن ثابتا، لكن المشكلة أن هذا هو تعريف العلمنة بالفعل، إذا رجعنا إلى الأصول سنكتشف أن هذه هى العلمنة، يقول إننا فى الواقع بين الثابت والمتغير، ويجب أن أرجع لمرجعيتى وليس للمفهوم العلمى، لأن مفهومى العلمى مبنى على مرجعيتى. ولكن إذا كنا فى مجال الحديث عن العلم فلن يكون حق أحد. إنما هو حق الجميع وحق الإنسان خلال صراعه الطويل حتى وصل لفهمه العلمى للأمور. المفهوم العلمى مفهوم مشترك للجميع، فمرجعيتك فيما يتعلق بخصوصيتك، وليس بخصوصية المجتمع برمته. الثوابت هى الكليات الخمس والحقيقة كان حديثا رائعا حول حفظ هذه الكليات الخمس هل هناك دستور فى العالم دينى أو وضعى لم يدع إلى المحافظة على هذه الثوابت . أتصور أنه لا يوجد ذلك . هذا يعيدنا إلى نفس المشكلة. إن الذى يطبق هو المرجع وهو المشكلة ، وكيف نختار وكيف يتم هذا إلا بالأسلوب الديمقراطى المعلمن وإذا شططت أسقط وفق قواعد الديمقراطية. أما الذى يحكم باسم الله وأنه سيحافظ على هذه الثوابت كما جاءت فى القرآن أنا لا أستطيع أن أراجعه أو أراجع فهمه وكيف يطبقه؟ هناك فرق بين من يحكم باسم الديمقراطية ويدعى أنه بشرقد يصيب وقد يخطىء وبين من يحكم باسم الله، وأن هذا الفهم الصحيح للدين وما عداه مارق. لك أن تحافظ على هذه الكليات الخمس العظيمة وفق أى معتقد تشاء لكن بالطريق العلمى الديمقراطى الحر.

ثم يعود الدكتور على جمعة ويقول إن قضية العلمنة يفهمونها على أنها إنكار المطلق ، والناس لا تفهم نيتشه، الناس ليس لديهم فكرة عن نيتشه، العلمنة فى رأيى لا تريد أن تنفى الدين ولا أن نثبته، ولا أن تدافع عنه، المسلمون يفهمونها على إنها إنكار المطلق، إن أصحاب ذلك المطلق، وراء تثبيت هذه القضية فى أذهان المسلمين وتكريرهم لها، وتنفيرهم من العلمانيين، أولئك هم أصحاب الرأى السلطوى الأوحد، وأصحاب الكراسى الحقيقية فى بقاء تفسيرهم، هم الذين يملكون الصحف والإعلام والمسجد الخ. وهم من أثبتوا هذه القضية ليبقى الميدان مستباحا لهم وحدهم، بالضبط كما كانوا يفعلون فى الزمن السابق، مع الاشتراكية، جاءت الاشتراكية وتحول الرجال كلهم إلى اشتراكيين وغنوا: الاشتراكيون أنت إمامهم وأنا أقول إنها قضية مصالح، المسألة فيها الحفاظ على المصالح التاريخية . صاحب الرأى الأوحد لا يشغله إلا إنك تهز المقعد التاريخى من تحته برأى آخر، وهو لا يقبل ذلك .

العلمنة تحمى المسلم المعتقد من الاضطهاد ومن التنكيل به، لأنه سيجد

حماية من الجميع الذين يؤمنون بحرية الرأى وحرية الاعتقاد.

ثم قال د . على جمعة : إن التوجه للفكر الغربى يؤدى إلى نشوء الجريمة إلخ .. بينما فى الإسلام غير ذلك، حقيقة كنا مسلمين والجريمة قائمة والبشاعات قائمة

كان هناك من أطلقنا عليهم خلفاء وهم يستحقون بأن يلقبوا بأنهم مجرمون فما الذى يضمن هنا تطبيق المبدأ إلا أن أقول رأيى وتقول رأيك بكل حرية إن الله يدافع عن الذين آمنوا وليس العكس أنا مثلاً عندى مرض اسمه العصب الخامس وأعتقد أن الذى صنع علاجه رجل يستحق ثواباً عظيماً برغم أنه ليس مسلماً

د. إبراهيم قال كلاماً جميلاً أوافق عليه ، أنا لم أقصد التفرقة بين مصرى وعربى ومسلم ، المستويات بهذا الشكل: الوطن - مصر - العروبة - الإسلام . الإنسانية شىء رائع جدا ، لكن الملحوظ أنه فى وسط الإشارات الأربع سنجد ثلاثا جغرافية وواحدة عنصرية، لكن لا يعنى هذا عدم الانتماء هذه ملحوظة إجرائية إنما لا خلاف.

أما مسألة المذابح التى يقوم بها المستعمر، يجب أن ندرك أنها حروب مصلحة طبقية رأسمالية واضحة جدا، الحربان العالميتان قامتا بهذا الشكل، واليوم حروب على منابع البترول.. الخ، لكن للتذكير إن ممن توفى فى ظل الحروب الدينية وفى ظل حكم شخص يقول أنا أحكم باسم الدين، ثم الحروب بين الأديان الأخرى وبعضها، ثم بين طوائف بين الديانة المسيحية لوعددنا ضحايا هذه الحروب ، ستكون أكثر من ضحايا حروب التكنولوجيا والعلم.. الخ، كما قلنا فشلت العلمنة سابقا لأنها مشاريع جزئية من العلمنة تربص لها صاحب الرأى الأوحد يريد القضاء عليها، لفرض سلطانه وإسكات أى لون من ألوان المعارضة، لنفترض اليوم أنه قد بدأت تحدث ألوان من ألوان التجربة الجزئية للعلمنة فى قطر ما من الأقطار ود. إبراهيم غانم قال : إن العلمنة قد فشلت دون أن يضرب مثلا .

● **إبراهيم بيومى غانم** : تركيا مثلا .

● **سيد القمنى** : تركيا كانت ردا على ظرف تاريخى كامل، إنما الذى أريد أن أقوله إنه إذا تصورنا أن هناك جزءا فى تجربة عبد الناصر كان فيه علمنة، وإن كانت الحقيقة ليست بهذا الشكل، لو تصورنا هذا وتصورنا كم كان التربص قائما لها، يعنى من الصعب أن نحكم على تجربة أربعة عشر قرنا وأقارنها بتجربة العلمنة. هذه مسألة فيها من الظلم الكثير ، فهى لم تعط فرصتها بل إن العلمنة بالمعنى الحقيقى حتى الآن ليست مطبقة بشكلها الكامل لأنها حتى لو كانت فى المعسكر الغربى مطبقة، فإن من يصل إلى سلطة الحكم هو صاحب المال والنفوذ .. الخ ويضيف الدكتور إبراهيم أن المنظومة الفكرية الوحيدة التى تضمن التعددية هى الإسلام لكن هناك من يقول بغير ذلك من داخل المنظومة الإسلامية رغم اختلاف شعابها، وأنا أقول إن من يقول إن الحرية التعددية يضمنها الإسلام هذا انتقاء لآيات دون آيات، وهذا لون من نزع الآية من سياقها وهدفها التاريخى، وهو يجيز للآخر المعادى لحرية الاعتقاد أن يستشهد بالآيات الأخرى ويقف عليها .. الخ .

الإيمان بالأنبياء السابقين، نعم لكنه كفر أتباعهم وهذا لا يحل إشكالية اليوم، نحن آمنا بالمسيح لكنا كفرنا أتباع المسيح الذين يقولون إنه ثالث ثلاثة، نحن آمنا بموسى والتوراة لكنا كفرنا اليهود، « ويل للذين يحرفون الكتاب .. وفى النهاية» إن الدين عند الله الإسلام المسألة يجب أن تدرس دراسة موضوعية مرتبطة بظرفها التاريخى، لا نسلخ الآية ونستشهد بها الآن، لأن الطرف الآخر سلطوى، سينتزع آية أخرى، تبرر توجهاته القمعية، ولا تنس أن الإسلام قد أعاد التاريخ دورة كاملة، ليبدأ من عند اللحظة المحمدية، بحيث يصبح إبراهيم مسلما وكل من تبعه مسلما، وهذا ما يرفضه أتباع الديانات الأخرى، هنا إشكاليات لن تقبل حلا بمجرد أن أقول إن الإسلام يضمن الحرية الدينية،

هذه عموميات أما التفاصيل فستواجه مشاكل إجرائية شديدة التعقيد.

● **على جمعة** : لقد ذكرنا مستويين مختلفين، وينبغى علينا حتى لا يطول بنا الكلام ونصل إلى ما كان مقصودا، وهو تحديد نقاط الخلاف والإشكاليات، ينبغى علينا أن نفرق بين مستويين : المستوى الأول هو النموذج المعرفى، المستوى الثانى هو التطبيق ، فقد تكلمنا وكأنهما شىء واحد، ومهم جدا أن نميز بين النموذج المعرفى الإسلامى والنموذج المعرفى العلمانى، بعد ذلك تجىء مسألة التطبيق، وهل كانت تجاوزات فى تطبيق النموذجين ، لكن علينا أولا أن نحدد ما هذا النموذج؟ وأيهما نختار منطلقا لشروعنا؟ نحن نريد أن نجلس على تمييز النموذج المعرفى الإسلامى والنموذج المعرفى العلمانى كأساس لبناء مشروع مصرى.

● **جهاد عودة** : فى نهاية هذه الندوة أشير إلى أهمية ما حدث.

إن ما حدث الليلة هو أمر هام فى تاريخ الأفكار المعاصرة، أو على الأقل فى العشر سنوات الأخيرة من حياتنا الثقافية، ولابد أن الذين حضروا هذه الندوة يسعدهم أنهم قد شاركوا فى هذا الحدث التاريخى، ومجلة القاهرة لابد أن تدرك أنها قد ساهمت فى هذا الحدث التاريخى الذى نأمل أن يستمر، ولا يكون مجرد طلقة. كما أود فى النهاية أن ألخص ما دار فى هذا النقاش .

الإشكالية الأولى : التى ظهرت فى هذا الحوار هى : هل الدين عقيدة أم هوية؟ وما ترتب على ذلك من آثار ومذاهب ومناح عدة.

ثانيا ما معنى أن يكون النص محورا للحضارة؟ وتطورت هذه الإشكالية إلى كيف ننظر فى العلاقة ما بين المعيار والنموذج المعرفى والواقع .

ثالثا : كيف يمكن تخصيب التفكير الإسلامى بالأفكار المغايرة .

رابعا : كيف يكون النص ليس فقط مصدراً للتمنى والحلم ولكن أيضا مصدرا لعملية إبداعية عقلية .

خامسا : هل منتجات العقل وليس استخدامها هى محايدة دينيا أم غير محايدة .

سادسا : كيف يتم التحرر من الغير سواء فى المسائل أو فى المناهج أو كليهما .

سابعا : هل جاءت المرجعية القرآنية لإقرار الثوابت الإنسانية وكيف نحافظ عليها؟ وهل هناك ثوابت إنسانية ،. وإذا كانت هناك فكيف يمكن العمل من أجل تشريعها وتثبيتها .

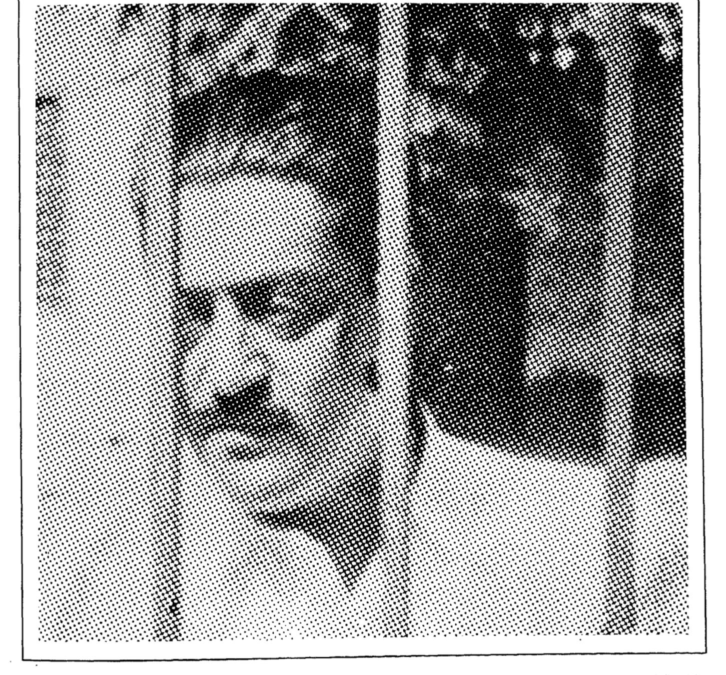
أخيرا وهو خاص بالعلمنة: لابد من تحديد مفهوم العلمنة فى بلادنا لكى تعنى حماية العقائد والآراء المختلفة من الاضطهاد الثقافى والسياسى . ■



من كفر مندور إلى طه حسين

□٥٥ رسائل محمد مندور إلى طه حسين ، تقديم : نبيل فرج . □١٠٦ الرسائل

رسائل محمد مندور



●●● الــى طــــه حســـــين



رسائل
محمد مندور
إلى
طه حسين

من كفر مندور وباريس والقاهرة

هـــذه الــــرســـائــل

قد تكون هذه أكمل مجموعة من الرسائل التى وجدت ضمن رسائل الكتاب والمفكرين إلى عميد الأدب العربى طه حسين وضمن أوراقه وعين الكمال هنا أنها تابعت سياقاً مستمراً فى العلاقة بين محمد مندور وطه حسين منذ كان الأول فى شبابه ، وقد كتبها له من قريته قبل أن يسافر لبعثته الدراسية فى فرنسا، ثم يستمر السياق ونقرأ مجموعة مهمة من الرسائل أثناء وجوده فى البعثة، ثم يكتمل السياق لنقرأ مجموعة ثالثة بعد البعثة.

ثم إن وجه كمالها الأهم هى أنها تروى طرفا مهماً وخفياً من السيرة الذاتية لمحمد مندور، لا شك أنه سيكون مفيداً للباحثين فى هذه السيرة بالإضافة إلى أنها ترسم صورة «عاطفية» صادقة لعلاقته بأستاذه طه حسين، كما أنها تشير بقوة إلى العلاقة الفكرية بين التلميذ والأستاذ، بالإضافة إلى أنها تشير إلى رأى طه حسين فى محمد مندور أو لنقل فى بعض محطات حياته ، ومن خلال رسائل مندورنفسه .

والمؤمل الآن أن نعثر على رسائل طه حسين إلى محمد مندور ، وهذا ما نحاوله منذ وصلت رسائل محمد مندور إلى أيدينا ، حتى تكتمل الصورة وتعم الفائدة .

التحرير

تقـــديم : نبـــيل فـــرج

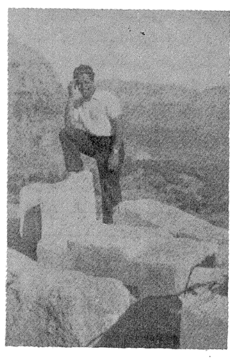
هذه مجموعة خطابات كتبها محمد مندور إلى طه حسين فيما بين ١٩٢٩ ـ ١٩٤٠ ، لا يعلم أحد عنها شيئاً فى حياتنا الثقافية ، لأنه لم يرد لها ذكر قط فى كتابات أو أحاديث مندور عن نفسه، وما أكثرها، ولم يذكرها طه حسين بدوره قط.

يبلغ عدد هذه الخطابات ٢٣ خطابا مقسمة إلى ثلاث مراحل : ٤ خطابات من كفر مندور فى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠، قبل البعثة إلى فرنسا .

١٦ خطابا من باريس فى سنوات ١٩٣١، ١٩٣٥، ١٩٣٦، ١٩٣٧، أثناء البعثة، بينها ثلاثة خطابات بلا تاريخ. و ٣ خطابات من القاهرة فى ١٩٤٠، بعد العودة من البعثة، منها خطاب يحمل توقيع محمد مندور وتوقيع زميله فى البعثة على حافظ ، وهو بلا تاريخ .

ومن المحتمل جدا أن تكون هناك خطابات أخرى ، لم يشأ طه حسين أن يحتفظ بها، أو مطوية فى مكان ما، تنتظر من يعثر عليها، أرسلها مندور فى السنوات التى خلت من الخطابات ، أو فى نفس هذه السنوات .

ولبيان الظروف التى كتبت فيها هذه الخطابات، يتعين الإشارة إلى أن صلة مندور بطه حسين ترجع إلى سنة ١٩٢٥، عندما التحق بالجامعة المصرية، طالبا فى كلية الحقوق، فى السنة التى تحولت فيها من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية ، ووجهه أستاذه طه حسين إلى دراسة الأدب فى كلية الآداب ، إلى جانب دراسة القانون .



صورة نادرة لمحمد مندور بين الآثار اليونانية وهى التى أرسلها لطه حسين ليثبت أن زيارته لليونان ، والتى تسببت له فى مشاكل عديدة مع مدير البعثة فى فرنسا ، كانت لرؤية الآثار وليس للعبث .

وبهذا الجمع بين الدراستين حصل مندور على ليسانس الآداب فى ١٩٢٩، وعلى ليسانس الحقوق فى ١٩٣٠ .

ولعل أكثر ما يمس قارئ هذه الخطابات ، وبخاصة الأربعة الأولى، المحبة الفياضة التى نبض بها قلب هذا الفتى، محمد عبد الحميد مندور، نحو طه حسين، فى مطلع الشباب، والوفاء الجميل الذى حمله التلميذ لأستاذه، وهذا الاعتراف الصادق بفضله العظيم فى خلق شخصيته، وبأنه كان نقطة انطلاق فى حياته لأنه غير اتجاهها بدراسة الآداب ، بدلا من الاقتصار على القانون، كما غيرها، بعد ذلك بالبعثة الى فرنسا ، التى تحمس لها طه حسين، وقام بتذليل العقبات التى اعترضت مندور فى الكشف الطبى، ووضع له منهج

الدراسة فى البعثة، ثم ظل يرعاه سنوات طويلة أثناء هذه البعثة.

أما خطابات البعثة فهى بمثابة ثروة أدبية ووثائق تاريخية، تصف بالوضوح الذى تميز به أسلوب مندور الحياة الشخصية لمبعوث مصرى من النوابغ ، وعلاقته العاطفية كشاب شرقى مع فتيات الغرب ، ومعاناته المادية للحصول على المراجع والقواميس الغالية، بسبب ضآلة مرتب البعثة ، ومالقيه من الصعاب وسوء الفهم والعنت، من المشرفين على هذه البعثة، لاختلاف خططه فى الدرس والتحصيل التى رآها أفيد لمستقبله، عن الخطط الرسمية الثابتة، وكيف واجه هذه المحنة التى لم يفهمه فيها أحد، وكادت تودى بحياته، حين فقد الأمل فى كل شىء، وعقد العزم على الانتحار.

وكان مندور قد قام أثناء البعثة برحلة إلى اليونان بهدف رؤية الأطلال القديمة فى أثينا، التى ترد فى الأدب اليونانى ، مهد الثقافة الأوروبية وحضارتها، وتذوق ما تنطوى عليه من سحر الماضى، ثم فوجىء بصدور قرار بفصله من البعثة، باعتباره مارقا على النظام المتبع.

ولو كان الإشراف على البعثة فى المستوى اللائق، لكوفىء مندور على صحوته العقلية المبكرة، التى أدركت أن زاد الآثار والأحجار ، من العلم والمعرفة ، لا يقل عن زاد الكتب.

وبنفس هذا الإدراك والشغف بالعلم والمعرفة، سافر مندور إلى مدينة «روان» فى شمال فرنسا، ليطوف بالبيت الذى كتب فيه جوستاف فلوبير فى القرن التاسع عشر رائعته الخالدة «مدام بوفارى» ، وزار أيضا إيطاليا وصقلية.

وتكشف الرسائل عن تعثر مندور فى دراسته، ولكنها تكشف كذلك ما حصّله أثناء هذه البعثة من علم باللغات والآداب القديمة والحديثة، تجاوز بها كل ما تلقاه فى بلاده ، ووضع بها الأسس والقيم التى استوى عليها ميزان النقد والمقارنة فى أعماله.

كما أنها توضح الى أى مدى كان مندور، فى الغربة، مهموماً بما يجرى فى وطنه، على نحو ما نجد فى حديثه عن مجمع اللغة العربية، وما ينبغى له بخصوص المعاجم اللغوية . وتعد هذه الخطابات ، بما تضمنته من أحداث وحقائق وأفكار ومشاعر وترجمة ذاتية، يعرف الكثير منها لأول مرة، سجلاً حافلا يعكس أهم مراحل حياة مندور العلمية وتكوينه الفكرى المتين الذى يصعب على الناقد تلخيصه ، لعمقه، وتنوعه ، وانفساح مداه.

ومع هذا فيمكن ذكر بعض ملامح هذا التكوين فى النظر إلى الأصول والمبادىء الفنية من خلال الأصول والمبادىء الانسانية ، النفسية والاجتماعية ،لأن ما يجافى القيم الإنسانية، يجافى بالضرورة القيم الفنية . الإيمان الوطيد بالترابط المعرفى بين التراث والحداثة ، أو بين القديم والجديد . والوعى بما تمنحه السياحة ومشاهدة العالم من ثمار طيبة فى تثقيف النفس ، ومن تأثير فعال فى شحذ الملكات . ووحدة الثقافة البشرية ، دون غض من خصائص كل ثقافة بصفتها وعاء التقاليد والأخلاق والمزاج والروح القومية ذات الطابع المميز ، فلا تعارض بين المحلية والعالمية ، أو حتى بين فنون الشعب كفنون فى حد ذاتها، أو كاتجاه يغذى الإنتاج الأدبى المعاصر ، وبين الفن العالمى بقوالبه الحضارية المتطورة التى لا وطن لها ، مثل العلم ، والتى ساهم العرب فى صنعها مثلما ساهمت كثير من الشعوب . والتعامل مع الإبداع كإبداع جميل وحكمة كاشفة وتجربة حية لها جاذبيتها ، وليس كمتون

24, Rue des Écoles
Mission Scolaire d'Égypte
Paris (5 ème).

باريس فى أول أبريل ١٩٣١

أستاذى العزيز:

مضى زمن طويل لم أتشرف فيه بالكتابة إلى أستاذى
وقد مرت مناسبات رأيت كان من الواجب على أن أنتهزها
لأكتب لكم مهنئاً راجياً المزيد. ولكن رغبتى وبالأحرى
خوفى من أن أشغل من وقتكم - الذى أقدر له قيمته - بما يسلى
ما تحتاج منفعتنا العامة قد منعنى من الكتابة إليكم. فرأيت
أن أكتفى عندما علمنا بذلك النبأ السار نبأ انتخابكم عميداً
لكليتنا بالاشتراك فى تهنئتكم مع إخوانى وأنا
اليوم سعيد بأن أتقدم إليكم من جديد مهنئاً
متمنياً كل ما يرجوه قلبى لأستاذى من علو الجد ونباهة
الذكر.

للنحو والصرف ، أو كهياكل جامدة للصنعة والتكلف ، يثقلها التنميق والزخرف . ولهذه التجربة حريتها الكاملة فى التناول والتصرف فى وقائع التاريخ والأساطير ، حين تتخذ مادة للتعبير عن عصرها ، تتشكل وفق تضاريس الحياة . والإعلاء من قيمة الفطرة والتلقائية والصدق والرهافة والشاعرية ، فى الموضوع والأداء ، وقد غدت هذه الصفات من سمات الفنون الحديثة كلها ، فى الشرق والغرب ، وتحديد فلسفة الأدب والفن فى نقد الحياة ، ورقى المجتمع مقدما الديقراطية الاجتماعية على الاشتراكية . وعدم فصل الضمير العلمى عن الضمير الوطنى، أو التفريق بين حرية الكاتب وحرية الناقد ، والتأكيد على أن الوحدة العربية تنهض على وحدة الثقافة العربية ، ووحدة التاريخ ، وعلى التراث المشترك، وقوة أصالته ، وليس على الدين أو الجنس.

وترسم الخطابات الثلاثة الأخيرة صورة للمعاناة التى تعرض لها مندور فى أرض الوطن ، بعد غيابه الطويل فى البعثة، وعودته في يوليو ١٩٣٩ ، لا يحمل شهادة الدكتوراة التى أخذ يحضر لها فى باريس منذ سنة ١٩٣٥.

ذلك أن أقسام اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية فى الجامعة رفضت ، مجتمعة ، أن تعادل الدكتوراه بما حصل عليه من دبلومات فى اللغة اليونانية وآدابها ، وفى الأدب الفرنسى ، وفى فقه اللغة الفرنسية ، وفى علم الصوتيات العام والتجريبى ، وفى الاقتصاد السياسى والتشريع المالى.

ولولا المساندة التى تيسرت لمندور من أحمد أمين عميد الكلية حينذاك ـ بعد انتهاء عمادة طه حسين فى عام ١٩٣٩ ـ بإسناد بعض دروس الترجمة إليه ، من الإنجليزية والفرنسية إلى العربية ، لترك الجامعة بحثا عن الرزق خارجها ، دون أن يعد رسالته العلمية للدكتوراه، ذات المستوى الرفيع «تيارات النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى» التى صدرت فى كتاب

لا غنى عنه للبـــاحـــثين فى هذا التخصص، عنوانه « النقد المنهجى عند العرب» وإن لم يستـغـرق من مندور سوى تسعة شهور أو نحوها ، اعتمد فيها على ذاكرته وحدها ، ثم وثقها بالمراجع والمصادر.

ورغم حـصـول مندور على هذه الشـهـادة فى ١٩٤٣ ، فـقـد ترك الجامعة نهائياً فى ابريل ١٩٤٤ ، لينخرط نحو عشر سنين فى الحياة العامة، ويصيب فيها نجاحاً كبيراً فى الصحافة والمحاماة والبرلمان ، استلهم فيها ضمير الشعب ، ودافع عن قضاياه فى العدل والحرية التى يخوضها العالم أجمع ، وبدا فيها مندور شعلة متقدة من النشاط الفكرى والسياسى ، فى هذه المرحلة الهامة من الصراع السياسى والكفاح الوطنى ، التى أرادت أن تبنى المجتمع بناء جديدا ، مهَّد لثورة ١٩٥٢.

وبعد الثورة تفرغ مندور نهائيا للنقد الأدبى ، محققا بمقالاته ومحاضراته وكتبه وأحاديثه ، فى كل مكان ، مجده الأدبى كناقد من أكبر النقاد العرب فى العصر الحديث ، أحاط باتجاهات الفكر والفن الرئيسية فى بلاده وفى العالم، ووقف بأدواته ومبادئه النقدية كالحارس الأمين ضد الجهل والخلط والتعصب والمكابرة، يشق طريقه لنهضة الأدب العربى، ليجد مكانه بين الآداب العالمية، متمتعا بروح شعبية مثقفة، لا يتنافر فيها جلباب الفلاح مع قبعة السوربون، كما لم تتنافر ثقافة طه حسين الأزهرية القديمة مع ثقافته الغربية الحديثة .

ولأن هذه الخطابات وثائق بالغة الأهمية، سواء بالنسبة لمندور أو بالنسبة لتاريخنا الثقافى فى العصر الحديث، فضلا عما تلقيه من أضواء على شخصية طه حسين، بقلم أقرب تلاميذه إليه وأكثرهم افتتاناً به، فمن حق الحركة الثقافية أن تعرف أن هذه الخطابات ظلت فى حوزة طه حسين سرا خفيا لا يبيحه ، ولم يخطر ببال أحد أن مندور كتب كل هذه الصفحات التى يصل مجموعها إلى ٧٧ صفحة، ٥٩ منها من القطع الكبير. وقد حافظ طه حسين على كل ما جاء فيها من اسرار تلميذه، كما يحفظ الآباء أسرار ابنائهم التى يمكن أن تمس وجودهم، أو تؤثر على مستقبلهم.

وعندما رحل طه حسين فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ آلت هذه الخطابات ـ مع كثير غيرها ـ إلى محمد حسن الزيات، زوج ابنته أمينة طه حسين، الذى سلمنى إياها فى أصولها الخطية سنة ١٩٩١، حين كان يقيم بمفرده فى شارع حسن صبرى بالزمالك ، وطلب منى بدعته أن أعدها ضمن فصول كتاب شامل عن طه حسين ومعاصريه، يحوى كل الخطابات التى أرسلت إلى طه حسين من أدباء مصر والعالم، بعد أن أصبحوا جميعا فى ذمة التاريخ.

وخطابات مندور بحالة جيدة نسبيا، لا تحتاج إلى ترميم فيما عدا اصفرار الورق من القدم، ووجود بقع صغيرة هنا أو هناك، أغلبها فى الهوامش ، لا تؤثر على الكتابة، وبعض السطور الباهتة، وهى مكتوبة بالحبر الأسود على وجه واحد من الصفحة ، أو على الوجهين.

وستودع هذه الأصول المخطوطة، بإذن الله، كما تودع التحف والقطع الأثرية الثمينة، فى متحف طه حسين «رامتان» ، بترتيبها التاريخى الذى تنشر به فى «القاهرة»، مع كل ما يمكن جمعه مما كتبه طه حسين أو كتب إليه، ويتطلب تتبعه وحصره واقتناؤه جهداً خارقاً.

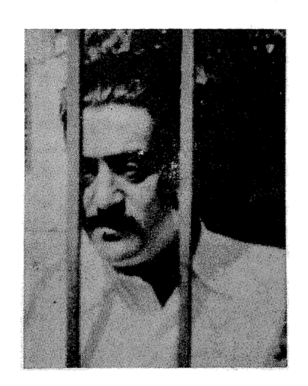
وإذا كان هناك من يستحق أن يهدى إليه هذا الكشف الأدبى الفريد فى تاريخ الثقافة العربية، فهو محمد

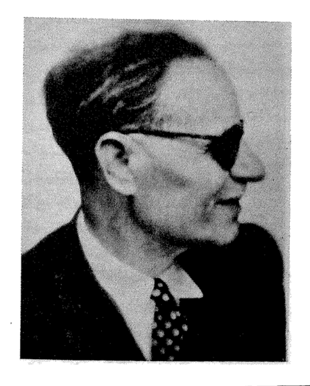
حـــسن الزيات، الذى صـــانه من الضـيـاع أو النهب أو التلف ، ولأنه وثق بأنى سأقدر خطره، وسأخلص فى تقـديمه بالصـورة التى تثـرى ثقافتنا، ولا تنال من مقام مندور أو طه حسين كقمتين شامختين للثقافة الإنسانية الحرة، انبسطت أشعتها على كل من قرأ لهما، وفرضا حبهما وتقديرهما على المثقفين، ولم يرتفع عليهما أحد.

وبعد .. فأرجو ألا يكون الزيات قد أساء الاختيار أو أخطأ القصد، وأن تتيح لى روحه التى أشعر بها ترف حولى، منذ رحيله المفاجىء فى ٢٤ فبراير ١٩٩٣، أن أقدم لاسمه هذا العمل، كما تقدم الرقية، حتى تتخفف النفس من عبئها، وتهدأ، وتستريح ..

قبل البعثة

الرسائل





كفر مندور فى ٧ يونية سنة ١٩٢٩
أستاذى العزيز:

لقد كان فى عزمى أن أكتب إليكم بمجرد وصولى إلى أهلى ولكننى لم أستطع لشدة التعب الذى نالنى فى العام الدراسى المنصرم وما زلت حتى اليوم لا أقوى على قراءة أى شىء حتى الجرائد فأننى أمر عليها مراً وقلما أقرأ منها خبراً بتمامه .

على أننى مع شدة حاجتى إلى الراحة كنت دائم القلق وكلما مضى يوم أو بعض يوم ازددت قلقا لأننى أشعر بينى وبين نفسى بهاتف يصرخ بى أن فى عنقى واجباً من الشهامة أن أسرع إلى أدائه على خير وجه فكلما أنسأته قوى سلطانه على نفسى ولازم حسى ومسارب خيالى فهو ماثل أمامى فى كل حين وهو نجوى ضميرى فى كل وقت .

ذلك هو واجب إسداء الشكر إلى أهله وما أنا بكاذب إن قلت إن الاعتراف بالجميل والرغبة الصادقة المخلصة فى حمد من تفضل على بسبب من عقله أو قلبه من ألزم صفاتى وألصقها بمثلى الأعلى الذى أسير دائما تحت ضوئه .

أستاذى

لو قدر لى أن تكون حياتى موضع عناية أحد من الناس لوجب أن يكون اتصالى بكم نقطة انقلاب أحدث فى حياتى أعمق الآثار . على أنك لو سألتنى تحديد نوع ومدى ما أفدت منكم ما استطعت لا لأننى لا أدرك هذه الأثار بل لأننى معتقد بحق أننى كلى منكم وكفاكم فضلا أنكم خلقتم شخصيتى فلقد كنت لى مثلا حسناً فى قوة الشخصية وصراحة الإيحاء مما قوى فى نفسى شعور الثقة بالذات ولولا هذا الشعور الذى ولدت به ونماه اتصالى بكم لكنت من أشقى الناس وأضعفهم حظا فى الحياة .

أستاذى

فى اعتقادى أن رابطة التتلمذ أشرف الروابط لأنها رابطة عقلية ورباط العقل لا شك أسمى رباط . ذلك إذا كانت العلاقة مجرد علاقة أستاذ بتلميذه فكيف إذا كانت علاقة عقل وقلب معاً وهو ما كان بيننا وبين استاذنا فكم شملتنا بعطفكم وكم لاطفتنا برقتكم وكم لاقيتنا باسماً مسروراً وكم عبثت بنا بذكائك الخارق وكم شجعتنا وداويت مواضع النقص فينا فعلاقتنا بك كانت ولاتزال ولن تزال علاقة تلمذة وأبوة وأخوة وصداقة فلك منا أوفر الحمد والثناء .

أستاذى

لقد تخرجنا على هدى علمكم ومن بين أيديكم وكلنا حماسة وكلنا قوة وأمل أن نكون تلاميذ بررة وسوف يكون مظهر هذا البر العمل فنسير معك وتحت إشرافك فى السبيل الجديد الذى شققته فى عالم الأدب العربى فنتم ما بدأت ونصل بالأدب العربى إلى ما تبغى وفى هذا أكبر جزاء نستطيع أن نتقدم به إلى أستاذنا .

لئن قال رجال نحن تلاميذ الأستاذ الأمام محمد عبده كما قالوا قديما نحن تلاميذ سقراط أو أرسطو فنحن اليوم أعلى من الجميع صوتا وأقوى روحا نصيح فى كل مكان بأنا تلاميذك الخادمون الحق معك الساعون إلى تجديد الأدب ومن جدد الأدب فقد جدد مقوما من أعظم مقومات الحياة .

نعم نحن تلاميذ الدكتور طه نفتخر بهذه التلمذة ونباهل من ينكر علينا هذا الفخر. دوننا ودونهم معترك الحياة فليلقوا بأسهمهم وها نحن نلقى بأسهمنا ثم لينظروا أينا يحكم الرماية .

رويداً يا أستاذى فسوف نلقنهم كما لقنت عصى موسى حبال السحرة .

أستاذى

كل جوار حى تشكر لك فضلك على فهل لك أن تتفضل بقبول هذا الشكر من تلميذك المعجب بك المقدر لفضلك الناطق بحمدك .

ياأستاذى أريد أن أشكرك أكثر من هذا لأن ضميرى لا يزال ينادينى بوجوب الإفاضة فى شكرك فهل إلى ذلك من سبيل . أترك لفطنتكم تلمس مبلغ شعورى وأنا أكتب هذا الخطاب .

كم أكون سعيداً لو تفضلت وتنازلت بزيارة تلميذك ونحن هنا نسكن فى عزبة بها حدائق منشأة حديثاً والجو عندنا صحو وسبل الراحة متوفرة فلو تفضلت بقبول هذه الدعوة التى أقدمها على استحياء فتفضل بأخبارى لأحضر إلى مصر وأصحبكم حيث ينتظركم والدى وعمومتى والجميع فرحين يستبشرون ونحن لا نبعد عن مصر كثيرا لأننا بجوار منيا القمح شرقية وأرجو لكم ولجميع عائلتكم الكريمة الصحة والسعادة .

محمد عبد الحميد مندور

كفر مندور فى ٣١ يوليو سنة ١٩٢٩
استاذى العزيز:

يحلو لى دائما أن أتحدث عن أستاذى أطيب الحديث لأنه حديث نفسى يمليه إعجابى بكفايتكم التى لا أعلم لها عِدلا وإن هو إلاّ حديث صدق لو لم أقله لقال نفسه فلا قبل لى بمغالبته ونفسى حافلة بالإيمان بتفوقكم وشخصيتكم العظيمة تملأ نواحىّ.

ومن العجب أن تعلقى بكم يزداد يوما عن يوم سواء لاقيتكم أم لم ألاقيكم فلى فى حضوركم أنس لا تزعجه حتى عاديات الامتحان فهو ملء نفسى ما شرفت بالجلوس اليكم وهو مناط ذكرى طيبة ما صرفت إليه وهمى ! مذ غبت عنكم ووالله ما اتجهت بخيالى إليكم حتى تصورتك يا أستاذى كما أبغيك وكأن واعيتى قد انتظمتك فى كل وضع فأتصورك محاضرا وأتصورك منصتا وأتصورك ماشيا وأتصورك ضاحكا وأتصورك ناقدا مستخفا ولا عجب فقد صادفت شخصيتكم الكبيرة قلبا متلهفا لمن يملأ فراغه فانتشرت فيه وأخصبت نواحيه شىء واحد يا أستاذى أريد أن أقرره عندكم بما لا يقبل اللبس هو أن إعجابى بكم لا مبدأ له ولا غاية فسواء كنت أديبا فى مستقبل حياتى أم كنت سياسيا أم كنت قانونيا يجب أن يبقى حبى لكم وتقديرى لفضلكم علىّ وإعجابى وتعلقى بذاتكم الكريمة فوق كل اعتبار .

أقول هذا وأصر على هذا القول وأرجو أن تذكره لى يا أستاذى ما حييت وهو فى نظرى أحب إلىّ من كل ما فى الوجود لأنى أشعر بقلبى يدق بحبكم دقا بريئا أحسبكم تحسون قوته وصدق بيانه .

أستاذى :

عفواً أن اشتدت حماستى لكم فتدفقت رغم أنفى فقد بدأت هادئا ثم شعرت بذكريات طيبة تتشاجر فى وجدانى وقد أخذت تزكيها نزعات شريفة تبثها شخصيتكم التى تملؤنى فتتدفق فى قلبى شعوراً وإيمانا خالصا يحركنىّ إلى البكاء .

أستاذى :

كتبت هذا الخطاب وكان فى عزمى أن أسألكم عن خبر نشره الأهرام مؤداه أن وزارة المعارف قررت إرسال اثنى عشر كاتبا من خريجى كلية الآداب إلى أوروبا مع منحهم مكافأة عشرة جنيهات شهريا ويعلم الله أننى متألم جد الألم إذ تلجؤنى الضرورة إلى مكاتبتك فى هذا الصدد لأنى أغاز على علاقتى بأستاذى أن يمسها عارض يطامن من كبريائها ولكنى استميح أستاذى العذر وأرجوه المغفرة إذا نزلت على حكم الضرورة فسألته أصحيح أننا سنمنح عشرة جنيهات فقط ؟؟ مع أنه لا يوجد أى عضو بعثة فى أوربا يتناول أقل من عشرين جنيها ؟ وهل يتصور أننا لا نتساوى حتى مع بعثات الصنائع اليدوية! على أن لائحة المكافآت والمجانية للجامعة تقضى بمنح الطلبة الذين يدرسون فى الخارج مكافأة قدرها ٣٠٠ جنيه سنويا فلماذا نحرم من هذه المكافأة ! أظن يا أستاذى أن هذا الخبر عارٍ عن الصحة وإلا كيف يتسع له العقل ؟

فهل لأستاذى أن يتكرم بإخبار تلميذه عما تم فى هذا الصدد؟

وأخيرا أرجوكم أن تتفضلوا بقبول شكرى على كلمات التشجيع التى وجهتموها إلى تلميذكم فى خطابكم الأخير والتى أعدها بمثابة وثيقة شرف أباهى بها ما حييت ولا عجب فإن نفسكم الكريمة أبت ألا تسمو بما تجيش به من عوامل الخير والذوق السليم مما يلهب إحساسى نحوكم ويزدنى لكم اعجابا وتقديرا وحبا .

وأما الزيارة فعلى أية حالفأنا شاكر لأستاذى عطفه ومجاملته السامية وأنا بعد ذلك عند إرادته فليكن ما تريد وإن كان أكبر آمالى أن أفرح باستقبالكم فى منزلنا أنا وأهلى على السواء .

ختاما أرجو لأستاذى ولعائلته الكريمة صحة طيبة وسعادة شاملة وأتعشم أن تقبلوا أشواقى الحارة وتحياتى الخالصة واحترامى العظيم .

المخلص

الجديدة كفر مندور — محمد عبد الحميد مرسى مندور

أستاذى الفاضل حفظه الله

أكتب إليك يا سيدى هذا الخطاب لأقول لك ما لم أستطع ولا أظننى أستطيع أن أسمعك إياه مباشرة لاعتبارات نفسية متباينة ولكننى لا أستطيع أيضا أن أستريح وتطمئن نفسى ما لم أنقله إليكم .

ذلك أننى أشعر نحوكم بنوع من التحمس القوى يخيل إلى أنه ما من قدرة فى الوجود تستطيع أن تقوم له فى سبيل . وليس هذا الشعور وليد الساعة بل هو شىء كامن فى نفسى تحركه شهامتكم من حين إلى حين* فأتحدث به وأشرك فيه من حولى . ومن العجب أن هذا الشعور يخالف أى شعور آخر فى خاصته . فحماستى لكم كالأفكار تزكو بالإنفاق . كلما ازددت عنكم حديثا ازددت حماسة .

أستاذى :

ليس هذا قولاً أخترعه وإنما هو صوت نفسى أحاول أن أسمعك إياه وأنافى أشد الألم لأننى لا أجد سبيلاً إلى نقل شعورى إليكم كما هو . ولكن عزائى عن ذلك أن المستقبل قد يتيح لى فرصة أدلل فيها على إخلاصى لكم وتفانى فى محبتكم بدليل عملى ناطق ..

سيدى :

يؤلم هذا الشاب الضعيف الذى يتحدث إليكم الا يجد سبيلاً لخدمتكم وهو المعجب بكم المتحمس لفضلكم ولكن ماذا أصنع وأنا لا أزال فى مقتبل العمر عاجزاً.

على أنه لا ينفى عجزى أن أتقدم إليكم بنفسى وأن أضع تحت أمركم يدى وقلبى ولسانى وكل سلاح أملكه وأن انضوى خاشعاً تحت لواء مجدكم المعقود ولى الشرف أكبرالشرف ولى السرور أتم السرور أن أكون جندياً من جنودكم أدافع عنكم وأنطق بمجدكم وأفديكم بنفسى ولتثق يا أستاذى أن هذا الضعيف الذى يخاطبك سيكون دائماً أول انسان يخلق من ضعفه قوة غلابة يؤيدكم بها ويحيى ذكركم ويخلد مجدكم فى كل مكان وفى كل زمان.

أستاذى :

أحب أن أكشف إليك قليلا عن نفسى وأن أؤكد لك أن إخلاصى ومحبتى لشخصكم المفدى أجل وأسمى من المظاهر وأرجو أن تذكرلى ذلك دائماً إن إمتدت بى أسباب الحياة وطال بى الزمن . واذكرتنى دائما واذكر أننى من المتفانين فى محبتك والإعجاب بك ولأكن أول إنسان يتجه إليه فكرك عندما يشتد أمر لى عليه سلطان وسوف ترانى مقداماً جسوراً لا أتردد مطلقاً أن أهدر دمى فى سبيلك.

سيدى الأستاذ :

إن ما تجلى لى من رغبتكم الصادقة فى فعل الخير للناس يستثير إعجابى ومحبتى وهو فى نظرى جانب متين من جوانب شخصيتكم العظيمة سأذكره دائماً أول ما أذكر. سأذكر دائما طبعك الخيّر وخلقك الكريم السمح وسأتحدث دائما عن غرامك الأصيل بإدخال السرور على قلوب الناس وتلطيف آلامهم،

سأذكر محاولتك بكل سبيل أن تذهب من نفسى ونفس صحبى كل ألم يمكن أن تحدثه الشكوك فى أمر مستقبلنا. سأذكر ما حييت قولك (وهل سبق أن قلت لكم شيئاً لم يحدث) سأذكر هذا الحرص العجيب على ملء أفئدتنا راحة ومحو كل ألم يخالجها.

أكتب إليك يا سيدى هذا الخطاب وأقسم لك بالله تقدست آياته أننى أحس إحساساً صادقاً بكل معنى من معانيه وأننى أكتبه لأرفه عن نفسى المثقلة بفضلكم الجياشة بالإخلاص لكم والتحمس لشخصكم وأننى بريئ «برى»من كل غاية وأود أن يكون إعجابى بكم دائماً فوق الغايات لأنه عنصر خالد من عناصر البقاء. عنصر معنوى ليس للغناء عليه سلطان. أما الغايات فشىء والله فى نظرى ثانوى الاعتبار وأصارحك . حيث أننى كنت عضو بعثة أم لم أكن فإن ذلك وربى لن يغير ولا يمكن أن يغير من تفانى فى محبتكم فقد نما هذا الحب وتخلص من مسبباته واستقل بذاته حتى أصبح بشرفكم وشرف الله حيا فى نفسى. أصبح مملكة لا يمكن أن تزول وأقول هذا وأنا واثق من نفسى متمكن من ثقتى فى أن فعل الخير إنما هو طبع لكم إنما هو فطرة فيكم لا تحتاج إلى من يذكرها أو يزكيها . وسواء كتبت لكم أم لم أكتب فأنت يا أستاذى دائما ذلك الرجل الشهم الذى لا يتردد فى فعل الخير والتفانى فى مسرة الناس وتخفيف الامهم وهذا فى نظرى خير ما فى الحياة وأؤكد لك ياسيدى أن خيرما نربح من هذه الحياة الفانية إنما هو إعجاب الناس بك ومحبتهم لك وإخلاصهم لشخصك ودعائهم لك إن كانوا مثلى لا يملكون غير الإعجاب والمحبة والإخلاص والدعاء.

وبعد فهل أنا فى حاجة إلى تقديم شكرى لك بل هل أنا فى حاجة إلى أن أقول إننى أحنى رأسى إجلالا لفضلك وتقديراً لشخصك بعد ما أشعرتك أن جميع جوارحى تحيا وتتغذى بالإعجاب بك واسأل الله أن يطيل فى عمرك ويبارك فى عملك وأن يلقى فى قلبك من السرور بقدر ما تلقى فى قلوب الناس والسلام،

الجرة فى ١٦ يناير سنة ١٩٣٠ **محمد عبد الحميد مندور**

استاذى العزيز

أرجو أن تتفضلوا بقبول تهانى بعيد الأضحى المبارك لكم ولأسرتكم الكريمة .

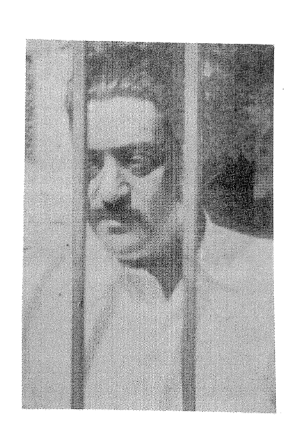
وإنى لأتمنى لكم السعادة والتوفيق والمجد من قلب يحس أنه مدين لكم بما يشعر من بهجة العيد ولذة الحياة ويزيده سروراً أن يتقدم إليكم خاشعاً بآيات الشكر والامتنان .

وأنا أسأل الله أن يحفظ أستاذى ويبقيه على مر السنين موضع خصومة الناس يتحمس له قوم ويتحمس عليه قوم وهو بلا شك موضع اكبار من الجميع وسوف يكتب الله لك النصر وإن طال الزمن والسلام عليكم ورحمة الله من تلميذكم المخلص الشاكر ،

١٩٣٠/٥/١٠ **محمد عبد الحميد مندور**

أثناء البعثة





24, Rue des ecoles
Imonsier slcolaire d, Egypte
Paris (5 eme)

باريس فى أول ابريل سنة ١٩٣١
أستاذى العزيز :

مضى زمن طويل لم أتشرف فيه بالكتابة إلى أستاذى وقد مرت مناسبات ربما كان من الواجب علىّ أن انتهزها لأكتب لعزتكم مهنئأو راجياً المزيد إلاّ أن رغبتى وبالأحرى خوفى من أن أشغل من وقتكم ـ الذى أقدر له قيمته ـ بمراسلتى ما تحتاجه منفعتنا العامة قد منعنى من الكتابة إليكم فرأيت أن اكتفى عندما علمنا بذلك النبأ السار نبأ انتخابكم بحق عميدا لكليتنا بالاشتراك فى تهنئتكم مع أخوانى وأنا اليوم سعيد بأن أتقدم إليكم من جديد مهنئاً متمنياً كل ما يرجوه قلبى لأستاذى من علو المجد ونباهة الذكر .

أستاذى :

أن تلميذكم هذا الذى يكتب إليكم لتهتز أجزاء نفسه حبالكم وتعلقاً بذاتكم وأن قلبى ليفيض لكم بعرفان الجميل. ما أظن أن حوادث الأيام ستنسينى يوماً ما كنت أجده على لسانك ـ يا أستاذى العزيز ـ من آيات العطف والتشجيع وما أظن قلبى وقد مرت به أيام شديدة المحنة سيضل يوماً عن ذلك الضوء الساطع الذى كنت تبعثه فى ثناياه بعبارتك الجميلة التى كانت تصب الأمل فى أفئدتنا صباً . لقد عبرت لأستاذى قبل اليوم عن هذا الشعور القوى الذى غرستموه فى نفسى بإنسانيكم السامية المهذبة ولكننى لا أزال كلما سنحت فرصة بالكتابة إليكم يتحمس قلبى وتشتد عواطفى وكلما ازددت تفكيراً فيكم فى أثناء الكتابة ازداد تحمساً حتى لأحسب نفسى فى وطيس القتال وماهى ألا نزعات الحب وعرفان الجميل وآيات الإعجاب والتقدير لنبل مشاعركم وسمو نفسكم تتضارب فى نفسى ويشتد بعضها بجوار بعض حتى لتنال من أعصابى . لست أبالغ ولست أكذب ولست أكتب كصانع للكتابة إذا قلت إنك يا أستاذى بما أظهرته نحوى من حرص على آمالى الصغيرة أن يضنيها اليأس ورغبة فى هداية تلميذك الذى تفضلت فرأيت فيه أملا قد يرجى نفعه قد اشتريت نفسى فهى ملك لك وستتعاقب الأيام وستمر حياتنا كما مرت حياة غيرنا وسنرى ما يخبئه لنا المستقبل من غرور الآمال وسينقضى كل شىء ولكن سيبقى فى نفسى دائماً أنك أنت الرجل الذى عرفت كيف تأسرنى دع الآمال ودع الحياة فكلها غرور فى غرور وتعال معى أستاذى أشهدك أمام الله أننى سأكون ما حييت لك وطوع إشارتك وسأعمل لمجدك فوق ما أعمل لنفسى . سيعلم الناس أن هذا التلميذ يعرف معنى الفناء فى أستاذه وسيعلم التاريخ ـ إن قدر لنا ذلك ـ أن القلوب إذا تصادقت تنتج خيراً كثيراً .

ثق يا أستاذى أنك قد كسبتنى ولا تعجب لقولى هذا ولا تسائل نفسك عن مصدر هذا التفانى فإن حبى لك هو ضرب من التصوف . قل عنه ما شئت . قل هو جنون أو قل هو عبادة فأنا وحدى أحس قوته وأقدر مداه . حبى لك هو حالة شاذة لا أظنها تتفق لكثير من الناس وهذا هو السر فى أننى لا أستطيع أن أكتب إليك فى غيره . لقد أخذت هذا الخطاب لأقدم إليك فيه أحد الأبحاث التى قدمتها هذا العام للسربون وأنت ترى يا أستاذى كيف قد ساقنى إليك القول ووالله ما كنت أستطيع أن أمنع نفسى عن الجري كما جرت فأرجوك المعذرة.

هذا البحث قد كان من فضل الله أن حاز رضاء الأستاذ المختص ـ الأستاذ ميشو ـ فأعطانى عليه درجة راقية تسمو فوق درجة إخوانى الفرنسيين ولقد رأيت أن أنقله إلى العربية وفعلا ترجمته وأرسلته اليوم إلى مجلة الجامعة مع شىء كثير من التوضيح والتوسع ليكون مفهوما وأملى أن يحوز رضاكم ليكون فى ذلك رضى لنفسكم عندما ترون خيراً فى تلميذكم الذى علمتموه وثقفتموه وأرسلتموه إلى ديار العلم ولقد طلب منى الديوانى بك صورة من هذا البحث فأعطيته إياها كما طلب منى مراسل جريدة (الريفورم) المصرية فى باريس نسخة أخرى لنشره بها فأعطيته أيضا وكل ذلك نظراً لم أحدثه هذا البحث من رنة السرور سواء فى وسط إخوانى وأساتذتى فى السربون أو فى الخارج وسط إخوانى المصريين ومن يتصل بهم فقد تحدثوا عنه كثيرا والله الموفق.

وبعد إجازة الـ (Gorffe Paques) سأرسل لسيدى الأستاذ صورة من بحث آخر هو الآن عند الأستاذ وهذا البحث يدور حول شخصية فتى يافع فى سن الثالثة عشر اسمه (Cherulin) فى رواية marrage de Jicyaro للروائى الفرنسى الشهير(Beaumarebois) والبحث عبارة عن تحليل نفسى لليافع J'udolesentوقد استعنت فيه بكتب علماء النفس وخصوصا العالم (memdousse) فى كتابه J'ane de l'adolescent وفى رأيى أن هذا البحث ستكون نتيجته خيراً أيضا من بحث اليوم لم بذلت فيه من عناية والله الموفق.

وأظن أستاذى يعلم أننى أحضر لدور يولية القادم شهادة الأدب الفرنسى ولدور نوفمبر شهادة اللاتينى والله الموفق وعليك ياأستاذى العزيز من تلميذك المخلص تحية الله وسلام ،

محمد عبد الحميد مندور

أستاذى العزيز :

لقد نسيت أن ارجو أستاذى ان يتفضل فيلفت نظرى بعد قراءة البحث إلى ما يرى ضرورة لفت نظرى إليه فإننى وإن كنت احترم علم الأستاذ ميشووذكاءه إلا أننى حريص كل حريص على تلمس رأى أستاذى الدكتور طه وانا على يقين أن ماسوف تتفضل به على تلميذك من ملاحظات سأجد فيها نور الهداية والتوفيق.

لقد لاحظ الأستاذ ميشو الملاحظات الآتية :

(١) الموضوع طويل يجب الاختيار والحذف .

(٢) الموضوع اقرب إلى الفلسفة الوصفية فيجب تغذية الشكل بشىء من الفن أكثر من ذلك وفيما عدا ذلك فالموضوع حسن جداً.»

وانا شاعر أننى دائما فى ابحاثى اقرب إلى الفلسفة منى الى الادب فهل يرى أستاذى ضرورة مقاومة هذا الميل وإن كان فكيف السبيل .

وانا فى انتظار رد أستاذى ،

32, Monsievr Leprince
Monsier Scolaire d, Egypte
Paris (5 eme)

باريس فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣١
أستاذى العزيز:

أما بعد فقد أخذتنى الظنون منذ أن بادلت عزتكم الحديث عن موعد سفركم القريب ولا أزال فى أشد الألم مما استطعت أن أفهمه من حكمكم علىّ بأننى قد أكون غير معنى بذلك ومعاذ الله أن أكون كما ظننتم وإنما هو حكم كانت لظروفى غير الموفقة أثر غير محمود فى التمهيد له بشبهات من الظن علم الله أنها أبعد ما تكون عن حقيقتى النفسية وما أحمله لكم من محبة وتقدير وكيف يمكن أن أكون منكم على غير ذلك وأنا ابن فضلكم وغرس أيديكم وهل غابت عن ذهنى مجهوداتكم الشريفة فى سبيلى وسبيل أخوانى . معاذ الله أن أعق فضلكم أو أن أنسى يدكم المشكورة على مستقبلى . معاذ الله أن أحلك ياسيدى الأستاذ من نفسى فى غير المكان الأول . معاذ الله أن أكون لكم إلا الفتى الشهم المعترف بالفضل بكل شجاعة وإيمان وو الله لو أننى كنت حجراً لنطقت بين أيديكم بآيات العرفان بالجميل فكيف يكون الأمر ولى قلب ضمضتم جروحه واحييتم مواته وفى رأسى عقل يقدرفيكم مزايا النبل والأدب العالى السليم مضافة إلى ما ذهبت به الألسن فى كل مكان من علو كعبكم فى سلامة الحكم وسمو التفكير . كيف يمكن أن أكون منكم على غير ذلك وأنتم الرجل الذى أداننى أكبر دين فى حياتى. لا لا لست عاقا ولست صغيرالنفس ميت الإحساس حتى أنساكم أو تغيب عن ذاكرتى أياديكم المتتابعة المتلاحقة وكيف يكون ذلك ولنا فى كل يوم نلقاكم فيه دليل جديد على دأبكم المستمر وراء مستقبلنا. لا لا يا سيدى لست كما ظننت وما أستطيع أن أكون كما ظننت. إن أنسانيتى وإن وجودى وأيمانى لتأبى على إلا إن أكون لكم وبين أيديكم كما تشاءون فاقبلونى وليكن فى ذاكرتكم دائما أننى سهم فى جعبتكم ولسان صدق فى الآخرين.

شاق على نفسى أن تحكموا علىّ هذا الحكم لأنه ينال من إنسانيتى ويدمى وجودى. نعم سبق أننى لم أكن موفقإلى التشرف بتوديعكم عند عودتكم إلى مصر فى العام الماضى وكذلك عند سفركم إلى ريف فرنسا هذا العام ولكننى معذور فى الحالتين. فأما عن العام الماضى فأذكر أننى قبل سفركم بيومين تلقيت تلغرافا من أحد أبناء عمى لألاقيه فى كاليه وقدأ خبرت عزتكم بذلك ورجوتكم المعذرة فى التخلف عن تود يعكم وكان من كرمكم النفسى أن قبلتم العذر وأما عن هذا العام فلسوء الحظ كان سفر عزتكم بعد صدمة الامتحان التى ما كنت أجد بعدها فى نفسى الشجاعة الكافية لألقاكم . وبعد عودتكم من الريف كانت نفسى لاتزال تتهيب لقياكم ولقد قدمت لعزتكم أشد تأسفاتى لعدم تشرفى بلقياكم منذ زمن بعيد عند أول لقائى بكم وأملى لايزال قويا فى أنكم قد تفضلتم بقبول عذرى الذى اعود فأقدمه اليوم راجيا من كرمكم النفسى الصفح الجميل . وأنا واثق أن شعورى النبيل الذى أحمله لكم والذى اعتقد أنكم تدركون عنى الإخلاص فيه مضافا إلى كرم نفسكم وسعة صدركم ستكون كفيلة بضمان رضائكم عنى وضمى إلى جناحكم الكريم كما كنت دائما وكما أود بكل حرارة وإخلاص أن أظل والله بعد ذلك ولى السرائر .

وإلى اللقاء يوم االجمعة المقبل . صاحبتكم السلامة فى الإقامة والرحيل واختتم خطابى راجيا رضاءكم والسلام عليكم ورحمة الله ،

تلميذكم المخلص

محمد عبد الحميد مندور

باريس فى ٤نوفمبر سنة ١٩٣٥
أستاذى العزيز ـ حفظه الله :

ها أنا أضع جانبا نحو اللغات القديمة المقارن meillet et vendryes لأكتب اليكم بعد زمن طويل وذلك لأننى أشعر بحاجة كبيرة إلى مخاطبتكم على صفحات الكتاب بعد أن حرمت متعة لقياكم فى سفركم الأخير إلى أوروبا .

بعد يومين سأحاول للمرة الثانية شهادة الدراسات اليونانية وقد كان فى عزمى أن أرجئ الكتابة إلى أستاذى المحبوب إلى ما بعد الامتحان لعلى أستطيع أن أبشره بنجاحى ولكننى استميحكم عذراً أن بادرت إلى ذلك قبل اليوم الأول وإنما تدفعنى إلى هذا حاجة نفسية حاسمة وها أنا أكتب إليكم وأنا شديد الإنفعال وموقفى أمامكم موقف من يلتمس عونا أدبيا يغذى به نفسه إذ يأتيكم بامتحان ضميره قبل أن يمتحنه الغير :

يشكو أخوانى عادة صعوبة الدراسات القديمة وأنا أصاحبهم فى هذه الشكوى وإن كنت أعتقد كل الاعتقاد أن مرور الامتحان فى تلك اللغات ليس عسيراً لمن يستطيع أن يقصر مجهوده فى حدود المقرر بل إنه لمستطاع فى وقت قصير كان يسلك مسلك الطلبة الفرنسيين فيواجه الدراسة كسبيل للحصول على الدرجة العلمية لا غير ولكم لاقيت من أخوانى الفرنسيين من لا يعرف «لارستوفان» الـ ٦٠٠ بيت المقررة فى «السحب» أو «لأوربيد» الإ نصف راوية «Jpbgeen en tavr ede» ولو أننى استطعت أن أنهج فى دراستى منهجهم لكنت انتهيت من الليسانس وإنما أشكو إليكم إن كان هناك محل للشكوى من عجزى المطلق عن الوقوف عند الجزء دون سبق إلمام بالكل وأنتم خير من يعلم مبلغ ما وصل لنا من الثقافة اليونانية القديمة ولست أدرى كيف سيكون حكمكم على تلميذكم إذا أخبرتكم أننى قد قرات كل ما وصل لنا من اليونان قليله فى النص اليونانى ومعظمه فى التراجم الفرنسية لا الشعراء ولا الروائيين فحسب بل كل ما وصل إلينا مما خلفه مؤرخوهم وفلاسفتهم وخطباؤهم على السواء وفى مختلف قرون العصر اليونانى (Clessique) كالعصر المستغرق (hellenistique) وفى هذا مر الوقت ولا أقول ضاع لأننى وأثق تمام الثقة أنه وإن تكن الدراسة الفقهية البحتة للغات القديمة على جانب كبير من الأهمية لتقويم مناهج التفكير من حيث أنها تفصيل مستمر للفكر المجرد Artriculation de la Pensée فإن محمول هذا الفكر لا يقل عن تركيبه أهمية ومن يستطيع أن يقف من أفلاطون عند الكتاب الثالث من الجمهورية دون أن يمر «بالمحاورات» و«القوانين» .

أستاذى العزيز :

بودى أن أشكركم فى حبى لأفلاطون حبا يقرب من العبادة فحقيقة لم تنتج الإنسانية على ما أظن كاتبا فى مثل هذا التوفيق من القدرة على الجمع بين عمق الفكر وشاعرية العبارة ولتسمحوا لى أن أترجم آخر جملة من «الدفاع عن سقراط apologie لأنها أمامى الآن ومنذ يومين وهى تشغل مخى أينما كنت . ليست بفكرة عميقة ولا بعبارة خارقة ولكنها على بساطتها بل ولبساطتها تملأ النفس بما يشبه

النشوة لمشاركة القارئ لقائلها فى صفة الإنسانية : قال سقراط لتلاميذه بعد أن أنتهى الحوار وصح عزمه على الانتحار : «الآن يا أخوانى لقد حان موعد الرحيل : أنتم إلى الحياة وأنا إلى الموت».

أستاذى العزيز

لقد انتهيت من الأدب الفرنسى ومن فقه اللغة الفرنسية بعد أن قرأت كل ما وصلت إليه يدى مما كتبه الفرنسيون فى كل ميادين البحث والتفكير من تاريخ إلى فلسفة إلى أدب بالمعنى الضيق للكلمة إلى أخلاق إلى اجتماع إلى فقه لغة والعلاقة بين اللغة والتفكير إلى تاريخ ديانات وتاريخ الفنون وتاريخ الموسيقى وتاريخ الآداب الأوربية الأخرى وعلى وجه الخصوص الآداب الألمانية والإنجليزية والروسية بل وقرأت الكثير مما ترجم إلى الفرنسية من هذه الآداب بل وبعضها فى نصوصها الأصلية . كثير من النصوص الإنجليزية وقليلاً من النصوص الألمانية وأن تكن معرفتى لا تزال ناقصة فى اللغة الألمانية .

وها أنا الآن غارق فى الثقافات القديمة . وصلت إلى درجة لا بأس بها فى اللاتينى بحيث لو رأيتم الاكتفاء بمرور شهادة «Les antiquries latines» بدلا من «Les études latines» لأمكننى أن انتهى من الليسانس هذا العام والفرق بين الشهادتين ينحصر فى أن الشهادة الأولى «antique» لا تتطلب «Theme» وإنما يحل محلها composition عن تاريخ النظم عند الرومان وأما الـ Version فمشتركة فى الاثنين بل يخيل إلىّ أن شهادة الـ antique أنفع لى لأنها تضم إلى الدراسة اللغوية البحتة دراسة الحضارة الرومانية القديمة بما فيها من Epigrabie numismatique Archeologie و rumismatiqul وربما كان فى هذا ما يعوض عدم التعمق فى فقه اللغة اللاتينية ، وعلى أى حال فقد وصلت فى الليسانس إلى مستواه تقريبا ، ولم يبق إلا مرور الامتحانات . وهذه فى نظرى وأظنها فى نظركم أيضاً مسألة ثانوية.

لقد قرأت كما قلت كل ما كتب اليونان وفى عزمى إن شاء الله أن أقضى العام القادم فى قراءة ما تركه الرومان متخذاً نفس طريقتى فى دراسة اليونان وهى أن أبدأ أولاً بمعرفة تاريخ الرومان معرفة جيدة معتمداً فى ذلك كما فعلت بالنسبة للإغريق على مجموعة "L,evolution de l'humanite" التى يديرها Henri Berr فأقرأ جيداً عن الرومان الأربعة مجلدات أو الخمسة التى تقابل ما كتب فى نفس المجموعة عن اليونان. وسبب تفضيلى لهذه المجموعة هو ميلها إلى إخضاع الوقائع البحتة الى مبادىء اجتماعية وفلسفية عامة تخلق من التاريخ علماً بمعنى الكلمة بما يحمله معنى العلم من تفسير عقلى واستنباط لنواميس عامة فإذا انتهيت من ذلك واستميحكم عذراً لعدم الدخول فى تفاصيل تلك الكتب وواضعيها لضيق المقام، أواجه ما كتبه الرومان أنفسهم فأقرأ ما استطيق أن أقرأ فى النصوص اللاتينية وأكمل فى التراجم الفرنسية لضيق وقتى مع شديد الأسف.

وبجانب هذه الثقافة العامة اللازمة لزوماً لا مفر منه لمن يريد أن يكون نفسه ويرجع إليكم نازلاً عند أملكم فيه استمر فى دراسة فقة اللغات القديمة تمهيداً لشهادة «فقة اللغات القديمة المقارن» وفى يونيه القادم أتقدم للامتحان ولكن لأى امتحان.

هنا ألخص ما فات وأعرض عليكم ما أراه للمستقبل ولكم الكلمة العليا لأننى واثق أنكم لن ترون إلا الخير وكم أنا مدين لكم إن هديتمونى إلى سبيل الثقافة الحقة ولن أقف فى مفترق السبيل مادام فى عزمى ذرة نشاط :

ألخص فأقول: حصلت إلى الآن مع الأسف الشديد لتأخرى من الناحية المدرسية ولا أقول من الناحية العلمية على شهادتين : (١) الأدب الفرنسى، (٢) فقه اللغة الفرنسية. وبعد يومين سأحاول شهادة الدراسات اليونانية «Etudes Grequea» فإن وفقت للنجاح وهذا أملى كان خيراً، وإلا ربما كان الأفضل أن أسلك فى سبيل الامتحانات مسلكاً آخر لا فراراً ولا خوفاً من العجز فإننى شديد الأمل فى إمكان الانتهاء من أى مقرر تفضلونه وإنما لاعتقادى بأن الشهادات التى اقترحها ربما كانت أفيد لى وأفيد لما ترجوه منى الجامعة وها أنا أفصل ذلك:

إن لم أوفق للنجاح فى نوفمبر فى الدراسات اليونانية أواجه العام القادم على أن يكون استعداداً للشهادات الآتية :

(١) شهادة فقه اللغات القديمة المقارن Grammaivre et philologie وامتحان هذه الشهادة يتكون من امتحانين[١] تفسير نص فرنسى تفسيراً لغوياً وقد سبق أن مررت شهادة فقه اللغة الفرنسية فمعلوماتى فى هذا الباب أوسع بكثير مما يتطلبونه فى الفقه المقارن .(٢) تفسير نص يونانى ونص لاتينى وقد حضرت النصوص اليونانية المقررة فى شهادة اليونانى ومعلوماتى فى اللاتينى الآن جيدة إذ منذ مجيئى إلى باريس وأنا أحضر للاتينى وقد وصلت إلى درجة لا بأس بها بدليل مرورى فى فقه اللغة الفرنسية وأنتم تعلمون ما يتطلبونه فى السربون من معرفة باللغة اللاتينية لمرور فقه اللغة الفرنسية ومنها ترون ياأستاذى العزيز أن تحضير هذه الشهادة شيء فى حكم الماضى بالنسبة لى الآن ويخيل إلىَّ أن هذه هى الشهادة التى تعلقون عليها بحق أهمية كبيرة.

(٢) بدلاً من الاستمرار فى شهادة الدراسات اليونانية Etudes Grecques وذلك فى حالة عدم توفيقى لا قدَّر الله فى الامتحان الحالى أتقدم لشهادة Les antiquités Grecques وفى هذا فائدة مزدوجة لى وللجامعة وذلك لأن الامتحان فى هذه الشهادة يتكون من شيئين: (١) سؤال Composition فى تاريخ النظم اليونانية، (٢) ترجمة نص يونانى Version والتعليق عليه. بينما شهادة الدراسات اليونانية لا تتكون إلا من ترجمة فحسب Une version et c'et tout ويضاف إلى ذلك طبعاً الشفوى وهو عبارة عن تفسير نصين نص شعر ونص نثر من مقرر محدود. ومن هنا ترون أن شهادة الـ anitiquités Grecques أنفع لى بل وأقيم فى نظر الأساتذة بالسربون لأنها تضم إلى الدراسة اللغوية البحتة دراسة الثقافة اليونانية والتاريخ اليونانى عامة وأظن أنه من الناحية اللغوية فى شهادة الفقه المقارن ما يكفى وأضيف إلى ذلك

أنه فى حالة تغيير الشهادة على هذا الوجه لن ألقى أى صعوبة فى تحضيرها إذ قد قرأت الشىء الكثير جداً عن تاريخ اليونان وفلسفة اليونان وأدب اليونان ودين اليونان وفن اليونان حتى وأثريات اليونان ولعل أستاذى على علم بأن لى صديق من الـ Ecole normale ومرشح للـ Ecole d, athenes أحضر معه امتحاناتى وهو الذى فتح أمامى كل هذه الأبواب وإننا قد زرنا سوياً بلاد اليونان ودرسنا حفرياتها دراسة لا بأس بها فمن الـ Acuropole إلى Delos لم نترك شيئاً لا أثر إلا درسناه ولا تمثال إلا تفقدناه وقرأنا مجمل آراء العلماء فى دلالته التاريخية وقيمته الفنية وكذلك فعلنا فى إيطاليا من روما إلى بمباى إلى صقلية . ومن هنا يرى أستاذى أنني تحضرت تحضيراً أظنه يضمن النجاح فى مثل تلك الشهادة بغير كبير عناء وفى اعتقادى أنه من المستحسن أن استفيد مما سبق أن حصلّت بدلاً من تضييع وقت أطول فى التعمق تعمقا أكثر من ذلك فى اللغة اليونانية البحتة كأنها غاية فى ذاتها لا غاية وراءها.

(٣) بدلا من شهادة «Etudes latines» بما تتطلبه من theme و Version أتقدم لشهادة Antiquités Ltines حيث يحل سؤال فى تاريخ النظم محل الـ Themeوفى الـ Versionما يكفى من الناحية اللغوية مضافا إلى شهادة النحو المقارن وها أنا أرفق بخطابى هذا منهج الدراسات فى السربون ليرى أستاذى تفصيل ما أجملت.

هذا ما أرى ولكم الرأى الأعلى لأنه سيان عندى هذا المقرر أو ذلك فان طريقة دراستى شخصياً هى واحدة وأظنها هى الطريقة المثلى وإنما كل التغيير سيكون في كسب الوقت إذا تصبح طريقتى الشخصية هى الطريقة الرسمية وطريقة الامتحان وبهذا أستطيع أن أمر الامتحانات بسهولة بدلا من سلوكى مسلكاً لا يؤى مباشرة إلى امتحان لا يتطلب إلا ذاكرة حافلة بالألفاظ والتراكيب النحوية .

وحقيقة أنه لمما يؤسف له أن تسترق الـ Erudition أساتذة السربون هذا الاسترقاق المخيف وأنه لمن المؤلم الا يرى الأساتذة فيما كتب أفلاطون أو مارك أوربل أو فرجيل ما يوجب عنايتهم الا البحث عن الغلطات الوهمية أو النقلية أو تراكيب الأفعال الغريبة أو تصاريفها . لا أن فيما خلفه القدماء معنى إنسانياً أوسع مما يظنون وأنه لمن الإجرام ان نحصر تلك العقول الجبارة فى حدود النقد اللفظى المفقر وفى هذا ما يؤلمنى ألماً حقيقياً حتى لكأنى المجنى عليه وبودى لو استطعت أن انتصف لديمستين وأمثال ديمستين عندما يقرأه أستاذ السربون ببرود العلماء دون أن يقف إلا باحثاً عن Variante .

لقد سلكت فى دراستى غير هذا المسلك ووضعت أمام نظرى دائماً أن أقرأ أفلاطون فى نص صحيح لا لذاته ولكن لما يحمله من غذاء نفسى وخلقى من الاجرام ألا يلفت نظرنا أليه أستاذتنافى أكبر جامعة فى بلاد تعرف لغذاء النفوس حقه .

هذا رأيى أعرضه على أستاذى بصفة خاصة سائلا النصح لا المعونة لأننى وأن كنت دائما فى حاجة لعونكم الأدبى ورعايتكم السامية فحاشاى أن أرجوكم مساعدتى على الفرار مما فيه الخير لى ولبلادى

وجامعتى ضناً بمجهودى أو جبنا وما ألى ذلك قصدت وأنما فائدتى من الناحية التكوينية البحتة ثم فائدة الجامعة فيما يمكن أن نقدمه لها جزاء على ما مهدت لنا من سبل العلم الصحيح .

فان رأى أستاذى رأيبى أو رأى غيره كان لى أن أرجوه رجاء حاراً أن يوافينى بالرد قبل أن يبتدأ العام الدراسى لأكون على بينة من أمرى ولان فى عزمى أن أنتهى بأى طريقة من الليسانس هذا العام فقد نضجت وأصبحت أظن نفسى كفئا لهذه الدرجة المتواضعة .

هذا ولى رجاء آخر من أستاذى وهذا أن يعطينى رأية فيما بعد الليسانس ، أما رأيى الخاص فهو أن أنتهى طبعا من الليسانس وبعد ذلك أبدأ فى الدكتوراه مع تحضير شهادة اللغات السامية القديمة فى السربون وفى المنهج تفصيل ذلك .

وأما الرسالتين فربما كانتا كالآتى :

[١] الرسالة الكبيرة حول Hellenisme chez les arcbes وهنا لى أن أرجوكم تحديد الموضوع أو أعانتى على ذلك لأن معرفتى بالعرب ضعفت فى ذاكرتى .

[٢] الرسالة الثانية تكون عبارة عن بحث فى تاريخ الاستشراق مع وضع Bibliographie نقدية «raisonnée» للكتبه المستشرقون عن العرب ومن يتصل بالعرب عن قرب كالفرس مثلا واليهود
L'orientalisme: histoire et bibliographie classée et raisonnée

ولهذا بودى أن أغادر فرنسا بعد الليسانس ألى ألمانيا للاتصال بمستشرقيها واجادة اللغة الألمانيـة والبحث فى المكاتب على أن أزور فى أثناء ذلك انجلترا وأسبانيا ـ اسكوريال .

هذا ما فعلت وما أود أن أفعل واعتذر عن هذا التطويل الذى لم يكن منه بد.

وقبل أن أختتم خطابى أتقدم إلى أستاذى برجاء آخر وهو أن يتفضل ـ مع كل ما أحمله لكم من محبة وثقة واحترام ـ باستشارة أساتذتى فيما أعرضه عليكم وبخاصة أستاذى المحبوب أحمد بك أمين فقد شملنى دائماً كما شملتمونى بعطفه الأبوى النبيل ولست أشك فى أنه سيعطى استشارتى هذه حقها من عطف وعناية. هذا وسأكتب له دون كل هذا التفصيل راجيا أن يراجع أستاذى الدكتور فيما ترون فيه خيرى وسبيلاً آمن لأداء واجبى نحوكم ونحو جامعتى ونحو وطنى المسكين .

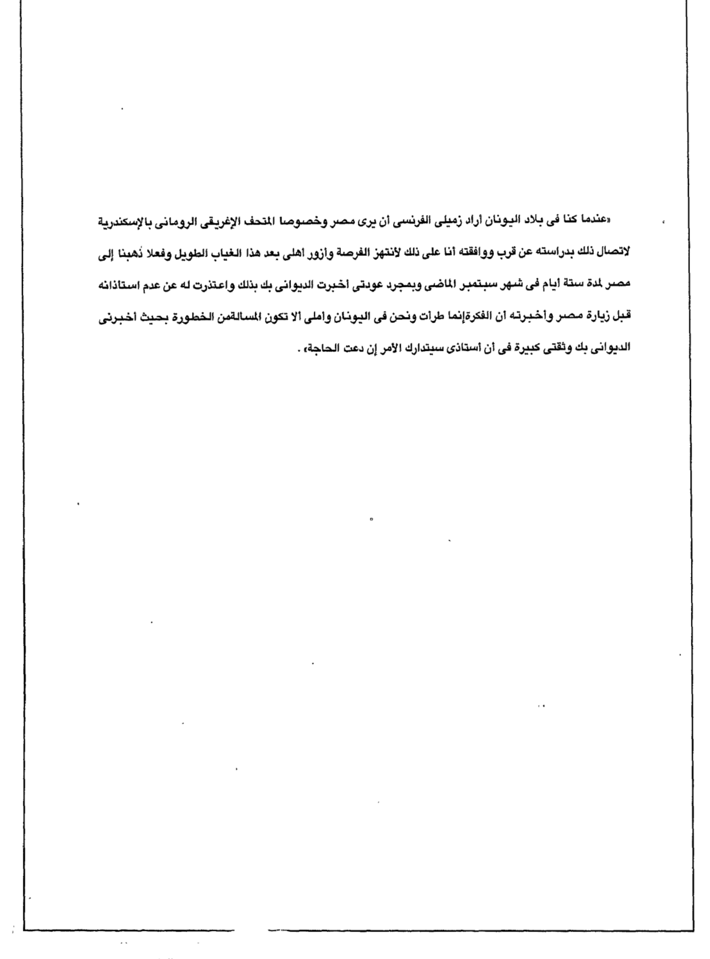
ولتكن آخر كلماتى أحر تمنياتى لشخصك المحبوب ولعائلتكم الكريمة مع عظيم شوقى ومحبتى وتقديرى .

لم أنساك يا أستاذى ولن أنساك ما حييت فاذكرونى فإن فى الذكرى عزاء لغريب اعتاد عطفكم .

6, Rue Marere
Paris (14 éme)

المخلص

محمدعبد الحميد مندور



«عندما كنا فى بلاد اليونان أراد زميلى الفرنسى أن يرى مصر وخصوصا المتحف الإغريقى الرومانى بالإسكندرية لاتصال ذلك بدراسته عن قرب ووافقته أنا على ذلك لأنتهز الفرصة وازور أهلى بعد هذا الغياب الطويل وفعلا ذهبنا إلى مصر لمدة ستة أيام فى شهر سبتمبر الماضى وبمجرد عودتى أخبرت الديوانى بك بذلك واعتذرت له عن عدم استاذانه قبل زيارة مصر وأخبرته أن الفكرةإنما طرات ونحن فى اليونان واملى الا تكون المسالةمن الخطورة بحيث أخبرنى الديوانى بك وثقتى كبيرة فى أن أستاذى سيتدارك الأمر إن دعت الحاجة» .

6, Rue, Marere,
Paris(14 eme)

باريس فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز حفظه الله

شاءت الأقدار أن تمر سنون دون أن ألقاكم أو أستمع إليكم وها هى اليوم تأتينى بكتابكم الكريم وقد نزلت عندكم موضع الشك بدل الثقة والتقصير دون الاجتهاد.

لست أشكو قسوة عبارتكم فإن قلبى يحس خلف تلك القسوة الظاهرة حباً جماً وحرصاً صادقاً على من أوليتموه رعايتكم ولما يلج باب الحياة.

وأما عن حسن ظنكم بملكاتى الطبيعية ففيه أكبر عزاء لنفسى بين ملابسات عدتنى بقدرتها وهوت بى إلى ما لا كنت احتسب وفى الحق ما زلت كما كنت يوم وضعتم فىّ آمالاً كباراً حلت من نفسى محل الفكرة العاملة ولكن فيما العجب ألست بشراً وأليست لمقدرة البشر حدود لن نجوزها أو نتحطم دونها.

ثم إن تكن هناك حالة لم أضع فيها الأشياء موضعها فما أحسبها تكون فى جانب التفريط وقد أخذ بزمامى ضمير قاسٍ ما أظنه قد سمح يوماً ما منذ جابهتنى صعاب الدرس وحولى أخوانى على وشك الانتهاء أن تضطرد أيام شبابى حلوة فى غير مرارة.

نعم يا أستاذى لست بلاه عن حقى على نفسى ولا عن حق الوطن عندى وقد علمتنى الغربة فوق ما كنت أعلم أنى لست بدونه شيئاً وأنى به كل شىء. لا أقول هذا تطوعاً وقد حركتم فى نفسى وتراً حساساً إذ ذكرتم كدّ مواطنيى الأعزاء وما ينتظره بحق الشباب منهم من عون أولى الأمر. إن فى قلبى جرحاً دامياً لهذا الوطن لن يلتئم أو أبذل إليه خير ما فى نفسى لا أبغى عنه نفعاً بل ولا شكوراً.

لهذا الوطن أكد وقد انتشر فى نفسى منه شعاع كأنه إلهى يسمو بى عن صغائر الحياة. حاشاى أن أحرص على البقاء بأوروبا غير موفق طالباً للهو أو لرغد فى الحياة وأنا ألهف ما أكون على أن أرد لذوى الحق حقهم.

لئن طالت بى أيام الدرس فهذا ما يؤلمنى وكأنه يخدش إبائى وقد بلغ الكثير من إخوانى دونى غايتهم ولست بمؤمن أننى أنحط عنهم مقدرة أو غيرة على واجبى وما أظنكم تجهلون ذلك إن تغيب عنكم علته.

لهذا أستطيع أن ألم ما بقى منتشراً فى نفسى من قوة وإيمان لأقول لأستاذى وكلى أمل أن يحمل قولى محمل الصدق أن أيامى فى أوروبا كانت ولا تزال أمرّ مما يظن.

والآن وقد بسطت على بساط رحمتكم التى أنزلها منزلة الأبوية لون نفسى وهو على ما أحسب أقتم مما ظننتم وأشد قرباً إلى الجد إن لم يكن إلى قسوة الإيمان. استميحكم عذراً إن دفعت عن نفسى تهمة الخروج على القانون.

لست أتبين بوضوح كيف خرجت على القوانين ولست أدرى أن السفر إلى بلد غير فرنسا من بلاد أوروبا محرم علينا وقد سافر جميع أخوانى إلى حيث أرادوا وقد أخبرت سعادة المدير بعزمى على هذا السفر فى سبيل غاية علمية وقد أصبح بقائى فى باريس بغير فائدة كما فسرت لأستاذى . كل ماأعلمه هو أنه يجب أن نكتب الى البعثة من حيث نكون وهو ما فعلته إذ كتبت من روما الى حضرة المدير . ثم أن سفرى لم يكن إلى مصر حتى أنتظر تصريحاً خاصا من الوزارة إذ فى هذه الحالة يتغير المرتب على ما أظن. فأين خروجى على القانون فى كل هذا. إلأننى لم أوفق فى الامتحان حيث يطلب إلىّ أنهب النجاح نهباً وحيث حتى النهب يتجاوز طاقةالبشر - يجب أن أبقى أسيراً حيث كنت. ما أظنكم تطالبونى بهذا وقد أردتم لى صعباً ورضت نفسى على ذلك عاقدا عزمى على الفوز وهو ما سوف يكون ولكن أليس من العدل أن تقدروا معى الصعوبة حق قدرها لأشعر بعطفكم فينهض عزمى إلى غايتى.

فى اعتقادى أن الخير ما أردتم ولا أحسب دراسة أنفع ولا غذاء أصح مما أردتم لى ولكنى أود لو منحتمونى شيئا من صبركم وعطفكم فأنا أشد منكم قلقاً وأكثر إحساسا بالمسئولية فأمهلونى قليلا ولتكن ثقتكم فى الفوز النهائى كثقتى متينة غير محدودة.

بقى أن أشكوكم إلى نفسكم أن حملتمونى نقصاً فى الصراحة واتساعا فى الحيلة والله يعلم أننى أبسط من كل ذلك وبخاصة حيث يعلم أستاذى ويحس أننى اندفع دائما بين يديه بقلبى لا بعقلى ولو أنى كنت داهية أو أردت أن أكونه ما استطعت منكم وأنا اتجه إليكم بكل حرارة كما أتجه إلى والدى سواء بسواء.

لا يا أستاذى ما كذبت عليك فى شىء ولا سعيت إلى خديعتك وحاشاى أن أقف منكم موقفا كهذا وفى نفسى للنبل معنى لن تنال منه الأيام وأن اشتدت قسوتها فى غير ما استحق .

لا يا أستاذى لست أخاطبك كمن يعرف كيف يكتب ولا كمن يدرى كيف يفكر ولكن كقلب طاهر يتدفق بين يديك بمافاض من محبة لا أبغى من جرائها شيئا من أعراض الحياة الزائلة وهى نبع من محبة الله التى وسعت كل شىء.

ليكن ما تريد يا أستاذى ولتحطك رعاية السماء أنت وذويك ومن تحب. بجميل رحمتها.

تلميذكم المخلص

مندور

بودى ان القاكم فهلا اخبرتمونى كيف السبيل. (كتبت هذه العبارة جاءت على جانب الرسالة - المحرر).

6, Rue, Marere, Paris
Paris(14 eme)

باريس فى ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز حفظه الله

منذ نصف ساعة وصلنى من أخى خطاب ومن أحد أبناء عمى خطاب آخر يخبرانى بخبر فصلى من البعثة وأما والدى فلا يريد حتى أن يقول لى كلمة واحدة فى هذاالموضوع لأنه فى ألم شديد ولأنه يستنكرنى بل وينكرنى بعد أن اطلع على قرار حضرة مدير البعثة بأنى لا أواظب على عملى ولم أمر أمتحاناتى وأن لى موارد رزق خفية وأنى فى غير حاجةللبعثة وأنى أتنقل فى بلاد لا يعلمها .

طلب إلىّ أهلى أن أقابل أستاذى الدكتور وأن أعتذر إليه وأن اعتذر إلى حضرة مدير البعثة وهذا ما بذلت فية كل مجهودى وقد حاولت ولم أوفق إذ لا أزال أحس أنى لم أرضكم ولم أقنعكم وقد رجوت أن ألقاكم فلم يصلنى رد بذلك وها أنا الآن ألحق بزميلى على حافظ لأنكم طلبتم منا كثيرا فى وقت قصير

لقد أسلمت لأستاذى مستقبلى وحياتى وكنت واثقا أنكم لن تتركونى يوما ما، وما أشك فى نفسى ولا أشك فى أنه لو كان موضوع دراستى أخف حملا مما كلفت به لا نتهيت كما انتهى أخوانى بل ربما قبل الكثير منهم وها قد مضيت ستة أعوام من حياتى وعندما وصلت إلى وقت جنى الثمرة تحطمت آمالى وحيل بينى وبينها.

لو كنت أعلم كل ذلك لاخترت فى الحياة سبيلا آخر وكنت أفضل ألف تفضيل أن أظل عاطلا فى قريتنا عن أن أوسع لأهلى الأمل فى ولدهم ثم يأتى يوم فاصدمهم تلك الصدمة العنيفة .

لم يبق فى نفسى أى نشاط خلقى ولربما وصلكم يوما ما خبر وفاة مندور،وعندئذ تعلمون أنى ما عصيتكم ولا عصيت المدير وأن والدى المسكين ما كان يستحق منى ذلك وأنى أعرف كيف أكفر عما ظننتموه منى أخطاء.

كنت أؤمل كثيرافى الحياة وكنت أود أن ألم بكل ما أستطيع الإلمام به لأنفع بلادى فلم يفهمنى أحد وقد فضلتم أن أخلى المحل لمن أكفأ منى وها أنا عاقد عزمى على أن أخلى هذا المحل لا فى البعثة فقط بل فى الحياة.

لقد آلمنى كثيرا أن ظننتم أنى أكتب لكم أدب لغة أو دفاع قانونى وكنت أظن أنكم ستصدقونى فيما أقول .

أكتب لكم هذه الكلمة وأنا أبكى ما استطعت البكاء. سامحكم الله سامحكم الله وعشتم سعيدون موفقون أنتم ومن تحبون وإلى اللقاء .فى عالم آخر خير من عالمنا هذا،

تلميذكم اليائس ـ مندور

القرار جاء بفصلى لا بوقفى ونشرته الجرائد (هذه العباره جاءت على جانب الرسالة ـ المحرر)

باريس فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز حفظه الله

أخشى أن تكون خطاباتى إليك أكثر عددا مما ينبغى وأنت الآن فى سبيل الاستراحة قليلا من عناء العام الدراسى ولكن أبت الظروف إلا أن تتفق على تنغيص حياتى فى هذه الفترة المؤلمة التى أمر بها الآن، وثقتى عظيمة فى أنك موسع لى صدرك وأنا أعلم علما لا شك فيه أنك من القلائل الذين يعيشون لغيرهم وطالما أحسست أنك تشعر بأكبر سعادة عندما تدخل الفرح على قلوب الغير وفى هذا عزائى عما أقلقتكم فيه وما أعتذر عنه كل الاعتذار.

لقد ابتدأت نفسى تهدو كثيرا وانصرفت إلى دراستى بكل نشاطى ولكن وصلنى خطابان من مصر آلمانى أشد الألم وعكرا راحتى فى عملى. أحدهما من أخى والآخر من ابن عمى ويقول الأخير إنه اطلع على تقارير حضرة المدير وعلم بكل ما كان يحيط حياتى بباريس وأنه تألم شديد الألم وأنه يمسك القلم عن ذكر كل ما علم لأنى أعلمه ويدعونى إلى نسيان هذا الماضى وابتداء حياة جديدة وهذا ما أكاد أجن منه جنونا وبودى أن أعرف ماذا قيل عنى.

لم يقل أحد فى يوم من الأيام إنى سكير أو لاعب أو معربد أو غاوى نساء ،وأنا لاأعرف لا الخمر ولا السباق ولا المقامرة وما كان منى فى مسألة النساء ليس فيه إلا ما أفتخر به وكل ما كان يعلمه حضرة المدير ويعلمه والدى وقد هنأنى من أجله حضرة المدير نفسه وها هو يمكن لأستاذى أن يسأله ليعرف إلى أى حد بلغت عفتى وطهارة نفسى ولا تزال تعاودنى كلمته عندما قال لى إن الفتاة التى تعرفت بها ما كان يمكن أن أنال من معرفتها إلا كل نبل ورقة إحساس وقد تمنى أن لو كان غيرى مثلى .

والواقع إنى ما تعرفت إلا بفتاتين إحداهما ألمانيةكانت تريد الزواج منى ولم أرد ، ولم تطل معرفتى بها إذ سافرت إلى بلدها ، ولكنها استمرت فى مراسلتى لمدة ما على مكتب البعثة وأنها لم تعرف يوماً ما عنوانى الخاص ولو كان فى الأمر أى شىء لما قبلت أن تكتب لى على البعثة ، وقد قطعت ردودى عنها لأنى لم أرد أن أشغل نفسى بما لا فائدة فيه وأما الفتاة الأخرى الفرنسية فقد فكرت أن أتزوج بها حقيقة ولكن أهلها لم يقبلوا ذلك فعدلت وحاولت أن أنهى العلاقة ولكن للأسف كانت الفتاة قد تعلقت بى بعض الشىء ولذلك لم ير أهلها بدأ من مقابلة حضرة مديرالبعثة ليتوسط لهم عندى فأقسو على الفتاة وأظهر لها ما ينفرها منى لأنهم عجزوا عن إقناعها بأنه لا يمكن لها أن تتزوج من مسلم غريب عن بلادها بعوائده وعقليته وما إلى ذلك مما يعرفه أستاذى وقد سألهم حضرة المدير فى هل كان منى ما يعاب من الوجهة الخلقية فكان ردهم ورد الفتاة بأنى مثل طهارة النفس ولم يكن منى أى ما يعاب عليه أعف الناس خلقاوقد هنأنى حضرة المدير لسلوكى فى موقف كهذا كان يمكن للإنسان أن يسقط فيه بسبب ضعف الطبيعة فينا وكانت الفتاة طالبة معى فى السربون فى نفس الدراسة كما كانت الفتاة الألمانية .

هذا كل ما كان وقد كتب أهل الفتاة الفرنسية إلى والدى مثنين على طهارة سلوكى وراجين أن يطلب

إلىّ أن أعدل عن فكرة الزواج ببنتهم لاختلاف الدين وما إليه فعدلت طبعا وتألمت لذلك بعض الشيء وانتهت المسألة بأسرع وقت.

أما عن الخمر أو اللعب فهذه مسائل لم أعرفها فى حياتى أصلا ولا أشعر بأى ميل لها بل أنفر منها كالمتوحش.

ولذلك أرانى فى دهشة شديدة ولست أدرى ماذا يمكن أن يكون قد نسب إلىّ وما كان منى ولن يكون ما يعيب شابا مثلى ليس فى نفسه محل لهذه الصغائر. وأنا بطبعى كثير الهموم كثير الطموح ودائما فى عبوس مستمر وغضب على نفسى مما ينفر منى حتى الرجال من أصدقائى.

حقيقة لست أدرى ماذا يمكن أن يقال عنى ولذلك أكون شاكراً لو تفضل أستاذى وأخبرنى بما يمكن أن يعلم عن حياتى الخاصة لأنى فى شديد الألم وأخشى أن يكون حضرة المدير ظن شيئا من كثرة خطابات الفتاة الألمانية وهو فى ذلك يكون مخطئا أكبر الخطأ وقد علم عنى كل ما يشرف من الفتاة الفرنسية ومن أهلها .

ثم إن حضرة المدير أعطانى مرتب شهر يولية وأرسل لى أخى مبلغا صغيرا وأنا من هذه الجهة فى راحة تامة لأنى بطبعى مدخر وإن ضرنى ذلك إذ ظن بى حضرة المدير الغنى وترتب على هذا الظن الباطل ضياع مركزى ولكن عندى الآن ما يكفينى لمدة شهرين ويمكننى أن انصرف إلى عملى بكل راحة.

أعطانى حضرة المدير مرتبى بعد توسط صاحب المعالى مكرم باشا فى الأمر طبعا لأن الديوانى بك بنفسه عنيد جداً وفى منتهى القسوة ولست أدرى كيف أفسر ذلك اللهم إلا بطبيعة تكوينه وقد أخبرت أستاذى - مع شديد احترامى كى ينفى لحضرة المدير - أنه على ما يظهر لىْ تركى جنساً وأستاذى يعلم عن عناد الأتراك أكثر مما أعلم .

والآن أظن أن الديوانى بك لن يكتب لوالدى وإن كان قد وعدنى بذلك كما وعدنى أن يرفع اعتذارى وطلب عودتى الى البعثة الى الوزارة بل طلب منى هو نفسه أن أكتب هذا الطلب وهو يعلق عليه بما يسهل للمسألة طريق الحل ولكنى أخشى الديوانى بك ويخيل إلىّ أنه لن يغتفر لى ما ظنه منى خروجا على إرادته وقد عدت فاعتذرت إليه كتابة وهو الآن ببلجيكا ورجوته أن يفى بوعده وأخبرته بتلغراف أستاذى فرد تلغرافيا قائلا أنه من رأى العميد وعلى أن ألزم الاطمئنان وأن المسألة ستنتهى ولكن هذا التلغراف لم يفدنى بشىء فلم أعرف أكتب إلى والدى أم لا ولم أعرف أرفع طلبى إلى الوزارة أم لا وما أظنه سيخبرنى عن شىء من ذلك قبل عودته إلى باريس ووالدى فى قلق شديد وعزيز على نفسى أن يظل فى هذا القلق وقد وعدت والدى بأن الديوانى بك سيكتب له ليرضى عنى كما ستكتبون إليه وقد يفسر والدى سكوت الديوانى بك بعدم رغبته فى إيلامه ولو كنت أعلم ذلك لاكتفيت بإخباره بخطابكم لأن هذا أمر كلى ثقة بأنكم لن تروا مانعا بل بالعكس ستسارعون إلى الإحسان إلى تلميذكم به بينما الديوانى بك لا يظهر لى من الاهتمام بأمرى وبمستقبلى وحياتى إلا شعوراً نسبيا وأن يكن مؤمنا على ما يخيل إلى أنى لست عاريا عن كل خير ولقد اعتذرت إليه - كما طلب والدى بلسان أخى - واستسمحته

بكل قوتى وأظن أن كرم النفس يقضى بأن يتسامح معى خصوصا وأنه قد عاقبنى لخروجى عن رأيه أو ما ظنه ذلك عقاباً ليس دونه عقاب، وقد حطم سمعتى وكاد يحطم مستقبلى لو لم يكن من رحمة الله بى أن فتح لى قلبكم الرحيم التجأت إليه وأنا من اليأس على أقرب بعد

لهذا ترون يا أستاذى المحبوب أنى لا أثق بأحد غيركم ولن يأخذ بيدى فى هذا الظرف المؤلم من حياتى إلا أنتم والآن وقد وثقت من رحمتكم وعطفكم سأتغلب على كل الصعوبات وسأكون عند حسن ظنك بى وسأضع أمام عيناى باستمرار أن علىّ واجبا نحوكم وهو أن أؤدى واجبى نحو نفسى وقد أبت رحمتكم وأبى كرم نفسكم وقلبكم الذى يفيض محبة إلا أن يجعل منه واجبا نحوكم وهذا هو أكبر خير أديتموه إلى لأن عرفان الجميل والتفانى فى محبة من أحسن إلى كل هذا الإحسان هو فرح قلبى.

فهل لأستاذى أن يخبرنى عما يمكن أن أكون قد أوخذت به وأنا لا أدرى ليطمئن قلبى ولأرى أأستحق من حيث لا أحتسب غضب والدى واستنكار أهلى لى أم هو مجرد تفسير خاطىء لما قاله حضرة المدير فى تقريره الأخير من أنى مهمل وكثير السفر إلى جهات لا يعلمها مما يترك للتأويل كل محل.

ثم أن الديوانى بك رجل أحرص مما ينبغى ويخيل إلى أنه يخشى الوزارة فيما إذا عاد فدافع عنى أوطلب تخفيف العقاب عنى وما دام أستاذى لا يؤيده فى العودة إلى الأنصاف لن يعود ولذلك أرى ـ والرأى الأخير لكم طبعا ـ أنكم لو كتبتم أليه ليكتب لوالدى وليرفع طلبى للوزارة ويعلق عليه بعد أن علم أن تلغرافه لم يصلنى وبعد أن اعتذرت إليه وبعد أن تحقق من أن سفرى كان فى سبيل غاية علمية ـ بما يخفف من مسئوليتى عند الوزارة لفعل وهو ما أرجوه منكم كل الرجاء .

وأختتم خطابى داعيا إلى الله ـ مخلص الدعاء. أن يسبغ عليك وعلى عائلتك المباركة فيضا من السعادة وراحة القلب والضمير وتلك أعظم نعم الحياة، وأعود فأرجوكم أن تسامحونى فى إقلاق راحتكم بهذا الشكل الذى يؤلمنى كثيرا،

تلميذكم المحب المخلص

مندور

6, Rue, Marere,
Paris (14 eme)

باريس فى ١٢سبتمبر سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز. حفظه الله

قابلت اليوم صاحب العزة مدير البعثة فعلمت منه بالخطاب الذى تفضلتم بأرساله إليه توصونه فيه بى خيراً وكذلك بما كنت أعلم به من قبل من عزمكم على استخدام نفوذكم الطيب فى صالحى لدى وزارة المعارف عند عودتكم إلى الوطن سالمين معافين إن شاء الله وهو ما أرجوكم أن تقبلوا عنه أخلص عبارات الشكر والعرفان بالجميل وكم من حسنات لكم عندى لن أنساها ما حييت .

لقد أعطانى حضرة المدير مرتبى لشهرين من المتأخر لى وحجز شهرا واحدا عقابا لى ورغبة منه فى أن يشعرنى أكثر مما كنت بمسئوليتى ووجوب احترام النظام موضوعاً وشكلا وعسى أن تكرهواشيئا وهو خيرٌ لكم. وعلى أى حال فقد كان من هول الصدمة من الناحية النفسية ورغبة الإصلاح ما يفوق مرتب أشهر بل سنين ومع ذلك قبلت برضى نفس هذا العقاب امتثالاً لرأى حضرة المدير وبالأخص أمتثالاً لرأيكم وأنا مدين لكم بكل شىء .

علمت كذلك من حضرة المدير أنه قد كتب إلى وزارة المعارف بإرجاعى إلى البعثة والاكتفاء بعقابى بخصم مرتب شهر واحد بدل ثلاثة بعد أن تبين له أن ما ظنه من غناى لم يكن للأسف صحيحا وقد وعدنى عزته وعدا أكيدا بأنه سيعطينى مرتبى فى أول الشهر المقبل كالعادة ولست أدرى على أى شىء يستند وعده هذا. أهو بناءعلى رأيكم أم استباقا منه لموافقة الوزارة على ما اقترح أم وصله قرار بهذا المعنى من مصر. لا أعلم من كل هذا شيئا ولم يخبرنى حضرته بشىء ولكنى مطمئن إلى سلامة العاقبة ما دمت متمتعا برضاكم عنى وكل همى الآن هو أن أعمل على استحقاق هذا الرضاء الكريم لأنى لا أريد أن أجازيكم بالشكر والمحبة والأخلاص فحسب بل بالعمل وأنا أعلم أن توفيق تلميذكم يدخل على قلبكم الطاهر الرقيق أنبل السرور فأعاهدكم وأنتم من أنتم فى نفسى أن انتهى مما كلفتمونى به أو أفنى دون ذلك وسيأتيكم فى نوفمبر القادم لو شاءت إرادة الله أول تحقيق لهذا العهد ولا يهلونكم مشقة الطريق فأنه برغم كل شىء ممكن الاجتياز وما أظننى أقل فى شىء من الشبان الفرنسيين الذين يمرون مثل تلك الامتحانات وإنما المسألة مسألة وقت ـ أقل وقت ـ نصل فيه إلى مستوى معرفتهم بتلك اللغات عند دخول الجامعة ولا يخفى على أستاذى أننا على أى حال أكثر منهم نضوجا وأقدر على أن نحصل فى وقت قليل نسبيا ما حصلوه هم فى سنوات فاطمئنوا ولا تيأسوا لأنى شخصيا كبير الأمل فى الفوز النهائى بل والفوز فى أقرب وقت ثم هل أنا بحاجة إلى أن أذكر أستاذى بما يعلمه عن خبرة طويلة من أن السقوط ومعاودة الكرة مراراً ومرارا لا يمكن إلا أن يعود على بالخير ويزيدنى نضوجا وتثبتا مما أدرس وأنه من الأفضل لى ألف مرة أن أمر بعد عدة محاولات وأنا ثابت القدم من أن أمر بالصدفة والاتفاق.

ثق يا أستاذى بأنى سأنتهى من هذه الليسانس وسأخرج منها تام التكوين تستطيعون الاعتماد علىّ بكل اطمئنان خصوصا وأنى شديد الحماسة لهذه الدراسةالمنتجة وعاقد عزمى على أن استخلص منها

كل ما أستطيع من خير فساعدوني على الوصول ولن أهن ولن تسمعوا عني بعد اليوم إلا كل خير وسترون إن شاء الله عند عودتي إلى مصر أن محصولي العلمي يبرر بكل سخاء ما يمكن أن اضطر إليه من تطويل في مدة بقائي بأوروبا.

ثم بودي أن أرجو أستاذي أن يعذرني ويسامحني فيما يمكن أن يكون قد ساقني إليه ألمي واضطرابي من مجاوزة القصد في العبارة في خطاباتي السابقة فقد كنت حقيقة كفاقد الوعي وأنتم كأبي وكنت ولا أزال أكتب إليكم كما أكتب إلى والدي وقد كان لأملي فيكم ـ أملي الذي لا حد له ـ أكبر مشجع على أن أقول لكم كل ما يمر بخاطري مما يتعلق بحياتي الدراسية أو الشخصية فاشملوني بعطفكم الأبوي وخذوا ما في خطاباتي من خير على أنه أحسن ما في نفسي وسامحوني فيما يمكن أن يكون أخطأت فيه. وكم يكون امتناني لو سمح وقتكم وتفضلتم بإخباري عن مجمل شعوركم نحوي بعد كل تلك الخطابات التي تلوح لي الآن كصرخات حالم . في نفسي مخاوف شديدة من هذه الناحية فهلا تكرمتم بتبديدها.

لم يبق لدي الآن إلا أن أدعو الله مخلصا له الدعاء أن يرعاكم بعنايته في حلكم وترحالكم أنتم وأسرتكم الكريمة وأن يبقيك ياسيدي البك عونا ورحمة لتلميذكم المحب المخلص،

مندور

6, Rue, Marere,
Paris (14<u>eme</u>)

ضـاع مـيـعـاد الطيـارة ولهـذا أرسلت
لكم هذا الخطاب بالبـاخـرة بدلاً من
الانتظار ولعله يصلكم على عجل.

باريس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز:

ظهرت اليوم نتيجة امتحان فقه اللغات ولم أنجح ولست آسفا على ذلك بل أفضله لأن تحضيرى لفقه اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة لم يكن كما يجب كما أخبرتكم وأنا أعلق أهمية كبيرة على دراسة تطور اللغة اللاتينية منذ أقدم عصورها إلى أن تنتهى إلى اللغة الفرنسية الحديثة والواقع أن فى ميدان علم اللسان وفقه اللغات ليس لدينا مثلا أصح ولا أسلم لدراسة تاريخ وتطور اللغات غير هذا المثل أعنى تطور اللاتينى وانتهائه إلى اللغات الرومانية الحديثة وبخاصة اللغة الفرنسية التى أعرفها الآن إلى حد ما [1] هذا ويخفف من ألمى أنه لو كنت فرضا مررت التحريرى فما كنت أستطيع أن أمر الشفوى لأن هذه دراسات جدية كما لايخفاكم ولا يغنى الذكاء أو المهارة عن التحصيل فيها شيئا فهى ليست ميدان تفكير بل ميدان حقائق تاريخية ليس للتفكير فيها إلاحظ التفسير بل إن التفسير نفسه يأتى وحده من معرفة الحقائق معرفة تامة على نحو ماتحمل الشجرة ثمرها وأذن فالخير ما كان.

لهذه الأسباب لم يؤثر فى نفسى هذا البؤس الجديد كما أثر اليونانى، فحقيقة تحضيرى لتلك اللغة قد نضج كل النضوج بحيث يمكن أن يفسر سقوطى بما نسميه عجزاً عن الاهتداء إلى سبب نفسى آخر سوء الحظ.

والآن لديكم كل وسائل التقدير. لقد بذلت كل مجهودى فى اليونانى ومستعد أن أجدد هذا المجهود الى آخر ذرة من قوای جسمية كانت أو عقلية كما فى عزمى أن أكمل جوانب النقص الواضحة فى تحضيرى لفقه اللغات وهو ما سأخصص له هذا العام وأملى ان انتهيت من كل ذلك هذا العام أن تكون مسألة اللاتينى قد قرب حلها فلاشك أن معرفة نحو وفقه تلك اللغة كما ينبغى سيسهل الموضوع تسهيلا واضحا كما أنه لا يخفاكم أن المقرر فيما يختص باللاتينى فى شهادة فقه اللغات (كما هو واضح فى البرجرام الذى أرسلته لعزتكم) يتناول نصف مقرر شهادة اللاتينى وفى هذا مايجعل اللاتينى نفسه بعد مرور تلك الشهادة أمراً هيناً نسبياً إن كان هناك شئ يصح وصفه بذلك فى دراسات كهذه .

أما ماينقصنى حقيقة لتحضير ذلك كما يجب فهى أدوات العمل كما لا يخفاكم فمن المستحيل أن أكتفى بدروس الجامعة لأن الأساتذة لا يفسرون طول العام إلا جزءاً لا يذكر من المقرر بل حتى لا ينتهون من تفسير كل المقرر فى الثلاثة أعوام التى يبقى فيها المقرر مع تحضير جزء كل عام ولذلك لابد لى حتما من تحضير الباقى بنفسى وكيف لى بذلك إن لم أملك من المراجع والقواميس ومطولات كتب النحو الوصفى والتاريخى والمقارن ما لابد منه وكل هذه المراجع وإن وجدت فى المكاتب العامة إلا أن منها ما لاغنى لنا عنه فى منازلنا لأن وقت المكاتب محصور بالضرورة لأنه يتعارض مع وقت الدروس وهو لذلك لايكفى أصلا وتلك الكتب فى غير متناولنا لغلاء ثمنها. نعم لقد استطعت أن أحصل على بعضها بعناء

شديد وكونت لنفسى مكتبة صغيرة لا بأس بها ولكن أهم تلك المراجع لا يزال ينقصنى ولتسمحوا لى من باب التمثيل أن أضرب لكم بعض الأمثلة:

فعن اللاتينى واليونانى مثلا. كيف نستطيع أن نحل المشاكل التى نلقاها فى كل سطر وكل كلمة فيما يختص بأسماء أعلام وأسماء أمكنة وأسماء آلهة ومعتقدات ونظم اجتماعية وقانونية ومظاهر فنية وآثار تاريخية وما إلى كل ذلك بدون قاموس عن antiquitis qreco - latines ألستم ترون معنا أنه ينبغى أن يكون فى متناول يدنا باستمرار لا أقول القاموس الألمانى الشهير الذى يعتبر بحق المثل الأعلى فى بابه

(1) Pauly - Wissowa - Kroll: Real - Eneycloqadie des classichen altertumswissens-haft.

بل على الأقل القاموس الفرنسى الذى لابأس به والذى يمكننا مؤقتا الاكتفاء به بكل سهولة

(2) Daremberg et faglio: Dictionnaive des antiquites grecques et vomaines (5 vol) en 10 parties.

ولكن آنى لنا به وثمنه على الأقل ١٥٠٠ الف وخمسمائة فرنك

ثم قاموس Mullit et Ernout وعنوانه يدل على قيمته التى لا حد لها. Dictionnaire etymolgique du latin (1 vol)

(3) Lictionnaie Etymolqie du latni (1 vol)

وثمنه ٢٥٠ مائتان وخمسون فرنكا.

ثم قاموس (4) Litiennauie etymologique du qru (3 vol)

وهو ماأجهل ثمنه ولاشك أنه غاية فى الارتفاع.

أما ترون أنه يجب أن نحصل على مثل تلك المراجع أو بعضها إن أردنا حقيقة أن نعمق دراستنا وأن نعرف كيف نحل بأنفسنا المعضلات التى لا حد لها والتى نواجهها فى كل وقت وفى كل نص

وأما عن الفرنسى فكيف لنا أيضا أن نستغنى لا أقول عن قاموس Lettre مثلا بل على الأقل وعلى الخصوص عن قاموس Datsffeld, Thomas et larmestetver lditionnaine qeveral de le langue franciase (2 vol) فى جزئين وثمنه أيضا ٢١٠ فرنكا هذا عدا القواميس الصغيرة التى نستطيع أن نحصل عليها بمرتبنا كقاموس L,airous عن لغة القرن السابع عشر وقاموس أو مختصر قاموس Godefrey عن اللغة الفرنسية القديمة وكل هذه القواميس للأسف لا نستطيع أن نستغنى عنها لأن المقرر كما ترون يتناول جميع عصور اللغة والتفاوت كبير بين جميع تلك العصور بحيث يتحتم الرجوع إلى قواميس خاصة كل حين ومراجعة

كل ذلك فى القاموس العام لمعرفة تطور معانى الكلمات وتولد بعضها من بعض حتى تتصل الحلقات.
وأخيراً فأهم القواميس الحديثة فى اللغة الفرنسية إطلاقاً وما لا بد من الحصول عليه بأى طريقة وهو قاموس:

Van wartbury et G. Bloch: Drctionaire etymologique de le langue francaise. (2 vol)

وثمنة لايقل عن ٣٠٠ فرنك.

وأما عن فقه اللغة فمن يستطيع أن يدعى دراسة اللغة الفرنسية دون أن يكون فى متناوله على الأقل الكتابيين الهامين الذى أقتصر على ذكرهما لأنهما يغنيان عما عداهما تقريبا كل الغناء وهما:

(1) Inyrop: Grammaire historique de la langue francaise, Paris, Copenhagne.. (6 vol).

(2) Brunot: Histoire de la lanque Francaise (10 vol).

هذا وأستاتذة السربون مجمعون على أنه من المستحيل تناول أى نص فرنسى دون أن يكون هذان الكتابان على المائدة أمام القارئ. وكيف نستطيع أيضا أن نحصل عليها وثمنها ٢٥٠٠ فرنك على الأقل.

هذه هى المراجع التى يتحتم لنا الحصول عليها وأما ما عدا ذلك من الكتب الصغيرة والنصوص والتراجم والتعاليق التى لاحد لها فتستطيع الحصول عليها من مرتبنا مع شئ من الحرص ومن هذا ترون عزتكم أنا محقون عندما نطلب تعويض الكتب.

والآن لدى رأى أعرضه على عزتكم ولعله يقابل موافقتكم وهو أن تتفضلوا فتتوسطوا فى الآمر ليصرفوا لى تعويض الكتب ومرتب الشهر المخصوم منى على أن أشترى بها جميعا بعض هذه الكتب بواسطة البعثة أو بفاتورة أحملها إلى البعثة أو تشتريها لى البعثة إن أرادت لأنى لاأريد شيئا غير ذلك.

بقى لى أن أخبركم فى كلمات موجزة عن حالتى النفسية لعلمى بأنها لاشك ملاقية من عطفكم أجمل صدى وهى للأسف متغيرة كل حين ما بين حماسة تقرب من الجنون إلى يأس وألم يتركنى بلاحراك كالمغمى عليه ولكن لاعليكم من ذلك وليس لى أن أقلقكم بشكواى كل وقت لهذا سأحزم أمرى وأكتم آلامى فى نفسى وكفاكم ما تبدونه من عطف نحوى وهو ما أشكركم من أجله ألف شكر.

على أننى أود وآمل منكم ألا تيأسوا منى مادمت غير يائس من نفسى فاصبروا معى قليلاً والله الموفق.

ومهما يكن من شئ فخير البلاء أو خير البر عاجله وليس آلم فى النفس من الخوف والانتظار

فأرجوكم ولو من باب الرحمة أن تخبرونى على عجل إن استطعتم بما أنتم قاضون فى أمرى لتطمئن نفسى إلى شئ من الراحة سواء بالأمل أو باليأس لأن أشد آلامى النفسية إنما مصدره هذا الانتظار وأنا كما يقولون فى الآداب «لاحى فيرجى ولا ميت فينسى»فهلا أخرجتمونى من هذا الموقف المؤلم.

لم أرد الانتظار بعد ظهور النتيجة دقيقة واحدة وهاأنا أبادر بأخباركم بجميع ما ترونه لازما للحكم علىّ لى أو ضدى ولكم بعد ذلك الحكم الأخير فقد ضاق بى الوقت وضاقت بى قدرة الله عن أن أنجح وأن أفى بوعدى والنتيجة ليس فيها للأسف ألا ما يغم فإن رأيتم برغم ذلك أن أملكم فىّ لا شك متحقق مع شئ من الصبر وهذا هو رأيى الذى لن أحيد عنه فدافعوا عن هذا الأمل الذى وضعتموه فىّ وأنا محققه إن شاء الله وبرغم جميع الصعوبات.

وأختتم خطابى المحزن راجيا لكم دوام البقاء والسعادة لكم ولعائلتكم الكريمة ورحمة الله تشملنا جميعا،،

تلميذكم المخلص

مندور

6, Rue, Marere,
Paris (14_eme)

(١) وذلك لمعرفتنا لنقطة البدء (النصوص اللاتينية القديمة) ونقطة الانتهاء (الفرنسى الحديث) بخلاف غيرهما من اللغات.

(٢) ضاع ميعاد الطائرة ولهذا أرسلت لكم هذا الخطاب بالباخرة بدلا من الانتظار ولعله يصلكم على عجل (كتبت هذه العبارة فى أعلا الرسالة على الجانب الأيسر ـ المحرر).

6, Rue, Marere,
Paris (14 eme)

باريس فى يوم الأحد ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز:

بعد أن حملت إلى البريد خطابى الأخير أليكم ذهبت إلى سكرتيرية الكليةوطلبت درجاتى لأوافيكم بها كما يجب والغريبة أنها كانت على خلاف ما توقعت وسوف ترون منهامعى أن مسألة الامتحانات كما قلت فى أحد خطاباتى السابقة لا يمكن للأسف أن تعتبر الدليل الأول والأخير على كمال مجهود الإنسان أو نقصه وأن الإنسان أدرى بمواضع نقصه أو قوته وما نتائج الأمتحانات إلا تقديرات كثيراً ما تعدو الواقع لأسباب حقيقة فيها ما يحير النفس لغموضها عن الفهم ولعل فيها أيضاً ما يبرر تحاملى على السربون يوم كتبت لكم خطابى باللغة الفرنسية وأنا فى حالة ثورة نفسية لاحد لها وبهذ ه المناسبة أرجوكم أن تعذرونى إن لمحتم فى ذلك الخطاب ما أخشى أن أكون سرت إليه من اشتداد فى اللهجة كان له كما لايخفاكم ما يمكن أن يبرره.

قلت لأستاذى نقص تحضيرى لفقه اللغة اللاتينية والفرنسية القديمة وكماله فيما يخص باللغة اليونانية واللغة الفرنسية الحديثة ومع ذلك وبرغم حكمى على نفسى لم أخطأ مرور الإمتحان ألا بشىء قليل فدرجتى فى اللاتينى واليونانى ٨/٢٠ وفى الفرنسى قديمه وحديثه ٩/٢٠ ومتوسط المرور فى كليهما ١٠/٢٠ وإذ تذكرتم أن هذه الشهادة هى التاج الذى يجب أن أتوج به دراستى وأنها أهم الشهادات المكلف بها وأصعبها فى نظرى وأفيدها لمستقبلى وأنها تتطلب أعمق معرفة للغات الثلاثة مما رأيتم معى أن مجهودى لم يضع سدى وأن الأمل لا حد له فى النجاح القريب فى جميع ما كلفت به .

أما اليونانى فدرجتة تكاد تلقى بى فى حاله الجنون. تعلمون من التقديرات السابقة طبعا أن درجتى فى الامتحان الماضى كانت ٧/٢٠ و إذا أضفتم إلى ذلك المجهود الشاق الذى بذلته فى الأشهر الأخيرة لاشك ستكون دهشتكم كدهشتى إذا علمتم أن درجتى فى هذا الامتحان كانت ٣/٢٠ فقط ومعنى ذلك أن المصحح لم يكلف نفسه عناء التفكير في سبب انحرافى عن الترجمة الرسمية للنص ولم ير أن كل ما كان سببه سهو يؤسف له فى قراءة كلمة ولو أنه فطن إلى ذلك وقرأ الترجمة على ضوء هذه الغلطة الأساسية لرأى أنى بلاشك أستحق خيرا من تلك الدرجة. لقد آلمنى كثيرا درجة كهذه لأن معرفتى للغة اليونانية تفوقها بكثير وكان يجب عقلا وعدلا أن أمر الامتحان ولكن هذا ماكان.

لقد ساقنى التفكير فى معنى هذا السقوط المخزى والمؤلم الى مراجعة واجباتى التى قدمتها فى العام القادم إلى الأستاذ (Plassart) أستاذ الترجمة بالسربون وبيدى الآن جميع الواجبات وبمراجعة درجاتى وجدت بينها تفاوتا غريبا ففى العشرة واجبات التى كلفنا بها أثناء العام الدراسى السابق تراوحت درجاتى ما بين ٢/٢٠ و ١٥/٢٠ ومنها ٧/٢٠ و ٩/٢٠ و ١١,٥/٢٠ و ١٣/٢٠ إلخ والغريبة أن أحسن درجاتى كانت عن ترجمة نص «لتسيديد» أى مؤلف الامتحان ولاغرابة فى ذلك فهذا المؤرخ وأن يكن أشق الكتاب اليونانيين مراساً فهو بلاشك أشدهم ذكاء وأسلمهم منطقا مما يسهل فهمه مع شىء من التدقيق والجهد.

كان بودى أن أرسل لكم جميع تلك الواجبات لتروا بأنفسكم كيف يصحح أساتذة السربون تلك الواجبات وما فيها أحيانا من قسوة أو لين قد يصعب على الطالب أن يوافقهم عليها وهو أدرى بنفسه ولكنى أرى أن أكتفى بإرسال أسوأ درجة وأحسن درجة والنص الأول كان من (Talybe) وأسلوب هذا الكاتب المتأخر متكلف ومهلهل وعقيم عقم أسلوب «بلوتارك» بل أشد عقماً وضعفاً والنص الثانى من «تسيديد» كما قلت سابقاً.

حقيقة أن فى الحياة أحيانا ما يحير الألباب.

هذا ويشجعنى على الصبر والصلابة ما علمته أمس من نجاح زميلى الأخ على حافظ فى الامتحان التحريرى للغة اللاتينية وإذا تذكرتم محاولاته المتعددة فيما مضى بغير توفيق رأيتم معى أن النجاح ليس مستحيلا فى أى شئ مع العزم والحزم والمثابرة. للأسف لم يمر الشفوى ولكن أمامه فرصة يونية القادمة وإن شاء الله ينتهى من تحضير النصوص المقررة كما يجب ويحصل على الدرجة نهائيا. ثم أما ترون معى أن رجوعه إلى بعثة وراحة نفسه لابد أن كان لها أثر فى هذا النجاح.

والآن قد أديت أليكم كل ماعندى من معلومات عن سير دراستى ولكم الحكم بما ترون وفى انتظار ردكم الكريم أرجو أستاذى أن يتقبل خالص تقديرى وشوقى ومحبتى ،

تليمذكم المخلص

منـدور

Mandour
6, Rue, Morere,
Paris (14 eme)

باريس فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٦

أستاذى العزيز:

منذ أيام وأنا ملازم فراشى لمرضى ولما طال بى الانتظار دون أن يصلنى أى رد من حضرة مدير البعثة على خطابىّ الذين «اللذين» أخبرته فيهما بما كان من أمر امتحاناتى أتصلت به تلفونيا من حجرتى معتذراً بمرضى عن المجيئ لمقابلته فرد متهكما شاكراً الله علىّ أن كان الألم فى رأسى دون قدمى وقائلا أنه لايستطيع أن يعطينى مرتبى ولاتعويض الكتب فرجوته أن يعطينى على الأقل تذكرة سفرى لأعود إلى بلادى لأراكم وأرى ماذا سيتم فى أمر مستقبلى فقبل ذلك بعد أن تتحسن صحتى التى لايريد أن يصدق حتى انحرافها كأنى منافق أو كاذب أو نصاب أو مدع أو ممثل هزلى أو لا أدرى ماذا.

تعويض الكتب علمت أخيرا أن حضرة المدير أعطاه إلى زميلى عبد العزيز عزت فلماذا إذن يرفض إعطاءه لى ولماذا هذا التفريق؟؟ مع أن عزت أيضا لم يمر للأسف امتحانه ولم ينتظر المدير نتيجة هذا الامتحان بل أعطاه تعويضه قبل ذلك بزمن.

ثم إن مرتب الشهر الذى خصمه منى جاء اتفاقا فقد كان يظن أنه أعطانى كل المتأخر لى فلماً ذكرته بالحقيقه وراجع حسابه فرأى أننى لم استلم مرتب ذلك الشهر قال: حسن جداً. إذن سنخصم منك أجر هذا الشهر لأنه لايمكن أن تنتهى المسألة بهذا الشكل وتذوب فى الماء وكفى أن أعطيناك مرتب شهرين من ثلاثة وإلا كان الأمر مهزلة ولست أدرى من أين تأتى المهزلة، لقد ظن أنى لم أرجع إلى باريس برغم تلغرافه وقد تحقق الآن من عدم وصول ذلك التلغراف وقد تركنى فى «نيس» أتضور جوعا مدة ثمانية أيام حتى اتهمنى صاحب الفندق بالاحتيال وهم بإلقاء متاعى فى قارعة الطريق وكان ماكان مما لاأستطيع أن أتذكره الآن دون أن أتألم أشد ألم وقد كتبت إليكم شارحا مركزى المادى فأبت شهامتكم إلا العفو عنى فكتبتم إليه طالبين صرف مرتبى لى وكذلك بينت له أنى لست من الغنى بحيث ظن وأنى لا أستطيع أن استغنى عن مرتبى وتفضل معالى مكرم باشا فرجاه كما رجوتموه أن يعطينى مرتبى فهل بعد كل ذلك يجوز أن يتشدد معى كل هذا التشدد لا لغرض إلا لمضايقتى وتثبيت الألم من نفسى.

ثم يهمنى بنوع خاص أن ألفت نظر عزتكم إلى أننى لم أرجو «أرج» معالى مكرم باشا ليتدخل فى الأمر إلا لضيق ذات يدى ضيقا لا حد له وأنا بعيد عن أهلى وكان لابد لى من الانتظار مدة طويلة حتى يأتينى منهم رد وماكنت أستطيع أن أنتظر والأهم من كل ذلك هو أننى قبل أن أفاتح مكرم باشا فى الموضوع ذهبت إلى الديوانى بك قائلا (لقد أتيت ياسعادة المدير لاستسمحك فى أن أرجو معالى مكرم باشا ليكون لى واسطة خير لأنى فى حالة ضيق شديد ولأن المسألة تتعلق بمستقبلى وحياتى ولن أشكو منكم بل سأشكو من ضيق ذات يدى ومن الخطر على مستقبلى وليس فى ذلك مايمكن أن يؤثر فيكم أى أثر خصوصا وأن المسألة لم تعد فى يدكم الآن بل فى يد الوزارة وحلها يكون بواسطة الوزارة وقد كان من حسن طالعى أن مر الوزراء الآن ولهذا سأحاول إصلاح أمرى عندهم) فرد موافقا ومحبذا وكان ماكان.

أظن بعد ذلك أن تحامله ضدى كل هذا التحامل لامبرر له وحقيقة من المؤلم أن يظن أن فى عطفكم علىّ وعطف معالى مكرم باشا أى انتصار لى أو أى اعتداء على حقوقه. أليس من الطبيعى ومما يتمشى مع إحساسى كإنسان أن أدافع عن مستقبلى وقد بذلت فى سبيله دمى وإذا دافعت عنه أأكون أجرمت فى حق أى إنسان.

لقد اعتذرت إلى الديوانى بك مراراً وتكراراً وحاولت رضاءه بجميع الطرق وللأسف لم أصل إلى شئ فلا يزال ولن يزال فى أشد الغضب ضدى. وهل بعد رفضه لمقابلتى. حتى لأخبره بما تم فى امتحانى دليل بعد ذلك.

وهبونى أخطأت فى شئ أو عصيته فى صغيرة أو كبيرة أما من سبيل إلى إصلاح ذلك وأما هناك تسامح أو أو شهامة تشفع لمن يخطأ «يخطىء» ويعترف بخطئه ويعتذر عنه مر الاعتذار وهل من النبل وكرم النفس أن يختصم مدير بعثة طالب «طالبا» تحت إشرافه. طالب لاحول له ولاقوة وهو صاحب الأمر والنهى فى مستقبله وحياته.

،هل إذا شاءت طبيعة بشرية يؤسف لها أن تصل إلى حد كهذا أما من سبيل إلى الشكوى إلى رجال آخرين اسخى طبعا وأطيب نفسا وهل إذا أتيتكم شاكيا والأمر واضح أما تستطيعون عدلا وإنسانية أن تكونوا واسطة خير بينى وبينه أو أن تنصفونى بأى طريقة. إلى من أشكو. أيمكن أن يستمر الأمر على هذا وأما لى من سبيل يتحقق به العدل والإنسانية. وهل إذا أخطأت ورجوت المعذرة ممن ظن أنى أخطأت فى حقه أو حق النظم التى يرعاها وأبى قبول معذرتى واضطهدنى بغير حق ولاعدل يستطيع أن يفعل مايريد ويقضى على مستقبلى لأنى شكوت لغيره ثم لا أجد سبيلاً إلى إنصاف نفسى من اضطهاده. هذا ونفسى ليست ضعيفة ولذلك لا أستطيع أن احتمل ذلك وإلا إنقلبت قوتى النفسية إلى سخط سيقضى على كل عناصر الخير فى نفسى.

أظن يا أستاذى أن كلامى هذا سيلقى موافقتكم فهو معتدل ومتزن برغم ألمى الذى لاحد له. يؤلمنى أن تتخذ المسألة دوراً شخصيا فأنا خاضع للقوانين والنظم وقواعد الأخلاق ولرؤسائى ومن الظلم أن أعامل معاملة كهذه. ثم أنه لا داعى لكل ذلك فإن كنت مجرما أو مقصرا لحضرة المدير أن يطلب فصلى أو رفتى ولكم وللوزارة أن توافق أو ترفض حسب ما يقتضيه العدل والمصلحة دون جرح إحساسى أو التحكم ضدى بغير حق.

مامعنى إعطاء تعويض الكتب لمن هم فى مركزى سواء بسواء ورفض إعطائه لى ثم مامعنى إعطائى مرتبى عندما يريد حضرة المدير وكما يريد ورفضه عندما يريد بتحكم ظاهر ورغبة واضحة فى إيلامى ثم مامعنى التهكم حتى على مرضى. كل هذه أمور لاخير فيها ومن المستحيل نعم من المستحيل أن توافقوا عليها وأنتم من أنتم من رقة الإحساس ونبل النفس وطيبة القلب.

لقد رجانى أو أمرنى كما ترون حضرة المدير ألا أشكو لأحد بعد أن شكوت لمكرم باشا فامتنعت ونامت المسألة إلى الآن ولكن ماذا أفعل أأترك مستقبلى يضيع بهذا الشكل لأنى سافرت هذا السفر المشؤوم وعنيت نفسى وسط الحجارة وبرغم كل ماقلته وما أقول من رغبتى فى أن أتعلم وأن أزور وأرى من الآثار ما يكمل ثقافتى بغير شك أيجوز أن يستمر سوء الظن ضدى وأن أرمى بغير هوادة بفساد الخلق وانحلال النفس بما يشبه الانتحار الأدبى. ماذا أستطيع أن أفعل لأثبت لكم ولحضرته وللوزارة ولجميع الناس أنى كنت وسط الآثار من أول يوم إلى آخر يوم. لدى بعض صور ولكنها للأسف غير وافية وهاأنا أرسل لكم احداها مؤقتا لترون بأنفسكم صدق ما أقول ثم باستطاعتى أن اعطيكم عناوين جميع الفنادق التى نزلت بها لتحققوا صدق ما أقول وتسألوا إن أردتم بخطابات عن مدة بقائى فى كل بلد ونوع حديثى مع أصحاب تلك اللوكاندات وسترون من ذلك أنى لم أذهب لا إلى شاطئ بحر ولا إلى قمة جبل ولا إلى ملهى ولا إلى مرقص وإن يكن لا عيب فى كل ذلك ولكن على أى حال لم يكن شئ من كل هذا. أتريدون وهل يكفيكم أن أسوق الأمر إلى أن أقسم لكم بالله وبشرفكم وشرفى وشرف أهلى أن كل ما أقوله هو الحق وأنى لم أكذبكم ولاكذبت أى إنسان عن كل مافعلته فى إيطاليا ثم هاهو المسيو Treheux زميلى فى السفر مستعد أن يرسل لكم شهادة ليثبت كل ماقلته وسأطلب منه تلك الشهادة وأرسلها لكم لأنه للأسف غير موجود بباريس الآن. فبالله ماذا أفعل.

لقد طالت المسألة وسأضطر إلى الرجوع إلى مصر لاجتهد فى إصلاح الجو المتحمس ضدى فى الجامعة وفى الوزارة وبذلك سيضيع منى وقت ثمين ولست أدرى طريقا لحل مسألتى بسرعة إلا وساطتكم وقد طال ألمى وانتظارى وكيف يخفاكم كل ذلك ياأستاذى وأنت الرجل الرقيق النفس الحاد الإحساس. أما ترون فى كل ماكان مايؤلمنى وأما ترون فى كل هذا الانتظار وضياع وقتى فى الفكير وتقليب آلامى ما يلقى فى نفسى أشد أنواع الاضطراب. أما حان الحين ليفصلوا فى أمرى نهائيا ويضعونى فى وضع قانونى بحيث لا يتحكم فىّ ظلما حضرة المدير ويفعل بى مايشاء كأنى خرقة بالية أو خادم حقير. يستدعينى ويطردنى. يعطينى مرتبى ويرفضه يقابلنى أو يأبى مقابلتى، يسخر من ألمى أو يتهكم على مرضى كما يشاء وكما تريد نفسه وأنا عاجز قابع ذليل. لا. هذا مالايرضاه أحد ولأرضاه لنفسى ولايمكن أن أقبله بحال من الأحوال. وهل تريدون أن أقبل معاملة كهذه لاأقول بصفتى تلميذكم بل بصفتى إنسان على الأقل مستنير وبدون شك حساس وكريم النفس.

بودى أن أصل إلى أن أشعركم حقيقة بانى متألم فهل وصلت إلى ذلك. إن كان للألفاظ معنى فأظننى قد بلغت ما أردت ثم لكم أن ترجعوا بتفكيركم قليلاً على نفسه لتعلموا مدى ألمى إن قصرت عبارتى عن أدائه. حقيقة أرجوكم وأتوسل إليكم أن تحاولوا إدراك مدى هذا الألم وآثاره المحزنة فى نفسى سواء فى الامتحانات أو فى الدراسة بل فى حياتى اليومية وكل أوقاتى.

أرجوك ياأستاذى أن تكتب لى بما تراه وأن تنهى مسألتى بما تراه وأن تخبرنى هل من الخير أن احضر إلى مصر أم لا وهل يرجى من الوزارة أن تسرع فتبت فى الأمر. كل أملى هو أن تبت فى الأمر بسرعة. أفعلوا ماترونه عدلا ومتفقا مع مصلحة بلادى ولاعليكم منى فأنا خادم لبلادى كالملايين غيرى وشخصى لاقيمة له وإنما أنا عضو فى جماعة قد أنفعها وقد لايرجى منى نفع وهذا هو مايجب أن يقودكم فى حكمكم دون أى اعتبار آخر.

ينصح حضرة المدير دائما بأن نستعطف ولكنى أرفض ذلك لأنه يتعارض مع الكرامة ومع مصلحة بلادى وعندى أن الكرامة الشخصية من جهة ومصلحة الوطن من جهة أخرى من الأمور التى لايمكن التهاون فيها لأى سبب ولا لأى اعتبار وأنا واثق من موافقتكم أياى على ذلك.

لقد آلمنى حضرة المدير بجميع السبل وحقيقة يطول الأمر لو أردت أن أشكو لكم كل ماكان وكفى ماضربته لكم من أمثلة.

وفى انتظار ردكم أرجوك ياأستاذى أن تتقبل خالص محبتى وتقديرى مع خير تمنياتى لعائلتكم المباركة،

تلميذكم المخلص

مندور

لاتنسوا أنى بغير مرتب وأن أهلى مركزهم المادى هو ما تعلمون وأن انتظارى لما سيتم لاحد له وأنه من المفضل أن أتخذ قرار فى شأنى أن تتفضلوا بإخبارى به رأسا لاعن طريق البعثة لأنه لا يستبعد أن يتركنى حضرة المدير اياما بل أسابيع بدون مرتب حتى بعد وصول أمر بصرف مرتبى وصدقونى فى ذلك.

أستاذى العزيز :

كتبت خطابى إليكم مساء الأمس وها أنا أستيقظ الآن وفى نفسى شعور عنيف بأنى مظلوم. لقد جرى العدل بين الناس أن يسأل المجرم عن جرمه قبل أن يحكم عليه وقد ظن حضرة مدير البعثة أننى سافرت رغم أرادته ولم أعد عندما طلب عودتى بالتلغراف وأننى لم انتظر حتى نتيجة امتحانى وكل هذا غير صحيح فإرادته لم يظهرها بوضوح كاف حتى لأخذتها كرأى يبديه وما أظنه يكذبنى فى ذلك وتلغرافه لم استلمه ومن الممكن تحقيق صدق ما أقول بسؤال مصلحة التلغراف وأما نتيجة امتحانى فلمساوىء الأقدار ماكنت انتظرمن وراءها شيئاً بعد أن ظهرت نتيجة اليونانى على غير ما قدرت ولهذا لا أدرى ماهو هذا الجرم الشنيع الذى أستحق أن تتركنى من أجله الحكومة ولا عائل لى وأنا بعيد عن أهلى وقد أفهم أن ترجعنى الحكومه إلى مصر إن ظنت أن لديها من الشبان من هو أكفأ منى للقيام بما أقوم به وأما أن تتركنى بغير مرتب وتطلب إلى أن أواصل دراساتى وسط صعوبة مالية لا قدرة لى على حلها لا أنا ولا أهلى فى بلد غالى المعيشة كفرنسا فامر يخيل إلى أنه بعيد عن العدل .

لقد كلفت أهلى فوق طاقتهم بسبب رحلتى إلى إيطاليا وصقلية والله يعلم ما إلى اللهو قصدت وإنما إلى العلم بل خير العلم ولست استطيع أن أجدد طلبى إليهم الآن. أما يظن أستاذى أن من العدل أن أسمع الوزارة رأيى فيما ارتكبت من جرم قبل أن يقضوا على بما لا استحقه من عقاب خصوصا وأننى لا أستطيع الاتصال بالمدير والبعثة لأ تريد انه تعطينى عنوانه وهو فى الإجازة. أرجوكم أن تنصحونى بما يمكننى عمله .

6, Rue, Morere,
Paris (14 éme)

١٤ / ١٢ / ١٩٣٦
أستاذى العزيز

أفتتح خطابى إليكم متمنيا عيدا سعيدا لكم ولعائلتكم الكريمة ولكم كنت أود أن يقف خطابى عند هذا الحد ولكن الظروف المؤلمة التى تحيطنى تضطرنى للأسف أن أعود فأشكو إليكم حتى فى يوم عيد يتبادل فيه الناس التهانى وعلامات السرور ولكن أملى فيكم هو أن تعذرونى فقد كنت أفضل أنا أيضا أن أشعر بشيىء من السرور يريح نفسى من عنائها المستمر ولو فى يوم عيد ولكن حظى السيىء لم يرد ذلك.

والواقع أن حضرة مدير البعثة طلبنى منذ يومين وأخبرنى بوصول تلغراف من الوزارة ردا على تلغراف منه وقد حتمت الوزارة فى تلغرافها عودتى إلى مصر فوراً وأخبرنى حضرة المدير أننى لا أستطيع أن أرفض رجوعى إلى مصر وأن أبقى لإتمام دراستى فى فرنسا لأن الحكومة فى هذه الحالة سترفع دعوى على والدى بطلب جميع ما أنفقته علىّ ولذلك لم أر بدأً من الموافقة على الرجوع وأعطانى حضرته تذكرة سفر ليوم ٢٣ ديسمبر على باخرة النيل ولهذا أنا شارع فى بيع العفش البسيط الذى أملكه وتجهيز كتبى لشحنها وقد أعطيت إنذارا لصاحب البيت لإخلائه ولكنى فى حيرة شديدة من أمرى فإن صاحب البيت يطلب منى أجرة ثلاثة أشهر كما يقضى قانون الإجارة وليس معى ما يكفى لدفع كل ذلك ولما كنت قد رأيت فى تلغراف الوزارة للديوانى بك موافقة على صرف رتبى لغاية شهر ديسمبر فقد ذهبت اليوم لمقابلة الديوانى بك فتركنى فى حجرة الانتظار حتى قابل جميع الطلبة مع أنى حضرت قبلهم جميعا وأنا أنتظر وأخيرا طلبنى آخر واحد بعد أن ضاعت علىّ فرصة درس مهم جداً وقد رجوته أن يعطينى الشهر المتأخر فرفض قائلاً أنه سيعطيه لى يوم سفرى فقط لأنه يخشى أن تتوسطوا لى خصوصا وأنه أرسل لعزتكم على ما أخبرنى تلغرافاً ويود أن ينتظر ردكم ليتأكد أولا من أن فصلى أصبح نهائياً وعندئذ يكتفى بهذا العقاب الحاسم المرضى ويعطينى الشهر المتأخر. ألا سامحه الله ، أى جريمة ارتكبتها ليتهالك هذا التهالك على محاولة إيلامى والانتقام منى . لكم أن تقدروا ماترون . وقد طلبت منه أيضا أن يعطينى تعويض الكتب كعزت فأبى أيضا قائلا إن صرف التعويض لعزت كان سهوا منه وهذا لا يعطينى الحق فى طلب مساواتى بزميلى . وطلبت منه ٢١٠ فرنكا التى دفعتها لتقييد اسمى فى الكلية فرفض أيضا مع أنه على ما أظن أعطاها لعزت وطلبت منه أجر الدروس التى اضطررت لأخذها من مدرس كان يصلح لى واجباتى فى اليونان تحضيراً للامتحان فرفض أيضا قائلا أنه لاحق لى فى أى شيء .

ايرضيكم يا أستاذى كل هذا . وأمالى أن أثابر فى أملى فيكم . أنا أعلم أن مشاغلكم كثيرة وأن بين أيديكم مستقبل آلاف الطلبة مثلى ولكن أما يحق لى أن أرجو منكم برغم كل ذلك رداً بما ترون . لقد مضى زمن طويل من العام الدراسى وأنا فى حالة ألم وانتظار لاحد لهما والغريبة أن الديوانى بك نفسه يرجح أن التلغراف الذى جاءه من الوزارة لاعلم لكم به وأنه من المنتظر أن تتوسطوا فى الأمر وهذا هو السبب الذى حمله على إرجاء سفرى إلى يوم ٢٣ ديسمبر وإلا لأرسلنى إلى مصر فوراً. ومن ذلك ترون أن الديوانى بك نفسه يفترض فى عزتكم عطفكم علىّ وكذلك جميع أخوانى أما يحق لى بعد كل هذا أن

يستمر أملى فيكم كما كان . وأما من سبيل إلى إنصافى . أيجوز أن ترغمنى الحكومة بهذا الشكل على الرجوع إلى مصر دون إتمام دراستى وأنا شديد الأمل والرغبة والنشاط فى الانتهاء منها . ثم أما ينبغى أن أعامل كأخوانى. أحقيقة جريمتى لاتغتفر . وأما فى صدق مجهودى ما يشفع عنى إن أخطأت النجاح .

لاتريد نفسى أن تطاوعنى على اليأس من عطفكم . لست أدرى لذلك سبباً ولكنى أحس فى أعماق نفسى بأنه لا يمكن أن تتركونى ولا يمكن أن توافق على إطفاء ما فى نفسى من رغبة صادقة فى العلم وخدمة العلم وخدمة بلادى . لا . لا. يستحيل أن أصدق ذلك .

أستاذى العزيز :

فى يوم الأحد الماضى حاولت أن أدون لكم رأيى فى مسألة الآداب والعلوم وودت أن أرسله لكم وها أنا أفعل اليوم ولعزتكم إن رأيتم فيه غناء أن ترسلوه إلى إحدى المجلات لعله يؤدى إلى شيىء مما أملت من وضع الأمور موضعها الحق.

ثم أرسل لكم أيضا واجب شهر نوفمبر الذى قدمته كأخوانى للأستاذ Planort بالسريون لتستخلصوا منه ما ترون من استنتاج وحكم .

أما عما عملته هذا الشهر فسأخبر عزتكم به أما شفويا إن لم يأت من عزتكم رد ينجينى فى حينه من ضياع وقتى وضياع حياتى وإما بخطاب أن تفضلتم بالتوسط فى أمرى ولعزتكم جزيل شكرى وشوقى ومحبتى ،

مندور

- رجائى من عزتكم أن تتكرموا فتتوسطوا فى الوزارة لترسل تلغرافا آخر بـ Contre- arche للديوانى بك وياحبذا لو وصله ذلك قبل اليوم المشئوم يوم ٢٣ ديسمبر حتى لا أضطر لترك دراستى والعودة إلى مصر وذلك فى انتظار حل المسالة نهائياً ثم أن تتفضلوا بإرسال خطاب خاص منكم لو سمحتم تطلبون من الديوانى بك أن يعاملنى كاخوانى وأن يعطينى تعويض كتبى ومصاريف الجامعة وأجر الدروس والشهر المتاخر لى كما طلبتم منه وطلب مكرم باشا خصوصا وأن الوزارة قد وافقت على ذلك فى تلغرافها الأخير وحقيقة انه لمن المؤلم أن يتعنت الديوانى بك إلى هذا الحد ولست ادر ى أيملك كل ذلك أم لا ولكنى واثق على اى حال من أنه يملك عكسه اى التسامح معى لوتفضلتم وطلبتم منه ذلك شخصيا. لأن كل هذا لا يحتاج إلى إى قرار من الوزارة ولامن الجامعة وربما كانت الجامعة والوزارة تجهل كل الجهل سلوكه نحوى هذا السلوك وإذن فوساطتكم الشخصية ستلقى بغير شك. ثم رجائى الأخير الحار هو أن تتفضلوا فتكتبون لى عن رايكم وعما سيكون فى أمرى وأذكروا يا أستاذى انى ربما لا أكون اقل من غيرى من أخوانى فى شىء وأنه من غير العدل أن اعامل هذه المعاملة بينما غيرى تصرف لهم مصاريف سفر وتعويضات وما اليه مما تعلمون حق العلم .

6, Rue MORERE
PAURIS (14 EME)

أستاذى الكريم دام موفقا

سامحونى أن عدت ما فأسمعتكم صوتى مرة أخرى وقد تحطم مستقبلى وستليه حياتى عما قريب.

أتعلمون بما يتهمنى به حضرة المدير فى تقريره . يتهمنى بالإهمال وكثرة السفر إلى جهات لم يعلمها وقد نسى أنى أخبرتة بهذا السفر قبل البدء فيه وأنى كتبت له من روما بمجرد وصولى إلى تلك المدينة وأنى كتبت إليه من جزيرة صقلية وأنى اتصلت به تليفونيا من «نيس» . أهذه كلها جهات لم يعلمها وماذا سيظن والدى أو ماذا ظن عندما سمع ذلك. أيظن أنى سافرت مغويا عن نفس بفتنة أحدى النساء أو أنى أدرجت نفسى فى عصابة لصوص أم ماذا يظن .

يتهمنى حضرة المدير بشق عصا الطاعة عليه وهل فى سفرى ألى رحلة علمية بصحبة مدرس فى اليونانى عصيان يستحق عتابا كهذا وهل حاول أن يتأكد من وصول تلغرافه إلى وهل إذا رأى حضرة المدير أن زيارة الحجارة لا فائدة فيها وهو طبيب وقالت كل السربون عكس ذلك يجب أن أصدع بالأمر وأبقى فى حجرتى لا أتحرك . لم أغادر باريس فى الأربعة أعوام الأولى قيد شعرة وتقدمت إلى جميع الامتحانات موفقا حينا وغير موفق أحيانا ولم أر من أوربا بل ولا من فرنسا لا شط بحر ولا قمه جبل وكل ما زرته هو بلاد اليونان فى العام الماضى وإيطاليا هذا العام متنقلا بين الأحجار ومضنيا نفسى فى حر الشمس وفجوات الجبال. أيؤمن أستاذى حقيقة بينه وبين نفسه أنى أجرمت بزيارتى تلك البلاد اجرامايستحق تحطيم مستقبلى بهذا الشكل المحزن وتحطيم ثقة أهلى فى بهذه القسوة والمدير نفسه يعلم أن رحلتى لم أطلب من ورائها حتى الراحة وإلا لفضلت رأيه وذهبت إلى إحدى القرى فى فرنسا أو إحدى شواطىء البحار وأليس من الخير أن الشهر الوحيد الذى أردت أن أجدد فيه نشاطى قليلا مضيته فى زيارة البلاد التى تتصل بموضوع دراستى.

يتهمنى حضرة المدير بأن لى مورد «مورداً» آخر أنفق منه وأنى غنى عن البعثة بدليل أنى لم أسحب مرتبى لشهر يولية وإذا أخبرتكم بكل صراحة بأن والدى لا يملك إلا ٢٧ فداناً وأنه ليس له مورد رزق غيرها وأن إيراد تلك الأرض لا يتجاوز بحال من الأحوال ٢٠٠ جنيه فى السنة وأنه يعول خمسة أخوه ذكور أغلبهم أطفال وثلاث إناث منهم من لم تغادر ثدى أمها وكلهم لايكتسب مليما واحداً أيصدقنى أستاذى بعد ذلك ويعذرنى أن شكوت من صعوبة الحياة بغير عون الحكومة لى وخصوصا فى بلد كباريس وحتى كل الـ٢٠٠ جنيه ما أظنها تكفى لمعيشتى أنا وحدى بباريس والسبعة أخوة ماذا أقول لهم. إذا كان هذا مركز والدى وسأرجوه أن يرسل إليك شهادة مالية بذلك أما تظنون أنه أحق منى بالمساعدة وأنه من الطبيعى أن يطلب إلى وأنا فى هذه السن وبعد أن كلفته مالا يطيق أن أتركه يتولى أمر إخوتى إن لم أستطع مساعدته. وإذن فمن أين لى مورد رزق آخر وما قال أحد أنى تسولت أو سرقت وهل إذا اتتصدت طول العام مبلغ ١٥٠٠فرنك أسافر بها فى رحلة علمية مع التخفيضات والتسهيلات الموجودة فى إيطاليا ولأنى اكتسابا للوقت فضلت أن أسافر لأرجع بسرعة لعملى ولم أنتظر صرف مرتبى يستنتج أو يتهمنى حضرة المدير بأنى غنى عن البعثة ـ ياليتنى كنت غنيا بل ياليتنى كنت مجرد حر عن

رق المادة ـ أقسى أنواع الرق. وهل إذا علم حضرة المدير بأن لى مكتبة خاصة بها بضعة مئات من الكتب جمعتها بحرصى وبإراقة دم قلبى أو أننى أعرت شيئا مالبعض أخوانى ليردوه لى فيما بعد أو إذا رآنى نظيف الملبس بحكم طبيعتى يظن أنى غنى عن البعثة. وأليس من الخير لى وللحكومة أن تعلم ذلك بدلا من أن تعلم عكسه. ولو أننى كنت مبذراً مسفلا وراء لذات الحياة الحقيرة أو لم أكن قنوعا عف النفس وكنت أنفق كل مالى وآتى لحضرة المدير أشكو إليه كل يوم إفلاسى أكان عندئذ يحكم بأنى فى غير غنى عن البعثة ـ أترك لكم الحكم فقد أصبحت أشك فى كل أحكامى وأتهم نفسى بكل ضعف فى التقدير .

ثم أنه يرميني بالتقصير فى دراستى ولست أذكر أيام دراستى فى مصر عندما كنت دائما أول سنتى فى المدارس الثانوية وعندما كنت الثانى عشر فى البكالوريا برغم رفت وزارة ماهر باشا لى سنة ١٩٢٥ لأسباب سياسية وفى آخر العام قبل الامتحان ولست أذكر مدة الجامعة ولعلكم تذكرون كيف كنت أدرس فى قسم اللغة العربية وقسم الفلسفة وفى كلية الحقوق وكيف وفقت الى كسب عطفكم يوم اعطيتمونى ١٨ من ٢٠ لرسالة ذى الرمة وجعلتمونى الأول بين إخوانى ولا كيف كنت الأول أيضا فى كلية الحقوق حتى إذا وصلت إلى الليسانس منيتمونا بالبعثة فخففت قليلا من عنائى فى التحضير ومع ذلك مررت بين الأوائل ومتوسط درجاتى بغير درجة المواظبة طبعا لا أظنه يقل عن ١٦ أو ١٧ ودرجتى فى القانون المدنى كانت معجزة ١٩من٢٠ ولو أنى كنت أعلم ما يخبئه لى المستقبل لالتحقت بالنيابة أوعلى العموم واصلت مستقبلى كقانونى وكانت درجاتى وكان ترتيبى يسهلان أمامى الطريق ولست أذكر أنى وصلت فى نفس الوقت حتى السنة الرابعة فى قسم الفلسفة وتركتها أيضا لأنى فضلت أن أكون تلميذكم ـ تلميذ الدكتور طه حسين ـ وكنت كلى أمل يوم وصلت إليكم أنى وصلت إلى بر السلامة ثم يحطموا «يحطمون» مستقبلى بهذا الشكل وأنت تعلم ذلك ياأستاذى فلا تمد يدك تدفع عنى هذه الطامة الكبرى أو على الأقل تمهلها حتى يحققوا معى. لو أنى كنت قاتلا أو مجرما لما وجب إعدامى قبل التحقيق معى ولو أننى كنت شابا معدما عديم النفع ولا يرجى منه أى خير لوكلوا من يدفع عنى احتراما لما أشارك فيه الناس من صفة الإنسانية فكيف يكون الأمر وقد ذبحونى ضحية طاهرة بريئة بحضرتكم وأنتم عدتى أدخرتكم منذ زمن بعيد لنكبات الدهر.

يخيل إلى أحيانا أنى مجنون عندما أفكر فى كم من مرة كنت أتصور أنى استطيع أن أجلب عطفكم لذوى حاجة أو لشاكى مظلمة وها أنا أجد نفسى الآن أضعف من أن أجلب عطفكم حتى لنفسى وأنا تلميذكم فوضت إليكم أمر حياتى توجهوها «توجهونها» كيفما أردتم وأنا راض سعيد أن تكون حياتى بين يدى الدكتور طه حسين الذى طالما سمعت عنه وقرأت له فى طنطا والذى كنت أود أن تنمحى أشهر من حياتى لأحصل على البكالوريا وآتى إلى الجامعة لأستمع إليه. ايحطموا أيحطمون حياتى وأنتم تعلمون وأى خير فى الحياة ومن لى فى الحياة بعد ذلك. لم يوقفونى بل فصلونى، فصلونى عن الحكومة وعن أهلى ومهما يصيبنى من أذى فأشده فى نفسى ما أصاب أهلى من حسرة لا أكاد أتصورها بسبب تقرير

المدير. أظن أنى لو طلبت من أستاذى أن يكتب إلى والدى بأنى لم أرتكب جريمة لا يرفض مثل هذا الطلب كما أرجو أن يكتب إليه أيضا حضرة المدير بهذا المعنى .

ثم هل لى أن أعود فأذكركم بأنى مررت الأدب الفرنسى بعد عام واحد وأنه لولا اللاتينى ولزومه للنصوص القديمة لمررت الشفوى أيضا وأنتم تعلمون كل تطورات المسألة فلا داعى لتحريك كل ذلك ولكن على أى حال أتظنون حقيقة. أن ثلاثة أعوام كثيرة لطالب مثلى لم يكن يعرف من الفرنسية شيئا ولامن اللاتينية وقد مر امتحان ليسانس فى السربون مع الفرنسيين فى لغتهم ثم فقه اللغة أأقول إليكم أيضا إنه كان فى حاجة إلى اللاتينى وأنه من المستحيل المرور فيه بدون تلك اللغة وقد مررت أيضا هذا الامتحان فى العام التالى للأدب الفرنسى وهل يحسب أستاذى أن الأدب الفرنسى أسهل من اللاتينى أو اليونانى. على أى حال مثل هذا الرأى لا يدين به لا طلبة السربون ولا أساتذة السربون وأؤكد لكم وقد بلوت الأمرين إن الأدب الفرنسى أشق لأنه يحتاج إلى شىء كثير من الثقافة العامة ومن التكوين بعكس اللاتينى مثلا فمجرد الاجتهاد وطول المراس والمراجعة إلى ما شاء الله والحفظ قد تكفى .

ثم هل يعتقد أستاذى حقيقة أن سنتين مدة أكبر من اللازم لليونانى ومعه اللاتينى لأنى لم أنته من اللاتينى ولا أستطيع أن أهمله أسبوعا واحداً وأمامى الفقه المقارن . أيظن أستاذى أنى حقيقة مقصر وأن غيرى كان يستطيع أكثر من ذلك . حولى الكثير ممن يحاولون منذ ثلاثة أعوام حتى الأدب الفرنسى ومع ذلك لم يمر أحد منهم . سامحونى إن ذكرت مثل هذه الصغائر ولكن يمكنكم على أى حال أن تسألوا البعثة وهى تخبركم بأكثر من ذلك .

لو أنى كنت أدرس تاريخا مثلا أو فلسفة حيث تقسم المادة إلى عدة مواد أو عدة فروع كل مادة أو فرع بشهادة تفرح بها البعثة ولجنة البعثات لحصلت على تلك الشهادات مثل أخوانى ولكن دراستى لغات وفى اللغات لابد من طول المراس وعندما ينضج الإنسان يكون مرور الامتحان أمراً ميسوراً .

والآن قد وصلت تقريبا إلى يوم الحصاد تطردوننى من البعثة بهذا الشكل الشنيع كالمجرم بغير تحقيق ولا سؤال .

لقد حرمتم علينا أن ندرس شيئا غير موضوع بعثتنا وكنت أستطيع أن أحصل على دكتوراه فى القانون تساعدنى على اكتساب حياتى فهددونى وأنذرونى باللحاق بالمسكين على حافظ فامتنعت وكرست ستة «ست» سنوات من حياتى لدراسات اللغات الثلاثة «الثلاث» ووصلت فيها جميعا إلى درجة طيبة والآن تحطمون كل هذا وتوقفوننى على خطوات من النجاح ويحز فى نفسى أنك مقتنع شخصيا بكل ما أقول وتحضرنى الآن كلمة لك أو على الأقل شكا فى هل سنستطيع على وأنا عمل هذا المقرر أم لا وذلك قبل مغادرتنا مصر فهل نسيت كل ذلك .

وإذا كان أخواننا الفلاسفة والمؤرخين أضاعوا خمسة أو ستة أعوام فى تحضير ليسانس فلسفة أو تاريخ مع أنهم إنما يعيدون ما درسوا فى مصر أكثير حقيقة علينا ستة أوسبعة أعوام وأما يصح عدلا أن تعطونا سنة أكثر منهم على الأقل ونحن نبدأ دراسة من العدم لم نسمع عنها لافى ثانوى ولا فى الجامعة ودرجة صعوبتها لم يقل أحد بانها فى مستوى التاريخ أو الفلسفة .

لست أحملكم أى مسئولية عن تحطيم حياتى ولا عن خاتمتى المحزنة فقد قبلت البعثة بإراداتى ومسئوليتى لا يبررها جهلى بموضوع بعثتى وتقدير هذا الموضوع بالقياس إلى قدرتى بل مقدرة أى بشرى غيرى فى حدود الزمن الممنوح لنا وقد كان يجب علىّ أن أذكر أن أهلى فى حاجة لى وأن أكسب حياتى وكنت مسلحا بلسانسين ولكن الآن وقد قبلت ووصلت إلى ما وصلت إليه وأنا أقول لكم الآن إنى كنت ضامنا النجاح وإن لم أنجح لكم أن تشنقونى إن أردتم ثم يأتى المدير وتنشر الجرائد أن مندور قد فسد وخاب وشق عصا الطاعة وسافر إلى مجاهل الأرض ورسب وتقرر فصله . من يتحمل ذلك وأهلى يظنون أن أوربا بلد الفساد وأنى قد فسدت وإلا لنجحت كما عودتهم فى مصر .

لست أستطيع أن أتصور أنكم توافقون على كل ما حل بى وقد علمت أنكم أسفتم بحق لما أصاب على وقد سرت أنا خطوات لا بأس بها وما أظنكم إلا مقدرين ذلك وكنت أستطيع أن انتهى فى أقصر وقت من دكتوراه القانون وتركت ذلك وكان الأمل لا يزال معقودا بأن اتخلص من الموقف بنجاح وفى آخر فرصة تتركونهم يفعلون بى ما فعلوا ويجددوا «وتجددون» ظلم على فىّ . أما كان من الواجب على الأقل أن تحققوا معى فى مسألة النظام وثورتى على القوانين ويعاقبوننى بخصم مرتبى مثلا أسبوعاً أو اثنين أو شهراً وفى المسألة الدراسية إن كنتم ترون بإخلاص أنى مقصر فانذرونى مثلا بأن لم أمر فى دور نوفمبر أفصل وأمهلونى إلى أن ينتهى العام الدراسى مع تمكينى من الحصول على الضرورى البحت لإمساك رمقى حتى أستطيع أن أواصل عملى فى راحة نسبية .

بدل هذا وهو ما كان يمليه لا مجرد العدل فقط بل العقل والمصلحة مصلحة الحكومة ومصلحتى فى آن واحد أبوا إلا أن يقضوا على ما فى نفسى من عزم أو نشاط وأن يشعرونى أنى لست شيئا ، وأن حياتى أو موتى لا قيمة لها فى نظرهم وأنهم إنما يصرفون على كما يصرف إنسان على ماشية ليستفيد منها فيما بعد ثم ينحرها عند اللزوم .

ستة أعوام من حياتى تضيع هدراً أى جريمة آرتكبتها تبرر ذلك ومن سألنى عن تلك الجريمة . وأما يظن أستاذى أنى لو كنت فرنسيا أو إنجليزيا ورفعت أمرى إلى القضاء لأنصفنى بل لو طاوعتنى نفسى بأنها لن تغضب أحدا ممن يعز علىّ أن أغضبهم ورفعت أمرى للقضاء فى مصر أأعجز أن أجد قاضيا عادلا يقول الحق وينطق بالعدل وإلى من أقول كل هذا أأقوله لمن يعرف فوق ما أعرف أنه لا آلم فى النفس من الشعور بالظلم إلا عدم القدرة على الانتصاف من ذلك الظلم .

لقد لاقيت يا أستاذى فى حياتك الكثير من التعنت وما أظنك إلا ذاكر «ذاكرًا» أن العدل هبة من الله ينبغى أن يشترك فيها جميع الناس وأنا تلميذك وكل حياته بين يديك وأنت واثق بأنى مستقيم ورجل غيور على مصلحتى ومستقبلى وأن مايلوح للناظر عن بعد من تقصير منى إن هو إلا استحالة مادية فى موضوع دراستى ومن السهل التأكد من ذلك بسؤال أساتذتى فى السربون بل لدى جميع الواجبات التى قدمتها هذا العام على الأقل أستطيع أن أرسلها لكم لو أردتم وقد كتبت إلى مدرسى فى اليونانى ليرسل لى تقريرا أو شهادة عن زيارتى لإيطاليا وسأكتب لوالدى أن يرسل إليك شهادة بمركزه المالى والعائلى ويمكنك فوق ذلك أن تقارن مجهودى بمجهود غيرى ممن يدرسون الأدب الفرنسى أو اللغات القديمة من بعثات المجمع اللغوى وغيره وعلى العموم فأنا مستعد أن تحققوا معى فى كل صغيرة وكبيرة عن حياتى الخاصة وحياتى الدراسية وعن استغلالى لأوقات فراغى . كل هذا يمكن تحقيقه بكل دقة وعندئذٍ تعرفون كل الحقائق بدلا من الحكم علىّ بمجرد ظنون أو أحكام لا تستند إلى الحق فى شىء .

لا أطلب إلا التحقيق معى وبعد ذلك لكم إن ثبت أنى فاسد الخلق أو مهمل فى عملى أو خارج على القوانين أو مغلق الذهن أو أى عيب أو ذنب آخر لكم أن تحكموا علىّ بما تريدون وأما أن يقول المدير عنى كل ما قال وتفصلنى الحكومة بناء على ذلك بغيرتحقيق ولا سؤال فأظن هذا لا ترضوه «ترضونه» ولا يرضاه إنسان.

ومع خير تمنياتى لكم ولأسرتكم الكريمة أتعشم أن تذكرونى بالخير وأن تسامحونى فيما أخطأت فيه والآن أشعر بشىء من الراحة يحل بنفسى وياليته يدوم .

(مندور)*

(*) عنوان والدى هو ـ جديدة (شرقية) كفر الدير . الشيخ عبد الحميد مندور ـ كتبت هذه العبارة على جانب الرسالة ـ المحرر .
(*) بدون تاريخ.

6, Rue, Morere,
Paris (14 éme)

أستاذى العزيز ـ دام موفقا

لن أحاول أن أصف لك وقع تلغرافك فى نفسى فهذا ما تستطع دونه مقدرتى وسأحفظه لنفسى ذكرى طيبة ما ترددت أنفاسى فى جوفى لو كنت حاضرا عندما وصلنى لما ملكت نفسى عن تقبيلك وتقبيل أياديك الطاهرة الكريمة وبماذا أجازى قلبا كقلبك الرحيم العادل. ألا جزاك الله عنى خيرا والف خير . لن أنسى لك ما حييت هذا الفضل فحتى مجرد كلمة منك كانت تكفى لتخلصنى من اليأس القاتل الذى كنت فيه وقد شعرت بأنى فقدت عطفك وأنه لم يبق لى فى الحياة نصير ومالى من عضد فى الحياة غيركم . آلا بارك الله فيك وفيمن تحب. لقد غضب منى والدى وأنكرنى دون أن ينتظر حتى دفاعى عن نفسى كأنى فسدت أو أجرمت وأبت رحمتك إلا أن تمتد فتشملنى بعطفها الذى كأنه فيض من الله نزل بقلبى فشكرا لك ألف شكر.

وهل للحياة من قيمة إلا بما فيها من خير سنفنى جميعا كما فنى غيرنا من قبل وإنما هى أطماع باطلة ووالله لو كنت يتيما ولو لم يكن خلفى أهل كرام يأملون منى الكثير لما هالنى ما حل بى هذا الهول ولكنى الآن راضى النفس وابتدأ الهدوء يشعرنى براحته وأستطيع أن أتدبر أمرى وأواجه المستقبل بعزم لن يعرف الملل.

سيكون شكرى لأستاذى ـ إن شاء الله ـ بإرسال شهادتى اللغة اليونانية وفقه اللغات المقارن فى نوفمبر وسأبذل المستحيل لأرسل له فى العام القادم ـ على أبعد تقدير شهادة اللاتينى والدبلوم وسأعرف كيف أفى بهذا الوعد الذى أقطعه أمامكم ـ وانتم من أنتم فى نفسى ـ ولكم أن تسجلوا عنى هذا الوعد وتطالبونى بتحقيقه وألا فلكم أن تنكرونى ولن أكون جديرا بأبوتكم الروحية . من الآن إلى نوفمبر سأحبس نفسى حبسا ولا أخرج من سجنى إلا منتصراً لأثبت لأستاذى وللوزارة ولمدير البعثة أن الطبيعة لم تحرمنى لامن قوة الجسم ولامن سلامة العقل .

بقى لى أن أرجو من أستاذى أن يساعدنى على تسوية مسائل ميسور أمرها . وأولها إرضاء والدى وإفهامه أنى لم أسافر كما قال حضرة المدير إلى جهات لا يعلمها وأنه لم يغوينى أحد عن نفسى ولا فسدت أخلاقى ولا شىء من هذا القبيل وإنما كانت رحلتى فى سبيل العلم ـ سامحه الله ـ وبصحبة مدرس فى اللغات القديمة ووالدى لن يصدقنى ولهذا أرجو من أستاذى أن يتكرم ويضحى بخمس دقائق من وقته يقول فيها لوالدى إنى لم أفسد وإنما دراستى صعبة ويمكن معذرتى وخصوصا أنى لم أغضب أستاذى وأنه لا يزال راض «راضيا» عنى لأن والدى يريد أن يعلم ذلك وأن مستقبلى بين أيديكم ولا خطر عليه مادمت مجتهداً فى عملى وكذلك أرجوكم أن تطلبوا من مدير البعثة أن يكتب إلى والدى أيضا بمثل هذا المعنى وبهذا يزول من نفسى أكبر أسباب الألم لأن والدى شقى من أجلى كثيرا وقد أخبرتكم بصراحة بحالته المالية وما أظن إلا أنكم ترون أنه لا يستحق منى إلا كل خير.

ثم لى بعد ذلك أن أرجوكم أن تتطلبوا من حضرة المدير أن يعطينى على الأقل مرتبى من أوائل يولية أو من يونية لا أدرى ـ لأن المرتب يظهر أنه يدفع آخر كل شهر ـ إلى يوم صدور قرار البعثة وأظن أن هذا

من حقى وما يعطيه لى سأكتفى به إلى دور نوفمبر إن لم تحل المسألة قبل ذلك ولقد رجوت صاحب المعالى مكرم باشا أن يتوسط فى المسألة عندما كان بباريس فى طريقه إلى لندن فتفضل وطلب من الديوانى بك أن يعطينى مرتبى ولكن الديوانى بك لم يعطينى شيئا ولم يحضر أصلا إلى البعثة ولست أدرى لماذا كل هذه القسوة معى وما كان بينى وبينه إلا كل خير . على أننى لا أظن أنى أتعدى حدود الأدب إن أخبرت أستاذى أنه على ما يظهر من مظهره الخارجى تركى الأصل ولن يغتفر لى عدم الاستماع لرأيه وعدم التسليم معه بأن زيارة الأحجار اللاتينية لا فائدة فيها . وعلى أى حال أظن أنه سيعطينى مؤخر مرتبى إلى يوم صدور قرار لجنة البعثات مادام هذا من حقى قانونا وخصوصا لو طلبتم منه ذلك.

أما عن مسألة انتشار الأمر فى الجرائد وتشويه سمعتى عند من يعرفنى وبخاصة لأن كثيرا من الناس فى مصر يظن أنى قادر على تذليل كل الصعوبات وأنى وأنى فأظن أنه لا علاج لإصلاح هذه المصيبة إلا خبر إعادتى إلى البعثة عندما ترون وترى الوزارة ذلك وسأنتظر بصبر وحزم هذا اليوم الميمون وسأكتب خطابا لمعالى وزير المعارف بشرح الحقائق فيما نسب إلىّ وماذا فعلت فى باريس حتى الآن مع التنويه بأن مركزى العلمى ونتيجة دراستى أحسن بكثير من مركز الكثيرين ممن أرسلوا لدراسة نفس ما أدرس بل حتى لدراسة اللغة الفرنسية وحدها ولا شك أن خطابكم لمعالى الوزير سيحل المسألة نهائيا لأن الوزارة أخبرت أهلى بمصر أن حل المسألة بأيديكم وبيد حضرة مدير البعثة وأنه بإمكانكم لو أردتم أن تطلبوا أمهالى إلى دور نوفمبر وأن يعطى لى مرتبى حتى ذلك الشهر وعندئذ أن نجحت استمر فى البعثة وبهذا أرجوكم إن رأيتم ذلك ألا تبخلوا علىّ بهذا الفضل أيضا لأنه يريح ضميرى من الوجهة المادية وانتم تعلمون مبلغ غلاء المعيشة بفرنسا وأن تطلبوا إلى حضرة المدير ألا يشتد ضدى إذا طلبت الوزارة منه رأيا أو غيره وكفانى ما حل بى وما أظنه إلا أنه سيتسامح معى خصوصا وأنه بعد أن قابلته وشرحت له المسألة وأن تلغرافه لم يصلنى وما إليه طلب منى أن أكتب كل ذلك ووعدنى أنه سيرسل دفاعى عن نفسى إلى الوزارة مع موافقته عليه وطلب تخفيف العقاب عنى .

هذا كل ما أريد والآن سأترك المسألة بين أيديكم وأنصرف إلى امتحانى بكل جهدى فهو سبيلى إلى النجاة ولعزتكم أن تتصرفوا فى الموضوع كما ترون فأنا واثق أنكم لاتريدون لى إلا كل خير وما سترونه سيكون دائرا خيراً مما أراه .

مع تمنياتى الطيبة إلى عائلتكم الكريمة وإلى الأخ فريد . حفظكم الله لتلميذكم الشاكر الف شكر.

مندور

(*) ثم بودى أن لو كلفتم الأخ بأن يخبرنى مجرد إخبار بما ترون فيما أطلب الآن وهل أستطيع أن أمل الحصول عليه أم لا وخصوصا الخطاب إلى والدى لأكتب إليه أنا أيضا مستسمحا ومستنداً إلى خطاب أستاذى . ثم ارجوكم أن تتسامحوا عما فى خطابى الأخير من اضطراب فلست أدرى ماذا كتبت وقد كنت كالسكران .

(*) بدون تاريخ .

أستاذى العزيز ـ حفظه الله :

لقد أثر فى نفسى كتابك المملوء محبة ورحمة تأثيراً شديداً وأؤكد لك أنك كالملهم فى كل ما تقول. لا أريد بعد اليوم أن أعود فأكرر ما قلته لك غير مرة من أن فى نفسى لك حبا لاحد له فقط أسقط هذا الخطاب بينى وبينك كل الحجب وهاأنا أشعر بأنى مساق نحوك فى راحة نفس لا يخالجها ما كنت أحسه من قبل عندما أكتب إليك من لهف ما كنت أدرى له من سبب وأنما كنت أشعر شعور المتقطع الأنفاس . لهذا وقد تحولت عاطفتى من تيار تقطعه أمواج عاتية إلى مجرى سهل لين وعاد قلبى مما كان يشبه الألم عندما اتجه إليكم إلى راحته التامة أستطيع أن أعود إلى نفسى أناقشها الحساب وأن أقول لك بكل أمانة حكمى على نفسى .

الواقع أن ثقتى بنفسى وثقتى بالحياة أعمق بكثير من أن ينال منها يأس وأنا مؤمن بينى وبين نفسى أنى قادر على الكثير بل ويخيل إلىّ أن فرط الثقة إلى هذا الحد سبب من أسباب الضعف فى نفسى لأنه يشعرنى أحيانا بأنى استحق أكثر مما يؤهله لى مجهودى وأنا أعرف تمام المعرفة أن القدرة هبة من الطبيعة لا تعطينى الحق فى شىء بل بالعكس تلزمنى الواجب بوضع تلك القدرة فى خدمة الغير .

ولعلك تسألنى بعد ذلك ولماذا إذن هذا اليأس الذى ظهر فى خطابى لكم وجوابى على ذلك أن اليأس عندى لم يكن شعوراً وقلبى لا يعرف اليأس وأنما مجرد فكرة . فكرة صادقة طبعا ولكن متغيرة بطبيعتها لأن العقل فى حركة مستمرة ولو أنه كان شعوراً لقضى على حياتى بدون انتظار . الفكرة تناقش ويجد العقل دائما ما يحبذها وما ينفيها وينتهى الأمر عادة بشل التنفيذ ـ بل بالعكس كلما كان الإنسان . أقوى تفكيراً كان أضعف إرادة لأن التفكير فى وجهى كل معضلة كلما طال واتسع فشلت الإرادة ووقف التنفيذ والشعور بالعكس لا يزداد على الزمن إلا قوة وعمقا وشعوراً باليأس لابد منتهيا بالهلاك . لهذا انتهى بى التفكير إلى تغليب عامل الأمل وبهذا وفقت ما بين عقلى وأقوى ما بنفسى من شعور وهو ثقتى بالحياة.

والآن أود أن أشرح لأستاذى الذى أحبه بكل قلبى أسباب اضطرابى فى عملى ولماذا لم أوفق إلى ما كان يأمله منى وماكنت آمله من نفسى بكل إخلاص وبكل صراحة وأنا واثق أنك ستفهمنى وستمدنى بنصحك الغالى وتهدينى إلى ما لا أستطيع أن أهتدى إليه بنفسى .

يرجع إخفاقى ـ أن خرجتم من كتابى هذا بالحكم بذلك كما أحكم أنا على نفسى ـ إلى عاملين أحدهما عارض مكتسب والآخر فطرى أصيل فى نفسى ولأوضح. أولهما فرط الثقة بنفسى كما قلت وقد أصابنى هذا المرض بنشأتى فى وسط اجتماعى متواضع من بعض الوجوه وشاذ من بعضها الآخر . عائلتى كبيرة العدد والمنافسة قوية بين الشبان منها ومنهم المبرز بشكل واضح مخيف ومنهم الخامل المبدد الحياة ومنهم من فقد عقله بالإفراط فى الحياة ووسط تلك المعمعة المهلكة كان من توفيقى أن أكتسبت من الصغر مكانا متينا وجرت بين ذوى فكرة اعتدالى الخلقى وقسوتى على نفسى قسوة

الرهبان من جهة وتفوقى فى دراستى تفوقا ظاهراً من جهة أخرى فاحاطونى بسياج من الاعجاب نفعنى كثيراً وضرنى كثيرا . نفعنى إذ دفعنى إلى مواصلة السير والتبريز مرة بعد الأخرى وضرنى لأنه جعلنى عالة على إعجابهم بدلا من أن أستمد حافزى إلى العمل من نفسى وأن أقدر مجهودى قدره لا إفراط ولا تفريط .

أتيت إلى أوروبا و فى نفسى شعور ساذج بأنى قادر على كل شئ وأنى سأقوم بما كلفت به وفوق ما كلفت به واجتهدت بإخلاص برغم ما كان منى من تهاون قليل من الناحية الخلقية إذ ابتدأت لأول مرة فى حياتى أن أعرف لذة الحواس وحتى هذا حملنى عليه تفكيرى المطلق إذ ظننت ـ وربما كان فى ذلك شيئ من الصحة ـ أن مقاومة الطبيعة إلى غير حد أمر قد يضر أكثر من أن ينفع وأن ضيق صدرى فى ذلك الحين وكثرة حزنى بغير سبب ربما كان سببه ما ألزمت نفسى من عفة مفرطة فى مصر وجاء الامتحان فرسبت فى يونية لأول مرة فى حياتى فنال ذلك من نفسى كثيرا وعاودت الكرة فى الإجازة ملزما نفسى من الجهد فوق ما يجب وجاء نوفمبر فمررت فعدت إلى ثقتى بنفسى برغم عجزى عن مرور الشفوى واستهنت به وابتدأت فى تحضير دبلوم قانون مررت فيه بسهولة مدهشة وابتدأت فى اللاتينى وهنا تبدأ المأساة .

جاء الشفوى فعجزت عنه للمرة الثانية وضاع التحريرى واضطررت فى العام التالى إلى تحضير مقرر جديد وانتهيت من الأدب الفرنسى لثالث عام.

هنا هالنى الأمر وشعرت بأن عزتى قد جرحت وسخطت على نفسى وشكيت لمدير البعثة مرارا سخطى على نفسى إن حقا وإن باطلا وضرنى مدير البعثة ضرراً شديداً لأنه كان يحبذ هذا السخط ويزيده فتكا بنفسى حيث كان يعتقد أنه يحفزنى بذلك على العمل وهو يؤمن بينه وبين نفسه أن مرورالأدب الفرنسى حتى بعد ثلاثة أعوام لطالب مبتدئ يعتبر فوزاً إذا قيس بما يبرهن عليه غيرى من المصريين من القدرة فى دراسة كهذه ودليلى على ذلك أنه كان يدافع عنى فى الوقت الذى يحبذ فيه سخطى على نفسى وهذه غلطة كبيرة منه يمكن تفسيرها طبعا بعدم معرفته بحقيقة نفسى وإن كنت أشك فى ذلك لأن الديوانى بك متقد الذكاء نافذ الحس وقد شعر غير مرة وناقشنى مراراً فى فرط ثقتى بنفسى ولكن فاته أن علاجى لا يمكن أن يكون فى تقوية سخطى على نفسى إذ أن هذا السخط يزيد بالعكس تلك الثقة قوة بل بتبصيرى بمدى قدرتى وحثى على أن أقنع بما انتهيت إليه وأن أواصل عملى فى راحة ضمير ومادمت قد تمكنت من اللغة الفرنسية فقد هان علىّ الأمر.

قوى إذن سخطى على نفسى ورأيت حولى أخوانى وقد مر بعضهم بشهادتين أو ثلاثة وما تعودت الخمول وأصبح لقائى بهم جرحا فى نفسى يسيل دما كلما فكرت فيما صرت إليه بالنسبة إليهم الآن وبالنسبة إليهم فى مصر وهنا دخل الاضطراب على نفسى وأخذت اتخبط أأستمر فى عملى أم استقيل

من البعثة وأدرس غير تلك المواد لأتفوق كما تعودت وأجد من إعجاب الناس بى ومن إعجاب أهلى وأخوانى وأساتذتى الحافز القوى الذى كنت أجده فى مصر وأخبرت الديوانى بك مراراً بعزمى على الاستقالة دون أن أشرح له حقيقة شعورى حتى ظن أنى غنى وأنى فى غير حاجة لمرتب الحكومة وما إلى ذلك مما لايزال يعتقده على غير أساس ودون أن يرى بوضوح أو يفهم علة تلك الأفكار الغريبة التى كنت أدلى بها إليه من يوم إلى آخر . وحالت دون استقالتى ظروفى المالية واشتد ألمى وتبرمى بنفسى ولذلك لم أر علاجا إلا فى دراسة ما يدرسه غيرى من أخوانى لأثبت قدرتى وأرضى بتغفيلى نفسى عن نفسى ولكن ماذا أدرس . تعلمون أنى بطبيعتى ميال إلى الفلسفة وإذن فلأدرس الفلسفة وأتقدم إلى الامتحانات وفى نفس الوقت أرضى الحكومة بامتحان أو اثنين لأستمر فى الحصول على مرتبى ولكى يكون نجاحى وتفوقى أمراً لا يحتمل الشك عقدت عزمى على أن أحضر شهادة علم النفس وشهادة الاجتماع والأخلاق معا مضافا إلى ذلك عملى فى اللاتينى واليونانى والقانون . تشتت مجهودى وعجزت طبعا فى الجميع - ومن هنا ترون كيف ضرتنى تلك الثقة بنفسى هذا الضرر الشديد - وتقدمت إلى امتحانات الفلسفة وإلى فقه اللغة فنجحت فى الأخيرة فقط لأن الديوانى بك كان قد هددنى قبل الامتحان بشهرين وفى ظرف شهرين فقط صرفت جل مجهودى لهذه الشهادة ، وحاولت مرة أخرى شهادات الفلسفة بالرغم من أنى ما كنت أملك الوقت الكافى لتحضيرها فلم أوفق أيضا ولست أدرى كيف لم يعلم الديوانى بك بكل ذلك لينصحنى بحصر مجهودى قبل أن يضيع علىَّ الوقت . وجاءت السنة الخامسة ومن ذلك التاريخ عدلت عن الفلسفة وانصرفت إلى التاريخ ولكن لا على أمل أو عزم التقدم للامتحانات ولست أدرى لماذا لم أفكر فى هذا مطلقا وإنما لأنى غيرت طريقتى فى محاولة إقناع أخوانى أنى لست دونهم فى شىء وبدلا من التقدم للامتحانات عقدت عزمى أن أقرأ وأن أعرف كل ما يدرسون فإذا قابلت أحداً منهم أسأله ماذا يقرأ وأى الكتب أحسن فى هذه أو تلك المادة وأطير كالمجنون اشترى الكتب وأقتل نفسى فى قراءتها وأنتظر بفروغ صبر أن ألقى زميلى لأناقشه فيما قرأت وأظهر له أنى على علم بالكثير من موضوع دراسته وانتهى الأمر باستمرارى على ذلك طول مدة بعثتى تقريبا إذ منذ السنة الثانية بأوروبا ومنذ أول سقوط لى وأنا أطبق نفس الطريقة أولا مع الامتحانات وأخيرا بدونها .

وهنا يأتى دور السبب الآخر لخوفى فى البعثة وهو السبب الأصيل الفطرى فى نفسى لأنى بطبيعتى ولست أدرى إلى أى احد اختلف فى ذلك عن غيرى من الناس محتاج إلى الفهم وأشعر بألم شديد وقلق قوى عندما لا أفهم ما أقرأ ولا أملك الصبر على علاج مالا أفهم ولهذا شقيت كثيرا فى البدء فى اللغات القديمة . أقرأ كتب النحو وأواجه نص «نصاً» من النصوص فأعجز عن فهمه وأبحث عن وجه لفهمه ولا أصبر على البحث وأطير للحصول على الترجمة وابدأ اقرأ فى الترجمة فأجد لذة فى فهم ما اقرأ فاستمر فى القراءة وأترك النص واقرأ طول الليل بحماسة شديدة كالمجنون وأنا بذلك أفهم نفسى أنى اؤدى واجبى وأخادع ضميرى . ثم أنى محمول بطبعى إلى الألمام بالكليات ويؤلمنى ويضايق نفسى

الوقوف عند جزئية من الجزئيات وأنا أعرف أنى مخطىء فى ذلك لأن تحصيل لغة من اللغات إن هو إلا عمل طويل شاق وجزئية بجزئية وأعرف أنه من الأفيد لى أن أسير متعمقا فى نقطة واحدة بدلا من أن أعوم على السطح وأجرى إلى مسافات بعيدة مخطئاً ومارأ دون أن أشعر بجواهرلم أفطن إليها . ولا أقف عند هذا الحد بل أبحث عن ترجمة ما كتبه الكاتب أو الشاعر غير الكتاب الذى بيدى واشتريها جميعها واشترى بعض ما كتب عن ذلك الكاتب وأضيع العام فى القراءة باللغة الفرنسية والقراءة بحماسة وإخلاص لأنيم ضميرى ويأتى آخر العام فإذا معرفتى باللغة القديمة لاتزال محصورة.

فى آخر العام تمر بى عادة فترة محزنة إذ التفت وانتبه إلى الخطر المحدق بى من الحكومة وأنا فى أشد الحاجة لمرتبى ولست واثقا من نفسى فأثور وأحاول أن أروض نفسى على العمل فى اللغة القديمة فيما بقى لى من وقت فأنجح أحيانا وأحيانا كثيرة أرى أن الوقت الباقى لا يكفى بشىء وأنى ضعت فأهيم على وجهى فى الشوارع لا أخاطب أحداً ولا يخاطبنى أحد كالمجنون وفى نفسى من الحزن ما لاحد له وأردد بينى وبين نفسى أنى قادر وأنى لست أعجز من غيرى وأنى قرأت الكثير وأسخط على نفسى أحيانا وأجتهد احيانا أخرى أن أبررها بصعوبة العمل وصده لنفسى وما إلى ذلك وأنا أعلم تمام العلم أنى لو صرفت نصف وقتى فقط بانتظام لتحضير امتحانى ولو عرفت كيف أجبر نفسى واحملها على الشاق لمررت امتحاناتى بكل اطمئنان.

خرجت من كل ذلك بأن قرأت الشىء الكثير ولست فى حاجة إلى أن أخبركم أنى كنت أقرأ بلذة عقلية حقيقة وأنه وإن كان فى دافعتى إلى للقراءة عوامل غريبة عن حب الأفكار لذاتها فقد كان هذا الحب موجودا حقيقة فى كل أوقات قراءتى .

ترون من كل ذلك أنى حقيقة لم أضع مقدرتى فيما كلفت به لا أعدوه وإلا لمررت امتحاناتى وانتهيت من الليسانس منذ زمن بعيد . لقد عملت فى نفسى أحيانا عوامل لا أقول إنها صغيرة فالمنافسة الشريفة ـ طبعا بغير حقد فأنا حقيقة برىء من ذلك وأحب أخوانى ويسرنى توفيقهم بغير شك وكلهم يعرف ذلك ـ لم يقل أحد بأنها حقيرة . ومحاولتى إرضاء ضميرى القاسى وإن دخلت فى تلك القوة عوامل خارجية كرأى الغير وما شابه ذلك مما أحكم أنا نفسى بصغره وإن لم أستطع تبرئة نفسى منة ـ شىء قد يدل على خير فى طبيعتى ولكن انتهى كل ذلك بى ومالى من مرشد ولا قائد إلا نفسى المضطربة إلى أن ضاع منى الوقت وأصبحت الآن كالمذبوح .

نعم أطلعت على الكثير وكونت نفسى تكوينا أظنه لا يقل عن تكوين أى شاب أوروبى حريص على تربية عقله وحسه كما يجب ولكن كل هذا لا ينفعنى بشىء ومادمت لم أمر امتحاناتى فمن يدرى إن كان إخفاقى لفسادى واستهانتى أم لعوامل نفسية على أى حال أرفع من مثل تلك العوامل وأسلم عاقبة .

لكل هذا ترون أنى غير راض عن نفسى إطلاقا وقد أصبحت الآن أرى بوضوح وساعدنى محاولة وصف نفسى لكم على أتمام هذا الوضوح ولكنى أقارن نفسى بغيرى ـ من جهة الامتحانات طبعا ـ فأرى

أن من المصريين من يعجز عن مرور امتحان الأدب الفرنسى التحريرى نفسه حتى بعد ثلاثة «ثلاث» سنوات أضرب لذلك مثلا عبد الحميد الدواخلى والخولى عضوى بعثة المجمع اللغوى) ومنهم من لا يزال يحاول بعد سنوات مرور فقه اللغة فلا ينجح ، إن بينهم من لا يعرف حقيقة إلا عمله ويهلك نفسه فى هذا العمل وأنا مررت مع تخصيص القليل من وقتى لهذه الامتحانات ومنهم من يعيد ليسانس فى الفلسفة ولا ينتهى من ذلك بعد ست سنوات (ولو أضفنا مدة الخمسة «السنوات الخمس» سنوات فى مصر لكان المجموع إحدى «أحد» عشر عاما) ومنهم ومنهم . أعقد تلك المقارنات وأنا فى شديد الألم لأنى ماكنت أحب أن أقارن نفسى بالضعفاء . من بين أخوانى وكنت أفضل أن أنافس الأقوياء ولكنى ألجأ إلى ذلك لأبرر نفسى أمام من لا أستطيع أن أقول لهم الحقيقة والحقيقة أنى لو عملت لتحضير مقررى فقط لانتهيت بدون أى شك وأخرج من ذلك بأن أعتقد وكأنى صادق فى اعتقادى أنى مظلوم .

والآن أمامى اليونانى وقد زالت الصعوبات الأولى بعد أن بذلت مجهوداً طيباً فى العام الماضى لإحساسى بما كان ينتظرنى وأظن أن رسوبى فى يونية لم يكن إلا إتفاقا لأن النص جاء شعرا من شكل ويخيل إلى أنه لو جاء نثراً لمررت الامتحان وفى عزمى أن انتهى إلى آخر هذا الشهر من مؤلفين «أربيد وأرستوفان» لأنى لم أدرسهما جيدا أثناء العام الدراسى ثم أبدأ إعادة عامة للثمانية مؤلفين المقررين وأجتهد فى أن احفظ الكثير من الاصطلاحات والتراكيب والألفاظ لأن اللغة ماهى إلا ألفاظ بالرغم من كل ما يقال فى السربون ومعرفة كلمات كثيرة ستكسبنى وقتاً فى الامتحان اصرفه فى وضع الأفكار فى قالب فرنسى صحيح بل وممتاز لأن هذه أيضا صعوبة لايستهان بها ولابد من الترجمة بأسلوب أدبى مع المحافظة على أمانة النقل . هذا وسأتمرن طبعا على الترجمة ابتداء من أول سبتمبر القادم مع مدرس خاص لتصحيح التراجم لو حكمتم على بما كنت أستطيع أن أفعل ولم أفعل للأسباب التى ذكرتهاسابقا لقضيتم بأنى استحق الفصل وإما أن حكمتم على بما يرجى منى من خير أو بمقارنتى بالآخرين من أعضاء البعثات لوجب إرجاعى للبعثة وأما عن رأيى الخاص فى نفسى فهو بكل إخلاص أنى بعكس ما قالته لجنة البعثات فى قرارها أصلح للبعثة وإنما يجب أن تقودونى لأنى ضعيف الإرادة وإن أكن حى الضمير وفى هذا مصدر شقائى وأظن أننى عندما أعود إلى الجامعة كأنفع الطلبة وربما نفعت العلم ونفعت بلادى بل لا شك فى ذلك لأنى فى مصر سأرى نتيجة لعملى طبعا وسأعود فأجد فى صدى عملى من المشجع ما كنت أجد وأنا طالب وأنا واثق فى نفسى ـ مع عدم الإفراط ـ بأنى لو صرفت مجهودى وحصرته من الآن إلى العام القادم لانتهيت من الليسانس وأما عن الدكتوراه فمثل هذا العمل فيه من الحافز ما يجده كل فنان وكل خالق وكل بانٍ فيما يصور أو يخلق أو يبنى وليس حكمه حكم الليسانس وسط آلاف الطلبة المبرزين فى مواد يعرفونها جيداً.

ثم إن عدم اتصالى بالاساتذة واستحالة ذلك مع كثرة عدد الطلبة سبب آخر فى عجزى عن حصر مجهودى ولو أنى وجدت فى باريس أستاذا يضمنى تحت جناحه كما وجدتكم فى مصر لا تخذت الأمور مجرى غير ما أخذت.

وأما عن مسائل لذات الحياة وما إليها فحقيقة وبكل إخلاص لم تشغل فى حياتى أثرا يذكر ولعلكم تشعرون بذلك من وصفى لحالتى النفسية فمن الواضح أنها لا تتفق مع الاستهانة والرضا اللذان «اللذين» يدعوان إلى الانهماك فى الذات حتى اللذات كان طعمها فى نفسى مراً

أستاذى العزيز :

لقد حاولت بكل إخلاص نزولا على طلبك أن أصف لك مجمل أمرى والآن وقد عرفت الداء فصف الدواء بما تراه حكمتك وثقتى بك عظيمة وسآخذ نصائحك مصباحا ينير لى سبيلى وأما عن البعثة فحقيقة لا يؤلمنى فى كل ما كان إلا مسألة أهلى لأنهم سيظنون فى الظنون ولم أفتح لأحد غيرك نفسى ولا يدرى أحد عنى شيئا فإن كنتم تعتقدون فى خيرا كان لى أن أرجوكم أن تدافعوا عنى أمام والدى وأمام الهيئات الرسمية التى لا تعرف عنى لا القليل ولا الكثير ومأأنا بالنسبة لها إلا رقم أو شىء يستغل ولكم عندى أن أعمل بما تريدون فسيرونى كما تملى عليكم حكمتكم وسأكون دائما عند إرادتكم لأنها إرادة الخير.

وعشت سعيدا موفقا أنت وعائلتك ومن تحب مع عظيم شكرى واعتذارى لما كان منى من إقلاق راحتك وأنت فى الإجازة . سامحونى فما قصدت إلى شر ومازلت ابنكم المطيع المحب الداعى إلى الله أن يجزيكم عنى خير الجزاء .

مندور

6, Rue, Morere,
Paris (14 eme)

*(

(*) لا تصدقوا الديوانى بك فيما قد يظن من استحالة بعثتى لأنه يبنى هذا الظن على اعتقاده بأنى بذلت كل مجهودى فى الدراسات القديمة وهذا للأسف غيرصحيح وإلا لمررت بغير شك فلا تيأسوا منى وانسوا الماضى ولا تحكموا علىّ بمقتضاه .

(*) بدون تاريخ .

باريس فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٧

أستاذى العزيز :

فى باريس شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ـ صديق لى اسمه عمر جميعى يدرس فن الإخراج المسرحى منذ أعوام تحت رقابة البعثة علم بشرف معرفتى بعزتكم فطلب إلى أن أكتب هذا الخطاب. قبلت طلبه بسرور لأحييكم بعد هذا الصمت الطويل آملا أن تؤدى صداقتى له ما آمله فىَّ . ما نرجوه من عزتكم هو أن تؤيدوا طلبه بالانضمام إلى بعثه الحكومة لفن الإخرج المسرحى لمدة سنتين والواقع أنه قد قدم بالفعل هذا الطلب لصاحب العزة خليل بك مطران منذ شهر ولكن إلى الآن لم يصله رد . مؤهلاته هى الآتية :

(١) دراسته لفن «لإخرج» بالأديون و «الاتلييه» حيث هو ملتحق الآن بالمعهدين وحيث يدير إخراج أحد مناظر رواية يوليوس قيصر لشكسبير والآن يمثل فى بعض فصولها مع «دبلان» حيث رأيته بجانبه

(٢) إنه زار واتصل بعدة مسارح فى جميع عواصم أوروبا المهمة وخصوصا فى برلين وفييناولندن لمدد مختلفة تجاوزت عادة الستة أشهر .

(٣) إنه يجيد اللغة الفرنسية كما أن خبرته بالمسرح والأوساط المسرحية نضجت ولم يبق له إلا القليل من الزمن لينتهى نهائيا من المعلومات اللازمة ليبدأ فى معالجة هذا الفن بنفسه .

(٤) إنه عالج التأليف المسرحى وبين يديه الآن روايتان كتبهما باللغة الفرنسية وقدمها للمخرجين الفرنسيين . نعم لم تمثل رواياته لاعتبارات كثيرة قد لا يكون مرجعها الاول والاخير إلى قيمة رواياته فى ذاتها أذ رأيت فى ردود مديرى المسارح إليه امتدادحا لتلك الروايات راعتذار عن عدم تمثيلها لاعتبارات تتعلق بالإدارة الفنية أو بالجمهور وهو مستعد أن يرسل لعزتكم روايتيه لو أردتم لتحكموم بأنفسكم على استعداده وثقافته.

هذا عن صديقى جميعى ويغز على أن يمر الجدل حول مهمة المجمع اللغوى دون أن أبدى حقيقة دهشتى من الخلاف فيما لا محل للخلاف فيه إذ إنه من الواضح أن فرع الدراسات اللغوية الذى يتعلق بالمعاجم كان منذ الأبد علما رصينا ـ علم ملاحظة وتسجيل كما قلتم بحق وأن مهمة المجمع تنحصر فى أمرين. أولهما أن يكون كمصلحة إحصاء لغوى وثانيا أن يقيم التوازن اللازم بين الثبات والتطور فهو، قوة واعية تعادل القوى غير المدركة التى تتطور باللغات . لو أن الخلاف كان عن نحو اللغة مثلا لفهمناه فقد تصور ويمكن أن يتصور نحو تعليمى يدعى تقويم ما هو واقع أو تقرير ما يجب أن يكون بدل الاكتفاء بحصر وتبويب وشرح ما هو ثابت بالاستعمال ويمكن أن يتصور نحو عقلى يحاول إخضاع العرف للمنطق أما المعاجم فما رأينا لا معجما عقليا ولا معجما تعليميا وإنما كانت كلها وفى جميع الصور معاجم إحصاء ثم ألم يسمع مجمعنا الموقر عن الدرس القاسى الذى تلقاه المجمع الفرنسى من أستاذنا brunot يوم نشر نحو اللغة الفرنسية دون أن يستمع بتواضع إلى ما يمليه العرف اللغوى الدارج بين

جماعة الكتاب بل والمتكلمين فما بالكم لو أنه نشر معجما بنفس الروح والواقع أن ما ينقص مجمعنا هو الروح العلمية فالدراسات اللغوية قد أصبحت علما كسائر العلوم والعلم لا يخلق شيئاً. العلم يكشف عن حقائق او عن قوانين . يفسر ظواهر او يحصيها أما الخلق فلله وحده أو للفنون. وبالجملة فالمنهج المتبع الآن في دراسة اللغات والذى، أظنه منتجا بعد تجاربى المحدودة هو منهج علمى. تاريخى من جهة ومقارن من جهة أخرى وبدون دخولى فى اعتبارات نظرية يخيل إلى أنه خيرألف مرة لمجمعنا أن يصرف كل جهده لدراسة اللغة العربية وهنا أود أن أرجو عزتكم ألاتستعملوا نفوذكم الهائل فى الحصر من اختصاص المجمع فمجمعنا فى موقف غير موقف مجامع أوروبا.. فى أوروبا لديهم المواد الأولية ليتولها معاجم أو مؤلفات عن النحووما إلى ذلك أما فى مصر فأول واجب علينا هو جميع تلك المواد الآولية وإلى هذا يجب أن ينصرف مجمعنا لو كان لرأتى قيمة أو لو سألت فى ذلك ثم بودى أن لو رأيتم معى أن خلق institut لن يغير فى مسألة اللغة شيئا فالمعهد الفرنسى مثلا على ما أعلم تهمه الأفكار أكثر من الألفاظ واختصاصه اللغوى لا أعرف عنه شيئا. طبعا لنا فى مصر أن نعطيه من الاختصاص ما نريد ما دمنا على بينة من الممكن وغير الممكن ومن الصالح وغيره ولكن ما شاهدته هو ما ذكرت وإذن فمن حق المجمع اللغوى أن يتناول اللغة جميعا طبعا لا بالخلق بل بالدرس والإحصاء. من الناحية العلمية بودى إن أرجوكم أن صادف رأيى موافقتكم أن تستعملوا نفوذكم لتحملوا المجمع على ما يأتى :

١ ـ طبعا قبل كل شىء نشر جميع النصوص ما لم ينشر منها وما هو منشور نشرات علمية بكل ما فى ذلك من معنى.

٢ ـ النشر لايكفى وإنما يجب أن يكلف كل عضو مثلا بوضع Lexique لشاعر ما أو كاتب أو فيلسوف أو عالم عربى ولايخفى أستاذى الأهمية التى لا حد لها والتى يجب أن نعلقها على مثل تلك الأبحاث. فيوم يكون عندنا معجم صغير لكل كاتب بانفراد يمكن محاولة وضع قاموس للغة العربية.

٣ ـ المرخلة الثالثة تكون وضع Fiches لكل كلمة مستعينين فى ذلك بالمعاجم التى ذكرتها ولوضع تلك القصاصات لدينا تجربة منقطعة النظير قام بها الألمان فى «ميونج» بجمعهم ملايين القصاصات تمهيداً لنشر كنز اللغة اللاتينية Thwsausus المشهور والتى لم تكف الأموال لنشره وهو لا يزال فى مكتبة «موينج» حتى يقدر الله لاشتراك دولى أن يعين على نشره.

٤ ـ وضع تاريخ اللغة العربية. تاريخيا داخليا Interne وأعنى بذلك تاريخ تكون اللغة العربية أصولا ونحتا واشتقاقا وتركيبا إن كان بها تركيب وتحويلاً وخلقا ووفاة ونقلا وتقريبا وتحديدا وتوسيعا وما إلى ذلك مما لدينا عنه الأمثلة فى الكتب التى تتعلق بعلم الدلالة Semantique كأبحاث Breal و Nupoh و Littre وغيرهم فى اللغة الفرنسية ومما يتعلق بأبحاث علم تكوين الألفاظ Morpholoqi كأبحاث Touche عن الفعل الفرنسى مثلا وكالبحث الجامع المانع الذى نشره أخيرا أستاذنا Blcwteraive uk La formotion des noms en que ancie وما يتعلق بعلم صياغة العبارة التاريخى Lmntone listoique كأبحاث mpoh وبالأخص بحث العلم الهولندى Vogel عن Lytaxe listouque de la lauque famcaie وأبحاث Jesferson أو Kellner عن اللغة

الإنجليزية.هذا من جهة ومن جهة أخرى تاريخ اللغة العربية الخارجى externe وأعنى بذلك تاريخ نشأة اللغة العربية وامتدادها إلى مختلف البلاد من فارس إلى الأندلس وما اعتزها من حياة أو موت فى كل تلك البلاد أو ماآلت إليه من تحديد وتعديل حتى إذا وصلنا إلى العصر الحالى أمكن دراسة اللهجات من الوجهة الصوتية خصوصا من جهة ومن جهة أخرى من وجهة الجغرافيا اللغوية Lseoqsaphie linquistique من جهة الألفاظ والأصوات معا على نحو ما قام به Lsillieson فى فرنسا وبالروح التى أوصى بها -Mielar det فى كتابه Lmguistique et Lialectoloqie rosuaues.

٥ ـ محاولة إقامة علم اللغات السامية المقارن على أسس ثابتة وياحبذا لو انتهى بنا البحث يوما ما إلى إمكان وضع قاموس مقارن للغات السامية على نحو ما وضع W. meyer Lilhe قاموسه المشهور -Plo maniches etymolgiches Worterbuch (1911 - 1920) فقد خطت الأبحاث المقارنة خطوة هامة وكان لها فى فهم اللغات فضل لاحد له كما لا يخفاكم.

هذا ما أرى أن ينصرف إليه مجمعنا فالواجب الأول هو إحصاء ودراسة اللغة وأكبر ظنى أن هذا هو ماأردتم الإشارة إليه عندما سميتم ذلك إحياء الأدب العربى فقصدكم طبعا هوإحياء اللغة العربية بدرس تاريخها وتحديد معانيها وأما عن الخلق فهذا موضوع آخر ونحن لانعلم مانحن فى حاجة لخلقه إذ قبل ذلك يجب أن نعرف ماعندنا وما ينقصنا وأن نتبين ما يتفق مع اللغة العربية كما سيدلنا بحثنا التاريخى عن تكوينها فأصول اللغة أصولها الداخلية لن تعرف بغير ذلك يجب أن يكون لدينا على الأقل ما يعادل Troite de lu fosm de lu luy fanc التى صدر بها larmeateter قاموسه الفرنسى.

هذا ويودى أن أرجوكم أن تعملوا نفوذكم ليظل للمجمع اللغوى حق بل واجب القيام بكل تلك الدراسات جنبا إلى جنب مع كلية الآداب فليس بخافٍ عليكم أن ضرورات التدريس فى الكلية ستعطى حتما لتلك الدراسات اتجاها غيره فى المجمع حيث سينقطع كبار العلماء أو يجب أن ينقطعوا لدراسة اللغة فى ذاتها. بودى أن لو أصبح المجمع كمعمل لغوى مزودًا بكل أدوات البحث وخصوصا بمعمل أصوات تحت تصرف الأعضاء وفوق هذا وذاك بالمال اللازم.

خطر ببالى كل ذلك وأنا أقرأ جدلكم مع أستاذنا الدكتور منصور بك فهمى ولهذا انتهزت هذه الفرصة لأعرضه على عزتكم.

لا أريد أن أجدد القول فى أحوالى الخاصة فليس لدى من جديد بعد كل الخطابات التى أقلقت راحتكم بها وإنما أكرر عنها اعتذارى. ها أنا فى انتظار الامتحان.

وتقبلوا عزتكم وافر تحية واجلال تلميذكم

مندور

مع خير تمنياتى لعائلتكم الكريمة

استاذى العزيز :

كتبت هذا الخطاب وأملى أن يلاقى رأيى عن صديقى الأستاذ جميعى موضع العطف منكم فقد كرس لدراسة فن الاخراج مدة طويلة من حياته برغم معارضة أسرته فى المبدا - أسرة جميعى بالأسكندرية التى ربماسمعتم عنها - كان ذلك جريا وراء ميله الخاص فاظن انه من الطبيعى أن يشجعه أولو الأمر على الوصول إلى ما يريد من خدمة المسرح المصرى الناشىء وماأظن أن الحكومه ستمكن أعضاء بعثتها من تكريس ستة اعوام لتلك الدراسات كما فعل جميعى.
لهذا أكرر رجائى لأستاذى أن يؤيد طلب انضمامه إلى البعثة لمدة السنتين كما طلب فقد وصل إلى ما سيصعب على غيره الوصول اليه فى وقت قصير كالوقت الممنوح لأعضاء تلك البعثة.

باريس فى ٢٥ مايو سنة ١٩٣٧

أستاذى العزيز :

تعاودنى ذكراك منذ أيام فى ألم يعلم الله مداه ولو سألتمونى ولِمَ ذلك لذهبت نفسى شعاعا لا يدرك. إلى اليوم لم أجد فى نفسى من القوة ما أستطيع به أن أسألكم أصحيح ما أخبرتم به والدى من أنكم لو كنتم بباريس لرفضتم لقياى أم عاودتم نفسكم فأنكرتم عليها هذا الحق. عما قليل أظن أنكم قادمون إلى باريس فهل سيظل غضبكم علىّ كما هو. فى ١١ يونيه سأتقدم لامتحان اليونانى وله فقط على أن أعود إلى مابقى فى نوفمبر القادم بعد أن استوثق من رضاكم أولا ومن مستقبلى ثانيا لست أريد أن أخبركم عن مجهودى شيئا وسأترك الامتحان لعله يدل على صدقه وعند حضوركم بسلامة الله لو سمحتم لى بلقياكم ربما أسمعتكم قليلا مماعلق بذهنى شعرا أو نثرا باليونانية عن طول مراس وفى نوفمبر سننظر ما أستطيع. هذا وفى عزمى بمشيئة الله أن أثبت لعزتكم أن كل الامتحانات ليست سواء وأننى كأخوانى أستطيع الحصول على ليسانس فى وقت لا شك سيكون دون وقتهم أما الآن فليس لى إلا أن أدعو الله أن يأخذ بيدى للانتهاء مما كلفت به فلنصبر ولنترك الزمن يصلح ما فى النفس من جروح ولنلزم الصمت حتى تنطق الحقائق ومهما يكن من شئ فلى عندكم رجاء وهو أن تذكروا دائما أن تعلقى بكم تعلق روحى وأنى أسمو به عن كل نفع أو ضرورة وإلا فلا خير فىّ وأما عن ترددى عليكم فمصدره أعتقاد جازم فى نفسى بأن كل ما يأتينى منكم لايجوز أن أقف عند لفظه بل أسمو إلى غايته وأيمانى هو أنكم ماقسوتم على ولا يمكن أن تقسو علىّ إلا تظاهرًا أو لمصلحتى كما يقسو والد على ولده.. لا أقول هذا تطفلا بل لأنه أحساسى الداخلى وليس لدى أى شك فى صحة هذا الإحساس ثم سامحونى إذ أبيح لنفسى الجرى وراء شعورى كلما كتبت إليكم فلست أستطيع فى ذلك شيئا وقد خلقت أسير للجانب الإنسانى من نفسى ولن أرى فيكم إلا ماأشعر به عنكم.

فى ٢١ مايو الحالى أرسلت إلى لجنة مباراة التمثيل رواية أسميتها «آه مأساة نفسى» الرواية متعددة الفصول والمناظر وستحتاج إلى دقة فى الإخراج إن قدر لها ذلك ولهذا وجهت عناية خاصة إلى توضيح هذا الجانب ولكنى غير واثق من مقدرة المخرجين بمصر. لقد درست ولاحظت بقدر ما استطعت الجانب المسرحى ولعلى أخبرتكم فيما سبق باهتمامى بالمسرح وبكل ما يتعلق به منذ أن وصلت إلى باريس. كل هذا عن الناحية الشكلية أما عن تأليف الرواية نفسها فلست أكتمكم أنها كانت تجربة فى حياتى لم يسبق لها مثيل لهذا أرجوكم أن تسمحوا لى بشرح ظروفها لأننى حريص كل الحرص على معرفة رأيكم عن محاولتى وليكون «وليكن» هذا الرأى عن بينة أود أن تعلموا كل ماكان.

سبق أن أخبرتكم عن صداقتى المتناهية لأفلاطون. منذ أن تعرفت به وأنا متعب النفس أتلمس سبيلى فى الحياة. لاحظت فى نفسى منذ زمن سهولتى فى الحوار حتى كان يوم جاءنى فيه زائراً أحد أعضاء بعثة الإخراج فساقنا الحديث إلى المباراة التى نشرت أخبارها الجرائد دون أن أعلم عن ذلك شيئا كما نشرت من قبل خبر مباراة أدبية كثيرة لم أعلم بها فسألنى هذا الصديق لماذا لاأحاول التأليف المسرحى مادمت مهتما بالمسرح ومادامت ثقافتى الأدبية تسمح لى بذلك فأخبرته فوراً بإمكان ذلك وإن لم يسبق لى

التفكير فى هذ الناحية وفى دقائق معدودة اخترقت تفكيرى أشعة متعددة وتساقطت علىّ الموضوعات كالمحموم اقترح الصديق أن أضع له هيكل إحدى الروايات وهو ينميه إن ضاق وقتى عن ذلك فوافقت وافترقنا. خلوت بنفسى فخيل إلى إن حقا وأن باطلاً أن الصديق ليس من النضوج بحيث أريد فأخذت قلبى وأنا وحيد بحجرتى وبسهولة مدهشة وضعت التقاسيم العامة للرواية وفوراً ابتدأت فى تحريرها ولم أترك قلمى إلا وقد انتهيت منها فى مسافة ٤٨ ساعة دون أن أنام ودون أن أشعر بشئ مما حولى حتى لقد تناولت قهوتى فى الصباح ثم عدت اسأل ربة البيت الذى أسكنه راجياً أن تعطينى أياها وكم كانت دهشتى عندما أخبرتنى أننى تناولتها. سيبدو لكم هذا غريبا ولكنه الحق وأنا أجّلك عن ألا يكونه. بعد ذلك نمت طبعا كالميت نوما لاحد له وعند استيقاظى أخذت روايتى وقرأتها لأحد أخوانى فحازت رضاه. حاولت بعد ذلك أن أحاول إصلاح ما يمكن أن يكون فيها من عيب فكنت كلما حاولت ذلك يخيل إلىّ أننى أتلف بدل أن أصلح لهذا اكتفيت بإصلاح تفاصيل لاتذكر وأرسلتها كما هى يخيل إلىّ أن حازت تلك الرواية رضاكم أننى إما كنت فى حالة جنون مطلق عند كتابتها أو أننى موهوب ولهذا أرجوكم رجاء خاصا أن توجهوا إليها عنايتكم بصرف النظر عن المباراة وأن تتفضلوا بإخبارى عن رأيكم فيها وهل من الواجب علىّ أن أعود إلى هذا التأليف أم خير لى أن أتخذ سبيلا آخر. الرواية على ما يظهر لى عسرة الهضم وأكثر تركيزا مما كان يجب وخصوصا لجمهورنا. فقد كتبتها وأنا فى حالة اختلاط عقلى تام. كنت أشعر بغموض بمرور كثير من الناس ممن لاقيت فى حياتى يخترقون تفكيرى دون أن أميز بينهم أو أن أضع واحدا منهم بالذات أمامى وكذلك الأمر فى كل ما قرأت. بالرواية مئات بل آلاف الذكريات ولكنها مختلطةحتى لأعجز أنا نفسى عن إرجاعها إلى أصولها ولكم كانت دهشتى عندما قرأتها بعناية مع خير إخوانى وأنفذهم فهما وأدقهم تحصيلا الأستاذ مراد فكان يكتشف خلف كل جملة رأيا فلسفيا أو أدبيا لفيلسوف أو كاتب وفى الواقع كانوا جميعا ممن سبق أن قرأت وأما عن الجانب الإنسانى من الرواية فلست أكتمكم أننى لا أزال حائر اللب أتساءل ماذا فعل الله ببطل روايتى؟ إلام قاده القضاء؟ أنهض أم لايزال بقارعة الطريق ووسط الظلام الدامس حيث تركته بعد معركته مع قوى الطبيعة الخفية؟ ثم لايفوتنى أن أخبركم إلى أى حد غيرت عندى تلك التجربة كل ما يتخيله النقاد من غير المؤلفين منهم عندما يحاولون تلمس رأى الكاتب أو الشخص الذى يمثله فى الرواية أو طريقة التأليف أو أو فكل هذا باطل والمؤلف لايمكن أن يتصوره إلا مؤلف ولاغرابة فى ذلك فليس لنجار مثلا أن يشرح تركيب محرك عربة لدى مئات الأفكار أود أن أحدثكم عنها ولكنى أحتفظ بكل ذلك إلى يوم لقياكم إن شاء الله بعد أن تقرأوا الرواية وبعد أن أنجح بإذن الله وتعود نفسكم فتنفتح لى كما كانت ودمت لتلميذكم المخلص المحب،

مندور

مع خير تمنياتى لعائلتكم الكريمة

بعـــد البـــعـــثـــة

الدقى فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٠

أستاذى المحبوب :

تباركت آيات الله إن عدت فرأيتك وقد اجتمع بنفسك الجميلة ما أعرف فيك من حب لمن أحبك فإذا بك كما عهدتك وكما ستظل دائما مستقراً بقلبى سواء جمعتنا الأيام أو جرت بيننا بقضاء وقد استويت إلى حافة المقعد ويداك الجميلتان فى نصف إغلاق إلى مقدم المنضدة وضربات خنصرك هى هى إلا أنها كانت بالأمس ترن فى قلبى كما يرن ناقوس بقلب راهب عمره الأيمان ذلك أنها جاءت بردا على قلب خربه الألم ومالى أحدثك هذا الحديث هب أن الظلم لم يرتفع ولن يرتفع. أقسم بين يديك الطاهرتين أنى مبتسم بعد اليوم لكل مايكون.

اكتب إليك والماء حائر بجفنى لا لإنك نفحت عنا بإيمانك الذى يصعق النفوس فسيان عندى غنى وفقر ولا لأن صوتك الذى طالما طربنا له لايمكن أن ينحدر الى مفاوز الظلم ونبراته نبرات الحق بل لأننى عدت فأحسست فى جرسك نغمة الحب لنا وعلى هذا نحرص أول الأمر وآخره ،

هب أننا لن ننال عدلاً وأننا قائمون على ما قدر لنا من ظلم وهب أن الحياة مجهزة علينا وهب أن ما درجنا عليه من أمل مصيره إلى الفناء المحقق بل وهب أننا مغادرون الحياة بما عليها ومن فيها ، هب كل ذلك صحيحاً ثم اعلم أنه لو صح لبقى لنا ما نتعزى به عن كل شىء وهو فيض من المحبة وصل بين نفوسنا ونفسك وهذا شىء لاأملك فى حياتى عنصراً أتم منه ثباتاً ،هذا هو الحق وهو ما نسأل الله أن ينزله بنفسك لذاته نقياً طاهراً بريئاً من كل غرض .

نحبك أيها الرجل النبيل ، وأقول ذلك وأنا أبكى كالطفل الصغير لأنك جميل النفس ،نحبك ونود أن نفديك بأنفسنا وثق أننا ما تمسك أرواحنا عن التهالك عليك إلا خوفا على هذا الحب الذى نحمله لك

نحبك ، أيها الرجل النبيل لأننا لا نستطيع غير ذلك .قد نثور وقد تثور ولكنها ثورة اللسان وأما القلب فعلم الله أنه ثابت على حبك.

ما أريده اليوم هو أن أرجوك أن تنسى كل ملابسات حياتنا الحقيرة المؤلة لتحرر النفس من كل قيد لبرهة من الزمن ،أن تذكر فى تلك البرهة التى تستخلصها أن هناك نفسا بشرية تحبك لحقيقة نفسك لا لشىء آخر وأنا بعد واثق أن خير ما فى الحياة لايمكن إلا أن يكون برهان «برهانا» كهذه وهى بعد فى مدى الزمن الذى امتد من قبلنا وسيمتد بعدنا إلى غير غاية بمنزلة قرون لاخير فيها .

تباركت رجلاً وتبارك النبل فيك وماذا أستطيع لك إلا أن أدعو الله مخلصاً له الدعاء أن يبقيك لنا وأن يمنحنا من القوة ما نكون به رحيث تأمل منا وما زلت . أستاذى المحبوب - تلميذك مندور الذى يحبك والذى علم الله كم تماسك حتى لا يخف إليك مقبلاً شاكراً كلمات الأمس التى لا يعدل بها فى الحياة شيئاً.

ولتكن لك نعمة الله أنت ومن تحب ،

مندور

٢٥ ابريل سنة ١٩٤٠

١٢ شـــارع الـدقى
الـدقى

أستاذى العزيز :

تحية وإجلالا وبعد فتريد إدارة الجامعة أن تعتبر بعثتى فاشلة وبذلك تقتطع من حياتى التسع سنوات التى قضيتها فى الدراسة بأوروبا على هذا تستند فى محاولة التفريق بينى وبين إخوانى العائدين معى هذا العام من فرنسا: ولهذا القول الباطل يكاد قلبى ينخلع وأملى إليكم أن تصححوه لدى إدارة البعثة بالوزارة ولدى إدارة الجامعة وذلك لأنه:

(١) ليس صحيحا أنى فصلت من البعثة فلم يصدر على ما أعلم أى قرار من لجنة البعثات بفصلى وإنما صدر قرار من مجلس الكلية يترك لى الخيار فى الرجوع إلى الكلية أو الاستمرار على نفقتى الخاصة وقد فضلت البقاء رغم مشاق ذلك لأدرس علم الأصوات التجريبى بالمعمل وانتهيت من ذلك بنجاح بعد تقديم رسالة كبيرة عن أوزان السفر العربى نلت عنها الدرجة ١٥/٢٠ وشهادة أخرى عن النطق فهل اعاقب على ذلك. هذا وإدارة البعثات لاعلم لها بما فعلت ولم تشر إلى ذلك أقل إشارة فى خطابها إلى إدارة الجامعة.

(٢) يقولون إن بعثتى فاشلة ولست أدرى بما يمتاز علىّ إخوانى وقد عادوا جميعا بدون الدكتوراه التى طلبت منا جميعا والتى ضاق عنها الوقت وما يحمل منهم أحد غير ليسانس جديد هوتكرار لما حصلوا عليه من جامعتنا (ليسانس تاريخ أو فلسفة) وقد عدت مثلهم بليسانس مكون من:

١ – الأدب الفرنسى.

٢ – الأدب واللغة اليونانية.

٣ – فقه اللغة الفرنسية.

٤ – دبلوم علم الأصوات العام والتجريبى.

وعلاوة على ذلك:

١ – شهادة علمية فى النطق والإلقاء.

٢ – دبلوم قانون فى الاقتصاد السياسى والتشريع المالى من كلية الحقوق (لا تعلم به إدارة البعثات)

فهل كل هذا لايساوى ليسانس تاريخ أو فلسفة؟

(٣) وأما الدكتوراه فلست متخلفا عن إخوانى فى اعدادها وسوف انتهى منها مع إخوانى وإحدى الرسالتين عن أوزان الشعر وهذه معدة بالفعل ولايعوقنى عن الانتهاء منها إلا عدم وجود آلات للقيام ببعض التجارب التى تنقصنى والثانية عن الفعل فى القرآن وهذه سرت فيها هذا العام إلى مسافات بعيدة أستطيع أن أطلعكم على مراحلها لو تفضلتم بقبول ذلك.

(٤) لو اضفتم عزتكم إلى ذلك سافرت إلى البعثة ومعى ليسانس آداب كنت فيه الأول وليسانس حقوق كنت فيه من الأوائل وذهبت إلى أوروبا بالدراسة لغات جديدة عنى (٤) لو اضفتم عزتكم إلى ذلك أنى سافرت إلى البعثة ومعى ليسانس آداب كنت فيه الأول وليسانس حقوق كنت فيه من الأوائل وذهبت

إلى أوروبا الدراسة لغات جديدة عنى وعن دراساتى السابقة بينما عاد أخوانى إلى دراستهم من تاريخ أو فلسفة مما يدل على مبلغ الظلم الجارح الذى يريدون إنزاله بى اليوم. أتقبلون عزتكم أن أعين بـ ١٢ جنيها بعد حصولى على ثلاثة ليسانسات وبعد عشر سنوات من تخرجى مع أنى أعلم أن غيرى عين بـ ١٧ جنيها لأنه يحمل ليسانس آداب وليسانس حقوق فقط (عطية مشرفة بكلية الطب البطرى) ومن الموظفين كثيرين «كثيرون» ممن وصلوا إلى الدرجة الخامسة آليا وبمض المدة وقد كان باستطاعتى أن أعمل فى القضاء منذ سنة ١٩٣٠ كما عمل غيرى ممن كانوا متخلفين عنى وأن أصل إلى الدرجة الخامسة أو الرابعة كما وصل غيرى. أكانت هذه البعثة شركا تتردى به حياتى. هذا ظلم يقشعر له بدنى أأعين بـ ١٢ جنيها كمتخرجى هذا العام من تلاميذى. أعين بـ ١٢ جنيه «جنيها» كمدرس ابتدائى لأن جماعة الكتبة يرون ذلك تطبيقا للوائح لايعرفون عنها شيئا ومتى كانت حياة الناس بهذا الرخص. هذا ظلم لو أنى استطعت حصر مصدره لقومته بيدى إذ أنى لا أستطيع أن أقبل الحياة معه وحتى الاستقالة أصبحت اليوم لاتشفى نفسى لأن جرحها لاقرار له. من يستطيع أن يقول - وعهدى بك أستاذى صادق الحكم صادق الحس - أنى دون أيوب أو سيدة أو عثمان امين لأنهم عادوا بليسانس تاريخ أو فلسفة بينما عدت أنا بشهادات فى الأدب الفرنسى واليونانى وفقه اللغة - والأصوات ودراساتى أشق وأكثر تنوعا وعمقا وفائدة. هذا ظلم يغص به صدرى.

(٥) عهد إلى هذا العام بتدريس أشياء مختلفة فهل بلغ عزتكم مابذلت فى ذلك من جهد ومانلت من حماسة الطلبة حولى وقدومهم من جميع الأقسام لاستماعى بل ومن الكليات الأخرى - فى هذا العام كتبت أربعين مقالة هى تحت يدى الآن نشرت ما استطعت نشره منها وما لم ينشر لاذنب لى فيه وأصحاب المجلات لم يرفضوها لضعفها بل لقوتها ومنها ما يقع فى عشرات الصفحات عن المسائل اللغوية. فى هذا العام نقلت إلى العربية عن الإنجليزية:

١ - الغراب لأدجار يعود بو «الثقافة».

٢ - مرثية فى مقبرة ريفية لجراى «الرسالة».

٣ - عندما وصلتنى صورة والدتى لكوبر (لم تنشر ولكنى طبعتها ووزعتها على طلبتى).

٤ - ارليس لتنسون (لم تنشر ولكنى وزعتها على الطلبة ايضا).

٥ - بطلان رغبات البشر لجولشون (أمليتها على الطلبة).

وعن الفرنسية:

(١) قصيدة الحرية لشينية (مثلها الطلبة).

(٢) ليالى موسيه (مثل منها الطلبة ليلة أكتوبر).

(٣) قصيدة سامسون ودليلة (لم تنشر) لثنى.

والروايات الآتية

(١) نزوان ماريان لمسيه.

(٢) الشمعدان لمسيه.

(٣) لاتلهو بالحب لمسيه.

فهل هذا مجهود مقصر أو عاجز.

عهدوا إلى هذا العام بالإشراف على لجان الفنون ففرحت ووجهت وأقمت ما استطعت من حفلات رغم عدم التقدير والمضايقات التى أتتنا من الأفكار السيئة التى فى بعض العقول عنا والتى هى الظلم بعينه وهى بعد لاتستند إلى أى أساس وقد أحرقت دمى فى فتح آفاق أدبية أو فنية أمام الطلبة بكل ما استطعت من قوة وأقبلت على عملى بالكلية. كعمل مقدس لا أتساهل فى واجب ولا أسكت عن عيب وكل أيمانى أنى أرد إلى بلادى ما أهدت إلىّ من جميل. أعلى هذا أكافئ «أكافأ» بهذه الإهانة.

لهذا أرجو من عزتكم أن تتدخلوا فى الأمر فتحملوا إدارة البعثات على تصحيح الخطاب الذى أرسلته إلى إدارة الجامعة وتلك الإدارة لاتقيم وزنا لخطابات الكلية إلى جانب خطابات إدارة البعثة إذ يجب أن يقرروا أنى لم أفصل من البعثة وأنى لم أفشل فى بعثتى وأن سقوطى وهم كتابى وأن تتدخلوا لدى إدارة الجامعة لتعاملنى كأخوانى على الأقل فأعطى مرتبى فى الدرجة السادسة بأعتبار أنى تخرجت سنة ١٩٢٩ واستحقت لى العلاوات التى أخذها جميع الموظفين وأن أرقى إلى الدرجة الخامسة بعد ذلك باعتبار أن ثلاثة ليسانسات ودبلومين وعشر سنين تكفى لاستحقاقى للإنتقال من درجة إلى درجة.

بالكلية من تخرج بعدنا بسنين ومن كانوا دوننا وهم الآن بالدرجة الرابعة ومنهم من اقتصر جهده على الحصول على دكتوراة جامعة وأنتم تعلمون معنى ذلك ومنهم من يحمل ليسانس يسمى دكتوراه وتعتبره الإدارة كذلك لأنه يحمل حروف الدكتوراه هذا عبث وظلم لايجوز أن يكون بجامعة حيث يوجد من يستطيع أن يقدر أين تكون الكفاءة والعلم بصرف النظر عن الحروف وإلا فإن سادت الجامعة عقلية العبيد فلاخير فى جامعة ولا فى علم ولسنا جمادات حتى تتهمنا جماعات الكتبة وما تلك إلا آلات صم بكم حمقى.

أستاذى العزيز:

سيكون خطابى هذا إليكم آخر رجاء أوجهه لتحقوا الحق فقد فضلت أن يكون كتابة لأنه من الثقيل على نفسى أن أضايقكم شفويا كل يوم وآخر بمسألتى ولديكم من المشاغل ما لايحصى فإن رأيتم عدالة شكواى وكان من عزمكم العمل على رفع سببها حمدنا لكم صنيعكم فإن لم يكن كان رجائى أن تخبرونى بما ترون كى أنظر ماذا أستطيع أن أعمل حتى لاتنهار حياتى بين يأس وأمل لايتحقق.

هذا ولولا بقية أمل معلقة بكم لنفضت يدى من الجامعة ومن فيها ولكنى حتى اليوم كنت أصبر لأنى أعلم أنكم لو تناولتم هذه المسألة حقيقة لتمت فى أقرب وقت وحتى اليوم كان موقفكم منها موقف تحفظ رعاية لإحساس من بيدهم الأمر ولكنا اليوم أمام مرحلة حاسمة فإن كنتم تريدون مساعدتنا فلتبشرونا بها وإلا فلا فائدة من هذا العذاب الذى طال ومل وضقنا به نفسا.

أستاذى العزيز:

أملى أن ترفعوا عنى الظلم لتقرير الإدارات المختلفة العدل والقول:

(١) إن بعثتى ناجحة إن كان معنى النجاح تقدير الجهد الذى بذلت والنتائج التى وصلت إليها وقد كونت نفسى تكوينا اعتقد أنه صالحا يؤهلنى لتولى هذه المهنة الشريفة مهنة تثقيف الشباب كما أعتقد أن الثقافة يجب أن تكون .

(٢) أنى لم أفصل من البعثة وأن مدة البعثة وهى زهرة حياتى لايجب أن تسقط من تلك الحياة لأنى بعثت سنة على نفقتى أضنى أهلى فى طلب العلم وماذا نفعل بالثمانية سنوات الأخرى التى بقيتها على حساب الدولة ـ ألم تكن هذه المدة بعثة وقد عدت على نفقة الدولة وإلى المصلحة التى أرسلتنى ـ فهل معنى هذا ضياع كل تلك السنين.

(٣) إن مؤهلاتى العلمية والأقدمية تكفى لاستحقاقى علاواتى فى الدرجة السادسة ونقلى إلى الدرجة الخامسة مساواة لى بغيرى.

وأنا شاكر لكم ما تعملون من أجلى مقدر فضلكم آملا فيكم أكبر الأمل ولكم أصدق التحية والإجلال،

محمد عبد الحميد مندور

سيدى الأستاذ :

نحييكم تحية خالصة مخلصة ثم نسألكم أن تعبأوا بأمرنا فى الكلية التى صرنا فيه كسقط المتاع لانجد سبيلاً صالحاً للعمل ولا يلقى علينا من الدروس إلا أشياء أولية كمبادئ النحو اللاتينى واليونانى لطلبة لايدرسون هذه اللغات دراسة جدية على حين أن فى الكلية علوماً شاغرة نحن أجدر الناس ان نقوم بها كالأدب اللاتينى واليونانى فى قسم الدراسات والفرنساوى فى قسم الأدب الفرنسى والأهواء المتضاربة التى تسير كل قسمٍ تولى العمل من تشاء وتحرم من العمل من تشاء حتى صرْنا فى حيرة من أمْرنا ولسنا ندرى علام بذلنا من شبابنا تسعة أعوام نحصل ونعمل ثم لا نجد من يزكينا ولا يقربنا من الخير بل لا نجد إلا دعاة النميمة يقطعون علينا كل سبيل يرموننا عند من لا يقدر دراستنا بالجهل مرة وبالغرور مرات ثم بالثورة أحيانا ولسنا هنا محاربين ولامدعين وإنما نريد أن ننتفع وننفع بما نعرف ومن أجل ذلك نتخذك لساننا بصرخات ضمائرنا ونحن مؤمنون رغم كل شئ أن بيدك أن تفعل الخير إن اردت وهذا خير قد ينال التعليم وهى غاية من غاياتك التى تسعى لها والتى من أجلها حملنا ما حملنا من بلاء وجهد وتضحية،

على اننا نبيح لأنفسنا أن نخاطبك كرجال شبوا عما ينزل إليه عامة المتقربين الكاذبين عالمين أنك تقدر أن لنا آمالاً جديرة بالنصر والخير فلتكن أنت نصيرها وإلا فلا يغنيكم ولايغنى أحداً أن تسير القافلة ونحن وقوف حيارى نتحسر على ما يتحطم من هممنا ودوافع ايماننا ولكم أطيب السلام،

على حافظ

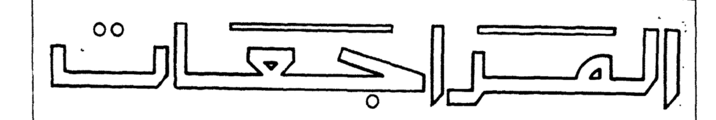
محمد عبد الحميد مندور

(   )*

(*) الخط الذى كتبت به هذه الرسالة مختلف عن سابقاتها جميعا، وهى موقعة من كل من «على حافظ» ومحمد عبد الحميد مندور، لذلك ترجح – بالمقارنة بـ توقيع على حافظ، وهو الأول – إنها كتبت بخطه، وأن كانت مرسلة لطه حسين منهما.

(*) بدون تاريخ.

المحـــرر


المراجعات

العلم فى

«هل حدثت فى حياتنا الفكرية ثورة تساير الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحدثت لنا تغييراً لا جدال فيه؟ بعبارة أخرى: هب أننا أقمنا مقارنة تحليلية بين أوجه نشاطنا الفكرى خلال العشرينيات من هذا القرن وما يقابلها خلال الستينيات (أو خلال التسعينيات س.ح.ص) فهل تجد بينها فارقا نوعيا يستحق أن يوصف بأنه ثورة فى عالم الفكر؟»

زكى نجيب محمود

فلو أننا تدارسنا هذا الخيط الطويل من المشاكل التى تواجهنا فى مصر: المشاكل الاقتصادية، مشاكل التنمية البشرية، مشاكل الأمن القومى، مشاكل الإرهارب والعنف، مشاكل نقص الإنتاجية، مشاكل البطالة، إلى آخر هذه المشاكل المتشابكة الصعبة التى تواجه بلدنا، لو أننا تفحصنا وتدارسنا هذا الخيط الطويل المعقد بحثا عن العقدة، العقدة الأم، التى لو حللناها لسهل حل باقى العقد، لكانت هذه العقدة تتمثل فى غياب العلم والمنهج العلمى عن حياتنا. فبالعلم وبالمنهج العلمى يزداد الإنتاج وبالعلم تتحسن الصحة، وبالعلم يشفى الطفل المريض وتعود له ابتسامته، وبالمنهج العلمى يشتد عود الأمن القومى، وبالمنهج العلمى تحل المشاكل الاقتصادية.

ولو نظرنا إلى شئون دول العالم حولنا لرأينا للتو واللحظة أن هناك علاقة طردية وثيقة بين العلم والمنهج العلمى من جانب والرفاهية والسعادة والخير من جانب آخر. فكلما احترمت أمة العلم والمنهج العلمى، زاد تقدمها ورفاهيتها وسعادة أهلها. انظر إلى نمور شرق آسيا: إن راية العلم والمنهج العلمى تعلو فى هذه البلاد علوا شامخاً، ففى تايوان مثلا ينص الدستور على إنفاق نسبة كبيرة محددة من الميزانية على العلم والتعليم. وهكذا ترتفع سنويا فى تايوان ما تصرفه الدولة على العلم والتعليم بارتفاع الميزانية.

بل إننى لا أبالغ حين أزعم أن انهيار الاتحاد السوفيتى وانتصار الولايات المتحدة عليه كان سببه الأول هو الموقف من العلم. فلقد استبدل الاتحاد السوفيتى الأيديولوجيا بالعلم (وقصة العالم الدجال ليسنكو واستيلاؤه على عقل ستالين خير مثال لذلك)، بينما تبنت الولايات المتحدة العلم والمنهج العلمى فى إنتاج التكنولوجيا الحديثة وفى العلوم الإنسانية. ولماذا نذهب بعيدا ونحن نعلم أن العالم الرأسمالى بأسره قد تخلص من الجانب الأكبر من أزماته الاقتصادية وحقق ازدهاره بتطبيق المنهج العلمى على يد علماء الاقتصاد مثل كينز(J. M. Keynes 1882-1946) ولسوف يظهر التاريخ الدور الذى لعبه التهديد بتكنولوجيا حرب الكواكب أيام ريجان وجورباتشوف.

ولقد بدأ التفوق الساحق للولايات المتحدة فى ميادين العلم والتكنولوجيا بعد إطلاق الروس لأول قمر صناعى عندما أعلن كندى عن ثورة فى تدريس الرياضيات والفيزياء تمهيدا للهبوط على سطح القمر بعد عشر سنوات... وقد كان. ورغم هذا التفوق فإن حكومة بوش عندما شعرت ببعض الخلل فى ميادين التقدم العلمى أصدرت دراسة بعنوان «أمة فى خطر» وقامت بثورة فى أجهزة

الثـــقـــافـــة المصـــريـة

سمير حنا صادق

التعليم زادت من التركيز على العلوم الأساسية والرياضيات.

بالعلم إذن وبالمنهج العلمى تتقدم الأمم ويسعد الإنسان وتزدهر الحضارات.

لتوينبى (A. Toynbee) نظرية تزعم أن الحضارات تزدهر وتذوى حسب التحديات التى تواجهها ووفقا لاستجابتها لهذه التحديات، ومن هنا ونحن الآن على مشارف القرن الواحد والعشرين، ونحن نواجه رغم عدة ثورات اقتصادية وسياسية واجتماعية موقفا أصبحت فيه حركتنا الفكرية أكثر تخلفا عما كانت عليه منذ العشرينيات، من هنا تصبح مناقشة رافد العلم فى الثقافة المصرية موضوعا هاما للمناقشة، لأن عليها تتوقف مشكلة أن نكون أو لا نكون.

لكن لنبدأ أولا بمحاولة تعريف ما هو العلم، وما هو المنهج العلمى، وما هى الثقافة.

١- العلم والمنهج العلمى:

مثل الكثير من النشاطات الإنسانية، فإننا رغم معرفتنا بشكل عام بما نتحدث عنه، فإن التعريف «الجامع المانع» للعلم يواجه العديد من الصعوبات. ويزيد من هذه الصعوبات أن كلمة «علم» باللغة العربية ما زالت تعبر حتى الآن عن «المعرفة» بل هى تعبر أحيانا عن معان لا علاقة لها بالعلم فنحن نصف السيدة ذات العلاقة المحدودة جدا بالعلم بأنها «عالمة».

والوضع هنا الآن يماثل ما كان عليه الأمر منذ قرون فى الغرب، فالأصل اللاتينى لكلمة علم Science هو Scienta وهى تعنى المعرفة. ولكن فى الاستعمال الحديث خلال القرنين الأخيرين أصبحت كلمة «علم» باللغة الإنجليزية Science تعنى أنواعا خاصة من المعرفة، بدأت بالمعرفة الخاصة ببعض العلوم الطبيعية التى كان يطلق عليها قبل ذلك اسم فلسفة الطبيعة «Natural Philosophy». ولقد أصبح استعمال الكلمة الآن يشمل آفاقا مختلفة ومساحات شاسعة من المعرفة: فمن أجزاء الذرة إلى هجرة الطيور، ومن فسيولوجيا المخ إلى ولادة وموت الكواكب، ومن الهندسة الوراثية إلى علوم الاجتماع والاقتصاد.

ورغم صعوبة وضع هذه النشاطات جميعا تحت تعريف واحد يجمعها، إلا أنها تشترك بشكل عام فى متطلبات معينة حتى تعتبر علوماً. ورغم اختلاف المتطلبات فى نماذج Paradigms مختلفة بين علم وآخر، فإنها تشكل فيما بينها جميعا ما يطلق عليه اسم المنهج العلمى Scientific Method فكل هذه العلوم المتباينة تتطلب بشكل عام:

- مراقبة محايدة منظمة مدربة للطبيعة الميدانية أو لتجربة مخططة.
- فحص نتائج هذه المراقبة بعقل مدرب تدريباً خاصاً على المنطق والنقد.

- استخراج قوانين عامة عن نتائج اعمال الفكر المدرب فى نتائج المراقبة.

- تطبيق هذه القوانين على مراقبات أخرى، فإذا ظهر خلل فى التطابق بين القوانين المفترضة والظواهر الجديدة تعدل القوانين إلى ما يلغى هذا الخلل.

- وتبدأ دورة جديدة على مستوى أعلى.

صحيح أن هذا التسلسل قد لا يتبع أحيانا إلا جزئيا، وقد يختزل فى علوم معينة، وقد يقوم باحث بإتمام عمل الآخرين، ولكن الخطوط العريضة لهذه العمليات مازالت تحكم الجانب الأكبر من النشاط الإنسانى الذى نطلق عليه اسم «العلم» بالمفهوم الحديث.

ولقد مرت محاولات الإنسان لتفهم ما حوله بعمق بمراحل ثلاث كبرى يمكن تبسيطها كالآتى:

ففى المرحلة الأولى: التى تمثلت بوضوح فى عصر الفلاسفة الإغريق، كان الدور الأساسى للتفهم والمعرفة هو للعقل: لقد كان هؤلاء الفلاسفة يعملون عقولهم فيما حولهم وتخرجون بنتائج هذا الفكر: كان من هذه النتائج مثلا فكرة أن العالم يتكون من أربعة عناصر: الماء والتراب والنار والهواء.

وفى المرحلة الثانية: اكتشف الفلاسفة قيمة التجربة فتغلبت على العقل وأصبحت المعرفة مبنية أساسا على التجريب Empericism . وقد عبر عن هذه الفترة تماما الفلاسفة المسلمون الذين ازدهر فى عصرهم منهج التجريب وانتشرت تجارب مثل محاولات تحويل المعادن إلى الذهب على أيدى الكيميائيين Alchemists .

أما المرحلة الثالثة: ففيها تم التفاعل بين التجربة والعقل على النحو الذى سبق ذكره عن مفهوم العلْم الحديث.

فإذا عرفنا «العلم» بالمعنى الحديث (إعمال التجربة والعقل) فإننا سنلاحظ أنه لم يظهر إلا بشكل بسيط فى أيام مكتبة الإسكندرية (٣٠٠ ق م - ٣٠٠ ب م) وفى بعض المراكز أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ثم اختفى تماما إلى أن ظهر علماء الفلك العظام: كوبرنيكوس (N.Copernicus 1473-1543) وجاليليو (Galileo 1564-1642) وكبلر (J.Kepler 1571-1630).

ولقد تخصص العديد من الفلاسفة فى موضوع العلم وأصبحوا بهذا «علماء العلم» ويلمع عندنا فى مصر العديد من الأسماء فى هذا المجال منها على سبيل المثال لا الحصر: الأساتذة الدكاترة زكى نجيب محمود (رحمه الله) وفؤاد زكريا وصلاح قنصوه ويمنى طريف الخولى. ولعل أحد أشهر هؤلاء الفلاسفة على المستوى العالمى هو كارل بوبر (K. Popper) الذى يعرف العلم بأنه «ما يمكن تكذيبه ويصمد لاختبار التكذيب». ويحدد النشاط العلمى بأنه يدور دائما حول محاولة تكذيب ما يفترض من مفاهيم سابقة.

وفى حقيقة الأمر، فإننا لو دققنا النظر لاكتشفنا أن العلم ليس هو المعرفة وإنما هو «صناعة المعرفة». فالعلم يرتبط دائما بالبحث أو إعادة البحث Resear وعندما يتوقف البحث يتوقف العلم. والبحث يقوم على إعادة التساؤل عما سبق وضعه من قوانين وأفكار والشك فيها ومحاولة تعديلها وبناء معرفة جديدة. ومن هنا كانت أهم خواص العلم النمو المستمر بالشك المستمر. ولا يتم هذا النمو بالتراكم (مثلما يحدث فى الفنون والأدب) وإنما يتم بالتفاعل بين القديم والحديث والخروج كل يوم بصورة أوضح عن الظواهر التى ندرسها لنطوعها لخدمة البشرية وجعل الحياة أكثر سعادة وحرية. ومن هنا نستطيع أن نتفهم مقولة أوجست كونت (A. Comte 1798-1857) «إن تاريخ العلم هو العلم نفسه» .

ولا يمكن أن ننهى حديثنا عن العلم قبل تذكر أن المنهج العلمى قد

انتقل الآن من مجرد التطبيق على ما كان يطلق عليه اسم العلوم الطبيعية (كالطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء) إلى العلوم الإنسانية كالاقتصاد والعلوم الاجتماعية والإعلام والسياسة وعلم اللغات وعلم النفس.

ويتحدث بعض أعداء العلم من الجهلة عن أن العلم يرتكب أخطاء مستمرة ويكذب نفسه دائما مما ينفى وظيفته ، ولكن الحقيقة غير ذلك: فالذى يحدث فى النشاط العلمى هو زيادة الايضاح وإلقاء ضوء أكثر على الحقائق. وتصوير العلم كمجموعة من المعلومات المشوشة الكاذبة خطر على حضارة أى أمة فى العصر الحديث ومقدمة لوقوعها فى أيدى الدجالين والمحتالين.

هذا هو العلم اذن ..

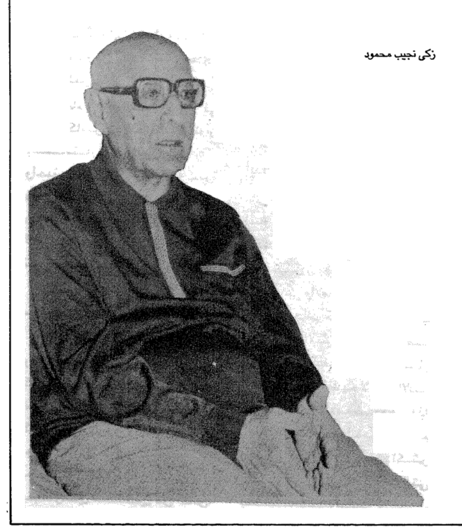
فما هى الثقافة؟

٢- الثقافة

كما هو الحال فيما يتعلق بالعلم، فإن تحديد تعريف مانع جامع للثقافة عملية صعبة. ويزيد من صعوبتها اختلاف المفهوم فى اللغة العربية عنه فى اللغات الأخرى.

وتعرِّف الموسوعات العلمية «الثقافة» Culture بأنها «مجموع العادات والتقاليد وأساليب المعيشة والتسلية ووسائل الإنتاج والمعتقدات والخرافات والأساطير وعادات الأكل واللبس.. الخ التى تشترك فيها مجموعة معينة من الناس». بمثل هذا التعريف المقبول عالميا، تصبح كلمة «مثقف» بفتح أو بكسر القاف لا معنى لها . ونحن نستعمل هذه الكلمة عادة بمعنى «عامل بالفكر» Intellectual . ومن أجل هذا نصف مجموعة من الناس بأنهم «مثقفون» وهم ما يطلق عليهم باللغة الإنجليزية كلمة Intellectu-als.

وتضيف بعض الموسوعات إلى هذا المعنى المتفق عليه عن الثقافة معنى آخر يحتوى على ما يدور بذهن الأدباء والفنانين والعلماء والمفكرين من أفكار وأعمال تحاور الوضع الحالى للثقافة وتحاول الانتقال به إلى ما تظن أنه أفضل وأحسن.



زكى نجيب محمود

العلم فى الثقافة المصرية

ولعله من المفيد ونحن نناقش رافد العلم فى الثقافة المصرية أن نتذكر لورد سنو (C. P. Snow) ومحاضرته الهامة فى أواخر الخمسينيات فى جامعة كامبريدج،

ويمثل لورد سنو ظاهرة إنسانية فريدة، فإلى جانب ما كتبه من إبداعات أدبية ـ ومنها العديد من الروايات الرائعة ـ فهو من أهم العلماء الذين ساهموا باكتشافاتهم فى مجالات علم الطبيعة. وفى خلال الحرب العالمية الثانية كلفه تشرشل بتكوين هيئة من العلماء تولت القيادة العلمية للحرب.

فى عام ١٩٥٩ ألقى لورد سنو فى جامعة كامبريدج محاضرة بعنوان «الثقافتان» The Two Cultures. وأحدثت هذه المحاضرة ضجة كبيرة ونشرت فى طبعات عديدة من الكتب ونشرت مسلسلة فى بعض المجلات الأسبوعية الجادة مثل «السنداى تيمز» Sunday Times .

فماذا قال لورد سنو فى محاضرته؟

قال سنو إنه كان بحكم الدراسة والعمل باحثا فى علوم الطبيعة، وأنه كان بحكم الهواية أديبا. وقال إنه بعد فترة من عمله فى كامبريدج لاحظ أنه كان يقضى نهاره بين العلماء ويقضى ليله بين الأدباء. وأنه كان ينتابه إحساس بأنه كان ينتقل بين مجموعتين مختلفتين من الناس، صحيح أنهم من أصل واحد وطبقة واحدة ووضع اجتماعى متشابه ، إلا أنه يفصل بينهم بحر كبير من الفواصل الفكرية. بل إن غياب التفاهم بين المجموعتين يصل أحيانا إلى درجة الكراهية المتبادلة.

وتتميز المجموعة الأدبية، فى رأى سنو، بميل أعضائها لليمين السياسى، وبأن أفرادها يميلون إلى التشاؤم الاجتماعى الذى وصل ببعض قممها إلى الانضمام لصفوف الفاشيين مثل ازرا باوند (Ezra Pound) وييتس (William Butler Yeats) وويندهام لويس (Wyndham Lewis) ويصل بالبعض الآخر إلى درجة العدمية واليأس مثل جورج أورويل (George Orwell).

أما مجموعة العلماء، وقد أتيحت لسنو فرصة معاينة وحوار عشرات الآلاف منهم أثناء الحرب، فإنهم يتميزون بشىء من التفاؤل الاجتماعى والاستبشار بالمستقبل، مما دفع بجانب كبير منهم للاشتراك فى الحرب الأهلية الأسبانية ضد فرانكو، وأن أغلبهم يميل لليسار السياسى، وإن أغلبهم لا يقرأ الأدب، وأقصى ما فعله بعضهم فى هذا المجال هو محاولة قراءة ديكنز، وأنهم رغم ذلك كانوا بشكل عام أكثر تفهما للكلمات التى يستعملونها مثل «موضوعى» و «فلسفة» و «تقدمى»... الخ. ويلاحظ سنو أن العلماء، وإن كانوا أقل تزمتا فيما يتعلق بالدين، فإنهم كانوا أكثر تمسكا بشكل عام بالأخلاق، كما لاحظ أيضا أن علاقتهم بالفنون تتركز على الموسيقى الجادة وأحيانا على الفنون التشكيلية.

ويقول سنو: إن المبدعين الأدباء انفردوا فى غفلة من الزمن بلقب «المثقفين» Intellectuals وللورد سنو مقولة مشهورة فى هذا المجال: إذ يقول إنه اكتشف بعد أن استفزوه عدة مرات أنه بسؤالهم عن القانون الثانى للحركة الحرارية Thermodynamic (فى رأيه المعادل العلمى لقراءة شكسبير) اتضح له جهلهم التام به.

ويستخلص من كلام لورد سنو فى هذا المجال أنه كما أننا لا نعتبر الجراح أو عالم الفيزياء مثقفاً Intellectual فى هذه الأيام إلا لو كان قرأ تشيكوف ودوستويفسكى وسارتر وشكسبير، وسمع شوستاكوفتش وبرليوز وإلجار ورأى رسومات ماتيس وجوجان ورفائيل وبيكاسو، فإننا يجب ألا نعتبر الكاتب المسرحى أو الروائى أو المؤلف الموسيقى مثقفا ما لم يكن قد قرأ عن النظريات التى غيرت الفكر الإنسانى مثل نظريات التطور والكم والنسبية، وما لم يكن يعرف شيئا عن الهندسة الوراثية ونظرية المعلومات.

ويخلص لورد سنو إلى أن هذا الاستقطاب بين المجموعتين كارثة للجميع وخسارة فادحة للمجتمع. ويقول إنه إذا استمر تجاهل العلماء للأدب وازدراء الأدباء للعلم فإن مستقبل بلاده يصبح معرضا للخطر.

هذا تلخيص لبعض ما قاله سنو في محاضرته الرائعة الطويلة (٥٢ صفحة من القطع الصغير)، فما علاقة هذا كله بنا في مصر؟

إن النظرة الشاملة للمثقفين في بلادنا يتضح منها الغياب المطلق لمجموعة العلماء، فقد هجر الجانب الأكبر من علمائنا العلم والثقافة العلمية ، القلة منهم إلى الثقافة الأدبية والبقية إلى ما غير الثقافة كلية.

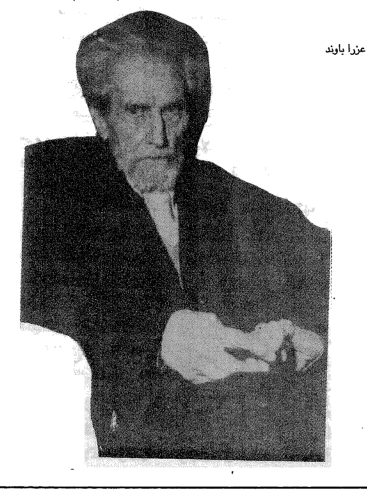
فإذا أخذنا بالاعتبار ازدراء التليفزيون - جهاز الإعلام الرئيسي - للثقافة عموما والعداء الشديد الذي يكنه للعلم ، وإذا تدارسنا ضعف التربية العلمية لأبنائنا في المدارس، إذا تذكرنا كل ذلك، لاتضحت لنا خطورة ما نحن به من تخلف.

فإذا كانت الثقافة هي «مجموع العادات والتقاليد وأساليب المعيشة.. الخ التي تشترك فيها مجموعة من الناس» و إذا كان العلم والمنهج العلمي هو الطريق إلى دخول القرن الواحد والعشرين و إلى الإنقاذ من هوة السقوط من قافلة التاريخ، فلابد لكل المشغولين بمستقبل هذا البلد من العمل من أجل إدخال رافد العلم والمنهج العلمي والتفكير العلمي والمنطق العلمي كمكون أساسي وكرافد هام في تيار الثقافة القومية لهذا البلد.

فنحن في مصر نمر الآن بمأزق حضاري خطير لا خروج منه إلى المستقبل إلا عن طريق العلم. وقد وضعنا بسياسات خاطئة عقبات كبيرة من الصخور والركام في هذا الطريق، لهذا فقد أصبح في منتهى الأهمية أن نحقن ثقافتنا بأسرع ما يمكن بكل الطرق بجرعات كبيرة من الثقافة العلمية حتى نصبح جديرين بأن نعيش المستقبل .

فما هو الطريق إلى ذلك؟

إن الطريق إلى ذلك يمر بثلاث دوائر أساسية وببعض المناطق العامة. والدوائر الأساسية هي الإعلام والتعليم والثقافة ■



عزرا باوند

السياسة الثقافية فى ضوء

يرى الكاتب هنا أن الثقافة هى منظومة تضم فى إطارها الإبداع الفنى والمعارف العلمية ووسائل نشر الإبداع والمعارف والمعلومات والتعليم وطرق الإنتاج.

لكنه هنا يركز على الجانب المتصل بالمعلومات ووسائل الاتصال الجماهيرى القائمة على تكنولوجيات الاتصال الحديث.

فمن المعروف أن الثقافة بمعناها الشامل تشمل عدداً من الجوانب، يأتى على رأسها:

الجانب المعرفى - والجانب الإبداعى - والجانب المتعلق بالقيم وأنماط السلوك.

وبالتالى فمن الممكن اعتبار الثقافة «منظومة» تضم فى إطارها الإبداع الفنى، والمعارف العلمية، ووسائل نشر الإبداع والمعارف والمعلومات، والتعليم والتعلم النظامى وغير النظامى، وطرق الإنتاج في المجتمع، وتوزيع الناتج القومى والفردى، وفوق هذا وذاك ، العقائد والقيم وأنماط السلوك السائدة، وعلاقتها بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

والذى لا شك فيه أن العناصر المتنوعة لهذه المنظومة تتفاعل مع بعضها البعض، فى سلسلة لا متناهية من عملية التأثير والتأثر، بحيث يستحيل فصل أى عنصر منها عن بقية العناصر إلا على سبيل الدراسة والبحث.

وستركز هذه الدراسة على الجانب المتصل بالمعلومات غير المتخصصة والإبداع الفنى إنتاجا ونشرا، على الأخص عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرى المعتمدة على تكنولوجيات الاتصال الحديثة.

أولا : حول السياسات الثقافية

١ ـ تعريفها ومكوناتها

تشير لفظة «سياسة» بمفهومها العام، إلى «تفكير منظم، يوجه سلوك وتصرفات وبرامج دولة أو منظمة أو فرد». وبالتالى فمن الممكن تعريف السياسة الثقافية بأنها تفكير منظم، يوجه الأنشطة والمشروعات فى ميادين العمل الثقافى، لتحقيق الأهداف التى يتطلع المجتمع والأفراد إلى تحقيقها، فى ضوء الظروف والإمكانات المتاحة.

ونستطيع أن نخلص من هذا التعريف الذى اصطلح عليه جمهرة الاجتماعيين والمعنيين بشئون الثقافة، إلى أن «السياسة» لا تعدو أن تكون بلورة وتحديدا للفكر الذى يوجه النشاط فى مجال معين أو الرؤية والفلسفة التي يتبناها واضعو هذه السياسة من أجل تحقيق ما يعتقدون أنه يمثل طموحات المجتمع، فى فترة زمنية معينة.

ومن هنا كان الفرق بين السياسات والخطط التى يغلب عليها الطابع العملى الذى يقود إلى تنفيذ السياسات.

وهذا هو المفهوم الذى انطلقت منه أعمال «لجنة الخطة الشاملة للثقافة العربية»، وأثبتته فى مقدمتها (ص ٢٤ ط٢) بهذه العبارات الواضحة:

«كانت اللجنة تدرك أن وضع الخطة يقتضى (أولا) تحديد المنظور المستقبلى العربى، والرؤية الواضحة

تطور التقنيات فى مجال الاتصال

سعد لبيب

لنوع الإنسان الذى نريد، وشكل المجتمع الذى نبنى، وبناء نظرية ثقافية متكاملة على أساس ذلك، لتكون الإطار المرجعى للسياسات الثقافية العربية فى تنوعاتها القطرية، وضمن تحديات الغد الثقافى ومتغيراته».

ومن هذا المنطلق أيضا، وبمزيد من التفاصيل والإيضاح، كان التعريف الذى أخذت به «اللجنة العربية لدراسة قضايا الإعلام والاتصال فى الوطن العربى» فى تقريرها عن الإعلام العربى حاضرا ومستقبلا (المنظمة، ١٩٨٧، ص٦٦)، حيث ذكرت أن المقصود بسياسات الاتصال فى هذا التقرير (وهو ما يمكن أن ينطبق بنصه على السياسات الثقافية):

«مجموع المبادىء والمعايير التى تحكم نشاط الدولة تجاه عمليات، تنظيم، وإدارة، ورقابة، وتقييم، ومواءمة نظم وأشكال الاتصال المختلفة، على الأخص منها وسائل الاتصال الجماهيرى، من أجل تحقيق أفضل النتائج الاجتماعية الممكنة، فى إطار النموذج السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تأخذ به الدولة».

أما «التخطيط» فهو توظيف الإمكانات البشرية والمادية المتاحة أو التى يمكن أن تتاح خلال سنوات الخطة، من أجل تحقيق الأهداف التى رسمتها «السياسة»، مع الاستخدام الأمثل لهذه الإمكانات.

فوضع الخطط إذن هو المرحلة التالية لرسم السياسات.

ووفقا لهذا المنظور فى فهم السياسات، فإن تناول السياسات الثقافية لا يمكن أن يقف عند تحديد الطموحات أو الأهداف العامة التى ينبغى تحقيقها بخطط مرحلية، شاملة أو نوعية، بل لابد أن يمتد كذلك إلى المحاور التالية:

١ ـ استكشاف الاحتياجات الثقافية العامة والنوعية، وتحديد أولوياتها وفقا لظروف المجتمع وطموحاته فى فترة زمنية معينة، وبالتالى صياغة الأهداف الثقافية التى لابد من تحقيقها لمواجهة هذه الاحتياجات والاتفاق على المناهج والأساليب التى ينبغى اتباعها لتحديد الاحتياجات.

٢ ـ تحديد مجالات العمل وأنواع الأنشطة التى تتناولها السياسة الثقافية بشكل مباشر أو غير مباشر، فالأنشطة الإعلامية مثلا لابد أن تكون مجالا رئيسيا من مجالات التحرك الثقافى على الأخص فى هذا العصر الذى تطورت فيه تكنولوجيا الاتصال تطورا هائلا. فوسائل الإعلام الجماهيرى من تليفزيون وإذاعة وصحافة تتولى نشر الرسائل الثقافية وتعميمها على الجمهور بفئاته المختلفة، وسواء كانت هذه الرسائل محلية أو أجنبية المصدر، بالإضافة إلى أنها من الأجهزة المنتجة للمواد الثقافية شأنها شأن المسرح والسينما ودور الطباعة

السياسة الثقافية فى مجال الإتصال

والنشر، كما أن المؤسسات التعليمية لها دورها فى نشر الثقافة، سواء فى إطار التعليم النظامى أو التعليم غير النظامى.

٣ - تحديد دور الدولة فى النشاط الثقافى، وواجبها فى توفير البنية الأساسية اللازمة لهذه الأنشطة، سواء عن طريق أجهزتها المختصة وبتمويل منها، أو بالاعتماد كليا أو جزئيا على المبادرات الفردية ونشاط المؤسسات الأهلية غير الحكومية.

٤ - ويتصل بهذا وضع المعايير الخاصة بملكية المرافق الثقافية والإعلامية وطريقة إدارتها، وتوجيهها ومدى قدرة الأفراد والجهات غير الحكومية على الحركة والإبداع.

٥ - ويقتضى كل هذا وضع التشريعات واللوائح التى تعاون فى تقنين السياسات ووضعها موضع التنفيذ.

٦ - وأخيرا يأتى دور التقويم وطرقه ومناهجه التى ينبغى توفيرها لتواكب الأنشطة الثقافية وتتابعها لمعرفة مدى كفاءتها فى تحقيق الأهداف المحددة لهذه الأنشطة.

وسنكتفى هنا بتفصيل بعدين من الأبعاد التى تتضمنها السياسات الثقافية مما يتصل بموضوع هذه الدراسة، وهما على التوالى: تحديد الاحتياجات الثقافية، والثقافة ووسائل الاتصال الجماهيرى.

٢ - الاحتياجات الثقافية

إذا كان تحديد الأهداف هو الغرض الأساسى لأى سياسة ثقافية، فإن هذا التحديد لا يمكن أن يتم إلا عن أحد طريقين، الأول هو رؤية النخبة أو الصفوة المسئولة عن وضع السياسة الثقافية، وقد تكون هذه الصفوة هى وحدها الممثلة لسلطة الدولة، وقد تشاركها فى رسم السياسة الثقافية المؤسسات غير الرسمية المعنية بشئون الثقافة، أو صفوة من المثقفين. وفى هذه الحالة تكون الرؤية معرضة للانحياز السياسى للسلطة أو للتصورات والاجتهادات الشخصية التى قد تفتقر إلى الموضوعية، ولكنها لازمة فى كل الأحوال، إذ إنها تعبر عن المسئولية الاجتماعية والثقافية للدولة، وللصفوة.

أما الطريق الثانى فيتمثل فى البحوث التى تجرى للتعرف على الواقع الثقافى والاحتياجات الثقافية لفئات الجمهور المختلفة.

وينبغى هنا التمييز بين «الاحتياجات» الثقافية، و«المطالب» الثقافية. ويستند هذا التمييز إلى معيار الإعلان والكمون، بمعنى أن الاحتياجات الثقافية قد تظل كامنة غير معلن عنها، وبالتالى يصعب التعرف عليها إلا عندما تأخذ شكل المطالبة. أى أن المطلب الثقافى يعتبر الوجه الواضح والمعلن عن الاحتياج الثقافى، والمعبر الفعلى والواقعى عنه.

ويقودنا التمييز بين المفهومين إلى أهمية توافر المكون الثقافى، والعلم بوجوده، والرغبة فى الحصول عليه، مع القدرة على ذلك. فالإنسان لا يمكن أن يحتاج إلى ما لا يعرف، أو ما لا وجود له، أو ما لا يرغب فى الحصول عليه.

ويميز البعض هنا بين البعدين المطلق والنسبى للاحتياجات. فالاحتياجات المطلقة هى الحد الأدنى الذى تفرضه المواقف الإنسانية للمجتمع فى ظروف معينة، أما لاحتياجات النسبية فترتبط بالذوق الخاص لفئات من هذا المجتمع، ويترتب على إشباعها نوع من السمو أو التميز، وبالتالى فهى متجددة ومتنوعة.

وهناك أيضا مفهوم «الاحتياجات الأساسية»، والشق المعنوى منها يتعلق بقيم المشاركة والمساواة والحقوق الإنسانية، وهى فى جوهرها عناصر ثقافية تتحدد فى الإطار المجتمعى الذى توجد فيه، وبالتالى فرغم أنها أساسية، إلا أنها

نسبية تختلف باختلاف المجتمعات، كما تختلف فى ضوء المتغيرات الاجتماعية كالتعليم والجنس والمهنة والسن.

ولابد من الاشارة هنا إلى إمكانية وجود وعى لدى الأفراد باحتياجاتهم الثقافية، ولكنها لا ترقى إلى مرحلة المطالبة بها، لأسباب مختلفة.

وهكذا نرى أنه رغم أهمية تحديد الاحتياجات الثقافية كمنطلق لتحديد أهداف السياسات الثقافية، إلا أن المداخل إلى هذا التحديد متنوعة، ولكل مدخل منها ايجابياته وسلبياته، ويقتضى فى كل الأحوال العديد من البحوث الثقافية ذات المناهج المتعددة.

٣ - الحاجة إلى ثقافة العلم

وفى هذا العصر - عصر العلم والتكنولوجيا وثورة المعلومات - لابد أن يكون المواطن العربى مؤهلا للتعايش مع العصر، قادرا على استيعابه والإسهام فيه، فقد أصبح المجتمع يعتمد اعتمادا متزايدا على العلم وتطبيقاته فى تنمية موارده وتطوير خدماته التعليمية والصحية والثقافية والإعلامية. ولابد أن يكون الوعى بدور العلم والتكنولوجيا والمعلومات وعيا شاملا يمتد إلى كل القوى المؤثرة فى المجتمع.

والتكنولوجيا وإن كانت قد سبقت العلم تاريخيا، إذ اعتمد عليها الناس رغم بدائيتها منذ تشكلت المجتمعات البشرية، ورغم أنهم لم يعلموا شيئا عن أسسها الفكرية والعلمية، إلا أن الوضع تحول فى المجتمع المعاصر، إذ توثقت العلاقة بين العلم والمعلومات والإنجازات التكنولوجية، فالعلم يفتح الطريق أمام التطور التكنولوجي، والتكنولوجيا المتطورة تتيح للعلم تقنيات ووسائل تزيد من قدرته على ارتياد مجالات أوسع، وبالتالى تزيد قدرة المجتمع علي التنمية فى جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية. كما ينبغى أن يكون هناك ارتباط بتيار الوعى العالمى الذى يؤكد على أن العلم والتكنولوجيا يقدمان إضافات واضحة للإرادة الاجتماعية والسياسية للمجتمعات المختلفة، للتحكم فى أقدارها، وتوفير وسائل القوة اللازمة لتحقيق ذلك، وإمداد المجتمعات باختيارات واسعة النطاق لما يمكن أن يكون عليه مصير البشر فى هذه المجتمعات.

والقاعدة المستقرة تاريخيا هى أن العلم والتكنولوجيا لا يصبحان قوة من أجل تغيير أى مجتمع إلا عند ارتباطهما عضويا مع مجمل الموارد الثقافية فى هذا المجتمع، بحيث يكوِّنان معا موردا لبناء مستقبل جديد له، وهكذا فإن الجهود العلمية والتكنولوجية تعبر فى أسمى أشكالها عن الجانب البناء والخلاق لعقل الإنسان وروحه، وأى حضارة أو ثقافة تتجاهل هذا لا يمكن اعتبارها كاملة أو شاملة.

وقد أتاحت الظروف فى الماضى وفى الحاضر فرص الاختيار بين العلم واللا علم، أى بين التقدم والتخلف، ذلك لأن ضغوط العلاقة بين الجماعة والموارد الطبيعية والتنمية أتاحت فرص البقاء واستمرار الحياة فى ظل التخلف العلمى والتكنولوجي، وخريطة العالم اليوم تبرز التفاوت فيما بين الجماعات البشرية. أما فى المستقبل القريب فلن يتاح البقاء للمتخلفين. العلم سبيل البقاء، واللا علم سبيل الدمار، ذلك لأن العلم وتطبيقاته هو السبيل الوحيد لتحقيق التنمية المتواصلة التى تتيح الموارد ومتطلبات الحياة للأجيال المتوالية فى المجتمع. والخيار بين العلم واللا علم لن يكون متاحا فى القرن الحادى والعشرين.

واختيار العلم ليس بمجرد الكلام، ولكنه بالعمل والقبول الاجتماعى المخلص. ونقصد بالقبول الاجتماعى أن تتسع دائرة الاقتناع بأهمية العلم وجدواه بين عناصر المجتمع جميعا، من إدارة الحكومة العليا إلى الناس فرادى. ومن ثم

السياسة الثقافية فى مجال الاتصال

يصبح من الواجب العمل على إشاعة الثقافة العلمية والمنهج العلمى فى مؤسسات المجتمع جميعا، سواء فى ذلك المؤسسات التشريعية والتنفيذية والمؤسسات الأهلية والتنظيمات الجماهيرية.

ويرتبط باعتماد النشاط الثقافى على الفهم الواعى لدور العلم كمكون رئيسى للثقافة، وممارسة التفكير العلمى، والقدرة على التعامل مع آليات التكنولوجيا، ونظم المعلومات. والتفكير العلمى هو أسلوب فى التفكير يعتمد على العقل والبرهان المقنع بالتجربة أو الدليل. وهو التفكير الذى يسعى إلى التحرر من مخلفات عصور الجهل والخرافة عن طريق الاعتماد على المنطق، فى كل شئون الحياة اليومية. وهو التفكير الذى يتضمن مجموعة من المبادىء، يطبقها الفرد دون أن يشعر بها شعورا واعيا، مثل مبدأ استحالة حدوث الشىء ونقيضه فى آن واحد، أو أن لكل حادث سببا، أو استحالة حدوث شىء من لا شىء. كما يقتضى التفكير العلمى القدرة على استيعاب الجديد، وترك ما أثبتت التجربة العلمية عدم صدقه أو قصوره، وبالتالى فمن خصائصه المرونة وعدم التعصب، وربط الفكر بالعمل.

٤ ـ ديموقراطية الثقافة وثقافة الديموقراطية

ولابد أن يدخل فى الاحتياجات الثقافية العمل على «ديمقراطية الثقافة»، بمعنى توسيع قاعدة المشاركة فى العمل الثقافى، وهى من القواعد الأساسية لأية تنمية ثقافية، استنادا إلى «الحق فى الثقافة» وهو من حقوق الإنسان الأساسية. وزيادة المشاركة فى الحياة الثقافية تعنى توسيع تلك الفئة من المجتمع التى يطلق عليها اسم فئة المثقفين، وهى الفئة المنتجة للثقافة، وهى كذلك المستهلكة لها. فالمثقف إنسان ينتج الثقافة من جانب، ويستهلكها من جانب آخر..

وتتطلب عملية زيادة المشاركة فى الحياة الثقافية، أو ديموقراطية الثقافة، استنباط عدد من الوسائل الكفيلة بخلق الرغبة لدى الأفراد والجماعات للدخول فى العملية الثقافية إنتاجا واستهلاكا.

ويتناسق «الحق فى الثقافة» مع «الحق فى الاتصال والإعلام»، وهو الذى أثار ومازال يثير العديد من المناقشات والأفكار، وهو يستند أساسا إلى حاجة الإنسان إلى الاتصال، وهى حاجة إنسانية، نشأت منذ نشوء المجتمعات البشرية، حاجة الفرد إلى الاتصال بغيره من الأفراد، يتبادل معهم المعلومات والأفكار ويعبر عما فى نفسه بكل أشكال التعبير المتداولة، ويتلقى من الآخرين ما لا يعرف، ويعطيهم ما يعرف، ويتشارك الجميع فى المتعة والتواصل الحى. وتغير «وسائل» الاتصال ومنابر التعبير وطرقه، لا يعنى تغيرا فى طبيعة هذه الظاهرة الاجتماعية، بل المفروض أن تطور هذه الوسائل ووسائط النقل والنشر ومنابر العرض، يؤدى إلى تغذية هذه الظاهرة وتنميتها، وبالتالى تنمية المجتمعات البشرية ذاتها. وزاد من هذه المناقشة حول «حق الثقافة والاتصال»، التقدم الهائل فى تكنولوجيا الاتصال التى أدت إلى ظهور نظم وخدمات اتصالية جديدة أكثر مرونة وتنوعا.

وإذا كانت ضرورة زيادة المشاركة فى العملية الثقافية أدت إلى نشوء مبدأ الحق فى الثقافة، أو ديموقراطية الثقافة، فإن هذا المبدأ يرتبط ارتباطا عضويا بمبدأ آخر، هو ضرورة توفير وسائل «الانتفاع» بالثقافة. أى أن الحديث عن ديموقراطية الثقافة يعنى بالضرورة الحديث عن حقى «المشاركة» و«الانتفاع».

ويقتضى الحق فى «الانتفاع» بالنشاط الثقافى والمشاركة فيه، مسئولية المجتمع بمؤسساته الرسمية

وغير الرسمية وبالمبادرات الفردية، فى إتاحة وسائل الاتصال ومنابر التعبير الثقافى لكل فئات المجتمع، بصرف النظر عن موقعهم الجغرافى أو الاجتماعى، حتى لا تكون هذه الوسائل والمنابر احتكارا للصفوة دون غيرهم، حتى ولو كانت هذه الصفوة أقدر على الإفادة من بعض النشاط الثقافى، وألا تكون وقفا على سكان المدن دون سكان الريف أو المناطق المعزولة، وألا يختص بها المتعلمون دون غيرهم، ولا تقتصر على التعبير عن فئة اجتماعية متميزة وتهمل الفئات الأخرى، سواء كان مصدر هذا التمييز هو الجنس أو العنصر أو الدين أو الانتماء السياسى.

وليس معنى هذا ألا تكون هناك وسائل أو منابر للعمل الثقافى متخصصه لأى فريق من هؤلاء، فهذا أدعى إلى مزيد من التواصل الثقافى بكل ما يحققه من أهداف، وينشط البيئة الثقافية والاجتماعية للمجتمع كله، وإنما المقصود هو إتاحة فرص الانتفاع بالعمل الثقافى لكل هذه الفرق لكى تتواصل فيما بينها، ومع الآخرين، والعمل على عدم حرمان أى منها من هذا الحق.

ويعنى حق «الانتفاع» بالعمل الثقافى والاتصالى، توفير الوسائل وفرص التعبير الخاصة لكل المجتمعات المحلية أو ذات السمات الخاصة، التى تربط بينها عوامل تحدد ذاتيتها، سواء كانت جغرافية أو عرقية أو مهنية، وهى تمثل كلها روافد للعمل الثقافى العربى سواء على المستوى القطرى أو القومى.

وإذا كانت «ديمقراطية الثقافية» تعنى زيادة حجم المشاركة فى العمل الثقافى والانتفاع به، فإن «ثقافة الديموقراطية» تعنى شيئا مختلفا، وإن كانت العلاقة بينهما وثيقة الارتباط، ارتباط الوسيلة والشكل بالمضمون.. فالمواطن الذى ينبغى أن تعمل الثقافة على صقله فى هذا العصر الذى نعيشه، والذى سقطت فيه الأيديولوجيات التى تعمل على قهر روح الفرد فى سبيل سيطرة صفوة سياسية أو اجتماعية مهما حسنت نياتها، هو المواطن الذى يقدر الحرية له وللآخرين، واحترام ذاته وذوات الآخرين، والقادر على المبادرة، والمشاركة النشطة والواعية والمسئولة فى حياة مجتمعه، والذى يحرص على استقلاليته وحريته فى الاختيار مع المواءمة بينها وبين الانتماء إلى الجماعة، والتضامن الجماعى والتطلعات المشتركة.

ونقطة البدء فى بناء مجتمع ديموقراطى، ليست الهياكل والمؤسسات على أهميتها، بل الفرد الذى تكونت لديه ثقافة ديموقراطية نابعة من إحساسه بالحرية والمسئولية والمشاركة فى القيم، وإن اختلف أسلوب التعبير عنها.

٥ - الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيرى

يتميز المنتج الثقافى سواء فى الكتاب أو المسرح أو السينما أو الراديو أو التليفزيون أو غيرها، بأنه معد أصلا للاستهلاك. فعملية الإبداع الثقافى لا يمكن أن تكتمل إلا إذا تلقاها الجمهور المستهدف، تماما كالعملية الإعلامية، لا تكتمل إلا إذا توافر متلق للرسالة الإعلامية التى ينتجها القائم بالاتصال (الإعلامى)، عبر وسيلة من وسائل الاتصال أو الإعلام الجماهيرى. فالاستهلاك الثقافى مرتبط ارتباطا عضويا بالإنتاج الثقافى، ومن ثم كان لابد من توافر وسيلة التوصيل أو التواصل أو النشر أو البث، وفقا لطبيعة كل حالة، لكى تكتمل الدائرة. فالوسائط الثقافية والاتصالية تمثل البنية الأساسية للنشاط الثقافى، ونعنى بها دور النشر والتوزيع والمسارح ودور العرض السينمائى، ومعارض الفنون التشكيلية، وقاعات الندوات والمحاضرات، ثم، وليس هذا بترتيب الأهمية، الراديو والتليفزيون وما يتصل بهما من شرائط الكاسيت الصوتى والفيديو.

السياسة الثقافية فى مجال الإتصال

بل إن الثابت على سبيل القطع أن انتشار أجهزة استقبال الراديو والتليفزيون يفوق آلاف المرات انتشار الكتب والمسارح والمعارض ودور السينما وغيرها من المؤسسات الثقافية. وعلى سبيل المثال، فإن المسرحية التى يعرضها التليفزيون فى سهرة واحدة، تصل إلى عدد من المشاهدين يفوق عدد رواد المسرحية إذا استمر عرضها عشر سنوات متوالية.

وعلى عكس المنتجات المادية التى تفقد قيمتها باستهلاكها، فإن المنتجات الثقافية تزيد قيمتها إذا استهلكت، ويتضاعف تأثيرها بزيادة حجم المستهلكين لها. ومن ثم كان لابد من اتباع كل الوسائل المتاحة والملائمة لنشر الإنتاج الثقافى، سواء على مستوى الجمهور العريض، أو على فئات منه حسب نوعية الإنتاج والهدف منه.

ومن هنا يأتى دور وسائل الاتصال الجماهيرى من تليفزيون وإذاعة وصحافة - وقد دعمت التكنولوجيا الحديثة قدراتها - فى نشر الإنتاج الثقافى المناسب.

ولكن لابد من التأكيد هنا على أن وسائل الاتصال الجماهيرى المستندة إلى تكنولوجيا الاتصال الحديثة، ليست البديل فى كل الأحوال لوسائل الاتصال الثقافية التقليدية.

فالتلقى عن طريق الراديو والتليفزيون يتسم بالسلبية، مقارنة بالكتاب أو المجلة أو الصحيفة التى تتطلب قدرا من المشاركة بالجهد الذى يبذله القارىء لاستيعاب الأفكار والمعلومات الواردة بها وتخيلها.

وإذا كان الراديو يعمل على تنشيط الخيال لدى المستمع لتمثل ما يصفه من أحداث وما يقدمه من شخصيات، فإن الكتاب أقدر على هذا التنشيط إذ تكون الكلمة المكتوبة مجردة من الأصوات والمؤثرات وألوان الموسيقى التصويرية التى يستعين بها الراديو وتساعد المستمع على التخيل. وينعدم الخيال والمشاركة الإيجابية فى المتلقى فى حالة التليفزيون.

ثم إن مشاهدة العرض المسرحى مسجلا فى التليفزيون أو الفيديو يفقد المشاهد متعة «الفرجة» الحية والتعامل المباشر مع المؤدين والانفعال والتفاعل معهم. كما يفقد مشاهد السينما فى التليفزيون متعة الصورة الجميلة على شاشة السينما بتفاصيلها. وفى الحالين يفقد متعة التجمع مع الناس فى صالة العرض المسرحى أو السينمائى والتواصل مع انفعالاتهم، وهو ما يمكن أن يقال أيضا فى حالة المعارض التشكيلية وقاعة المحاضرات والندوات وغيرها من المؤسسات الثقافية.

على أن الإذاعة بالراديو والتليفزيون ليست فقط وسيلة لنشر الإنتاج الثقافى والإبداعى والإعلام عنه، بل إنها أيضا وسيلة من وسائل إنتاجه. ولهذا الإنتاج سماته الخاصة من حيث الشكل والمحتوى، والتى تختلف كليا أو جزئيا عن سمات الإنتاج الثقافى والإبداعى فى الوسائل الأخرى، وإن كانت تتأثر به أشد التأثير.

ولكن هناك الكثير من المآخذ على الإنتاج الثقافى للراديو والتليفزيون، فهو إذ يحاول التوجه عادة إلى الفئات المختلفة من الجمهور، يعمد إلى التبسيط الشديد بل والسطحية ومخاطبة الفئات الثقافية المتوسطة والدنيا فى المجتمع، ويترخص فى استخدام اللغة العربية، ويعمد كثيرا إلى اللهجات العامية، بالإضافة إلى خضوعه التام لأفكار وتوجهات السلطة الحاكمة مما يحد من حرية الإبداع والتعبير.

على أن هذا لا ينفى أن بعض الخدمات أو البرامج الإذاعية والتليفزيونية تتوجه إلى فئات خاصة من الجمهور، وتقدم لها ما يتناسب مع ثقافتها وأذواقها.

على أن عيوب السطحية والتناول الفج فى الإنتاج الثقافى، أصبح من الأمور التى انتشرت كذلك فى الإنتاج المسرحى والسينمائى، بل وفيما ينشر من كتب، بحيث أصبحت ظاهرة لابد لها من المواجهة الشاملة.

ثانيا: تكنولوجيا الاتصال الحديثة

واتجاهات المستقبل:

يتميز هذا العصر بالتقدم المذهل والمستمر فى تكنولوجيا الاتصال، ونعنى بها هنا التكنولوجيا المستخدمة بالتحديد فى وسائل الاتصال الجماهيرى من تليفزيون وإذاعة مسموعة وصحافة، سواء من حيث انتاج موادها أو نشره وبثه وتوصيله إلى الناس بالوسائط المختلفة.

والتطور فى تكنولوجيا الاتصال فى العالم ليس مفصلا عن التطور التكنولوجى بشكل عام، والذى يمتد إلى كافة مجالات الإنتاج الصناعى والزراعى ومجالات الطب والهندسة وإنتاج وتوزيع المعلومات وغيرها الكثير من كل ما يتصل بحياتنا المعاصرة. وهو يعتمد أساسا على التطور العلمى البالغ التخصص، والتقدم فى مجال البحوث العلمية، والموارد المادية الضخمة، وفوق هذا وذاك توفر المناخ العام الذى يسوده التفكير العلمى وينأى عن الخرافة والأفكار الجامدة غير القابلة للبحث والتجريب.

والعلم وما يوفره من معلومات وما يؤدى إليه من إنجازات التكنولوجيا، هو مصدر للقوة، وبالتالى مصدر للسيطرة. فاليد الطولى هى لمن يعلم ويملك، فى مواجهة الذين لا يعلمون ولا يملكون. ومن هنا كان حرص الذين يعلمون ويملكون، على احتكار المعلومات والمعرفة التكنولوجية التى توصلوا إليها، للإبقاء على مصدر السلطة والثروة. وهكذا انفردت بإنتاج تكنولوجيا الاتصال الحديثة - شأنها شأن غيرها من التكنولوجيات - مجموعة من المراكز المحدودة فى عدد من الدول، تتكامل فيما بينها فى بعض الأحيان نظرا لما تستلزمه من تخصصات دقيقة قد تتوفر هنا ولا تتوفر هناك، وتتنافس وتتصارع على الأسواق فى أحيان أخرى. ولكنها فى كل الأحوال تتفق جميعا على أن تظل محتفظة بالأسرار الدقيقة للتكنولوجيا التى تنتجها كل منها، حتى يظل الذين لا يعرفون، معتمدين على الذين يعرفون ويملكون.

ومن هنا كان البعد السياسى والاقتصادى والثقافى فى التعامل مع تكنولوجيا الاتصال الحديثة مما ينبغى الالتفات إليه، وقد نبهت إلى هذه الحقيقة فى أكثر من موضع تقارير اللجان المتخصصة الدولية والعربية - وهى أن «التكنولوجيا ليست محايدة».

واعتبار التكنولوجيا الاتصالية «حديثة» أو تقليدية، مسألة نسبية تتوقف على ظروف كل مجتمع، فإذا كان التليفزيون أو الفيديو مثلا أصبحا من التكنولوجيات التقليدية فى المجتمعات المتقدمة، إلا أنها مازالت تعتبر من التكنولوجيات الحديثة فى الوطن العربى وغيره من مناطق العالم الآخذة فى النمو، وهو ما ينطبق على بقية التكنولوجيات الاتصالية.

١ - التطورات الحالية فى تكنولوجيا الاتصال

وما يهمنا هنا بطبيعة الحال هو التكنولوجيا الاتصالية الحديثة المستخدمة فى الوطن العربى، فى مجالات الإنتاج والبث التليفزيونى والإذاعى وطباعة الصحف وتوزيعها وما يتصل بهذا وذاك من وسائط ومجالات فرعية:

(أ) ففى مجال التليفزيون

وبالنسبة لإنتاج المواد التليفزيونية المختلفة بدأ استخدام أنواع من الكاميرات الإليكترونية الخفيفة المحمولة وما يتبعها من معدات

السياسة الثقافية فى مجال الإتصال

الصوت والإنارة مما يتيح مزيدا من المرونة فى تغطية الأحداث الجارية ومنها الأحداث الثقافية، وتسجيل أو بث اللقاءات والندوات. كما أصبح فى الإمكان إعداد استوديوهات تليفزيونية صغيرة متنقلة فى أى موقع لإجراء التسجيل فيها أو حتى إجراء البث المباشر، وهو ما يتيح التواصل مع الإبداع الثقافى فى الأماكن البعيدة عن مراكز الإنتاج والبث التليفزيونى فى المدن الكبرى، كما يسهل إعداد البرامج الوثائقية والعلمية والتعليمية والبرامج الموجهة إلى الأطفال والشباب، والأهم من هذا وذاك إتاحة فرص مشاركة الفئات الهامشية المحرومة من التواصل الثقافى.

كما استحدث استخدام أجهزة وضع الترجمة العربية على التسجيلات الأجنبية بطريقة إليكترونية، وعمليات «الدبلجة» أى وضع الصوت المتحدث بالعربية بديلا عن اللغات الأجنبية، سواء فى البرامج الوثائقية أو التعليمية أو الدرامية، وأفلام الرسوم المتحركة.. كما أصبح فى الإمكان أيضا إنتاج هذه الأفلام فى بعض الاستديوهات العربية. هذا بالإضافة إلى استخدام أجهزة المؤثرات الصوتية المتقدمة التى تعطى للانتاج التليفزيونى جاذبية خاصة.

أما فى مجال البث فقد زادت قوة محطات الارسال وأصبحت تغطى مساحات أوسع عن ذى قبل، واستخدمت تقنيات حديثة أخرى يأتى على رأسها أقمار الاتصال التى يمكنها ربط المناطق الآهلة بالسكان على امتداد مساحات شاسعة بدلا من استخدام شبكات الميكروويف الباهظة التكلفة إنشاء وصيانة، وذلك على نحو ما يحدث الآن فى السعودية والجزائر وليبيا وسلطنة عمان والسودان باستخدام القمر العربى «عربسات» أو الأقمار الدولية «انتلسات»، هذا بالإضافة إلى إمكان توصيل القنوات التليفزيونية خارج القطر، إلى أقطار عربية أخرى أو إلى مناطق أخرى من العالم.

كما بدأ استخدام الألياف البصرية فى الشبكات الأرضية، وفى قدرتها حمل العديد من القنوات التليفزيونية فى وقت واحد دون تداخل أو شوشرة وبجودة فنية تفوق شبكات الميكروويف وشبكات الكوابل المحورية.

كما عم استخدام الترددات عالية القدرة VHF، والفائقة القدرة UHF وهى تعطى إمكانيات إضافية لتغطية مناطق محدودة كالمدن الكبرى.

(ب) وفى مجال الإذاعة الصوتية (الراديو) تطورت إمكانيات الميكروفونات وأنواعها التى تستجيب لأشكال الإنتاج الإذاعى المختلفة، كما تطورت أجهزة التسجيل على الأخص الصغيرة والمحمولة بحيث يمكن التحرك بها فى أى مكان، وهى ذاتية الطاقة. أو لوسائل التسجيل الموسيقى والغنائى والدرامى فقد تطورت كذلك بحيث تسمح بالاستعانة فى التسجيل أو البث بما يصل إلى أربعين مصدرا للصوت فى وقت واحد. هذا بالإضافة إلى بدء استخدام الصوت المجسم (الاستريو) على الأخص فى التسجيلات الموسيقية.

أما بالنسبة للبث فقد عم استخدام موجات التشكيل الترددى - FM - لتغطية المساحات المحدودة، فى المدن الكبيرة وضواحيها، بجودة صوتية عالية، وزادت قوة محطات الإرسال على الموجة المتوسطة بحيث أصبحت تغطى مساحات واسعة من الأرض العربية من أى نقطة منها، بالإضافة إلى أجزاء من المناطق المجاورة بدلا من استخدام الموجات القصيرة ذات الخواص الصوتية المنخفضة.

(جـ) الكاسيت والفيديو

ويتصل بالحديث عن الراديو والتليفزيون الحديث عن التسجيلات

الصوتية، والمرئية التى عم انتشارها فى كافة أنحاء الوطن العربى، لرخص أسعارها، ودخول نظام التأجير بالأخص بالنسبة لشرائط الفيديو، مما يخفض تكلفة الاستخدام. وقامت العديد من الشركات الخاصة بإنتاج هذه التسجيلات التى تمتد سوقها لتشمل كل الأرض العربية تقريبا، وتتسع ليشمل كذلك العرب المقيمين في الخارج. وتتنوع أشكال الإنتاج هنا وإن كان التركيز فى الوقت الحاضر على المواد الغنائية والأفلام السينمائية والحلقات التليفزيونية، وبعض المواد الأجنبية كالأفلام الهندية والكارتون الناطق باللغة العربية. على أن القليل من هذا الإنتاج اتجه إلى البرامج التعليمية وبعض المواد الأدبية.

(د) أما بالنسبة للصحافة

فقد سادت تكنولوجيا الجمع التصويرى الإليكترونى فى الوقت الحاضر بما يضمن السرعة فى إعداد الصحيفة، واستخدمت عملية فصل الألوان على الأخص فى الصحف (المجلات) الأسبوعية والدورية، وتطورت أساليب الطباعة بما يضمن السرعة الفائقة غير المسبوقة والجودة فى الأداء.

واستفاد الكتاب من تقدم تكنولوجيا الطباعة، التى لم تقتصر على الصحف، بل تعدتها إلى كل المواد المطبوعة.

على أن أهم التطورات التكنولوجية التى حدثت فى مجال طباعة الصحف وتوزيعها هو استخدام الأقمار الصناعية فيما يعرف «بالطباعة عن بعد»، بحيث تنقل صور صفحات الجريدة أو المجلة عبر شبكات الاتصال الفضائية، وباستخدام معدات خاصة فى الإرسال والاستقبال، من مركز إصدارها إلى مراكز أخرى سواء فى الوطن العربى أو خارجه لكى تطبع فى المركز الرئيسى والمراكز الفرعية فى نفس الوقت، وتوزع منها، فتوفر الوقت والنفقات التى تتكلفها عملية الطباعة والتوزيع من مركز واحد.

ناهيك عن السرعة الفائقة التى أصبحت تنقل بها إلى الصحيفة تقارير المراسلين أو إنتاج الكتاب والمعلقين عن طريق «الفاكس» أو «التليفون» المتصل بالشبكات الفضائية، مما يعطى للصحافة جاذبية خاصة نتيجة القدرة على ملاحقة الأحداث والأفكار وسرعة توصيلها للقراء.

على أن تكنولوجيا الطباعة فى تطورها لم تخدم فقط الصحف الكبرى ذات التوزيع الواسع فى الداخل والخارج، فقد صاحبت التكنولوجيات الكبيرة، تكنولوجيات أخرى صغيرة، استغلتها الصحف والمجلات التى تصدر لخدمة جماعات محدودة، كما هو الشأن فى الصحف المهنية أو الصحف الإقليمية والمحلية (الجهوية).

٢ ـ تكنولوجيا الاتصال الحديثة واتجاهات المستقبل

تعتمد الاتجاهات المستقبلية لتكنولوجيا الاتصال الحديثة على الإنجازات التى تمت حتى الآن ونتائج البحوث المستمرة للتطوير ومواجهة احتياجات المستفيدين. وبالتالى فإنها كلها تتجه إلى تعميق التكنولوجيات الحالية بزيادة فعاليتها وتبسيطها وخفض تكلفتها لتوسيع رقعة الأسواق أمام المؤسسات الأجنبية المصنعة لها، ومن بين هذه الأسواق السوق العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج.

ففى مجال تكنولوجيا الاتصال عبر الأقمار الصناعية تتجه الصناعة إلى زيادة قوة البث حتى يمكن استقباله فى المنازل مباشرة وبمعدات صغيرة ورخيصة نسبيا، كما تتجه بالنسبة لإنتاج معدات الإنتاج الإذاعى والتليفزيونى والطباعى إلى زيادة الكفاءة والمرونة، وعلى سبيل المثال ففى مجال التليفزيون يجرى العمل على إدخال معدات نظام

«التليفزيون عالى الجودة HDTV» بالنسبة لأجهزة الإنتاج والاستقبال حيث تكون الصورة أكثر وضوحا واتساعا وتحديدا، وكذلك النظام الرقمى Digital بديلا عن النظام الأحادى.

والمتوقع أن يبدأ نظام «شبكات الكابل» فى الانتشار فى الأقطار ليحمل العديد من القنوات التليفزيونية وقنوات المعلومات العامة والمتخصصة التى يرتبط بعضها بشبكات المعلومات الدولية، وكذلك استخدام الشبكات الأرضية المعتمدة على الألياف الصناعية ذات الكفاءة العالية فى النقل المتعدد لقنوات التليفزيون والإذاعة والمعلومات المكتوبة والرقمية والتى يمكن اتصالها بأجهزة الكومبيوتر (الحاسوب).

والمنتظر أيضا أن يتسع انتشار نظام «المرسلات متعددة الاتجاهات MPDS» التى تستخدم الترددات العالية أو الفائقة القدرة، كبديل لنظام شبكات الكابل، وقد بدأت بعض الدول العربية فى التعاقد على إنشائها فعلا.

كما يتوقع أن تستخدم بعض الإذاعات العربية الأقمار الاتصالية الجديدة الخاصة بالإرسال الإذاعى، لتوسيع دائرة البث الإذاعى المباشر الموجه إلى المنازل مباشرة سواء من داخل المنطقة العربية أو خارجها.

٣ - الإمكانات الثقافية والإعلامية التى تتيحها تكنولوجيا الاتصال الحديثة:

تتيح هذه التكنولوجيات فى تطورها الحالى وفى المستقبل المنظور عدة إمكانات يمكن الاستفادة منها فى مجال التثقيف العام والخاص، وقد بدأ استغلالها بالفعل كلها أو بعضها، وإن كان الاستغلال الأمثل هو الذى يمكن أن يكون مطروحا للبحث. ولعل أهم هذه الإمكانات تتمثل فيما يلى:

(أ) **تعدد قنوات الاتصال،** من إذاعية وتليفزيونية وصحفية، بمعنى زيادة عدد قنوات التليفزيون وزيادة عدد ساعات الإرسال، وكذلك الحال بالنسبة للإذاعة الصوتية، والصحافة اليومية والمجلات الأسبوعية. ويقترن بهذا إمكانية تخصيص بعض هذه القنوات الإعلامية، فيتجه بعضها إلى الجمهور العام، ويتجه الآخر إلى فئات خاصة، كالأطفال والشباب والمرأة، أو فئات الجمهور ذات الاهتمامات الخاصة كتلك المتصلة بشئون السينما أو المسرح أو النقد أو الشعر وما إلى ذلك. وقد يقوم التخصص على الأساس الجغرافى، فإلى جانب القنوات التى يشمل جمهورها كافة المتلقين فى قطر عربى معين، يمكن أن يضيق مجال التغطية ليتركز على خدمة إقليم أو جهة أو مدينة معينة فيما أصبح يطلق عليه اسم وسائل الإعلام الإقليمية أو المحلية أو الجهوية.

(ب) **إمكان التواصل مع الخارج،** ونعنى هنا خارج المنطقة العربية، والمتلقون فى هذه الحالة قد يكونون من العرب أو من الناطقين بالعربية من غير العرب. وهنا تستخدم اللغة العربية فى التواصل الثقافى والإعلامى على نحو ما يحدث فى الإذاعات العربية الموجهة إلى الخارج أو قنوات التليفزيون التى تستخدم الاتصالات الفضائية أو «شبكات الكوابل»، أو الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية التى تصدر أو توزع فى العديد من المدن الغربية الكبرى.

كما قد يكون الجمهور المستهدف هو الجمهور الأجنبى أو فئة منه تتحدث بلغة معينة، كما يحدث فى الإذاعات العربية الموجهة إلى الخارج والتى يستخدم بعضها أكثر من ثلاثين لغة أجنبية، وهو ما يمكن أن يحدث أيضا بالنسبة لقنوات التليفزيون الفضائية العربية، أو الخدمات التليفزيونية العربية المحمولة على الشبكات الأرضية، وكذلك الحال بالنسبة لبعض المطبوعات العربية الصادرة بلغات أجنبية وتوزع خارج

المنطقة. وصحيح أن الكثير من هذه القنوات الإعلامية والاتصالية تستهدف الدعاية والإعلام، إلا أنها وسيلة مثلى لنشر الثقافة واللغة العربية فى الخارج.

(جـ) **التواصل القومي**: وإذ كانت تكنولوجيا الاتصال الحديثة تيسر النشر على مستوى جماهيرى فى كل قطر عربى، ومع خارج المنطقة العربية أيضا، فإنها قادرة على تيسير التواصل الإعلامى/ الثقافى على المستوى القومى العربى، وهو ما يتم فى الوقت الحاضر باستخدام محطات البث الإذاعى القوية والاتصالات الفضائية التى لا يقف حائل بينها وبين المستمعين والمشاهدين فى أية بقعة من الأرض العربية. على أن المشكلة الكبرى هنا هى فى نشر الكلمة المطبوعة فى شكل صحف أو مجلات أو كتب، إذ مازالت تقف دونها حواجز الرقابة ومشكلات النقد والجمارك، رغم أن معظم ما تحويه هذه المطبوعات يذاع كاملا أو موجزا فى وسائل الإعلام الإذاعية التى لا تعرف الحواجز وتصل إلى المستمعين والمشاهدين العرب فى أى مكان.

(د) **تطور إنتاج المواد الاعلامية والثقافية**، وهو ما ينطبق على المواد المسموعة أو المرئية أو المطبوعة، إذ وفرت التكنولوجيا الاتصالية الحديثة من الوسائل ما يتيح جودة الشكل، الذى لابد منه لإبراز جودة المضمون، ومعروف مدى ارتباط الشكل بالمضمون فى المواد الثقافية والإعلامية. وإذا كان حديثنا هنا ينصب فى المحل الأول على وسائل البث والنشر والتوزيع، إلا أن هذه الوسائل كلها تصبح غير ذات جدوى إذا لم يكن ما تبثه أو تنشره أو توزعه قد وصل من حيث المضمون والشكل إلى المستوى الملائم فى ظل منافسة عالمية طاغية.

(هـ) **التعلم الذاتى والمستمر**، وقد أصبح من التقنيات الشائعة فى هذا المجال استخدام «حزمة» المعينات التعليمية المتمثلة فى شرائط الكاسيت الصوتى والفيديو والمطبوعات، لمعاونة الراغبين فى التعلم أو حتى التدريب على مهارات معينة. وبدأت هذه الوسائل تحقق أرباحا لعدد من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية نتيجة الإقبال عليها. ولعل أهم مجالات الاستخدام فى الوقت الحاضر، تعلم اللغات الأجنبية، واستخدام الكومبيوتر. بل لقد بدأ استخدامها فى التعليم المفتوح فى الأقطار التى أخذت بهذا النظام، والذى وصل إلى مرحلة التعليم الجامعى.

ولا يمكن فصل قضية التعلم الذاتى، وتعلم اللغة العربية بالذات حتى للناطقين بها عن قضية نشر الثقافة العربية.

(و) **الاتصال بمصادر وشبكات المعلومات**، سواء منها ما هو قائم أو سيقوم فى الوطن العربى، أو فى الدول الأجنبية. والمقصود هنا هو شبكات المعلومات المتخصصة المرتبطة بالعلوم الإنسانية والطبيعية المختلفة والتى تزود المستفيدين بآخر التطورات الحادثة فى هذه المجالات، والمراجع المتوفرة، ونتائج البحوث.

ولا تقتصر هذه الخدمة على الجامعات أو مراكز البحوث، بل يمكن كذلك إتاحتها للأفراد بأبسط الوسائل، التى تتمثل فى خط تليفون دولى وجهاز معلومات طرفى واشتراك فى مركز المعلومات الذى تتصل به اهتماماته، ودفع مقابل الخدمة الاتصالية والبحثية.

ويمكن أيضا الاستفادة بهذه التقنية فى التواصل بين المكتبات العامة أو المتخصصة فى الأقطار العربية، وتزويدها بقوائم أو مستخلصات أو صور لما تريد الحصول عليه ويتوافر فى مكتبات أخرى، وهى خدمة خطيرة الأثر فى إتاحة كنوز المكتبات لأى باحث فى أى قطر عربى، بل ومن الممكن ارتباطها أيضا ببعض المكتبات الدولية.

٤ ـ الوجه الآخر لاستخدام تكنولوجيات الاتصال الحديثة:

وإذا كانت هذه هى أهم إنجازات تكنولوجيات الاتصال الحالية واتجاهاتها المستقبلية، وما تتيحه من إمكانيات لتدعيم عمليات الإنتاج ونشر المواد الثقافية فى الداخل والخارج، إلا أن هذه الإنجازات بالذات لها وجهها الآخر المتمثل فى الدرجة الأولى فيما يسميه الإعلاميون «التدفق غير المتوازن». فقد كان من نتيجة تركز إنتاج تكنولوجيات الاتصال الحديثة فى عدد محدود من الدول المتقدمة، أن أصبحت هذه الدول، ليست فقط هى موردة التكنولوجيا الحديثة للمستفيدين منها فى الدول النامية، ومن بينها الدول العربية، بل أصبحت كذلك، نتيجة الأداة والوسيلة، هى المصدر للمنتجات الإعلامية والثقافية تبثها للدول الأخرى بالقدر الذى تريد وبالشكل الذى يتناسب مع توجهاتها الثقافية تبثها للدول الأخرى بالقدر الذى تريد وبالشكل الذى يتناسب مع توجهاتها الثقافية والسياسية، وبالتالى أصبح انسياب هذه المواد وتدفقها يسير فى اتجاه واحد تقريبا، دون أن يقابلها انسياب من الاتجاه الآخر، الأمر الذى يؤدى الى طغيان ثقافة واحدة، هى الثقافة الغربية ، ولا يتيح المناخ المناسب للتواصل الثقافى العادل الذى تزدهر فى ظله كل الثقافات.

ناهيك عما قد يؤدى إليه ذلك أيضا من «التستطيح» الثقافى، وسيادة الأنماط الثقافية الهزيلة، وتشويه صورة الثقافات التي لاترضى عنها الثقافة الأقوى تكنولوجيا وسياسيا واقتصاديا، ومحاولة تذويب الهوية الثقافية، لمن لا يملكون.

على أن التدفق غير المتوازن وما يؤدى إليه من نتائج متشعبة، ليس هو الجانب السلبى الوحيد فى استخدامات تكنولوجيا الاتصال الحديثة، فقد أتاحت تكنولوجيا التسجيلات الصوتيه (الكاسيت) ورخص ثمنها إلى أن تكون وسيلة مثلى لإشاعة ألوان متدنية من الإنتاج «الفنى» لا يمكن أن تقبلها إذاعة عربية، أو أى منبر من المنابر الثقافية، فهبطت بأذواق الناس وعودتهم على أنماط من الترفيه القبيح.

ولم يقتصر الأمر على الأغانى والمونولوجات الفكاهية، بل تعداه إلى الخطب والأحاديث والتفسيرات والتحليلات الدينية والاجتماعية وغيرها مما يتجافى مع أى ضوابط علمية، ولدى منتجى هذه المواد عشرات الطرق التى يتسللون من خلالها من وراء سلطات الرقابة على المصنفات الفنية والأدبية ـ فساهموا فى إشاعة الجهل والخرافة، مستغلين إقبال الفئات الشعبية بسبب الأمية وغيرها على الاتصال الشفاهى، وضيقهم باحتكار الدول لوسائل الإعلام ومعظم المنابر الثقافية.

وما حدث من استغلال تكنولوجيا التسجيلات الصوتية الرخيصة، حدث بالنسبة لشرائط الفيديو التى امتلأت بالمسرحيات والأفلام هابطة المستوى، وبعض مالا يمكن تداوله علنا من المواد العربية أو الأجنبية، فكان ما كان من سوء استغلال هذه الوسيلة التى كان يمكن أن تستغل فيما ينفع الناس.

(رابعا) نحو سياسة ثقافية عربية جديدة

فى ضوء تطور تقنيات الاتصال

نستطيع من العرض السابق استخلاص مجموعة من المؤشرات التى قد تكون مفيدة فى رسم سياسات ثقافية عربية جديدة، فى ضوء تطور التقنيات الحالية والمستقبلية فى مجال الاتصال، نوجز أهمها فى النقاط التالية:

١ ـ ضرورة ارتباط الأهداف التى تحدد للسياسات الثقافية القومية أو القطرية أو القطاعية ؛ بالاحتياجات الثقافية الأساسية

والفرعية للجمهور العام، ولفئاته المختلفة، عن طريق البحوث متعددة المناهج، بالإضافة الى رؤية الصفوة الذين يتسع أفق تفكيرهم فى القضايا الثقافية ذات الأبعاد الإنمائية والتربوية والدينية المختلفة ـ وأن تكون الخلفية العامة لهذه الأهداف وللسياسات الثقافية بشكل عام، تحقيق ديمقراطية الثقافة بما تتضمنه من إتاحة فرص الاستمتاع بالأعمال الثقافية للجميع، دون النظر إلى الفروق الطبقية أو الجغرافية، وإتاحة فرص المشاركة أمام المبدعين وأصحاب الرأى، بل وتشجيعهم على هذه المشاركة وأن تعمل على إشاعة التفكير العلمى والثقافة العلمية وثقافة الديمقراطية القائمة على احترام الحريات وحقوق الإنسان.

٢ ـ اعتبار وسائل الاتصال الجماهيرى من مكونات السياسة الثقافية، بوصفها من وسائل الإنتاج الثقافى، بالإضافة إلى دورها فى النشر والتوزيع، ووضع السياسات والخطط على أساس الإمكانات التى تتيحها تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى الوصول إلى كل قطاعات المنتفعين بالعمل الثقافى، سواء فى داخل القطر أو على المستوى القومى، أو خارج المنطقة العربية، واعتبار التوزيع والبث والوصول إلى الجمهور المستهدف هو الوجه الآخر للإنتاج الثقافى.

٣ ـ أن يكون مفهوما أن تكنولوجيا الاتصال الحديثة، وإن كانت قادرة على توصيل الرسالة الثقافية للجيمع، إلا أنها تستطيع كذلك تخصيص توجهاتها لفئات خاصة لها احتياجاتها الثقافية المتميزة، بحكم خصوصية الاهتمامات الثقافية، أو مستوى التعليم، أو وفقا لفئات العمر أو الجنس أو الموقع الجغرافى أو المهنة. ومن هنا كانت ضرورة الاستفادة من الإمكانات التى تتيحها هذه التكنولوجيا لتوفير قنوات ثقافية/ إعلامية لخدمة الأطفال والشباب والنساء، وأصحاب الاهتمامات الثقافية الخاصة، وكذلك الاهتمام بالمنابر والقنوات الاقليمية والمحلية (الجهوية) لإتاحة الفرصة أمام المبدعين البعيدين عن المدن الكبرى، وكسر احتكار هذه المدن للعمل الثقافى.

٤ ـ اعتبار تكنولوجيا الاتصال الحديثة، سواء بالنسبة للإنتاج أو التوزيع، من البنى الأساسية اللازمة للعمل الثقافى، والتى تقع على الدولة مسئولية توفيرها وتطويرها، إما بمواردها الخاصة وحدها، أو بمشاركة أو بمبادرة من الأفراد والمؤسسات غير الحكومية، وحثهم على ذلك ـ وذلك وفقا لطبيعة كل مرفق، والإمكانيات المالية المتاحة للحكومة، وحجم الاستثمارات اللازمة للإنشاء والتشغيل و التشجيع على مبادرات الأفراد والمؤسسات غير الحكومية ومشاركتهم سواء فى إقامة البنى الأساسية أو فى الإنتاج، من المبادىء الأساسية التى من شأنها أن تدفع العمل الثقافى إلى الأمام وتكسر احتكار الدولة لهذا النشاط الذى يعتمد بطبيعته علي المشاركة والمبادرة والإبداع.

٥ ـ أن يكون التدريب على استخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة، من الأهداف الأساسية للعمل الثقافى، باعتباره من دعامات إنتاج المواد الثقافية، وتوصيلها إلى الجمهور المستهدف. ولابد أن يكون التدريب مستمرا، بالنظر إلى أن التطورات التكنولوجية عملية مستمرة كذلك، وأن يتسع للمستويات المختلفة من العاملين فى الحقل الثقافى من المخططين والمنفذين والمنتجين.

٦ ـ أن يكون من بين الأهداف الأساسية للعمل الثقافى استغلال الإمكانات التى تتيحها تكنولوجيا الإتصال الحديثة فى دعم التواصل الثقافى بين الأقطار العربية المختلفة، على المستوى القومى أو الإقليمى أو الثنائى، بزيادة حجم التدفق العربى ـ العربى، سواء بالنسبة للمواد

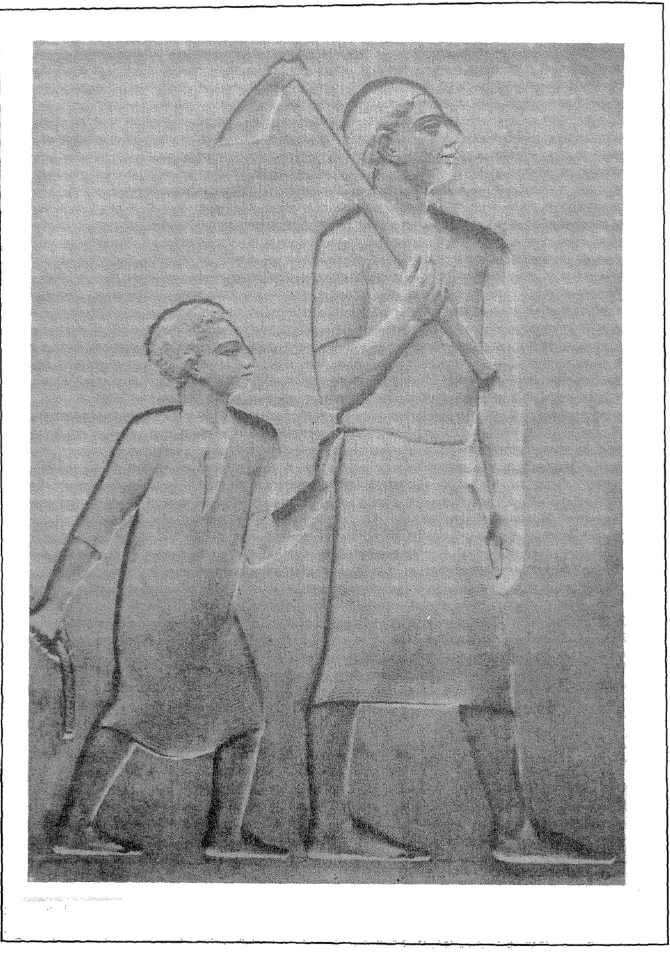
التليفزيونية أو الإذاعية أو السينمائية أو الصحف والمجلات والمواد المطبوعة، وإعادة النظر فى القواعد الرقابية على المواد المطبوعة بالذات، التى لم تعد منطقية مع التطور التكنولوجى الذى أسقط الحدود والحواجز أمام الإشارات الإذاعية والتليفزيونية والمعلوماتية الصادرة من أى مكان.

٧ ـ وضع أو التصديق على المعاهدات والاتفاقيات العربية التى ترمى إلي الحفاظ على حقوق المؤلفين والكتاب والمبدعين والمنتجين، والتى أصبحت مستباحة فى ظل التطورات التكنولوجية الإتصالية الحديثة التى تيسر عمليات الاستنساخ من الكتب والتسجيلات المرئية والصوتية، وتشجيعا لهؤلاء على المضى فى خدمة العمل الثقافى العربى.

٨ ـ استغلال الإمكانيات التى تتيحها الشرائط الكهرومغناطيسية الصوتية (الكاسيت) والمرئية (الفيديو) لتسجيل وترويج الأعمال الأدبية الروائية والقصصية والشعرية، والإنتاج المتميز فى مجال المسرح وفنون الباليه والموسيقى العالمية والعربية، وبرامج التعليم المفتوح المعتمد على التعليم الذاتى.

٩ ـ الإهتمام بشكل خاص باستغلال التكولوجيا الحديثة لإنتاج حزم من التسجيلات الصوتية والمرئية والمواد المطبوعة لتعليم اللغة العربية، لمستويات المتعلمين المختلفة، سواء من غير الناطقين بالعربية، أو الناطقين بها الراغبين فى تحسين أدائهم اللغوى المنطوق والمكتوب ـ باعتبار اللغة العربية من الدعائم الأساسية للثقافة العربية.

١٠ ـ اعتبار البحوث الثقافية من ركائز السياسة الثقافية، وهى متعددة الأغرض والمناهج. اذ لابد أن يتجه بعضها إلى مسح الاحتياجات الثقافية العامة والنوعية التى يقوم عليها تحديد الأهداف. كما لابد أن يتجه البعض الآخر إلى بحث الآثار الثقافية لاستخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة على الأخص فيما يتعلق بالمواد المذاعة عبر قنوات التليفزيون الفضائية، أو المواد الأجنبية المذاعة فى الخدمات التليفزيونية الوطنية، أو الإعلانات التى تتضمنها بعض هذه الخدمات، وكذلك بحث أثر المواد الثقافية العربية الواردة من مصادر غير قطرية فى تدعيم الصورة العربية وحجم التعرض لهذه المواد ومدى تقبلها، إلى غير ذلك من البحوث التى لاغنى عنها لإمكان تقويم أهداف السياسات الثقافية، فالتقويم جزء مكمل للسياسات . ■



تنــــــــــــــــدارى

قراءة فى ديوان جديد لشاعر من الثمانينيات يرى الباحث فيها أن «تنداري» المدينة تبدأ بالقيامة من الموت فتنهض مشروعية أسئلة الكائن الذى يقوم من خرائب الماضى .

فهى إذن مدينة جديدة، يقدم لنا الشاعر رسومها الهندسية قبل أن يشرع فى بنائها، وهى من جهة أخرى مدينة موجودة، ولكن وجودها رهن بوجود شاعرها . المدينة هى **تنداري** والشاعر هو **مهدى مصطفى**.

عالج شعراء كثيرون ثنائية الإنسان / المدينة ، ومنهم **أحمد عبد المعطى حجازى** فى **«مدينة بلا قلب»** ، **وأدونيس** فى **«قبر من أجل نيويورك»**، **وعلى قنديل** فى **«القاهرة»**، **وعبد الله البردونى** فى **«مدينة بلا نوعية»**، **وعبد المنعم رمضان** فى **«الإسكندرية»**، وفى هذه القراءة السريعة لديوان **«تندارى»** سوف أحاول الوقوف على خطوط التماس بين «تندارى» و **«قبر من أجل نيويورك»** و **«القاهرة»** .

يصدِّر الشاعر مهدى مصطفى ديوانه بمقطع شعرى لـ «كافافيس» يقول:

«.. طالما خربت حياتك
فى هذه الزاوية الصغيرة
من العالم ،
فحياتك
خراب
أينما حللت ..» (١)

وها هو بشلار (٢) يقول:

«إنه لوضع غريب فالمكان الذى نحبه يرفض أن يبقى منغلقا بشكل دائم ، إنه يتوزع ويبدو وكأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة، ويتحرك نحو أزمنة أخرى وعلى مختلف مستويات الحلم والذاكرة».

هذه الزاوية الصغيرة من العالم هى عالم الشاعر، حيث كُتب تاريخ الخراب الذى يحمله فى كل مكان، وهنا يخرّب الإنسان مكانه وحياته فى آن، إلا أن هذا الخراب يتم فى المكان الذى أحبه الشاعر فاستوطن فيه المكان وحمله الشاعر حيث ذهب، كما يذهب بشلار. يستدعى مقطع كافافيس المكان كما يستدعيه عنوان الديوان الذى هو اسم لمدينة جديدة «تندارى».

المكان هو وعاء الزمن، وهو مبحر فيه فى الوقت نفسه، والزمان هو المشكل لملامح المكان حذفا وإضافة. هى ثنائية لا يمكن فض الاشتباك بين عنصريها ـ الزمان / المكان. ولقد تناولت أعمال روائية كثيرة المدينة من زوايا عدة (٣) ؛ إلا أن التناول الشعرى للمدينة يختلف عن التناول الروائى لها ؛ فالمدينة فى الرواية هى مكان الأحداث التى نطالعها من خلال شخصيات روائية، ويخضع المنظور الذى تُقدم لنا الرواية / المدينة من خلاله إلى زاوية نظر الراوى وطبيعة الشخصيات وصراعاتها وما تستدعيه العلاقات بينها من إبراز ملامح المدن من زوايا متعارضة أحياناً، ومتقاطعة فى أخرى تبعاً لاختلاف الشخوص وتعارضاتهم. أما فى المدينة الشعرية، فنحن إزاء زاوية نظر الشاعر وحدهُ، وحيث تُبرزُ التقنيات الشعرية ملامح أخرى غير ما تقدمه تقنيات الكتابة الروائية.

فى المدينة يكون هم الإنسان الأول هو العثور على بيت، ركنه فى العالم، أو كونه الخاص (٤)، ولكن المدينة

الموت والليل والنشور

على عفيفى*

* شاعر وباحث مصرى .

الشعرية تخرج بنا دائما من هذا الحيز الضيق، «البيت» حيث نجد الشاعر فى العراء، وحيث تصبح المدينة هى الوطن والأم والبيت والمرأة والعالم. إن البيوت لهى أضيق من أن تحتوى ما يحمله الشعراء:

«.. خلف الباب تغنى،

تغزل شالا أبيض

تتحول:

رملاً وصحارى

غيما وغماما

بيتا ومدينة

غرفا وسريرا

ملحا وطعاما

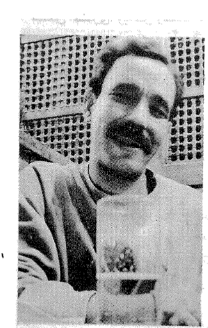
مشكاة ونهاراً» (تندارى ، ص٢٥) .

يأتى «البيت» فى هذا السياق الشعرى بوصفه واحداً من العناصر الذى يطمح إليها الشاعر فى كونه، فهو يبدأ من الاتساع والرحابة «رملاً وصحارى» وصولاً إلى البيت والغرف والأسرة، ثم يمزج بين الضيق والاتساع من خلال الضوء الذى يضىء المكان الضيق ـ بيتاً أو غرفة فى بيت ـ وهو «المشكاة»، و«النهار» الذى يضىء العالم كله. ودائماً سنجد الشاعر فى تندارى خارج الجدران التى تضيق على الروح:

«لم يَعُدْ ثَمَّ جسدْ

يحملُ الروح التى تنأى عن الجدرانَ» (تندارى، ص٧١) .

الشاعر مهدى مصطفى



«يا رقصة المطر

فليدخل البيت من أبوابه السبعة

نهراً له ألف سرٍّ حاملاً رأسه»

(تندارى، ص٧٢) .

«سياجٌ يشدُّ الطريق من قدميه

إلى البيت

والبيتُ كان سحيقاً»

(تندارى، ص٨٠) .

«رأيت أعدائى يمرون،

وأمى ترتق الثوب الوحيد،

والنهار مثلما يأتى أتى،

يقص عن أسلافه حلماً،

وكيف غادرت أسماؤهم حوائط البيوت» (تندارى، ص١١٢) .

كل الإشارات إلى البيوت تقودنا إلى خارجها، لا إلى الإقامة فيها. ولكن لماذا إلى خارج البيت؟ إن البيت يعنى الانعزال عن الحدث الخارجى ، عن الاتصال والمشاركة بالعام. يعنى البيت الالتصاق بالشخصى والذكريات التى يصنعها الشخص

فى مكانه الخاص، ولكننا سنجد مهدى مصطفى دائماً خارجاً على الأسوار والجدران وملتحماً بالمدينة والكون بوصفهما البيت الأكبر الذى يحتوى البيوت جميعاً ، فيكون الالتحام بين المكان الفردى والمكان الجماعى [٥].

اللون الأبيض :

يتكرر ذكر اللون الأبيض فى «تنداری» عدة مرات حاملاً دلالة واحدة هى البكارة والمحو، فيقوم اللون الأبيض بدور الممحاة لما سبق والبداية الجديدة. وإذا كان الموت يتوزع بين أرجاء تنداری فإن الكفن الأبيض ينفض عن نفسه الموت ويرسم بدايات جديدة ونشوراً . يقول مهدى:

«أبتدى سفراً أبيضاً...،»

(تنداری، ص٢٢)

«تغزل شالاً أبيض». **(ص٢٥)**

«تغزل شالا أبيض للعائد»

(ص ٢٦)

«تبصرُ صوتاً أبيض» **(ص٥١)**

«لمحتُ نقطة بيضاء» **(ص٦٤)**

«أبيضَ التاريخ يمشى أبيضَ الأحفاد» **(ص٧٤)**

وبالنظر إلى السياقات التى أتى فيها ذكر اللون الأبيض يتأكد لدينا الدلالة المشار إليها سالفاً .

تنداری ـ نيويورك ـ القاهرة

للمدينة ملامح تميزها عن سواها دائما، والمكان دائما هو الزمان الذى تمضيه فى هذا المكان، هو الذكريات التى نصنعها، نكون دائما بصدد صناعة تاريخ، وربما كان اللون الأبيض هو الإشارة الموزعة فى الديوان فى مقابل الموت، وهو أيضاً ما يشير إلى الرغبة العارمة فى صناعة تاريخ جديد.

يكمن الفرق بين «تنداری» مدينة مهدى مصطفى والمدن الأخرى فى أن «تنداری» مدينة تتماهى مع ذات الشاعر، فيصبح الشاعر هو المدينة والمدينة هى الشاعر، يرحل إليها وترحل إليه ويحملها حيث يذهب إلى مدن أخرى، ويمكن رصد هذا التماهى فى عبارات مثل:

«أبتدى من مدينة روحى» **(ص٢٧)**

«زلزال يضرب قلبه» **(ص٣٢)**

«ونعود معا نتلاشى فينا» **(ص٣٤)**

لم يكن الوصول إلى «تنداری» يسيراً، فقد تجول الشاعر بين مدن كثيرة فى محاولته العثور على ذاته، أو بالأحرى مدينته:

«تعثرت فى مدن ومشيت

مشيت إليها

رميت سؤالى على كتفى» **(ص٢٠)**

«يفتش عن بلد ما» **(ص٢٢)**

وكما تبدأ الحركة الأولى فى القصيدة بالجنائز والليل، تنتهى القصيدة بالمكونات نفسها، ولوجاً إلى ليل جديد وموت جديد، فى البداية «هَرِمَ الليل» مما يبشر بإمكان طلوع صباح جديد وحيث تنصت الجنائز لخطى آتية، ولكننا ننتهى إلى حيث بدأنا، وحيث فشل النهار فى أن يستقر بالمدينة وحيث يخيم الفناء ثانية:

«فيا أيها العابر المنحنى .

تحت خيل الفناء

إلى أين تمضى..» **(ص٢٦)**

«ورأيت النهار

ينام على حجر

هرماً كان»

تبدأ تنداری بالقيامة من الموت، هى مدينة اكتسبت حق، أو لنقلْ دوافع وجودها من الموت المستشرى فى كل مكان، تنداری القصيدة / المدينة / الشاعر ، كائنات تتردد على الموت ويتردد الموت فيها فتنبعث مشروعية أسئلة البعث الذى يقوم على خرائب الماضى والكائن.

وتنداری المكان ، حيث لا مكان هناك بلا زمن، فهی أيضا زمن والزمن المهيمن المتجسد فی تنداری هو الليل. هكذا تبدأ تنداری :

«مشى ليلها عابراً

ثم طفل يبعثر حناءها

وتسير الجنائز منصتة

لخطىً لم تكن» (ص١٥)

الكائن هو الليل والجنائز ، والترقب هو نصيب خطى لم تأت بعد، ويعود الليل مرَّة أخرى فی المقطع الثانی من القصيدة الأولى «تنداريا».

«هَرِمَ الليل منها

فنام على ساعديها

وصاح خذينی إلى حانة» (ص١٦)

«خذينی إلى حانة

كأسها غيمة من صباح» (ص١٧)

ليل وجنائز ليلية وصبو إلى صباح، كأن الليل أراد أن يتلاشى فتاق إلى صباح جديد من طول إقامته فی هذه المدينة، وهنا يظهر الشاعر فی قصيدته، ولكنه يظهر متوجها إلى مدينته لا كائناً فيها :

«تعثرت فی مدن ومشيت

مشيت إليها» (ص٢٠)

ويبدأ الشاعر فی رسم مدينته كما يشتهی

«فجلستُ على عتبات أبی

ورسمت خيولاً، وسيدة ،

وصباحاً،

تبصُ النوافذ منه

ترى جسدی عابراً» (ص٢١)

ومع «تنداری» نبدأ ثانية مع الموت وخرائب المدينة، فی هذه القصيدة المعنونة بـ «تنداری» مسيرة الاعتراف، تخرج المدينة أحشاءها وتكشف عن دمارها الذی تندم عليه فتنتظر مخلصها الذی كان بها من قبل. فی هذه القصيدة وفی نهايتها يتماهی الشاعر مع المدينة حتى لا نكاد نعرف من المتحدث، أو من المعترف: أهو الشاعر أم المدينة؟ هناك

علی قنديل



من يريد أن يتخلص من أعبائه، ومن دماره، ومن ذاكرته:

«وبدأت فی محو ذاكرتی» (ص٦٤)

«لا أيام لها ولا تاريخ» (ص٤٢)

«ترى النهارات نائمة

على صافرات الفلك

والليالی جثثا مرمية

على درج الظلام» (ص٤٤)

«فتحبو على ركبتيها

تجمع ما تناثر منها

ما تناثر فيها» (ص٤٥)

إن تنداری هی الشاعر والوطن، وتاريخ هذا الوطن، هی خرائب الروح والقتلى والتاريخ المدمَّر، المدينة التی هرم فيها الليل والنهار، المدينة التی اعترفت ولم يكف اعترافها لكی تقوم مرَّة أخرى، فهناك ما هو أبعد من الاعتراف، هناك فعل ما لابد من إنجازه لتتخلص المدينة من ذنوبها فتتمكن من الوقوف ثانية بعد أن أصبحت عاجزة: «فتحبو على ركبتيها»

تناولت قصيدة القاهرة [٦] لعلی قنديل مدينة وتجربة الإنسان فيها، ففی القاهرة يعين الشاعر مكانه بدءاً من عنوان القصيدة وحتى سرد أسماء أماكن كائنة بها، وفی قاهرة

تنداري .. الموت والليل والنشور

على قنديل يختار الشاعر ثلاث زوايا نظر يقف فيها، في الأولى يقف في موقف القادم بلا معرفة سوى تصوراته عن المدينة، وفي الزاوية الثانية يقف داخل المدينة مشاهداً وراصداً حتى يكتشف قوانينها، وفي الزاوية الثالثة لا يجد بداً من الدخول في تجربة المدينة بعد علمه بقوانينها فتسحقه، إلاّ أنه يتنبأ بمستقبلها بعد اكتشافه لها. في تنداري لا تمثل المدينة جسداً ملموساً، فليس هناك جسد مرجعيّ يمكن اللجوء إليه لتعرف ملامح محددة، فليس هناك في الوجود مدينة اسمها تنداري، تقدم تنداري تمازجاً بين الشاعر والمكان والزمان، الشاعر هو المدينة، هو صانعها، حيث لا يصنع تاريخ بغير البشر، وهو مسئول عن هذا التاريخ، ومسئول عن هذا الدمار الذي يغلفها ، وهنا يصبح الشاعر هو الزمان والمكان.

وفي(قبر من أجل نيويورك) (٧) لأدونيس ، يقف الشاعر موقف الراصد لمدينة ليست بمدينته، ولكنها مدينة عدو، المدينة التي تؤدي إلى الموت وليس بها إلا بنايات شاهقة:

ليس بين التردي والشاهدة
إلاّ حيلة هندسية

نيويورك ..

نيويورك

امرأة ـ تمثال امرأة

في يد ترفع خرقة تسميها الحرية، ورق نسميه التاريخ وفي يد تخنق طفلة اسمها الأرض.

وفي قبر من أجل نيويورك ينداح الشاعر في الوصف الفاضح للمدينة، وصف يجردها من أقنعتها وملابسها، ويضبطها وهي تمارس كل ما هو قبيح، فيرتد إلى بيروت والخريطة العربية المجرورة في ذيل نيويورك.

قبر من أجل نيويورك ـ تنداري

تبدأ قبر من أجل نيويورك بوصفٍ انتقائي لمدينة نيويورك، وصف يهدف منذ اللحظة الأولى إلى كشف الوجه القبيح للمدينة المقنع بعناصر لاتكفي لإخفاء سوءاتها. وإذا كانت «تنداري» مدينة يسيجها الموت، فإن نيويورك مدينة القتل:

«نيويورك

حضارة بأربعة أرجل؛ كل جهة قتل وطريق إلى القتل،

وفي المسافات أنين الغرقى» (ص٧١)

«من الآتي في مقصلة الحرير من الذاهب في قبر بطول الهدسون؟» (ص٧٢)

ومع ذكر تفاصيل المدينة مثل: جسر بروكلين، ويتمان وول ستريت، الهدسون ـ ماديسون ـ بارك أفينيو ـ هارلم، .. إلخ ، تنفتح أحشاء المدينة على غرقى وسجناء وعبيد ويائسين ولصوص ومرضى وقذارة وبائسين وتفرقة عنصرية.

وإذا كان حال «تنداري» هو الهروب من الظلام للدخول في ظلام آخر:

«هرم الليل» (تنداري ص١٦)

«رأيت النهار

ينام على حجر

هرما كان» (ص٣٨)

فإن حال نيويورك لا يختلف كثيراً فـ :

«الشمس مأتم

والنهار طبل أسود» (وقت بين الرماد والورد ، ص٧٣)

ومن نيويورك إلى بيروت تقفز قصيدة وقت بين الرماد والورد لتعلن عن تبعية بيروت لنيويورك.

... وقرأت :

عن فئران في بيروت وغيرها ترفل في حرير ـ بيت أبيض، (ص٧٤)

في حين لا تستدعي تنداري مدينة أخرى غير ذاتها، بل هي المدينة التي

تتماهى مع الشاعر والزمان فى آن، هى مدينة تحيل إلى نفسها لا إلى خارجها، لأنها المدينة / الزمن / الشاعر.

ولكن ما سر استدعاء نيويورك للمدن العربية أو لبلاد أدونيس، تجيب «وقت بين الرماد والورد» حين يقول الشاعر:

«وأعترف: نيويورك لك فى بلادى
الرواق والسرير
الكرسى والرأس. وكل شىء للبيع: النهار والليل
حجر مكة وماء دجلة. وأعلن .. مع ذلك تلهثين...» (ص٧٦)

ثم يرى الشاعر أن الفعل هو الخلاص، والفعل عنده هو الكلمة، الأداة التى بها يمكن قلب الأوضاع، الكلمة بمعنى الابتكار لا الاستنساخ والتبعية، الكلمة بمعنى الحرية.

«أقول اكتبوا، ولا أقول مومئوا، ولا أقول انسخوا» (ص٧٨)

ويمضى أدونيس فى رصد نيويورك كاشفاً عن أزمنتها وقوانينها ومكتشفاً علاقاتها بعناصر الحياة، وببلاده وينتهى إلى بيروت :

«لكن،
سلام لوردة الظلام والرمل
سلام لبيروت»

هو إذن يرسل سلاماً إلى بيروت وهو كائن فى نيويورك، لقد غادر مدينته إلى المدينة العدو، له ولنفسها، والمدينتان متجسدتان على الأرض. أما «تنداري» فتظل على حالها بين الموت والليل:

«صحا طائر الوحشة العارمة
رآها تخوض فى الدمع،
والطلق يدخل مستوحشاً
تتشقق أحجارها شبقاً
تختفى وتبين بطيئا
فترقص ذاكرة الطائر العدمى
ترتج الخرافات
يصير الموت ايقاعاً..!» (ص١١٧ ـ تنداري)

القاهرة ـ تنداري

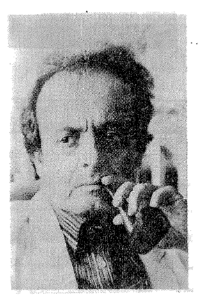
فى القاهرة يختلف الحال عن «قبر من أجل نيويورك» وعن «تنداري»، حيث تبدأ القاهرة بالشاعر الذى يجهل المدينة ويسائل العناصر وهو فى الطريق إليها حتى يتبين ملامحها:

سألت النخيل:
على البعد ماذا ترى يا نخيل
دخاناً طويلاً ، صراخاً قليلاً
وفى التحت نمل وشىء كثير..
... سألت البريد ..
... سألت القطارات ..» (ص ٨٣ ـ على قنديل الآثار الشعرية الكاملة)

وعندما يدخل الشاعر المدينة يبدأ فى اكتشافها لا كشفها كما يفعل أدونيس، وبعدما يتعرف ملامحها يقع على قوانينها:

«١- عثرت على قانونها الهندسى:
إ د . أسرة لينة وغابة ارتكاس
إ د . كل امرأة وسوسة كل عجوز خناس
إ د . قدم تتغلغل تخمد لهب القلب وتكسر ذاكرة الاجراس
إ د . سكين تنمو تصبح بيت السرقة والحراس
إ د. ينقطع الخيط الواصل بين الصرخة والأنفاس
٢- عثرت على قانونها اللهبى:
يظل الرجل يبنى العمائر حتى إذا اكتملت هنيئة للساكنين أشهر دونه وعتباتها سيف محلى ودم مرتقب.

الشاعر أدونيس



تنداري .. الموت والليل والنشور

٣- عثرت على قانونها الجدلى
ق ، هـ ، ر ، قهرت ، تقهر فهى
قاهرة ومقهورة» (ص ٩٠-٩١- على
قنديل الآثار الشعرية الكاملة)

ينتفى عنصر الموت من قصيدة «القاهرة» ويبرز انسحاب الشاعر إلى داخله فى مواجهة القهر السائد وقوانين المدينة الظالمة، أما الزمان فيتحدد مساره عكس مشاعر الإنسان وطموحاته:

«والساعة فى عكس إيقاع القلب
تدق» (ص٨٤ - على قنديل)

وإذا كان كل من أدونيس وعلى قنديل قد كشفا عن مدنهما، وقوانين هذه المدن، فإن «تنداري» تفعل الشيء نفسه:

١- تنداري،
اسم له رائحة الوحل
والبياض،
يمضى يظلله الصمت والرماد
٢- يكبر الندم الذى جاء صغيرا،
٣- الشوارع التى كانت بينَ ...،
والمنفى والحقول،
انزوت فى زقاق معتم،
لذا جاءها الطوفان.
٤- العراف والكاهن والحاكم،
يرسمون الجباناتْ.

. . . . .

. . . . .

٧- القوانين والعلم، ذهبا
يتنزهان فى حدائق العسكر.



تشترك المدن الثلاث، نيويورك والقاهرة وتنداري كونها مدنا مسحوقة وساحقة فى آن، هى مدن تهمش الإنسان وتقتله، مدن تزحف فى اتجاه ضد الإنسان وضد نفسها حتى إشعار آخر ■

المصادر :

١- مهدى مصطفى، تنداري ، ط١ القاهرة، دار سينا للنشر، ١٩٩٣.

٢- غاستون باشلار، جماليات المكان، ت: غالب هلسا، ط٣ بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ص ٧٢.

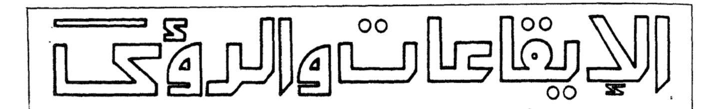
٣- حسين حموده، خصوصية المدينة متاهة المدينة، مقال منشور فى مجلة الثقافة الجديدة، أكتوبر ١٩٩٣، العدد٦١.

٤- بشلار، سبق ذكره، ص٦١.

٥- سيزا قاسم، مقدمة ترجمتها لمقالة يورى لوتمان «مشكلة المكان الفنى» المنشورة فى مجلة ألف، العدد السادس، ربيع ١٩٨٦.

٦- على قنديل، الآثار الشعرية الكاملة، ط١ القاهرة، مركز إعلام الوطن العربى صاعد، ١٩٩٣.

٧- أدونيس، وقت بين الرماد والورد، بيروت، دار العودة، يناير ١٩٧٢.


الإيقاعات والرؤى



دائـــــرة المثـــلـــث

شعر

سـعـدى يوسـف

العـراق

I

آيتُنا ، أن نفترسَ الأنهار

لننبت زهرةَ رملْ

●

نادت الريحُ ، واقفةً عند باب القصبْ . كيف استأذنُ ؟

كيف أدخلُ ، سرّيةً، فى نُعاس السمكْ؟ كيف أمشى

على قدمىَّ وقد دارت الأرضُ بى؟ هل ستسمعُ

خطوى السلاحفُ ؟ هل ينظر النيلوفَرْ؟

إن صوتى يكلِّم صوتى: اتّئدْ . خففّ الوطءَ.

لستَ المغنىّ هنا . ليست الريحُ فى لحظة الريحِ.

فَلْتجدى السرَّ ، وَلْتسجدى . واتركى الأرضَ

تنسج أثوابها : ورقاً ، ومياهاً ، ضباباً ، ورائحةً

من زهورٍ سماويةٍ . سوف تأتى الزوارقُ قبلكِ.

تلمس برُديَّها بالأصابعِ والطيرِ . تأتى لتدخَل،

من ألف بابٍ ...

فمن أنتِ ياريحُ ؟

قولى سلاماً ، سلاماً ، سلاماً ، سلاماً ...

لقد نهض الفجرُ والطيرُ

واتّسعَ الورقُ

استيقظ النيلوفَرْ.

سومريوّن يُخفون تحت السماوات أسماكهم ، بضّةً ،

ويحركون أسمالهم بالنواجذِ . كانت جواميسُهم

تمضغ الزهرَ . كانوا ملوكاً . لماذا تزورين أيتها

الريحُ أرواحهم ؟

أنصتى !

إنها الطيطوى...

II

آيتُنا ، أن نفترشَ الرملَ

ونرفعُ من أشواكِ الصبُّيْر مآذنَنا

●

بعيدينَ عن رجفة الماء كنّا ، بعيدين عن رشفةٍ من عروق الورقْ . لقد كانت الخيل آلهةً للجنودِ ، ولكننا ، مذ عرفنا الجِمالَ ، استكنّا إليها ، وقلنا لها : أقبلى ياسفائننا . قبِّلى الشوكَ ، وليكن الرملُ موجاً ...

وها نحن نمضى إلى النيل ، نمضى إلى الفيل ،

نمضى إلى شجرات المدائنِ . هل أشعلتْ فى البرارى

غصونُ سمرقندَ ؟ هل ذهب المصطفى فى طريق الذهبْ ؟

بعيدون عن طلعة المصطفى نحن . قد جاءنا ، وسألناهُ :

من أين جئتَ ؟ البرارى التى علمتنا الرمايةَ والرملَ

تمتدّ أعمقَ فى الروح . لكنه قال : أنتم هنا جُنّتى

والجنائنُ . صدَّقَ أشياخُنا ، فالتفتنا إلى الماء يلمع.

كانت سيوفٌ يمانيةٌ وكراديسُ ...

كنا حفاةً

خفافاً

وكان الندى يترقرقُ فى حشرجات المغنّى : تكون لكم

سُرّةُ الأرض . أنتم مفاتيحها ؛

والسوادُ لكم ، والجزيرةُ ، والشامُ

والنهرُ

والبحرُ ...

● يا سيدى ، نحن أضألُ من بعرةٍ

● قال : فلتوقدوا ناركم فى اليفاع ...

السوادُ لكم ، والجزيرةُ ، والشامُ

والنهرُ

والبحرُ

هل تبصرون تهامةَ ؟

أنتم لها

مثلما للرقابِ الحسام

مثلما فى المآذن يعلو السلام

III

آيتُنا أن نرحلَ

لكنْ فى دائرة الرَّحْل

●

قرنين وأكثرَ ، بل هذى المائة الأربع عشرةَ ، بل هذا

اللاتاريخ ، ونحن ندورُ ...

تحدثنا عن جُزرٍ وممالكَ ، عن أنهارٍ وبحارٍ وتهائمَ ،

أبحرنا بالسيفِ .

وبالوجه الناشفِ

والعينينِ الصقرِ

ولكنْ .. أين ذهبنا ؟ والى أين سنُسْلِم خطوتَنا ؟

كم أبصارٍ وسملناها ، وأكّفٍ وقطعناها ، وجذورٍ

وقلعناها ...

كم كنا سعداء لأنّا فى أرض أخرى .

قلنا إنّا سنكونُ ، وإن الريح مواتيةٌ . كنا نقتلُ .

نقتلهم ، ونشدُّ عمائمنا . أى نساءٍ كنّ لنا ! أى حريرٍ ...

مامعنى المرأةِ ؟

ما معنى الخمرِ؟

ومامعنى أن نتلمس لحمَ الزهرِ ؟

حفاةً كنّا ، وخفافاً ، وأغانى إبلٍ .

أما الناسُ ، الناسُ ، فسوف يظلّون الناسَ .

ونحن ، وإن كنا الأمراءَ ، نظل حفاةً ، وخفافاً

وأغانى إبل ...

فلنعترف الليلةَ

أن الماء يحاصرنا

والصحراء بعيدة ...


جورج البهجوري

صاح الرجل المكتئب :

ـ سـفـينة نوح راسـيـة فى (الميناء الشرقى) .. من يريد أن يلجأ إليها ..

من يريد أن يركب فيها ..

... قال (نوح) النبى من فوق ظهر سفينته :

ـ من يريد أن يلجـأ إلينا .. من يريد أن يركب معنا ..

.. .. ..

الطوفـان يجتـاح المدينة : غـضب السموات والأرض ..

.. (الصـينية) تدهسـهـا سيارات (المشروع) ..

يلهث البـشـر وراء كل سـيـارة تحضر فوق عجلات الذعر المجنون ..

.. تفـر السـيـارات من الرعب .. تلهث الجـمـوع .. يمسك الرجـال والنسـاء بكل عـربة .. يفكونهـا .. يجعلونها فتـاتاً .. يغرسـون فـيـها مـخـالبـهـم .. يلتـهـمـونهـا وهـم يصرخون .. صرخات متوحشة ..

... الماء يرتفع للركب .. البحيرات تعطل مـوتورات السيـارات .. تصرع العربات

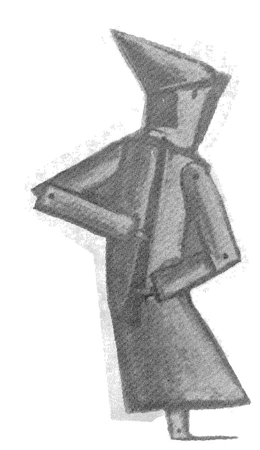
... يصـرخ العـالم مما يحـدث .. فليتولانا الله برحمته ...

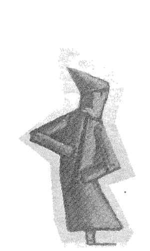
.. (القبارى) قنوات تحتاج لقوارب

... فى الزحام الغارق فيه البشر.. امـتطى (الرجل المكتئب) ظهر عـربة مشروع

؛

القزمُ يشتهى .. تفاحة آدم





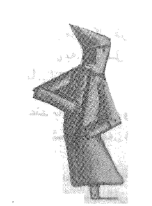
عن لوحـة فـاروق بسـيـونى

.. وضع العربة فى جيبه .. أمر السائق بالتحرك.. جلس يدخن فى هدوء فوق سقفها ...

... فى الطريق اعتزم أن يبتاع بعض أشجار البرتقال يوزعه على رجال ونساء الحجرة ...

... اشترى عدة أشجار من الثمار الناضجة .. لكن البرتقال تسلل من تحت إبطه .. غرق وهو يسبح فى (البرك) ليخرج إلى شاطىء (الأمان)...

قصة : **محمد حافظ**



... قال (المكتئب):

ـ ما دام البرتقال قد غرق سأعدلهم أكواب الشاى الساخن .. تدفئهم ..

يتم الصلح بينى وبينهم . فلا يأكلون لحمى ــ داخل أدراج مكاتبهم.. هرباً من زمهرير البرد القارس ...

... دخل (الديوان) بسيارة المشروع.. حتى مكتبه وهو يمتطى ظهرها فى البحر المر .. قال :

ـ الله يتولانا برحمته فى هذه المحنة المدهشة ...

... (للسوداء) طلب شايا ..(للصفراء) طلب شايا .. أمسك بحلقوم كل منهما

... فتحه على سعته .. دلق فيهما كروانة شاى ...

... اليوم (جاء القزم) يتمطى ...

... غائب كان هو فى إجازة ...

... اعتزم (المكتئب) عدم الحضور اليوم .. تجنباً للصدام المريع .. آكل البدن حتى النخاع فى المفاصل المتوارية فى الدهاليز المظلمة ... لكنه جاء ...

.. جلس على الكنبة يثرثر مع القزم وهما يدخنان النارجيلة هندى...

... كل يخفى ما يتعارك فى داخلهما ...

... قال (المكتئب) لرجل البوفيه :

ـ احضر شاياً ساخناً للقزم .. فى محنة العواصف الهائجة هذه ... بدلاً من البرتقال الذى غرق .. ليعم السلام مدينة النساء المدهشة ...

.. حضر الشاى للقزم ..

.. فكر القزم مرة .. ثم مرة .. قرر أن يلعب .. قال للتى بجواره «اشربى الشاى أنت .. أنا لا أقبل مشروباً من (المكتئب) .. خصوصاً وأنا أتظاهر أمامكم بالكبرياء والهنكرة»

... قال المكتئب : «الوغد .. القزم.. تحرك سريعاً .. تمطى .. نفث ببخاره الملوث أنحاء الحجرة »

.. قالت (السوداء) للقزم :

ـ افتح غطاء البالوعة .. ضع فيه قطعة السندوتش هذه ـ والنبى ـ قبل أن يتحرك الفيضان ...

... مرّ فى هذه اللحظة ـ الغلام الرفيع ـ قال وهو يشير إلى (المكتئب):

ـ مخبر هذا الرجل .. يضع على رأسه طاجن سته ...

.. هطل المطر بشدة ..

... انفجر الرجل (المكتئب) :

ـ هذا الشتاء وسخ ...

.. بهت الغلام الرفيع .. قهقه عاليا .. فر ...

... قال (المكتئب) للقزم .. الذى يتمطى قبل أن يصعد إلى سريره بالحجرة :

ـ طظ فيك وفى والديك

... من الحجرة المجاورة جاءت (رشيقة القوام) .. قالت للقزم :

ـ أنا أحميك من المكتئب .. أحرسك منه .. أوقف الفيضان القادم..

رغم شدة العواصف .. المكتئب يعطل مسار مسراتنا وبهجتنا وأنسنا.. قال المكتئب ..

ــ أعلم أن لكم العذر فى فتح صنابير السعادة المؤقتة والفرح والفرفشة ..

لكنى بكم أكتئبت..

قالت للقزم:

ــ سأطلب لك فنجان قهوة وسترى ما يحدث ..

.. حضرت القهوة ...

... خلعت ملابسها قطعة.. قطعة.. قفزت إلى فنجان القهوة.. راحت ترقص عارية فيه والقزم يشفط منه رشفة.. رشفة فى جوع وحرمان ظاهرين

... قررت الشياطين أن تواصل اللعبة .. تحركت المرأة التى فى الركن.. قالت للقزم وهى تعرض البضاعة من اللحم :

ـ أنا خاطبة شاطرة .. وجدت لك عروسة ..فى هذا البرد المفترى

.. فزع (المكتئب) قال لها :

ـ سيدتى (الخاطبة) ابحثى لى أنا الآخر عن عروسة

... قال له ينذره :

ــ كف عن تعاطيها ـ اتركها لمن هو أولى منك .. كف عن الاشتهاء ..

قالت له :

أنت لا تصلح .. زاهد أنت فى أيام الفيضان هذه .. تعلن مقاومتك لصنف النساء .. صنفنا ..

.. تحسس المكتئب وجهه : يندهش الناس منه يفر منهم ..

تطارده الشياطين كى ينتحر تحت عجلات الترام السائر فى شوارع (الأمان) ...

... تحرك فيضان (القبارى) و(الورديان)...

... قالت (الجدة) :

ـ ستلعنك السموات .. إن لم تكف عن العناد وتبتعد عن الاكتئاب الذى تخيف به العباد .. ألاترى أن الأمطار والعواصف تعويان من شدة الغضب عليك

.. مدت (رشيقة القوام) يديها أحاطت بخصر القزم وهو يتمطى كثيراً من ضغط الحرمان:

ـ أرقص معى هذه الرقصة لنغيظ المكتئب .. حتى يفر من وجوهنا .. ينتحر تحت أقرب سيارة مشروع عابرة ...

... القزم يتجول بينهن .. يروح ويجىء .. انتمى لهن : مهرجهن اللطيف

..يظل المكتئب وحده مكتئبا .. قال له :«كف عن تعاطيها» يخشى غضبه ..

.. وقف (المشروع) أمامه قفز إليه. صار بجانب السائق : نعمة لا يحصل عليها أحد فى هذه الأيام....

.. فى العودة من (الديوان) وقف أمامهم أتوبيس شركة يتسول ركابه حمله مع المنتظرين...

... فى سوق (عمر باشا) المحيط .. اشترى لوبيا وفاصوليا .. ياإلهى البرد سفاح لم يأت لنا مثله منذ أعوام...

.. بعونه خرج .. كفت الأمطار عن فتح خياشيمها .. فى الرابعة قام ..

اتصل به .. لم يكن الاتصال عميقاً .. ارتعد من التعب .. لم يخذله .. انفعالاته شديدة الجموح .. فى خياله يركض القزم والغلام الرفيع والفلاح العريض

.. حضر إلى (الديوان) أول الحاضرين .. دخل الفلاح العريض .

.. رق قلبه له .. تراجع عن التحدى .. جاذبه أطراف الحديث..

... ذهب الغلام الرفيع .. جاء. القزم أكل شعر ذقنه بأسنانه.. حاول أن يحادثه أعرض عنه .. صمت القزم..

.. تضرّع المكتئب إليه ألا يخذله

. ظل القزم صامتاً. لم ترقص الشياطين رقصتها .. وحيد هو فى وحدته

. امرأة الركن تفرقع ضحكاتها سروراً .. قالت هامسة: الله يهدك..

.. السوداء تدغدغ جسد القزم.. رد عليها بكلمات مرسومة متقطعة

..شريرة السوداء تحاول إغاظته.. نادى المنادى من مكان قريب ... ذهب إليه.. اتصل به.. حصل على الهدوء والرضا.. انتشى..

.. عند باب الدخول وجد القزم أمامه.. جاشت عواطفه.. قبله

.. عاد إلى عزلته ميتا.. السوداء تستفزه تدغدغ جسد القزم تحركه..

●●●

.. فى الواحدة .. نهض رجل من فوق مكتبه .. سحب زميلته من فوق المكتبالمجاور .. جذبها إلى الأرض .. ضاجعها أمام الجميع .. نهضت من رقدتها

متكورة البطن .. قالت أنا على وشك الوضع .. تقدمت واحدة .. قالت:

ـ سأساعدك..

... وضعت عدة أطفال وراء بعضهم .. راحوا يصرخون : واء .. واء

.. صفق الجميع فى سرور رحيب .. وقف الرجل يتمطى فى زهو وخيلاء .

●●●

ظهرت سفينة نوح فى (الميناء الشرقى) ....

قال المكتئب :

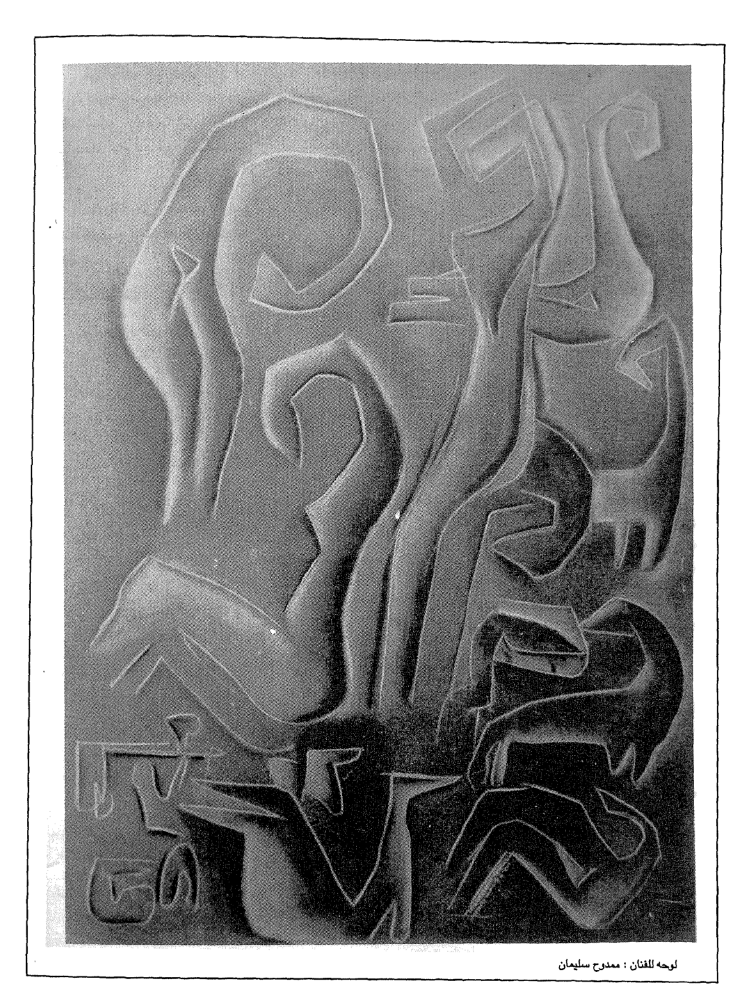
ـ سفينة نوح راسية فى الميناء الشرقى .. من يريد الركوب .. من يريد النجاة ..

.. قال نوح النبى من فوق ظهر سفينته:

ـ من يريد أن يلجأ إلينا .. من يريد أن يركب معنا..

.. لم يركب معه أحد ...

... قام الطوفان ... ■



لوحه للفنان : ممدوح سليمان

آخر قصيدة

شعر

إبراهيم عبد الفتاح

آخر قصايدك إيه ؟!
يمكن تفتّح وردة ع الأسفلت
أو يطلعوا قمرين لحظة ما تشرق شمس
أشبك عنيّه ف أبجديتها
عرفت ديتها
حاكتبها وارفع كفنى ع الكفين
وف نن عين الإبره حا شبك عين
وأرفى حواية صدرها

فى الحلم كانت واقفة بنت بتشبهك
خطفت قميص ولوحت بالورد
قبل ما روحت
كشفت عن النهدين
وف نن عين الإبره شبكت عين
يا ريتنى كنت شبكتها

عديت من «الهاء» اللى نايمه وحدها ع السطر
ولعت صفّ من الشموع
صفّين، تلاته، أربعه، مدى
«الجملة دى مترددة
حاكتبها تانى»
ولعت صفّ من الشموع
وخلعت بدنى من الهدوم
كانت عنيكى خليج نبِيت
عديت
غرقت
لمحت مركب من ورق
ورقصت لما اتورموا القدمين
وفرجلى عين السمكه كانت عين
ياريتنى كنت حرقتها
آخر قصيده كتبتها .. ما كتبتهاش
ماشى بالملم ضلّها
يمكن تسرسب ضيّها بين عتمتين
أو تبتسملى ف آخر الفنجان
يمكن عجوزه بتفرك النسيان
أو شاى بردْ على زهرة البستان !

سر البونزو*

فصل غير منشور بقلم

فرنون مينديس پينتو

قصة

ماشادوده أسيس

ترجمة

خليل كلفت

رويتُ لك منذ قليل قصة ما حدث للأب الموقّر جدا فرانسسكو فى مدينة فوشيو، عاصمة مملكة بونجو، وماذا جرى للكنا الكاثوليكى فى المجابهة بين الأب فرانسسكو والفوكارا ندونو وبقية البونزوات الذين اعترضوا على تفوّق ديننا الكاثوليكى الرومانى المقدّس. رسأتحدث الآن عن مذهب ليس أقل غرابة منه نفعا للروح، وهو جدير بالتعريف به فى شتى أنحاء العالم المسيحى.

ذات يوم فى سنة ١٥٥٢ ميلادية، فيما كنتُ أنا وديينجو ميريليس نتمشّى فى شوارع مدينة فوشيو المذكورة آنفا، إذا بمجموعة أشخاص على ناصية شارع، وقد تحلّقت حول أحد أبناء تلك البلاد كان منهمكا فى حديث تقاطعه الإشارات والصيحات. كان الجمع يتكون من رجال فقط، مائة على الأقل، وقد وقفوا جميعا فاغرى الأفواه رهبة إزاء المتحدث. وكان دييجو ميريليس، الذى عرف تلك اللغة أفضل مما عرفت لأنه كان قد قضى شهورا عديدة فى بونجو خلال مهمة تجارية (وفى وقت لاحق، بعد أن تلقى الدراسات الملائمة، تفوّق فى ممارسة الطب)، كان يترجم كلمات المتحدث إلى لغتنا.

كانت فكرة المتحدث الرئيسية هى أن رسالته الوحيدة هى كشف أصل صراصير الليل، التى كانت تُولد من الهواء أو من أوراق أشجار جوز الهند أثناء اقتران القمر الجديد، وأن عمله، وهو مشروع مستحيل لمن لم يكن عالم رياضيات، وعالم طبيعة، وفيلسوفا مثله هو، يمثّل ثمرة سنين طويلة من المثابرة على التجريب، والدرس، وحتى الخطر الذى ينذر بالهلاك. لكنه كان قد حقق أخيرا غايته، وجلبت ثمار جهوده المجد لمملكة بونجو، خاصة فى مدينة فوشيو، التى كانت مسقط رأسه، وكان على يقين من أن العلم أعظم قيمة من مباهج الحياة إلى حد أنه كان سيقبل الموت فى الحال إذا كانت مثل هذه التضحية ضرورية.

وبمجرد ان ختم كلامه ، أطلق الجمع المحتشد صيحة ابتهاج تصمّ الآذان وحملوا الرجل على الأكتاف ، صائحين : «پاتيماو ، پاتيماو ، عاش پاتيماو ، الذى اكتشف أصل صراصير الليل ! » وأخذوه إلى الشرفة المسقوفة لمحلّ تجارى ، حيث قدموا له مشروبات وقاموا بتكريمه بأسلوب أولئك الوثنيّين اللطفاء والمهذبين للغاية .

كُنّا عائدَيْن من حيث أتينا ، نتناقش حول الاكتشاف الفذ الخاص بأصل صراصير الليل ، عندما فوجئنا على مسافة لا تزيد عن ستة من الكريدوات من شرفة التاجر بجمع غفير آخر أيضا تجمّع على ناصية شارع ، منصتا إلى رجل آخر . كنا مندهشيْن بتشابه الموقفيْن ، ولأن هذا الرجل بدوره كان يتكلم بسرعة أخذ دييجو ميريليس يردّد لى خلاصة حديثه ، كما كان قد فعل من قبل . ومحاطا بالإعجاب والاستحسان الشديديْن من جانب أولئك الذين أحاطوا به ، قال هذا الرجل ـ وكان اسمه لانجورو ـ أنه اكتشف ، من أجل أولئك المعنيِّين بالخلاص بعد الدمار الكامل للأرض ، مبدأ الحياة الأخرى فى قطرة واحدة من دم البقرة .

وقد فسرتْ نظريته كذلك التقدير العالى الذى أُعتُبِرتْ به البقرة مثوى للأرواح البشرية والحماس الذى يبحث به الناس عن ذلك الحيوان المقدس فى ساعة موتهم . وكان على يقين تام من سلامة اكتشافه ، الذى كان ثمرة التجريب المتواصل والتأمل العميق ، وكان لا يطلب ولا يريد أىّ مكافأة على جهوده ، إلا أن يجلب المجد لمملكة بونجو وأن يتلقّى منها التقدير الذى يستحقه أبناؤها الجديرون بالتكريم .

وأطلق الجمع ، الذى كان يصغى إلى خطبته ببالغ التبجيل ، صيحة هائلة وأخذوه إلى نفس شرفة التاجر ، مع الفارق المتمثل فى أنه تم نقله إليها فى محفّة . وعندما وصل ، انهال عليه سيل من الاهتمامات والتودّدات مشابهة لتلك التى مُنحت لپاتيماو ؛ وفى كل حالة ، كان المقصد الأول للجمهور المضيف هو التعبير عن عرفانهم للضيف الجليل . ولأنه بدا من غير المرجح أن يكون التشابه بين الحدثيْن عرضيًا ، لم ندر كيف نعلّل حدوث ذلك ، ولم نكن نعتقد أن أية نظرية من النظريتين ـ أصل صراصير الليل الذى اكتشفه پاتيماو أو مبدأ الحياة الأخرى الذى اكتشفه لانجورو ـ كانت عقلانية أو قابلة للتصديق . فى ذلك الوقت ، تصادف أن كُنّا قريبيْن من بيت صانع صنادل اسمه تيتانيه ، وقد اندفع خارجا للقاء دييجو ميريليس .

وفيما كان الصديقان يتبادلان التحية ، كان صانع الصنادل يخاطب دييجو ميريليس بأسمى العبارات ، واصفا إياه بأشياء من قبيل « صوت الحقيقة الذهبية » و « المصباح المجيد للفكر » .

ووصف دييجو ميريليس ما سبق أن شهدناه قبل ذلك بقليل ، وأجاب تيتانيه بانفعال : « ربما كانا يمارسان عقيدة جديدة يُقال انه اسسها بونزو ذو علم غزير يعيش على منحدرات جبال المرجان » . وحيث أننا عبّرنا عن رغبة حارقة فى معرفة المزيد عن هذه العقيدة ، وافق تيتانيه على مصاحبتنا إلى منزل البونزو . وأخبرنا أن البونزو لم يفتح قلبه إلا لأولئك الذين رغبوا رغبة جارفة فى أن يصبحوا من أشياع معتقداته ـ وهكذا كان علينا أن نتظاهر باننا أنصار متحمسون لنحمله على أن يُطلعنا على عقيدته ، فإن أعجبتْنا أمكننا أن نضعها موضع الممارسة .

كما اعتزمنا ، ذهبنا فى اليوم التالى إلى بيت البونزو العجوز بومادا* ، الذى كان فى الثامنة بعد المائة من عمره . كان البونزو بومادا ضليعا للغاية فى العلم الإلهى والإنسانى ، وحيث إنه حظى بمنتهى الإجلال والتبجيل من جانب شعوب تلك البلاد الوثنية فقد ارتاب فيه غاية الارتياب بقية البونزوات ، الذين نهش الحسد قلوبهم . وبعد أن علم بومادا من خلال تيتانيه مَنْ كُنّا وماذا أردنا ، أخذ يُهيئنا لتلقّى عقيدته عن طريق إقامة طقوس وشعائر وثنية متباينة ، ثم رفع صوته ليبوح بمعتقداته ويشرحها .

« يجب أن تفهموا » ، هكذا بدأ ، « إن الفضيلة والمعرفة لهما حياتان متوازيتان : أوّلا ، فى الشخص الذى يملك هاتين السجيّتيْن ، وثانيا ، فى الشخص الذى يلاحظه . وإذا وضعتم أسمى الفضائل وأعمق المعرفة فى فرد يحيا فى مكان ناء ، منعزلاً عن كل اتصال بإخوته البشر ، فسوف يبدو وكأنه بلا أية فضائل أو معرفة . وإذا لم يَذُقْ أحد برتقالة لا تعود لها قيمة أكثر من نبات الخلنج أو الأعشاب الضارة ، وإذا لم ير أحد البرتقالة فهى عديمة القيمة . وبعبارة أخرى ، لا مشهد بلا مُشاهد . وذات يوم ، فيما كنت أمعن التفكير فى هذه الأمور ، أدركتُ أننى قضيتُ حياتى أحاول أن يزداد علمى قليلاً وبدون حضور أشخاص آخرين ليرونى ويبجّلونى فلن يكون لجهودى أىّ نفع دنيوى . ثم تساءلتُ ما إذا كانت هناك طريقة لتلقّى نفس التبجيل والحفاوة بدون بذل الجهد . ويمكننى الآن أن أقول إن

اليوم الذى اكتشفتُ فيه عقيدتى كان يوم تجدد وخلاص للبشرية ».

عند هذه النقطة كنّا كُلّنا آذانا صاغية، وكانت عيوننا مركّزة على البونزو، الذى أخذ يتحدث على مهل وبوضوح بحيث لم تَفُتْنى كلمة، لأن دييجو ميريليس كان قد أحاطه علما بأننى لستُ بالغ الإلمام بلغة تلك البلاد. وقال إن الفكرة وراء عقيدته الجديدة، الأمر الذى لم يكن بوسعنا تخمينه وحدنا، جرى استلهامها من شىء لا يقل عن حَجَر القمر الذائع الصيت، الذى كان يبهر العيون إلى حدّ أنه عندما يوضع على قمة جبل أو فى أعلى برج كان ينير حتى أبعد الحقول المحيطة به. ولم يكن لحجر القمر المتلالىء وجود فى واقع الأمر، غير أن كثيرين كانوا يؤمنون بوجوده، وزعم أكثر من واحد أنه رآه بعينيه. ثم قال البونزو: « فكرتُ فى المسألة وأدركتُ أنه إذا أمكن أن يوجد شىء فى الرأى دون وجود فى الواقع، أو أن يوجد فى الواقع دون وجود فى الرأى، فالاستنتاج السليم هو أن ما هو ضرورى من بين الحياتيْن المتوازيتيْن هو الرأى وحده — وليس الواقع، فهو ليس سوى اعتبار ثانوى. وبمجرد أن قمتُ بهذا الاكتشاف التأملى، حمدت الله على هذا الفضل الخاص وقرّرتُ أن أفحص سلامة عقيدتى بتجارب أثبتت، فى أكثر من حالة، صوابها.

لكننى لن أتناقش فى هذا الآن، لأننى لا أريد أن آخذ المزيد من وقتكم. ولكى أمنحكم فهما لعقيدتى، يكفى أن ألفت أنظاركم إلى واقع أنه، أوّلا، صراصير الليل لا تولد من الهواء أو فى أوراق أشجار جوز الهند أثناء اقتران القمر الجديد؛ ثانيا، لا يمكن أن يوجد مبدأ الحياة الأخرى فى قطرة واحدة من دم البقرة. لكن پاتيماو ولانجورو كانا فى غاية الدهاء ونجحا فى دسّ هاتين الفكرتين فى عقول الجماهير بمهارة بالغة إلى حدّ أنهما يتمتعان الآن بشهرة عالمِيْن طبيعيّيْن عظيميْن. وفيلسوفيْن أعظم، ولهما أتباع مستعدون للتضحية بحياتهم فى سبيلهما ».

لم نعرف كيف نعبّر للبونزو أفضل تعبير عن مشاعر منتهى الرضا والإعجاب لدينا. ولفترة بعد ذلك، راح يسألنا طويلاً عن المبادىء الأساسية لعقيدته. وعندما اقتنع بأننا فهمناها، نبّهنا إلى أن نمارسها ونبوح بسرّها بحذر، ليس لأنها تنطوى على أىّ شىء يتعارض مع القوانين الإلهية أو البشرية بل لأن سوء تطبيقها من جانب معتنق جديد يمكن أن يلحق بها الضرر ويقوّض فُرَصها فى النجاح. وفى نهاية المطاف ودّعنا وقال إنه على يقين من أننا نغادر بيته « بالأرواح المخلصة للهومادّيين »، وهذه تسمية أسعدته للغاية، لأنها كانت مشتقة من اسمه شخصيا.

والحقيقة أننا نحن الثلاثة اتفقنا قبل حلول المساء على أن نضع موضع التطبيق فكرة بدتْ لنا مُريحة بالإضافة إلى كونها سديدة، حيث أن الربح لا يوجد فى شكل العملة فحسب بل كذلك فى شكل التقدير والإطراء، اللذيْن يمثلان وسيلتيْن أخريَيْن من وسائل التبادل — حتى وإن لم يكن بوسعنا استعمالهما فى شراء الأقمشة الدمقسية أو طقم المائدة المصنوع من الذهب الخالص. ثم قرّر كلّ منا، لكى يمتحن سلامة العقيدة، أن يغرس فى عقول مواطنى فوشيو اقتناعا كان من شأنه أن يسمح لنا بالتمتع بمنافع مشابهة لتلك التى تمتع بها پاتيماو ولانجورو. وعلى رأى المثل فإن أفضل مصالح المرء تشغل عادة الجانب الأكبر من تفكيره، وقد صمم تيتانيه خطة لتلقّى الأجر بكلا العملتيْن — نقدًا وبتقدير مواطنيه — باستخدام العقيدة كوسيلة لبيع الصنادل. ولم نعترض على فكرته حيث إنها لم تكن تتعارض مع جوهر عقيدتنا.

لا أعرف تماما كيف أشرح تجربة تيتانيه أو أجعلها مفهومة. ذلك أنه فى مملكة بونجو، كما فى مناطق أخرى نائية فى هذا الجزء من الكرة الأرضية، يصنع السكان ورقا من نوع فاخر من لحاء القرفة المطحون والمصمّغ، ويجرى تقطيعه قِطعا القطعة منها بطول كفّيْن وعرض نصف كفّ. وتُطبع أنباء الأسبوع، بألوان زاهية، على هذا الورق بلغة تلك البلاد — وهم يكتبون عن السياسة، والدين، والتجارة، والقوانين الجديدة للمملكة، ووصول وإقلاع المراكب المجهزة بالأشرعة المثلثة وبالأشرعة الضخمة الخفيفة، وزوارق اللانشارا، واليخوت ذات الأشرعة المثلثة الضخمة، وكافة الأنواع الأخرى من السفن التى تبحر فى تلك البحار، سواء لشنّ الحرب، وهى كثيرة الاندلاع، أو لممارسة تجارتها. وفى كل أسبوع تُطبع وتوزع كميات ضخمة من مناشير الأنباء هذه على أبناء البلاد مقابل هبة، يدفعها كل منهم عن طيب خاطر لعله يتلقّى الجريدة قبل جاره. وجد تيتانيه بطاقة زيارته المثالية فى هذه الجريدة، التى يمكن ترجمة اسمها فى لغتنا إلى « عماد ومنارة الشئون الدنيوية والسماوية ».

ورغم أنه اسم مبهرج بعض الشىء فهو بالغ الإيحاء. جعلهم تيتانيه ينشرون فى

هذه الجريدة أن صنادله ، وفقا لأحداث الأنباء من سولحل مالابار [الهند] والصين ، كانت حديث الساعة . وكانت تعتبر ، من حيث مهارة الصنعة والموضة ، أعظم الصنادل فى العالم . وكان اثنان وعشرون على الأقل من كبار موظفى الإمبراطورية الصينية يقدمون التماسات إلى الإمبراطور السماوى لينعم عليهم بلقب « صنادل الإمبراطور » ، وكان المطلوب أن يمنحها الإمبراطور كمكافأة لأولئك الذين تفوقوا فى مساعيهم الفكرية . كان تيتانيه يبذل قصارى جهده لتلبية الطلب الدائم الازدياد على مُنْتَجه ، ليس حبًا فى الربح بقدر ما كان تشريفا لبلاده . لكنه ، رغم الطلب على صنادله ، كان قد أحاط الملك علما بأنه سيهب الفقراء خمسمائة زوج من الصنادل . وكانت حقيقة أن صنادله تعتبر الأفضل فى العالم لم تُصبه بالغرور ، ذلك أنه كان لايزال حِرَفيًا متواضعا ، يعمل فى سبيل مجد مملكة بونجو . وحتى ذلك الحين ، كان الناس يعتبرون صنادله وافية بالغرض ، لكنهم بعد قراءة الأخبار بدأوا يبحثون عنها بتلهف وحماس ، ازدادا مع الوقت ، فيما ظلّ تيتانيه يغريهم بالكثير من القصص العجيبة عن بضاعته .

ومتخذا سيماء المحترف ، قال لنا :

« يمكنكما أن تريا أننى امتثل لروح عقيدتنا ، ذلك أننى لا أؤمن فى الواقع بتفوّق صنادلى ، فهى عادية فى الحقيقة . لكننى جعلت الجماهيرَ تؤمن بها ، وهم يدفعون فيها الآن السعر الذى أحدده » . ومتصديا لرأيه قلتُ : « لا أعتقد أنك أدركتَ المعنى الحقيقى لعقيدتنا . فليس من المفترض فينا أن نغرس فى الآخرين رأيا لا نراه ، بل بالأحرى أن نجعلهم يؤمنون بأنه يمكننا أن نفعل شيئا لا يمكننا أن نفعله . هذا جوهر عقيدتنا » .

عندئذ وافقا على أنه جاء دورى . وبدأتُ على الفور ، لكننى سأكتفى بمجرد تلخيص تجربتى لأنتقل إلى رواية تجربة دييجو ميريليس ، حيث إنها كانت أكثر التجارب الثلاث حسما وقدّمت خير برهان على فعالية الابتكار السارّ للبونزو . ولن أقول أكثر من أننى لما كنت أعرف القليل عن الموسيقى وعن آلة الشّاوْم* ، التى لم أكن أعزف عليها جيدا ، قرّرتُ دعوة أهم مواطنى فوشيو ليستمعوا إلى عزفى على تلك الآلة . جاءوا ، واستمعوا ، وانصرفوا قائلين إنهم لم يسمعوا أبدا من قبل أىّ شىء بهذه الروعة . وأعترف بأن نجاحى كان يرجع بالكامل إلى أسلوبى فى العرض : الانحناء الرشيق لذراعىّ لالتقاط آلة الشّاوْم ، التى كانت قد حُملت إلىّ فوق صينية من الفضة ، ووقفتى المزهوّة والصارمة ، والسلاسة التى رفعتُ بها عينىّ صوب السماء ، والكبرياء المزدرية التى خفضتُهما بها من جديد لأتطلّع إلى الجمع المحتشد . وعند هذه النقطة هبّتْ عاصفة من الصيحات العالية الحماسية وهتافات الاستحسان إلى حدّ أننى كدتُ أقتنع بأننى كنت جديرا بهذه الاستجابة .

لكنْ كما ذكرتُ منذ قليل ، كانت تجربة دييجو ميريليس أبرع تجاربنا جميعا . فى ذلك الحين ، كان هناك مرض غريب ينتشر فى كل أنحاء المدينة وكان يجعل أنف الضحية يتضخم إلى أن يغطى نصف وجهه . فكان على المصاب ، بالإضافة إلى كونه يبدو مريعا ، أن يصبر على الإزعاج المتمثل فى حمل ذلك الوزن الإضافى وكان من رأى أطباء البلاد استئصال الأنوف المتضخمة لتسكين آلام المرضى ومداواتهم ، لكن لم يكن هناك مَنْ يرغب فى تسليم نفسه لهذا العلاج ، مفضّلاً الإفراط على الغياب ومعتبرا الاستئصال أسوأ حل ممكن . ومات الكثيرون عن طيب خاطر فى سياق هذا المأزق المفزع مفضلين ذلك على العلاج ، وكان هناك حزن عظيم فى شتى أنحاء مدينةِ فوشيو .

وكان دييجو ميريليس ، كما سبق القول ، يمارس الطب منذ فترة . وقدَ درس ذلك الداء وانتهى إلى أن خلع الأنف له ميزتان : يمكن إتمامه بلا خطر على المريض ، وهو فى نهاية المطاف لا يغدو أقبح مما كان من قبل ، حيث إن عدم وجود أىّ أنف على الإطلاق ليس أسوأ من أنف مريض ، ومشوّه ، وثقيل . لكنه كان عاجزا عن إقناع التعساء ذوى الحظ السيىء بالإقدام على التضحية . وهذه هى اللحظة التى وقع فيها على ابتكاره البارع . وفى تجمع للأطباء ، والفلاسفة ، والبونزوات ، وبقية ثقاة وممثلى المجتمع ، أبلغ المجلس أنه ابتكر طريقة سرية لحل المشكلة بأن يحلّ محلّ العضو المريض أنف ميتافيزيقى سليم ، كان — رغم أنه لا يمكن إدراكه من جانب الكائنات البشرية — واقعيا أو أكثر واقعية من الأنف الذى جرت إزالته . وكان قد مارس هذا العلاج فى مكان آخر ، وتم التسليم بصحته كل التسليم من جانب أطباء مالابار [الهند] . أصيب أولئك المجتمعون بالذهول . وكان رد فعل الكثيرين هو عدم التصديق ، غير أن الغالبية لم يعرفوا فيم يعتقدون . فرغم أنهم كانوا شديدى النفور من فكرة

أنف ميتافيزيقى إلا أنه أغرتهم مع ذلك اللهجة القوية لكلمات دييجو ميريليس السامية والاقتناع الذى عرض به علاجه وحدده. وأعلن عدد من الفلاسفة الحاضرين، مرتبكين إلى حدّ ما بالعرض العلمى الذى قدمه دييجو ميريليس وكارهين أن يعطوا الانطباع بأنهم كانوا يعرفون أقلّ مما يعرف، إن دعائم تجربته تقف على أرض صلبة فى ضوء حقيقة أن الإنسان كان النتاج الوحيد للمثالية الترنسندنتالية. ونتيجة لذلك زعموا أن هناك أكثر من سبب كاف للإيمان بالأنوف الميتافيزيقية وأقسموا أنها لا تقلّ عن مستوى النوع الآخر.

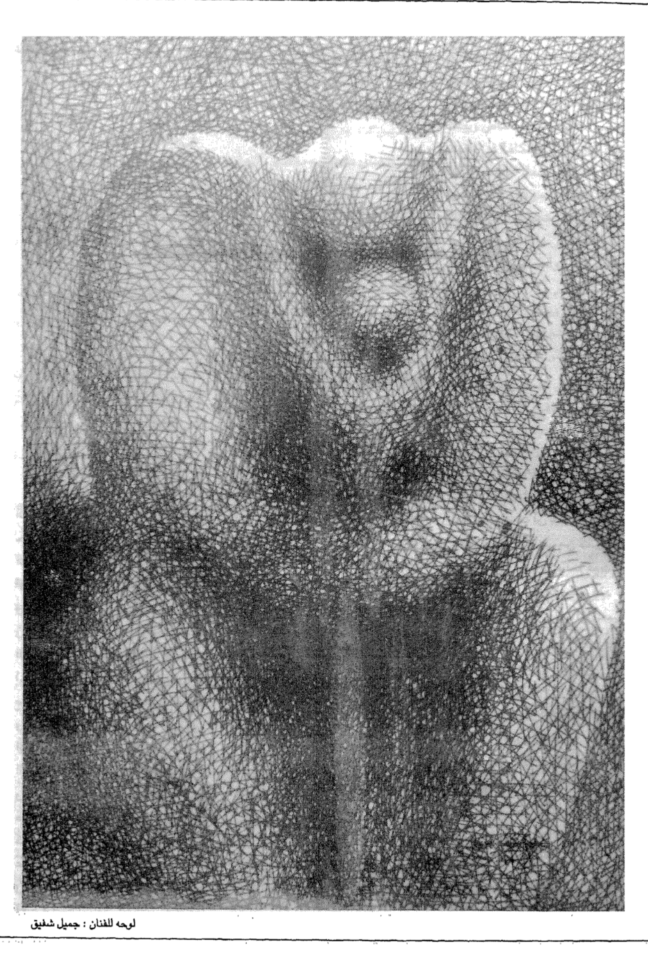
صفّق المجلس لدييجو ميريليس. وتوافد عليه المرضى زرافات إلى حد أنه كان عليه أن يكرس كل طاقاته لعلاجهم. وبعد استئصال أنف المريض بكل مهارة كان يدس أصابعه فى صندوق للأنوف الميتافيزيقية، ويخرج واحدا منها، ويدخله فى الموضع الفارغ. وكان المرضى، الذين عولجوا وجرى تعويضهم بهذه الطريقة عما فقدوه، ينظرون إلى بعضهم فلا يرون شيئا فى مكان العضو الذى جرى قطعه. غير أنهم كانوا على يقين من أن العضو البديل موجود هنك — وحتى إن لم يكن بوسعهم أن يروه أو يلمسوه — إلى حد أنهم لم يعتبروا أنفسهم مخدوعين وراحوا يباشرون شئونهم.

كان أقوى برهان على عقيدة دييجو ميريليس ونجاح تجربته هو واقع أن أولئك الذين قطعت لهم أنوفهم ظلّوا يستعملون مناديلهم ليتمخطوا وقد رويت هذه الحكاية بأكملها راجيا تكريم البونزو. وخدمة مصالح الجنس البشرى. ■

* البونزو (« الكاهن البوذى ») يعنى أيضاً فى البرتغالية « المنافق » و« الوقور». وقصة « سرّ البونزو » مقدَّمة على أنها فصل غير منشور من كتاب شهير للرحالة البرتغالى فرنون ميندبس پنتو (حوالى ١٥١٠ — ١٥٨٣) هو كتاب « الحج » الذى وصف فيه التوسع البرتغالى فى آسيا (بعد ارتياده لبلاد الهند الصينية) وصفاً غنياً بالمعلومات ولا بطولياً ساخراً — ملاحظة الطبعة الإنجليزية بتصرف — المترجم.

* « دجّال » — ملاحظة الطبعة الانجليزية.

● آلة نفخ موسيقية قديمة أشبه بالناى — المترجم.



لوحه للفنان : جميل شفيق

القــــــديس

حـــــازم هاشم

في كل الذين عرفوه أطلقوا عليه لقب القديس، على الرغم من أنه لم يكن يفعل شيئاً في حياته يمت بصلة إلى ما في حياة القديسين كما عرفناها في أخبارهم. أول ما عرفته كان كاتباً وشاعراً وممثلاً وناقداً وموسيقياً وغير ذلك، زرت بيته برفقة واحد من الصحفيين الكبار كان عاشقاً ومحباً للقديس. أخذني إليه وقدمني على أنني واحد من صبيان الأدب، وصعاليك الثقافة وكنت بالفعل كذلك، وقد احتفى القديس بي على طريقته بسيل من الشتائم الأبوية فسكت على مضض، ومازلت أذكر هذه الأمسية التي طالعت فيها وجهه للمرة الأولى لأنها كانت أمسية حافلة. الشقة واسعة في عمارة تنتمي إلى أيام عز البناء والعمارة التي تنم عن ذوق رفيع لملاكها. كان لدى القديس ليلتها ضيوف من السودان الشقيق، لمحت بينهم وجهاً. لمحت بينهم وجهاً لشاب راح يسكر حتى كاد يفقد النطق. ومرت بعدها سنوات ليصبح هذا الشاب حاكماً في بلده لسنوات طويلة حتى أطاحت به ثورة شعبية عارمة. مدت أمام الجميع مناضد صغيرة حفلت بمتنوعات من الطعام والشراب. والنقاش احتدم بين الجميع في شتى الموضوعات لكن القديس صاحب البيت كان له الصوت الأعلى والأكثر انتشاراً في المكان.

وقد لاحظت أن القديس يحب الأكل ويعانق اللحوم عناقا حارا، فلا يخفي شوقه ولا يداري روعة اللقاء. ولما كنت وقتها نحيفا رشيقا فقد استنكر نحافتي وناولني قطعة كبيرة من اللحم وهو يقول :.. « كل .. أظن ده أول تعارف بينك وبين اللحمة» .. شاركت الجميع الضحك وأنا في غاية «الكسوف» . وكنت قد لاحظت أول ماجلست أن جدران الغرفة الفسيحة لا تظهر من كثرة الكتب التي غطتها تماما، وعندما قمت أطالع العناوين، حسدت القديس، فقد كانت عنده كتب في كل باب. لن أنسى أنه في ذلك اليوم بادرني فيما يشبه الإعلان والضوء الأخضر.. «خد أي كتاب يعجبك إقراه ورجعه تاني.. واديني ح أجرّبك إياك تطلع زي غيرك حرامي كتب » وطمأنته خشية أن يتراجع . فحملت ليلتها أربعة كتب ليقول لي القديس عند الانصراف: «إبقى تعالى أي وقت»

بدأت التردد على بيت القديس . وفي كل مرة أخرج مبهورا أكثر . أسمعني موسيقى. وقرأ لي شعرا. وحدي أو بين آخرين في زيارته ولما

اكتشف أننى لست من «حرامية» الكتب أصبح يدلنى على الكتاب الذى أحمله معى لأرده بعد القراءة. وشيئاً فشيئاً أدركت لماذا من عرفوه أسموه القديس ؟؟، خلوته مع الناس وبيته كأنه المزار مفتوح للكافة فى النهار والليل. مسامر جعل لسمار لياليه طقوسا وتقاليد مرعية هو كاهنها الأعظم . كان تركيبة إنسانية حافلة بالثقافة والفن والفوضى والعبث والرقة الحانية والخشونة الفظة، يغنم لذات الحاضر ولا شأن له بالغد. يكسب الكثير وينفق أكثر. صعلوك عظيم بهرنى فلم أكن - وكل جيلى - أطمح وقتها لأكثر من ذلك.

وكما كان القديس قادرا على كسب المال وإنفاقه. كان مقتدرا فى الحصول عليه عبقريا فى إيجاد مصادره وقتما يريد. لا يعدم الوسيلة ولا يفقد الفريسة. وفى هذا الباب وحده من مواهب القديس لا تنفد الحكايات.

لكننى سأحكى لكم واحدة من درره العبقرية فى كيفية الحصول على الأموال كلما أراد.

فى الستينيات كان لمصر وزير للتجارة الداخلية بعد أن أضفنا لاسم وزارة التموين - وهى وزارة تاريخية فى مصر - اسم التجارة الداخلية، وكان الوزير فى ذلك العصر - شأن كل الوزراء - «على قد حاله» ولا يمكنه الحصول من الدنيا إلا على راتبه. وكان فلك الأرقام وقتها بسيطا متواضعا وأى مسئول فى الدولة يفزع إذا حدثته فى شئون المال متجاوزا رقم الألف.

قرر القديس أن يكون وزير التموين والتجارة الداخلية، هذا فريسته، فالقديس فى حاجة إلى مبلغ من المال. وهذا المبلغ قد تجاوز رقم الألف بآلاف. ولا يمكن أن يتيسر له عن طريق الاستدانة، فماذا فعل القديس؟!.

اتصل ذات يوم بمكتب الوزير ذاكراً اسمه لمدير المكتب طالباً تحديد موعد مع سيادة الوزير.

فلما حاول مدير المكتب أن يستفسر عن سبب طلب الموعد وقد ظهر عليه أنه لا يعرف القديس. انبرى القديس له شاخطاً ناطراً ناعياً على مدير المكتب جهله بقدر وقيمة من يحدثه!. وتحت وقع الشخط والنطر - وكان القديس ممثلاً بارعاً إذا أراد التظاهر بالغضب - خر مدير المكتب صريعاً تحت الوطأة والوقع، واستمهل القديس لدقائق عاد بعدها أسفاً ومعتذراً عن جهله الشديد، ومعلنا للقديس الموعد المضروب الذى ينتظره فيه سيادة الوزير.

ما إن دخل القديس على الوزير إلا وانتفض الرجل هاشاً باشاً مصافحاً فى غاية الاحترام والتوقير زائره القديس . الذى كان قد أعد العدة الجيدة لهذا اللقاء.

بعد شرب الساقعات والساخنات وأحاديث المودة الكاذبة دخل القديس فى الموضوع.

بدأ باستنكار عدم إدراك الوزير لأهمية وزارته وأعمالها. وكيف أنها لا يجوز أن تكون وزارة فى الظل مع أنها أكثر الوزارات مساساً بحياة الناس فى النهار والليل. ولإحساس القديس واقتناعه بأهمية الوزارة فقد جاء يعرض على الوزير فكرة مدهشة، ابتهج لها الوزير، والقديس لا ينقطع حديثه حتى أجهز على الوزير الذى جلس يسمع فى غاية الانبهار.

أخرج القديس من حقيبة صغيرة فى يده ورقتين هذا هو مضمون وملخص الفيلم الذى ينوى القديس إخراجه عن التموين والتجارة الداخلية فى مصر من عهد الملك «أحمس» وحتى عهد وزير التموين والتجارة الداخلية الحالى!.

إنه الفيلم الذى سيوفى الوزارة حقها فى الدعاية والترويج لنشاطها المهم.

طالع الوزير الورقتين وقد أصبح مقتنعاً تماماً بالفكرة. ليسأل القديس على استحياء: كم يتكلف هذا الفيلم؟!

أجاب القديس بأعصاب باردة: هوه فى الفيلم جزء تاريخى يمكن هوه اللى حيتعبنا شوية فى الشغل والمصاريف. لكن الباقى سهل لأن الموانى فيها المراكب جايبة المستورد. وف داخل البلد منافذ التموين موجودة سواء جملة أو قطاعى. الفيلم حيتكلف مبلغ بسيط بالقياس لهدفه وتأثيره (٣٠) ألف جنيه بس.

وقبل أن يبدى الوزير أى نوع من الفزع أو الإحساس بضخامة المبلغ استطرد القديس يحاصر الوزير.. «المبلغ ده حيتصرف على ثلاث دفعات. كل دفعة عشرة .. ومن اليوم ح نبتدى .. وسيادتك تأمر بشيك أول دفعة .. لأن فيه ناس مكلفين بالمادة العلمية التاريخية وغيرهم مكلف بالأزياء والديكورات التاريخية ودول لازم ياخذوا مقدمات وعرابين».

على أولى الورقتين كتب الوزير التأشيرة السحرية المصرية التى تفتح الأبواب .. موافق .. ويستخرج شيك فورا باسم الأستاذ فلان وتنهى الإجراءات اليوم !.

انصرف القديس بالشيك، الذى لم يستغرق استخراجه من الوزارة أكثر من نصف ساعة. دار مدير مكتب الوزير بالأوراق من مكتب إلى مكتب. ومن موظف إلى موظف. أحس الجميع بأهمية هذا الشيك، فسقط الروتين المصرى فى ذلك الصباح. كما يسقط عادة كلما كانت الأوراق تحمل الموافقة الفورية لتنجزها السكرتارية الخاصة ومدراء المكاتب للمسئولين. القديس صرف عشرة الآلاف الأولى الطيبة. ولينفق المبلغ فيبيده عن بكرة أبيه ولآخر جنيه فى الأغراض التى خصص المبلغ لها.وهى أغراض لا علاقة لها بفيلم «التموين والتجارة الداخلية فى مصر من عهد الملك أحمس إلى عهد وزيرها الحالى»!

بعد أسبوعين قلق الوزير فلاحس ولا خبر من القديس. استنكر القديس فى مكالمة تليفونية من الوزير له لهفة الوزير!، وشخط فيه شخطة معبرة عن رغبة القديس فى أن يعمل فى صمت!، وأن مثل هذا النوع من الأعمال الفنية لا يعرف السلق!، وأن «السينما لها ناسها والتموين له ناسه»!، خجل الوزير من نفسه فما كان يجب أن يستعجل القديس!.

الأيام تمر. والوزير لم يعد مطمئناً إلى عمل القديس فى صمت!، وأخذ يفكر كيف يتصل بالقديس دون أن يفصح عن مخاوفه. فاهتدى إلى حيلة. اتصل بالقديس سائلاً إياه عما إذا كان فى حاجة إلى عشرة أخرى.. الدفعة الثانية؟

أجاب القديس فى لطف بالغ.. يا سيادة الوزير .. المسألة مش مسألة فلوس وخلاص .. كل مرحلة لابد أن ننتهى منها على أكمل وجه .. والدفعة التانية سيأتى وقتها .. ما يصحش نستعجل .. الفلوس فى الوزارة كأنها عندى.

خشى الوزير أن يسأل عن تفاصيل أكثر. وإلى أى المراحل وصل العمل. فأنهى المكالمة وهو أشد خوفاً وفزعاً على العشرة الأولى التى صرفت!

وطالع سيادة الوزير خبراً فى إحدى الصحف عن سفر القديس ـ فى وفد ثقافى ـ إلى دولة شقيقة فجن جنونه. طلب القديس فى التليفون متظاهراً برغبته فى وداعه. لم يرد القديس على التليفون، فقد كان الخبر«بايتاً» نشر بعد سفر الوفد بالفعل.

كلف الوزير مدير مكتبه بتسقط أخبار عودة الوفد الثقافى ، وإبلاغه بموعد وصوله. حتى يحدث القديس على الفور.

جاء الخبر الميمون . وصل الوفد الثقافى اتصل الوزير بالقديس مهنئاً بسلامة العودة. القديس وصل إلى أرض الوطن لكنه لم يذهب إلى بيته، بل قصد منزل أحد الأصدقاء فى الريف ليقيم أياماً فى ضيافته. عاد بعدها إلى البيت فوجد تليفونات الوزير الملحاحة لا تتوقف، ولما كان بيت القديس لا يفرغ من ضيوفه وزواره طالما كان موجودا به فقد أصدر القديس تعليماته المشددة بأن يفاد الوزير كلما اتصل بأن القديس غير موجود!، آن أوان المطاردة والمراوغة، فأحس القديس بأنه لابد أن يحسم الأمر بحيث ينسى الوزير الموضوع تماماً!، فكيف حسمها القديس؟.

قصد القديس ذات صباح إلى أقوى أجهزة الأمن وأخطرها فى ذلك العهد. كان مجرد ذكر اسم هذا الجهاز أو رئيسه ترتعد له الفرائص. طلب القديس مقابلة رئيس الجهاز. أرسل له الرئيس من يستفسر منه عن الغرض من المقابلة. أشار القديس إلى أن الموضوع خطير ولا أقل من رئيس الجهاز ليتصرف فيه.

أخذوا القديس إلى مكتب الرئيس الرهيب. لم يجلس القديس إلا بعد أن سمح له بالجلوس. واختار القديس لغة خطاب بارعة. بدأ بالتحسّر والأسف على أموال الشعب التى يريد بعض المسئولين إهدارها فى المظاهر و«الكلام الفارغ» فلما استوضحه الرهيب الأمر. ذكر اسم وزير التموين والتجارة الداخلية على الفور!، ثم وصفه بأنه مجنون أو أصابته لوثة.. «تصور سيادتك.. البلد يعانى.. والشعب يكافح.. والقيادة السياسية تبذل ما تبذل لتحقيق تنمية شاملة .. ووزير التموين عايزنى أعمل فيلم عن التموين من عهد أحمس لعهد سيادته»!.

أنصت الرهيب باهتمام بالغ والقديس ما زال مستطرداً .. «أنا فى الواقع يا افندم مش جاى إلا بطلب واحد .. ترحمونى من مطاردة الوزير.. كل يوم ميت تليفون. ومصرّ على أنى أروحله.. وأنا بعتبر إن أى

حد يعمل الفيلم ده من الفنانين يبقى قلبه مش على البلد.. أظن لو سيادتك قلتله يبطل تفكير فى الموضوع ده مش ح يفتحه تانى لحد.. بس أرجوك يا افندم بلاش القيادة السياسية تاخد خبر.. أحسن ما يلقاش نفسه وأنا ما احبش الأذية عن طريقى!».

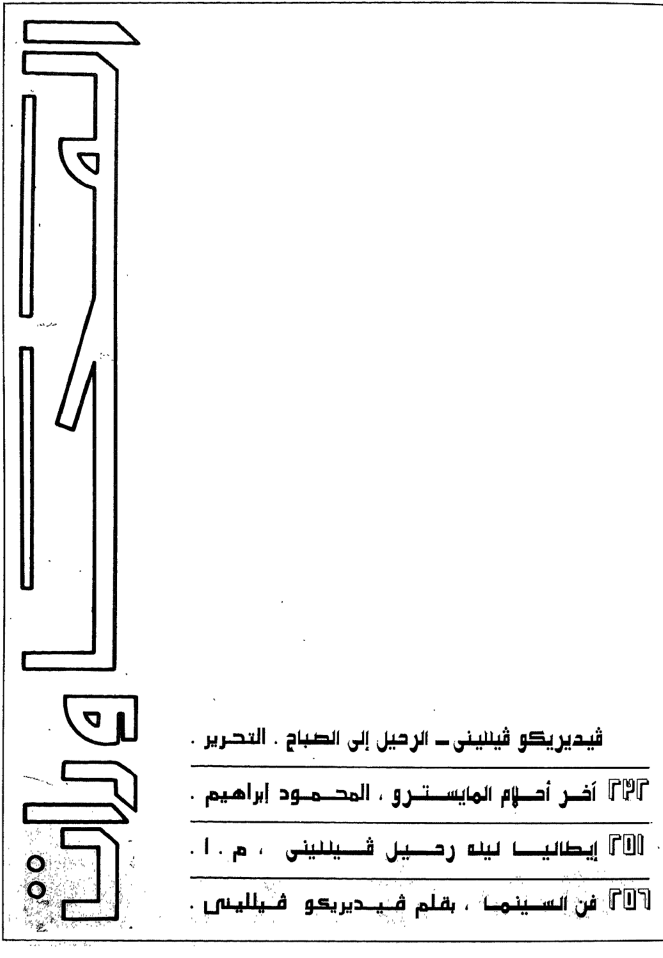
الرهيب طمأن القديس على أن الأمر سيتخذ فيه الإجراء المناسب.

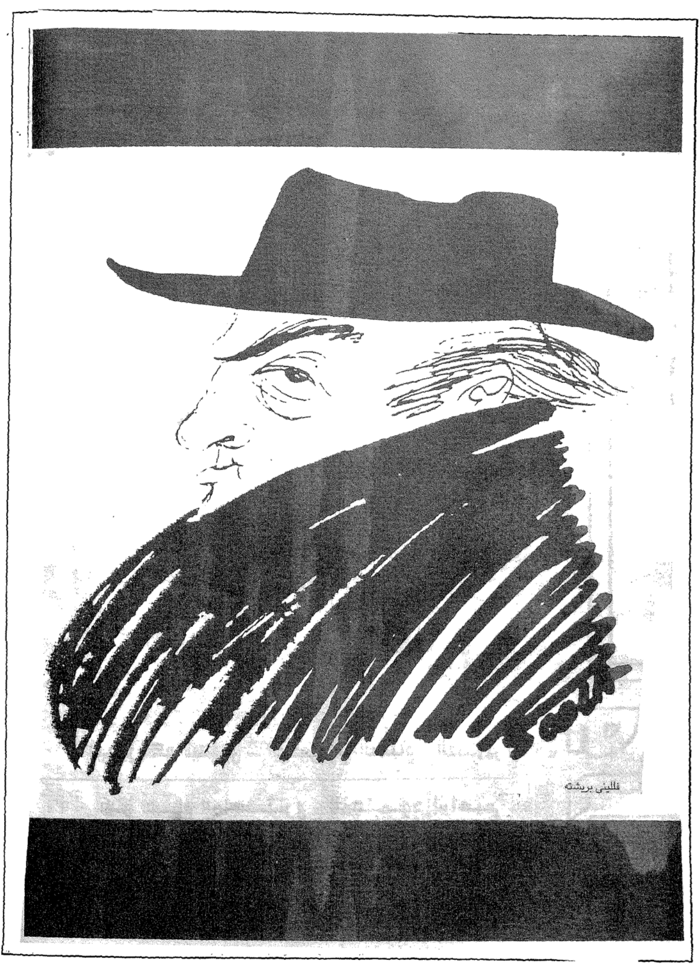
وفى ذات اليوم استدعى الوزير لمقابلة الرهيب. الذى لم يعط فرصة الحديث للوزير. بل أعلن له فى حسم أن هذا الموضوع الخرافى لو أبلغ إلى المسامع العليا لكانت العاقبة وخيمة. وأشار الرهيب إلى أنه سيكتفى هذه المرة بالهمس والإشارة للوزير . الذى جلس مرتعداً ويكاد يجن . وكلما حاول أن يشرح ما حدث قاطعه الرهيب قائلاً: «خلاص .. ح اعتبر الموضوع كأن لم يكن .. وأحذرك من الكلام مع حد فى الموضوع».

انصرف الوزير وهو يتلفت!، أما الرهيب فقد اعتبر الموضوع فضيحة مدخرة للوزير، وأما القديس فقد كف تليفونه عن الرنين إلا من سمار لياليه. ■



للفنان : بول سيزان


القاهرة


فلليني بريشته

فيديريكو فيلليني
الرحيل
إلى الصباح

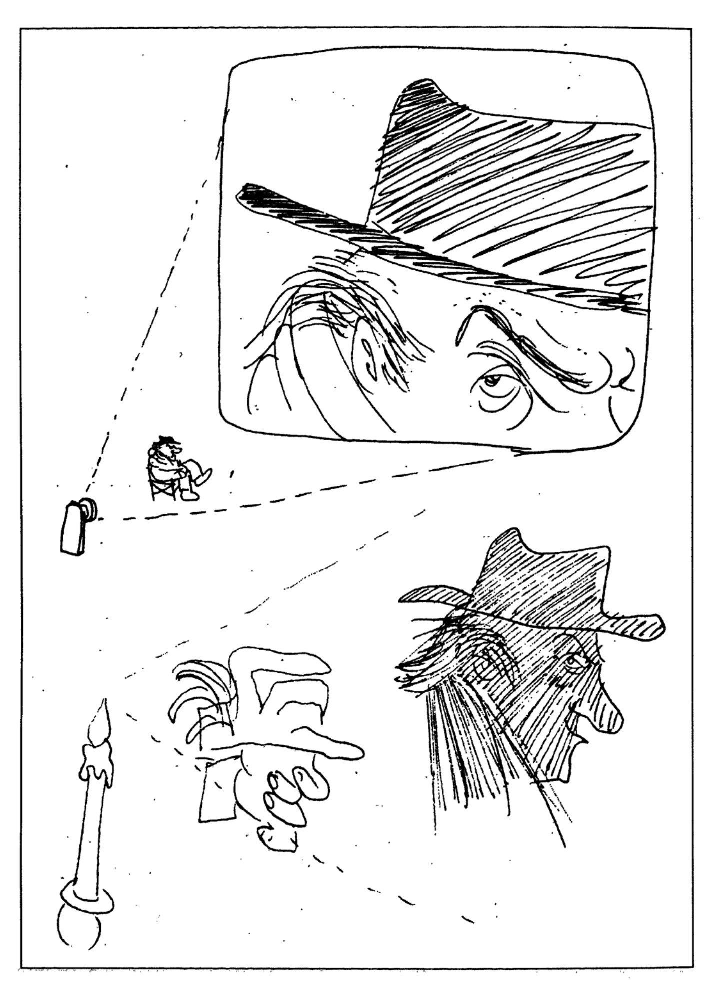
قد إن كان فيديريكو فيلليني (١٩٢٠ ـ ١٩٩٣) قد رحل عن عالمنا منذ أيام، إلا أن الزمن بدأ يسجل بداية جديدة لعمله العبقرى الذى خلفه للإنسانية جمعاء خالصا من الكذب والمماحكة متوغلاً فى روح وجوهر الإنسان والطبيعة والأشياء، لنبدأ رؤيته من جديد ونتعلم من المايسترو الذى لم يصور مشهدا إلا وقد قلبه على وجوهه الأربعة ليأتى خالصاً دقيقاً من صلب الحياة.

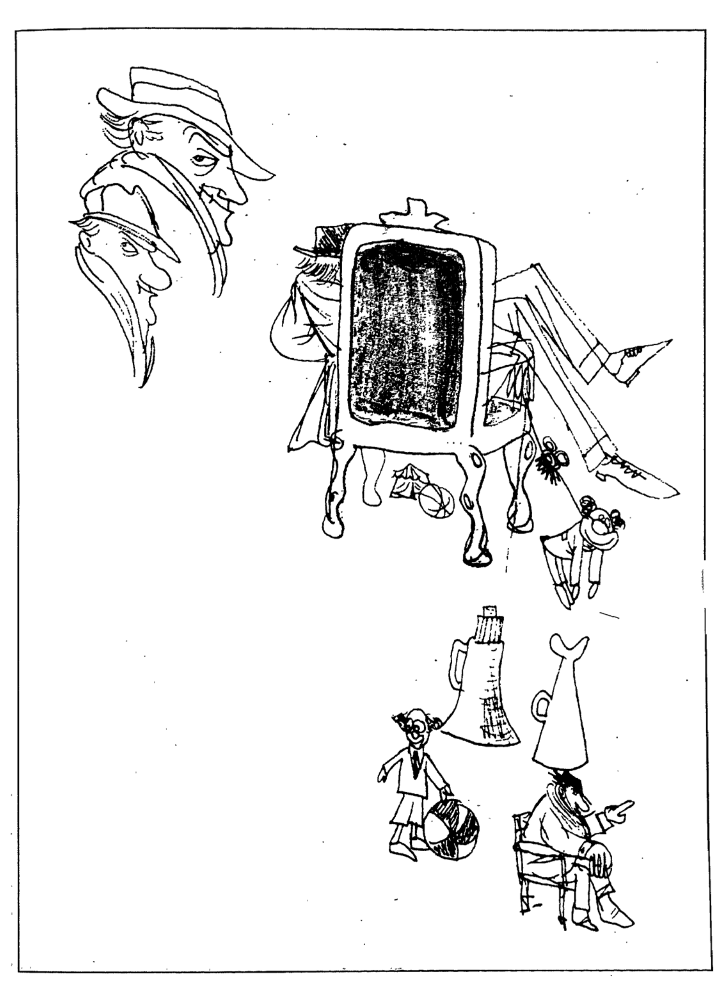
فيديريكو فيلليني يبدأ معنا رحلة جديدة: نكتشف عبر عمله صورتنا الحقيقية، كما اكتشفت إيطاليا فى مرآته واقعها المر، الذى لم يحجب عنا خفاياه.

فيديريكو فيلليني لم يمت، بل بدأ الحياة. وهذه مساهمة متواضعة، بداية درس للمايسترو الكبير الذى لم يضع أبداً فى ختام أفلامه كلمة «النهاية»، هذه بداية .

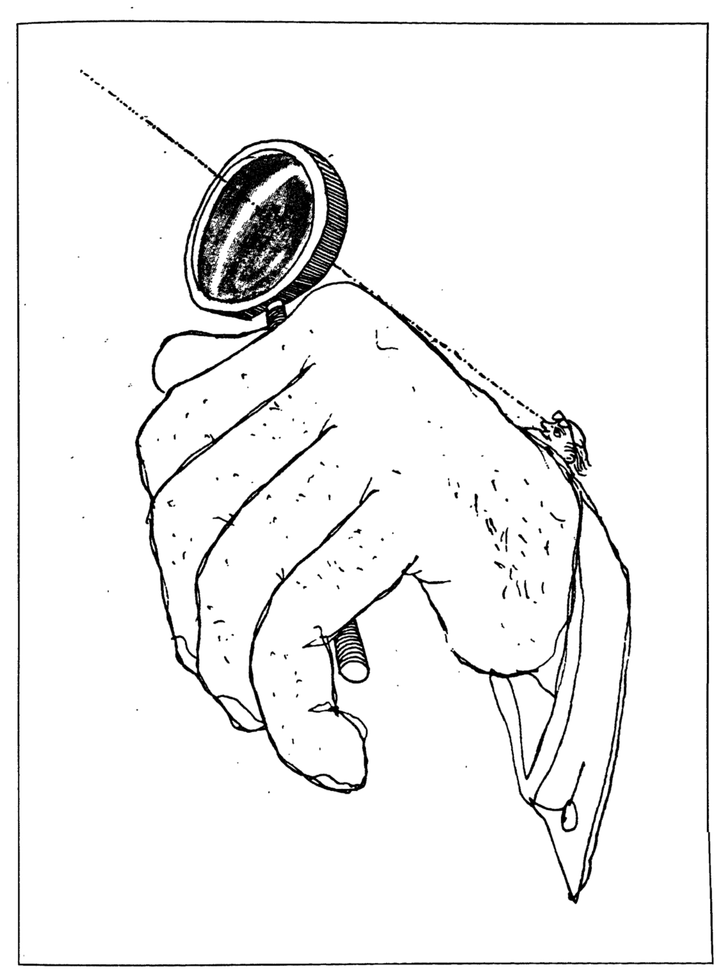
التحرير


مجموعه رسوم بريشة فلليني











آخر أحلام المايسترو

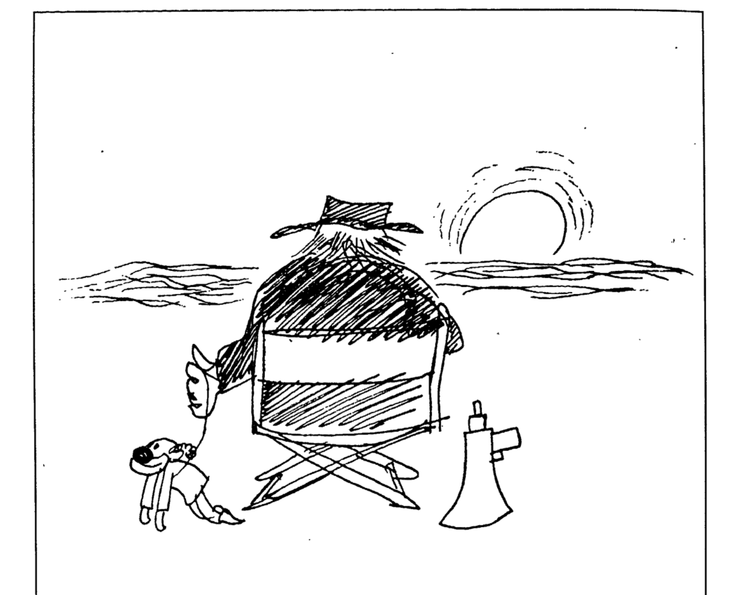
المحمود إبراهيم



قد كان المخرج الإيطالى فيديريكو فيلّينى(1) قد غادر فى بدايات أكتوبر الماضى المستشفى فى مدينة فيرارا بشمال إيطاليا (التى كان قد نقل إليها فور إصابته بالسكتة) ليدخل مستشفى أومبيرتو الأول (المتعدد الاختصاصات) فى روما لمواصلة مرحلة العلاج الطبيعى بها.

[إثر عملية جراحية دقيقة فى زيورخ بسويسرا (ثلاث عمليات تخدير و١٤ ساعة جراحة) لعلاج مشاكل الدورة الدموية التى كان يعانى منها منذ شهور، وخلال مرحلة النقاهة فى مدينة ريمينى على الشاطىء الإيطالى من البحر الأدرياتيكى (مسقط رأسه) أصيب فيلّينى فى بدايات أغسطس بسكتة وبشلل فى الجانب الأيسر من جسده].

أصرّ فيلّينى بمجرد وصوله إلى روما وقبل دخوله المستشفى على زيارة زوجته المريضة الممثلة جولييتا مازينا (٢)، وسط حشد من الأطباء والممرضين (والممرضات)، ومُحبيه، وسكان الحى، وأصحاب المعارض الفنية الذين أقاموا فى منتصف أكتوبر معرضاً لرسوماته الكاريكاتيرية، والصحفيين الذى كانوا يلتقطون همساته الواهنة وتعليقاته الساخرة. وقد كان السؤال الملّح (والمشجع) الذى لاحقوه به هو: متى ستعود إلى العمل يا



«مايسترو»؟ بينما كان السؤال الذى لم يتجاوز حدود النفس هو: هل سيتمكن حقاً من العودة إلى العمل بعد ضربة مؤلمة وقاسية كهذه؟ وهل هناك أمل فى أن يضىء استوديوهات مدينةالسينما Cinecittà [٣] فى مارس القادم حسب توقعات الأطباء المتفائلة؟ من يدرى ربما أُلمحت صلوات عشاقه من أجله!

لا، لم تفلح بعد عشرة أيام استيقظ الإيطاليون صباح الاثنين ١٨ أكتوبر على النبأ المقلق، الذى طغى على الأنباء الأخرى الكفيلة وحدها بإقلاق قارة بأكملها فضلاً عن دولة واحدة: القنابل المدوية فى أركان شبه الجزيرة؛ اعترافات بعض عناصر المافيا بتدبير محاولات القنابل الإرهابية بالتعاون مع مخابرات الدولة بل تحت إشرافها وبتوجيه منها؛ اتهامات موجهة لأعلى الرتب العسكرية فى القوات المسلحة وقوات الأمن بالتدبير لقلب نظام الحكم فى إيطاليا فى القريب العاجل، تساقط الجنرالات الواحد إثر الآخر؛ التواطؤ المباشر لبعض عناصر الجماعات الماسونية بل والقضاء والنيابة العامة مع المافيا التى لم تكف عن اغتيال زملائهم الأشراف؛ الاتهامات التى لا تحصى ضد كبار رجال السياسة ـ الذين حكموا البلاد عشرات من السنين والذى يجلس معظمهم ما زال فى قاعة البرلمان يشرع القوانين ويفسر الدستور ـ بالرشوة والفساد

والتواطؤ مع المنظمات الإجرامية بل والتحريض على القتل (مثل أندريوتّي[4] نفسه!)؛ تورط الإدارة المالية بالفاتيكان في عمليات بنكية مشبوهة تقطر دماً؛ الصيحات المتعالية من شمال البلاد المتقدم مطالبة بانفصالها عن الجنوب المتخلف؛ مئات الآلاف من العمال المهددين بفقد أماكن عملهم في القريب العاجل الذى قد حلّ فعلاً.

الساعة ٨ر٣٩ ـ العنوان : «فيديريكو فيلّيني في غرفة الإنعاش، تدهور حالته الصحية».

التفاصيل: **لم يصرح الأطباء بشيء حتى الآن عن حالة ف. فيلّيني الذى تم نقله مساء أمس الأحد إلى مركز الإنعاش بمستشفى أومبيرتو الأول لتدهور أحواله الصحية المفاجيء.**

[كان فيلّيني قد غادر غرفته في قسم جراحة الأجهزة العصبية صباح الأحد ـ بموافقة الأطباء ـ لتناول الغذاء في أحد مطاعم روما بصحبة جولييتّا مازينا وبعض الأصدقاء. كان يغلب عليه المرح وقد أعلن عن رغبته في أن يكون احتفاله وجولييتّا ـ التي لا تغادر مسكنها إلا لجلسات العلاج الطبيعي ـ بعيدهما الخمسين (العائلي والفني) في ٣٠ أكتوبر احتفالاً كبيراً. وفي الخامسة من مساء اليوم نفسه ساءت حالته فجأة وغاب عن الوعي، ومرت الدقائق الثمينة التي توقفت فيها عملية التنفس وكف القلب عن الخفقان. ثم السباق ضد الزمن لإسعافه بالمستشفى المذكور حيث واصل فيلّيني تنفسه بواسطة رئة صناعية].

ثم توالت النشرات الإخبارية والطبية عن حالته الميئوس منها. ولم يكف الإيطاليون ـ ومحبوه في العالم أجمع ـ عن متابعتها على أمل حدوث المعجزة:

الساعة ١١ر٣٤ص: «حالة فيلّيني خطيرة، لكنها ثابتة»

ما زال فيلّيني في غيبوبة. لم يسترد وعيه بعد. يعاني من عجز خطير عن التنفس. الحالة ثابتة والتوقعات ما زالت تحت التحفظ..

الساعة ١٠ر٥م: «تضاؤل الأمل»

لحظة حرجة جداً. حالة فيلّيني الصحية خطيرة وإن كانت ثابتة.ما زال الأمل موجوداً وإن كان قد تضاءل كثيراً. فيلّيني ما زال يعاني من العجز عن التنفس.

الثلاثاء ١٩ أكتوبر،

س ٢٠ر٦ص: «الساعات تمر بين الخوف والأمل»

حالة فيلّيني الصحية ما زالت ثابتة. غير مسموح لأحد بزيارته تجنباً للتلوث. التوقعات متحفظ عليها حتى الآن تحفظاً تاماً. ما زال على قيد الحياة ولكن ليس هناك أمل. فلنتوجه إلى السماء.

س ٣٠ر٩ص: «ما زال فيلّيني في حالة الغيبوبة»

الاختبارات الآلية والمعملية والتقديرات التحليلية تظهر تعرض المخ لأخطار جادة.

فيلّيني يتنفس برئة صناعية وما زال في غيبوبة . التوقعات متحفظ عليها بحزم تام.

[في برنامج تليفزيوني يذاع مباشرة من إحدى قنوات الدولة حدث صباح الثلاثاء، أن تلقت مقدمة البرنامج ـ تحت أبصار المتفرجين ـ مذكرة من أحد فنيي الاستديو. بعد نظرة «خاطفة »: الانفعال والتوتر فالإعلان فالعزاء بكل ما يناسب ويليق بمكانة المايسترو، ثم الاعتذار بعد نهاية البرنامج. كانت المذكرة تقول: برجاء العلم أنه في حالة **موت فيلّيني** إلخ .. إلخ. (لعل المايسترو) قد تذكر بروحه الساخرة «ساتيريكون» وغفر!)].

الساعة ٢ . ٦م: «فيلّيني: ما زال الموقف في حالة تدهور»

نقطة اللاعودة تقترب. الموقف لا يسمح بالإفراط فى الأمل. يجب اعتبار معركة المايسترو ضد الموت معركة خاسرة لعديد من الأسباب. الحالة ما زالت ثابتة وهذا ما يدعو للإحباط. ولكن ما دامت الأجهزة تظهر نشاطاً عقلياً لا يمكن الحديث عن غيبوبة بلا رجعة.

الساعة ٥٦ر١٠م: «فيلّينى يتلقى سر المسحة النهائية»

منح خادم كنيسة المستشفى «سر المسحة» النهائية (الذى يمنح للمرضى الميئوس من حالتهم) لفيديريكو فيلّينى بقرار من ذويه والأطباء المسئولين. أحوال المخرج ما زالت «ثابتة».

الأربعاء ٢٠ أكتوبر،

الساعة ٤٦ ر٦ص: «فيلّينى: الموقف ما زال فى منتهى الخطورة»

ما زالت الحالة ثابتة. الموقف فى منتهى الخطورة. الاحتفاظ بالتفاؤل حتى الآن مستحيل عملياً. ما زالت الزيارة ممنوعة منعاً باتاً.

الساعة ٠٩ر١٠ص: «فيلّينى: مرور الوقت يؤزم الموقف»

حالة فيلّينى ما زالت بالغة السوء. ثبات الحالة - فى رأى الأطباء - مؤشر سلبى ما زال النشاط العصبى فى حالة انهيار، بينما استمرار الأنشطة الحيوية الأخرى متواصل بفضل العقاقير. ما زالت عملية التنفس حتى الآن صناعية. ستتم تحاليل أخرى خلال نهار اليوم.

الخميس ٢١ أكتوبر

الساعة ٥٠ر٦ص: «فيلّينى: لا تغير فى الموقف»

تجاوز فيلّينى ليلته الرابعة فى مقاومة الموت دون تغيير يذكر فى الحالة الصحية.

ما زال القلب قوياً جداً، لكن باقى الأجهزة لن تستطيع المقاومة لمدة طويلة.

الأمل فى الخروج من المرحلة الحالية ضعيف جداً، وحتى إذا تم ذلك فكيف سيكون الوضع فى المستقبل بالنسبة للمخرج؟

الجمعة ٢٢ أكتوبر

الساعة ٤٥ر٦ص: «فيلّينى: ما زال الموقف ميئوساً منه»

لم يطرأ أى تغييرعلى حالة فيلّينى الصحية. قد يبقى المريض على هذه الحالة مدة طويلة.

[أثارت صورة فيلّينى فى غيبوبته بغرفة الإنعاش - التى بثتها إحدى قنوات التليفزيون الخاصة - استياءً عاماً على كل المستويات الرسمية والشعبية وفى صفوف العاملين فى مجال الإعلام. وجارى التحقيق].

ثم كانت النشرة المتوقعة التى تمنى الإيطاليون ألا تصل أبداً:

الساعة ٥٨ر١٢ ظهر الأحد ٣١ أكتوبر، اليوم التالى لاحتفال إيطاليا مع جولييتّا مازينا بعيد زواجها الخمسين بالمخرج الكبير، وزعت وكالات الأنباء سطراً واحداً:

«أستاذ السينما الكبير فيديريكو فيلّينى توفى اليوم فى روما»

تعلن فيه نهاية المخرج الوحيد الذى خلت جميع أفلامه من الكلمة المعتادة فى آخر الشريط:

«النهاية»

قال رئيس الجمهورية فى عزائه: لجولييتّا مازينا:

«لقد فقدت إيطاليا فناناً لن تغرب كلماته أبداً. بينما قالت الحكومة على لسان رئيسها فى عزائه لأرملة المخرج الراحل:

«ستتذكر إيطاليا الرجل المتحضر الذى أسمعنا أنشودة النزوح من الإقليم إلى المدينة، والذى عبر عن الوحدة والضياع فى مواجهة التحولات العامة فى التقاليد، والذى كشف فى «بروفة الأوركسترا عن

اهتمامه بالسياسة كمواطن فعال وإيجابى».

كان الإيطاليون يتساءلون أثناء ذلك عما إذا كان المايسترو قد توقف عن الحلم فى إغماءته الطويلة هذه؟ ويعرف الإيطاليون أن المايسترو فيديريكو فيلّينى غير قادر على ألا يحلم حياً كان أم ميتاً. وإذن فـ: أحلام سعيدة يا مُعلم!

أحلامه فى أعماله

أضواء المنوعات Luci del varietà «١٩٥٠»:

شارك فى الإخراج والإنتاج والتمثيل والسيناريو المخرج الإيطاليألبيرتو لَتْوادا [٥] ـ قصة: ف. فيلّينى؛ سيناريو: ف. فيلّينى، أ. لَتْوادا، توليو بينيلّى، بالتعاون مع إنّيو فلايانو [٦] ـ تصوير: أوتيلّو مارتيلّى ـ موسيقى: فيليتشى لتوادا ـ إنتاج: إيطالى ـ تصريح رقابى: نوفمبر ١٩٥٠ ـ مدة العرض: ١٠٠ ق ـ شارك فى التمثيل: فيتّوريو كابريولى، فرانكا فاليرى.

القصة:

«ليليانا» (كارلا ديل بودجو) فتاة ريفية حسناء تريد العمل فى دنيا الفن. تهرب من البيت وتلتحق بفرقة صغيرة من فرق المنوعات. يغرم بها رئيس الفرقة «كيكّو» (بيبّينو دى فيليبّو)، ويقدمها للجمهور فى الحال. يحالف الحظ ليليانا التصفيق ويتواصل (يساعد على ذلك انحسار تنورتها عنها ـ عفواً؟ ـ أثناء أدائها لإحدى «النمر»). بعد أيام تتلقى الفرقة دعوة للتمثيل ببيت أحد محامىَ الريف الأغنياء (كارلو رومانو) الذى يحاول الانفراد ليلاً بليليانا. يتدخل كيكّو الغيور ويدربك الدنيا وينتهى الأمر بفرقة الممثلين المتشردين إلى قارعة الطريق. كيكّو وليليانا يهجران الفرقة بحثاً عن وضع أفضل، لكن العرض الوحيد أمام ليليانا يتلاشى بسبب غيرة كيكّو. يحاول كيكّو، بالقرض الذى حصل عليه من صديقته «ميلينا» (ج. مازينا) التى كانت تعمل معه فى الفرقة القديمة، أن يؤسس فرقة جديدة مع جماعة أخرى من الفنانين لكن ليليانا تهجره قبل الافتتاح وتتعاقد مع متعهد فنى مفتون بجمالها. لم يعد أمام كيكّو إلا العودة إلى الرفاق القدامى وإلى ميلينا التى تسامحه. تعود الفرقة إلى سابق العهد، وفى القطار أثناء رحلة البحث عن أى مكان مناسب للعرض تظهر فتاة جميلة. يلحظها كيكّو فى الحال و... تبدأ القصة من جديد.

الشيخ الأبيض Lo sceicco bianco «١٩٥٢»:

قصة: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى، فكرة: المخرج الإيطالى ميكيلانجلو أنطونيونى [٧] ـ سيناريو: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى بالتعاون مع [إ. فلايانو ـ تصوير: أرتورو جالّيا ـ موسيقى: نينو روتا ـ إنتاج : إيطالى ـ تصريح الرقابة: أبريل ١٩٥٢ ـ مدة العرض : ٨٥ ق ـ شارك فى التمثيل: ج. مازينا.

القصة:

العروسان «إيفان» و«فاندا» (ليوبولدو تريستى وبرونيللا بوفو) فى رحلة شهر العسل التى بدأت من الريف فى طريقهما للعاصمة روما. (نحن الآن فى «السنة المقدسة» حيث تستجاب الدعوات). العريس، الدقيق المنهجى ذو الأصل البورجوازى، كان قد أعد برنامج الرحلة التى تشمل زيارة جماعية للبابا. فور وصول العروس إلى روما تغادر الفندق لتبحث عن «الشيخ الأبيض» (البرتو سوردى [٨])، بطل مجموعة مسلسلات من الروايات المصورة Fo-toromanzo وهى من عشاقها الذين لا تفوتهم منها حلقة واحدة، ولطالما راسلت أبطالها على عنوان المجلة. تنجح فاندا فى العثور على معبودها ـ أثناء «التصوير» على شاطئ «فريجينى» ـ وتندمج فى فرقة العاملين. إيفان ـ فى هذه الأثناء ـ يجوب يائساً كل أنحاء المدينة بحثاً عنها، مخفياً نبأ هروب الزوجة عن

أصدقائهما وأقاربهما من أهل روما بأكاذيب وخدع معقدة. تتعرض فاندا على شاطئ «فريجيني»، لمغامرة مؤسفة وتكتشف أن بطلها يختلف كثيراً عن صورته فى أحلامها: إنه مجرد رجل غلبان ألعوبة فى يد زوجته (جينا ماشيتّى). تكتشف أيضاً أن عالم الروايات المصورة غير عالم الخيال. يدفع بها إحباطها إلى محاولة الانتحار بطريقة سخيفة بإلقاء نفسها فى نهر التيفيرى Tevere . يتم إنقاذها وترجع إلى زوجها فى الفندق. لا يطلب منها إيفان أىّ تفسير: إن عليهما ـ طبقاً للبرنامج ـ أن يهرعا إلى ميدان «سان بييترو» بالفاتيكان ، حيث ينتظرهما الأقارب لزيارة البابا. ثم تعاود حياتهما الزوجية سيرها المعتاد .

العجول Ivitelloni «١٩٥٣»:

قصة: ف. فيلّينى، إ. فلايانو، ت. بينيلّى، فكرة: ت. بينيلّى ـ سيناريو: ف. فيلّينى، إ. فلايانو. تصوير: أ. مارتيلّى، لوتشانو ترازاتّى، كارلو كارلينى ـ موسيقى: ن. روتا ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى ـ تصريح الرقابة: سبتمبر ١٩٥٣ ـ مدة العرض: ١٠٣ق.

القصة:

نهاية الصيف فى مدينة صغيرة على الساحل الرومانيولى (ناحية الأدرياتيك). «ريكاردو» (ريكاردو فيلّينى، شقيق المخرج) يحصل أخيراً على فرصته فى الظهور كمطرب، لكن سيلاً من الأمطار يفسد الحفل. يعقب ذلك هرج ومرج، ثم يتبين أن «ساندرا» (إليونورا روفّو)، شقيقة «مورالدو» (فرانكو إنترلينجى)، حامل. لابد من زواجها بفاوستو (فرانكو فابريتسى)، ولا يجد والداها (إنريكو فياريزيو وباولا بوربونى) أمام زواج الستر هذا إلا القبول على مضض. يحل الشتاء وحياة الأقاليم المملة، ويقضى أصحاب فاوستو أيامهم ما بين القهوة والمزاحات الصبيانية، رغم تجاوزهم لمرحلة الصبا. هؤلاء هم «العجول» (مثل العاطلين بالوراثة)، مدللون يحيون على أكتاف عائلاتهم: «البيرتو» (أ. سوردى) المهرج الأزلى بوجهه الطفولى المستدير؛ «ليوبولدو» (ل. تريستى) الغارق فى أحلام النجاح فى عالم الأدب؛ ريكاردو الخامل الكسول؛ ثم مورالدو، الأصغر سنًا، الراغب فى هجر كل شىء من أجل «العاصمة». يعود فاوستو من شهر العسل ويقبل الانخراط فى دنيا العمل كبائع فى محل بيع لوازم العيادات، لكنه ينشغل فى مغازلة زوجة صاحب المحل. تكتشف ساندرا ذلك وتهرب من البيت بابنتها حديثة الولادة. فاوستو وموارلدو يأخذان فى البحث عنها بمشاركة الأصدقاء. لكنها ليست بعيدة، إنها فى بيت حميها (جان بروشار) الذى يؤدب الابن الطائش جلداً بالحزام يعود «العجول» إلى حياتهم المعتادة، إلا موارلدو الذى يتمكن من الفرار من هذا الإيقاع المميت دون أن يخبر أحداً بذلك. يتخيل أصحابه الذين لم يُغيّرهم ولن يغيرهم أىّ شىء.

الحب فى المدينة L' amore in città «١٩٥٣»:

(الجزء الرابع من: وكالة ارتباطات زوجية Agenzia matrimoniale)

قصة: ف. فيلّينى ـ سيناريو: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى ـ تصوير : جانى دى فينانتسو ـ موسيقى: ماريو ناشيمبينى ـ إنتاج : إيطالى ـ تصريح الرقابة: نوفمبر ١٩٥٣ ـ شارك فى التمثيل: ممثلون غير محترفين.

[الأجزاء الأخرى من الفيلم هى: الحب المجدى L'amore che si paga لكارلو ليتسانى، أربع ساعات نعيم Paradiso per quattro ore لدينو ريزى، محاولة انتحار Tentato suicidio لميكيلانجلو أنطونيونى، قصة كاتيرينا Storia di Caterina لفرانتشيسكو مازيلّى وتشيزارى تسافاتّينى [٩]، الإيطاليون يلتفتون Gli italiani si voltano لألبيرتو لتوادا].

القصة:

يكلف الصحفى الشاب (أنطونيو تشيفارييلّو) بعمل تحقيق عن وكالات الزواج . فى إحدى هذه الوكالات يدعى صاحبنا، الشكّاك الذى لا يؤثر فيه أى شىء ، إنه زبون وأنه يبحث عن زوجة لصديقه الغنى. رغم وصفه لصديقه المزعوم بأنه يعانى من الصرع، وأنه مضطر للإقامة فى الريف لاستذئابه فى الليالى البدرية، فقد وجد فتاة على استعداد للزواج. فتاة لطيفة وبسيطة استطاعت ان تشككه فى شكوكه اللامبالية.

الطريق La strada «١٩٥٤»:

قصة: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى ـ سيناريو: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى بالتعاون مع [إ. فلايانو ـ حوار: إ. فلايانو ـ تصوير: أ. مارتيلّى ـ موسيقى: ن. روتا ـ إنتاج: إيطالى ـ تصريح الرقابة: سبتمبر ١٩٥٤ ـ مدة العرض: ٩٤ ق.

القصة:

يأكل الغجرى تسامانو (أنتونى كوين) النار ويبتلع السيوف فى استعراضاته بالميادين وأسواق القرى معرضاً على الملأ قوته الهمجية الخشنة. يشترى جيلسومينا (ياسمين بالعربى؛ ج. مازينا) الساذجة الجاهلة بعشرة جنيهات (تقريباً) من فلاحة فقيرة أم جيش من الأطفال، لاستغلالها كسنّيدة له فى عروضه. تتحول بالقوة إلى عشيقة له. تكرر مدفوعة بإحساسها الرقيق محاولة الفرار من تسامانو الذى يعتبرها بالفعل إحدى أشيائه ويسىء معاملتها فى كل الأحوال. ينتهى بهما المطاف إلى العمل بالسيرك حيث تهيم جيلسومينا بحب «المجنون» (ريتشارد بازيهارت) المتشرد هو الآخر لكنه رقيق ولطيف على العكس من تسامانو. فى مشادة بين الرجلين يقتل تسامانو غريمه ـ ربما بدون قصد ـ ويقذف بجثته تحت عجلات القطار. تصيب المأساة جيلسومينا بلوثة عقلية وتحيا أيامها ولياليها على ذكرى «المجنون». يضطر تسامانو إلى هجرها ليواصل حياته المتشردة فى رعب مستمر خشية اكتشافه وحبسه. يكتشف بالصدفة بعد سنوات أن جيلسومينا قد ماتت، ويعى فجأة بما هو عليه من وحدة. على شاطىء مهجور، يأخذ في البكاء والأنين، وحيداً مهجوراً هو الآخر.

المحتال Il bidone «١٩٥٥»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى، فكرة ف. فيلّينى – تصوير: أ. مارتيلّى – موسيقى: ن. روتا – إنتاج: إيطالى/ فرنسى – تصريح الرقابة: ١٩٥٥ مدة العرض: ١٠٤ ق – شارك فى التمثيل: سو إلين بلاك، لوريللا دي لوكا، مارا فيرلين، أيرين تشيفارو.

القصة:

روبرتو (ف . فابريتسى)، وبيكاسو (ر. بازيهارت)، وأوجستو (بروديريك كراوفورد) ثلاثة محتالين تخصصوا فى النصب على خلق الله من أمثالهم: يتقمصون شخصيات القسس لنهب الفلاحين السذج؛ يبتزون أموال سكان العشش بوعود توفير عقود السكن الكاذبة؛ ثم يبيعون معاطف قديمة على أنها جديدة لجماعة من موزعى البنزين العجائز الغشماء. أثناء الاحتفال بعيد رأس السنة تكشف إيريس (ج . مازينا)، زوجة بيكاسو، طبيعة نشاط الزوج. أما ابنة أو جستو التى تجهل نشاط أبيها المريب فقد كانت معه ذات مرة فى السينما عندما تعرف عليه أحد «ضحاياه» وهاجمه. يقبض عليه وينتهى خلف الأسوار. عند خروجه من السجن يجمع شمل العصابة ويكرر نصبة «القساوسة». يرى فتاة مشلولة صديقة لابنته فيشعر بوخز الضمير وينوى إعادة ما حصل عليه بالباطل. لايوافقه شريكاه على ذلك، وتنشب معركة، ويسقط أو جستو فى هاوية أثناء محاولته الفرار. لا يسعفه رفيقاه ويستوليان على الغنيمة ويلوذان بالفرار. بعد احتضار شنيع وبطىء يلفظ أو جستو آخر أنفاسه واعيا ببؤس وجوده.

ليالى كابيريا Le notti di Cabiria «١٩٥٧»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، إ. فلايانو، ت. بينيلى، ساعد فى الحوار: بيير باولو بازولينى (١٠) – تصوير: ألدو تونتى – موسيقى: ن. روتا ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى ـ تصريح الرقابة: مارس ١٩٥٧ ـ مدة العرض: ١١٠ ق. شارك فى التمثيل: دوريان جراى ألدو سيلفانو، بينا جوالاندى، إنّيو جيرولامى، ر. فيلّينى.

القصة:

« كابيريا» (ج. مازينا) مومس شقية الوجود ساذجة وبلا حماية: تكاد تفقد حياتها على يد صديق لها طمعاً فى أموالها، ثم يهزأ بها الممثل المشهور «ألبرتو لاتسارى» (أميديو ناتسارى)، حتى زميلات الطريق (فرانكا مارتسى وأخريات) يسخرن منها. محبطة تحج إلى معبد « الحب المقدس» حيث تلهج هى أيضا بالدعاء – مأخوذة بجو المبالغة فى الطقوس الدينية – كى تحدث لها معجزة تغير لها حياتها. يبدو أن المعجزة ستتحقق: يبشرها أحد الدجالين بمستقبل مشرق وتلتقى مباشرة بـ«أوسكار» (فرانسوا بيرييه) الذى يصرح لها بحبه فتعهد إليه بمدخراتها التى يسعى إليها. يحاول أوسكار التخلص منها هو الآخر، وتتمكن كابيريا من الإفلات مرة أخرى من الموت. تفهم أن سذاجتها هى السبب فى شقائها. تهيم ليلا يائسة فى إحدى الغابات حيث تلتقى بمجموعة من الفتيان المرحين السعداء.تستعيد كابيريا ابتسامتها وتكف عن البكاء. غدا ستواصل «الطريق».

الحياة الحلوة La dolce vita «١٩٦٠»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى، إ. فلايانو، فكرة: ف. فيلّينى ـ شارك فى السيناريو: برونيلّو روندى ـ تصوير (توتالسكوب): أ. مارتيلّى ـ موسيقى: ن .روتا ـ إنتاج: إيطالى/فرنسى – تصريح الرقابة: يناير ١٩٦٠ – مدة العرض: ١٧٨ ق – شارك فى التمثيل: أنوك إيميه، ليكس باركر، أدريانو تشيلينتانو، ساندرا لى، جاك سيرناس، لاورا بيتّى، غير عشرات النجوم والممثلين والممثلات.

القصة:

الصحفى «مارتشيلّو» (م. ماستروويانّى) ـ محرر ركن الفضائح ـ يأمل فى أن يصبح يوماً كاتباً جاداً. يقوم فى روما برحلة فى «الحياة الحلوة» لمدة سبعة أيام وسبع ليال، ما بين مغامرات عاطفية مع سيدة أرستقراطية باحثة عن الانفعالات الطازجة؛ ومحاولة انتحار «إيمّا» (إيفون فورنيو) رفيقته التى تكتم أنفاسه مدفوعة بغيرتها؛ ومحاولاته هو المتكررة الفاشلة لاستمالة «سيلفيا» (أنيتا إكبرج) نجمة السينما المثيرة ذائعة الصيت باستحمامها الشهير فى مياه نافورة «تريفى». ثم ظهور «العذراء» الزائف، واللقاء بالمثقف الراقى «ستاينر» (ألين كونى) الذى يثير إعجاب مارتشيلّو بحياته وعائلته وبما يعتقد أنه الاحتياج المثالى. لكن ستاينر يقتل أطفاله ثم ينتحر. تتوالى على مارتشيلّو الأحداث الوجودية مثل الاعتلال المفاجئ لصحة الوالد العجوز (أنّيبالى نينكى)، وهجر إيمّا له. يقبل على مضض العمل كمندوب دعاية. وذات فجر، بعد سهرة من سهرات العربدة المألوفة، يلحظ المدعوون المزهقون المرتبكون وحشاً بحرياً على شاطئ البحر. ينزعج مارتشيلّو من المنظر فلا يتنبه لنداءات فتاة طيبة كان قد تعرف عليها فى أحد المطاعم المتواضعة.

بوكّاتشو Boccaccio70 «١٩٦٢»:(١١) :

(دعابة فى أربعة فصول عن فكرة لـ : تشيزارى تسافّاتينى)

الفصل الثانى: إغواءات الدكتور أنطونيو

سيناريو: ف. فيلّيني، ت. بينيلّي، إ. فلايانو، بالتعاون مع ب. روندي وجوفريدو باريزي - تصوير: أ. مارتيلي - موسيقى: ن. روتا - إنتاج: إيطالى/ فرنسى - تصريح الرقابة: فبراير ١٩٦٢ - مدة العرض: ٦٠ ق.

[الفصول الأخرى: رنتسو ولوتشيانا Renzo e Luciana ماريو مونيتشيلّى [١٢]، العمل Il lavoro لو كينو فيسكونتى [١٣]، الياناصيب La riffa فيتريو دى سيكا [١٤]]

القصة:

الدكتور أنطونيو (ب. دى فيليبّو) رجل متزمت أخلاقيا ويحارب تفشى اللاأخلاقية بطريقتة الخاصة: ينطلق فى إلقاء مواعظه بنت لحظتها على فتيان الكشافة المذهولين؛ ويزعج «الأزواج» المسالمة بحثا عمن هم فى حالة «خلوة حميمة»؛ ثم يصل به الأمر إلى حد تمزيق أغلفة المجلات المصورة فى أكشاك الجرائد. إلى أن تصله القشة القاصمة تحت نافذة بيته: يتم نصب إعلان دعائى ضخم، بصورة امرأة ممتلئة المفاتن (أ. إكبرج)، تدعو من خلال ابتسامة ذات مدلول إلى شرب مزيد من اللبن. يفشل الدكتور أنطونيو فى زحزحة الإعلان فيقرر تلطيخه بزجاجات الحبر. تتدخل الرقابة الرسمية وتغطى الأجزاء الحساسة فى الإعلان، لكن انهمار المطر يعرّى «مفاتن» المرأة التى تتجسد له فى أحلامه - تحت ضغط الفكرة المتسلطة - إلى امرأة من لحم ودم تحاول إغواءه. يتم العثور عليه فى الصباح فى حالة هلوسة متشعلقا فوق الإعلان. تحمله عربة الإسعاف إلى المستشفى بينما «كيوبيد» يرمقه ساخرا.

ثمانية ونصف Otto e mezzo «١٩٦٣»:

قصة: ف. فيلّينى، إ. فلايانو، فكرة: ف. فيلّينى - سيناريو: ف. فيلّينى، ت . بينيلّى، إ. فلايانو، ب. روندى - تصوير: ج. دى فينانتسو - موسيقى: ن. روتا - إنتاج: إيطالى/ فرنسى - تصريح الرقابة: فبراير ١٩٦٣ - شارك فى التمثيل: روسيللا فالك، أ. نينكى.

القصة:

يبحث المخرج المشهور جويدو أنسيلمى (م. ماستروياني) عن الراحة وشئ من الترويح عن النفس فى إحدى مصحات الحمامات المعدنية. يختلط فى رأسه الواقع والخيال، ويمتلئ المكان - المفترض فيه أن يوفر له الراحة والاسترخاء - بالشخصيات التى تلعب دورا فى حياته. تصل عشيقته كارلا (ساندرا ميلو)، ثم زوجته لويزا (أ. إيميه)، فالممثلة كلاوديا (كلاوديا كاردينالى) وهى تجسيد أسطورى للمشاعر الخالصة. فى نفس الوقت تُزيد اللقاءات مع المنتج، والفنيين، ومعتادى التردد على المصحة - سواء كانوا حقيقة أم خيالاً - من الفوضى، وتستحضر فى رأسه ذكريات حياته البعيدة: كالمدرسة الداخلية، وأبويه المتوفين اللذين يلتقى بهما فيما بعد عند المقابر. يتأزم جويدو، ويفكر فى التخلى عن إخراج الفيلم الذى يستعد له. يرتب المنتج مؤتمراً صحفياً حول موضوع الفيلم لكن المخرج لا يحضره ويهرب ككلاوديا. وعندما كان على وشك سحب يديه نهائياً من مشروع الفيلم الجديد تظهر فى حلبة التصوير الخاوية كل شخصيات حياته يعطى جويدو إشارة بدء التصوير من خلال مكبر الصوت: الفيلم قد بدأ؟ ... ربما.

جولييتا الأرواح Ciulietta degli Spiriti «١٩٦٥»:

قصة: ف. فيلّينى، ت. بينيلّى، فكرة: ف. فيلّينى - سيناريو:ف. فيلّينى، ت. بينيلّى، إ.فلايانو، شارك فى السيناريو: ب. روندى - تصوير (تكنيكولور): ج. دى فينانتسو - موسيقى: ن. روتا - إنتاج إيطالى/ فرنسى - تصريح الرقابة: سبتمبر ١٩٦٥ - مدة العرض: ١٢٠ ق - شارك

في التمثيل: فالينتينا كورتيزي، لُو جيلبيرت، سلفا كوشينا، ميلينا فوكوتيتش، سيلفانا ياكينو.

القصة:

جوليتا (ج. مازينا) سيدة بورجوازية غنية، تقضي الصيف في فيلتها الجميلة على شاطئ «فريجيني». نتيجة لتربيتها في معهد راهبات لا تفارقها ذكرى جدها الذي هرب مع راقصة. خلال الاحتفال بعيد زواجها من المتألق جورجو (ماريو بيزو)، تعقد جلسة تحضير أرواح، فتحضر أشباح شهوانية وماجنة. تسقط جوليتا ـ التي تلحقها إهانة أحد الأشباح ويعتريها الشك في وفاء زوجها لها ـ في أزمة ذاتية. ليس لها من تفضي له بمكنونها: وحيدة مع تناقضاتها، ما بين حفاظها الزائف على المظهر الأخلاقي ورغباتها الداخلية في العيش بلا كبت. تدعوها جارتها سوزي (س . ميلو) لزيارتها في فيلتها، وهنا تستطيع جوليتا أخيراً ترك العنان لنفسها بعد أن رأت بعينيها الدليل على خيانة جورجو. يدفعها الإحساس بالذنب إلى الهرب بينما تكاد الرؤى المتعارضة تدمر ذهنها. تقاوم الحالة بمساعدة محللة نفسية، وتشن معركة حقيقية ضد معوقاتها الداخلية ورغباتها الدفينة وضد الأشباح. ثم تمضي في النهاية منتصرة مكتسية بزي أبيض، للقاء الرياح التي تهب مندفعة من جهة البحر.

ثلاث خطوات في الهذيان Tre passi nel delirio ١٩٦٨:

العنوان الأصلي: حكايات عجيبة Histoires extrordinaires

المقطع: توبي داميّت Topy Dammit

بتصرف حرّ عن قصة إدجار آلان بو: «لا تقامر برأسك مع الشيطان» ـ سيناريو: ف. فيلّيني، بيرناردينو تسابّوني ـ تصوير (تكنيكولور ـ إيستمانكولور): جوسيبّي روتونّو ـ موسيقى: ن . روتا ـ أغنية «روبي» بصوت: راي تشارلز ـ إنتاج : إيطالي/ فرنسي ـ تصريح الرقابة: يوليو ١٩٦٨ ـ مدة العرض: ٣٧ق ـ شارك في التمثيل: سالفو راندوني.

[المقطعان الآخران من الفيلم: Metzengerstein إخراج روجيه فاديم، و Willam Wilson إخراج لوي مالّ].

القصة:

توبي داميّت (تيرنس ستامب) ممثل إنجليزي شاب أضاعته الخمر والمخدرات، يصل إلى روما للقيام ببطولة أول فيلم «كاوبوي» كاثوليكي. يحاط في الحال بالمصورين، والصحفيين، والمنتجين، بالإضافة إلى رجال الكهنوت. كل شيء جاهز للاحتفال بالمناسبة. لا يثير اهتمامه أي شيء مما يحيط به: لا الحفلة، ولا استعراضات المودة، ولا توزيع الجوائز. لا شيء يخرجه من بلادته. فقط عندما تقذف له للعب طفلة غامضة بالكرة تبدو على داميّت الاستجابة. أثناء إحدى حفلات الاستقبال المتكررة يسب الحاضرين ويفر بعربته المهداة إليه من المنتج. يسابق نفسه بسرعة جنونية في وسط روما وضواحيها. يحل الليل وما زال داميّت يواصل الجرى بعربته بحثاً عن الطفلة. لا يلتفت إلى بعض إشارات الطريق التي تحذر من وجود أخطار . يفصل سير من الصلب الغليظ رأسه عن جسده فتتدحرج على العشب. تظهر الطفلة الشيطانية وتتناولها كما لو كانت كرة...

مذكرات مخرج Blok-- notes di un regista «١٩٦٩»:

سيناريو: ف. فيلّيني، ب. تسابّوني ـ الحوار بالإنجليزية: يوجين والتر ـ تصوير: باسكوالي دي سانتيس ـ موسيقى: ن . روتا ـ إنتاج: الولايات المتحدة ـ مدة العرض ـ : ٦٠ ق.

شارك في التمثيل:ف. فيلّيني، ج. مازينا، م. ماستورياني، ب. تسابوني

وآخرون فى أدوارهم الشخصية، غير العديد من الممثلين غير المحترفين.

فيلّينى - ساتيريكون Fellini- Satyricon «١٩٦٩»:

إعداد حرّ عن بيترونيو الحَكَم (١٥) — سيناريو: ف . فيلّينى، ب . تسابّونى - تصوير (تكنيكولور - بانافيزيون): ج . روتونّو - خدع بصرية: ناتانسون - موسيقى: ن . روتا، بالتعاون مع: إلهان ميماروجلو، تود دو كسادر، أندريو رودين - إنتاج: إيطالى/ فرنسى - تصريح الرقابة : سبتمبر ١٩٦٩ - مدة العرض: ١٣٨ق. شارك فى التمثيل: كابوسين، لوتشيا بوزيه، جوردون ميتشيل.

القصة:

أشيلتو (هيرام كيلّر) وإنكولْبيو (مارن بوتر) شابان رومانيان، عاشقان كلاهما للمخنث جيتونى (ماكس بورن). «يخطفه» أشيلتو من إنكولبيو، الذى يكتشف بدوره أنه هو نفسه قد تم بيعه لفيرناكّيو (فانفوللا) الممثل الصامت البذىء. إنكولبيو يتمكن من استعادة جيتونى ويختبىء معه فى مأوى للفاسقين. يصل أيضاً أشيلتو الذى يصرح جيتونى بأنه هو «المفضل» لديه. يفكر إنكولبيو فى الانتحار لكن زلزالاً يدمر المبنى؛ يلتقى بعد انحسار الخطر بالشاعر العجوز إيومولبو (س . راندونى) فيصحبه معه إلى تريمالتشونى (ماريو رومانيولى) الذى كان عبداً قد تحرر وأصبح ثرياً. يضرب الشاعر العجوز بالعصا حتى الإدماء خلال حفلة مليئة بالانحطاط والادعاء، يتباهى خلالها تريمالتشونى بعرض مقبرته على المدعوين. يلتقى إنكولبيو وقد أُستعبد على سطح سفينة القرصان ليكا (أ. كونى) بأشيلتو وجيتونى. يُجبر جيتونى على الجماع بطفلة، ويُهزم إنكولبيو فى مبارزة مع ليكا ويتزوجه. تتوالى على ثلاثتهم مصائب الزمان، بين اغتصابات جسدية ومعارك وصلت إلى حد مواجهة الميناطور نفسه. يتمكن إنكولبيو من إثبات «رجولته» لكن موت الحبيب أشيلتو يصدمه بقسوة. يستقل مركب إيومولبو المتجهة نحو إفريقيا بعد رفضه المشاركة فى أكل جثة الشاعر العجوز متنازلاً عن إرثه فيه.

المهرجون Il clowns «١٩٧٠»:

قصة وسيناريو:ف. فيلّينى، ب. تسابّونى - تصوير (تكنيكولور): داريو دى بالما - موسيقى: ن. روتا - إنتاج إيطالى/ فرنسى/ ألمانيا (الاتحادية) - تصريح الرقابة: أكتوبر ١٩٧٠ - مدة العرض: ٩٣ق - شارك فى الأداء فريق عمل فيديريكو فيلّينى بالكامل، إلى جانب شخصيات السيرك التاريخية.

القصة:

طفل يراقب بفضول عملية نصب خيمة السيرك. يذكره منظر المهرجين ببعض شخصيات الحياة الواقعية: راهبة قزمة شاردة الذهن، ناظر محطة مستغرق تماماً فى أداء وظيفته، سائقَى عربة أطفال يتشاجران. تعود الأحداث إلى الحاضر: فيلّينى يجرى تحقيقاً تليفزيونياً بحثاً عن مهرجى السيرك القدامى لتسجيل ذكرياتهم. فيلّينى وفريق عمله فى زيارة لسيرك «ليانا أورفيى» (١٦) (فى إيطاليا). ثم يتوجهون إلى باريس حيث يلتقى بتريستان ريمى (كاتب متخصص فى قصص المهرجين)، فيلّينى يقتفى بصحبة الكاتب أثر المهرجين القدامى: قلة خلفها وراءه عالم قد اختفى، يصور فيلّينى وجوههم العجوزة الحزينة التى كانت مبعث الضحك المتواصل، والذى يشعر فيلّينى نحوها بالامتنان للجميل.

روما Roma «١٩٧٢»:

قصة وسيناريو:ف. فيلّينى، ب. تسابّونى - تصوير (تكنيكولور): جوسبّى مكّارى - موسيقى: ن . روتا - فكرة الديكور: ف. فيلّينى - إنتاج : إيطالى/ فرنسى - مدة العرض: ١١٩

ق. اشترك فى التمثيل: بيتر جونزاليس، ألفارو فيتالى؛ فيديريكو فيلّينى بشخصيته؛ المقابلات الصحفية مع: م. ماستروياتّى، أنّا مانيانى، جور فيدال، جون فرانسيس لين، أ. سوردى.

القصة:

«ريمينى» فى الثلاثينيات. طفل فى معهد دينى يتخيل «العاصمة» حسب وصف معلميه وخطابية النظام الفاشى. فى عام ١٩٣٩ يرحل وقد بلغ العشرين من عمره إلى روما ويكتشف وجهها الحقيقى: جو اللوكاندة الشعبية الشاحب، مومسات شارع «أبيا»، الأطفال فى الشوارع. فى عام ١٩٧٢ فيلّينى يصور فيلماً فى مدينة تكتظ بالسائحين، محاطاً بشباب يعتبون عليه عدم اهتمامه بالسياسة. تعود إلى الذاكرة صورة فرقة مسرح منوعات الحى، بينما الجمهور الصاخب يعدو هارباً إثر إنذار بغارة جوية. ينتقل المشهد إلى نفق المترو فى روما أثناء بنائه حيث يتوقف العمل لاكتشاف آثار تاريخية. ثم الهيبيز فى ميدان أسبانيا. ثم أسراب الخلق المختلفة فى ترددها على بيوت المتعة فى الأربعينيات. ثم استعراض أزياء كهنوتية على المودة. ثم ملتقى النجوم والكتاب فى أحد محلات حى «تراستيفيرى». ثم حى قديم. فوضى عامة.

رجال البوليس بالهراوات وسائقى الموتوسيكلات الصاخبة فى مدينة ترمز إلى الماضى البعيد اللامبالى.

أماركورد Amarcord «١٩٧٣»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، تونينو جويرا، عن فكرة: ف. فيلّينى - تصوير (تكنيكولور): ج. روتونّو - وموسيقى ن . روتا فكرة الديكور:ف. فيلّينى - إنتاج: إيطالى/ فرنسى - تصريح الرقابة: ديسمبر ١٩٧٣ - مدة العرض: ١٢٧ ق. اشترك فى التمثيل : ألفارو فيتالى.

القصة:

خلال الثلاثينيات فى مدينة «بورجو» الخيالية على شاطىء البحر الأدرياتيكى. يشب الفتى «تيتّا» (برونو تسانين) وسط تربية كاثوليكية وخطابية فاشية وأسرة متسلطة مفعمة بالخلافات: الأب «أوريليو» (أرماندو برانتشا) ملاحظ عمال فوضوى فى فوضويته؛ الأم «ميراندا» (بوبيلا مادجو) خاملة محبة للسيطرة؛ الخال «باتاكا» (ناندينو أورفيى) فاشى مهرج وعاطل؛ الخال الآخر «تيو» (تشيتشو إنجراسيّا) فى مستشفى المجاذيب؛ الجد (جوسيبّى لانيجرو) ملىء بالحيوية ودموى؛ الأخ الأصغر (ستيفانو بروبيتى) متمرد ووقح. وفى المدرسة: الرفاق فى الفصل بمزاجهم الشلِلى؛ المدرسون؛ المغامرات الجنسية المضحكة مع «جراديسكا» (ماجالى نويل) اللطيفة الشاردة، وبائعة التبغ (ماريا أنطونيللا بيلوتسى) ذات النهدين المهولين؛ الاعترافات بين يدى القسيس (جان فيليبّو كاركانو)؛ التوبيخ الأبوى المستمر. تعاقب الفصول، وإشعال الحرائق احتفالاً بمقدم الربيع؛ الرقص فى الصيف بالكازينو، مرور عابرة القارات «ركس»، سباق «الألف ميل» للدراجات عند عبوره بالمدينة. ثم يأتى موت الأم ليضع حداً لمراهقة وأوهام تيتّا.

كازانوفا فيديريكو فيلّينى Il Casanova di Federico Fellini «١٩٧٦»:

القصة: اعتماد حرّ على «قصص من حياتى» لجاكومو كازانوفا [١٧] - سيناريو: ف. فيلّينى، ب. تسابّونى - تصوير (تكنيكولور): ج. روتونّو - موسيقى : ن. روتا - فكرة الديكور: ف. فيلّينى - إنتاج: إيطالى - تصريح الرقابة: فبراير ١٩٧٦ - مدة العرض: ١٧٠ق.

القصة:

جاكومو كازانوفا (دونالد سذرلاند) - وقد شاخ وانتهى به المطاف أميناً لمكتبة كونت فالدنستاين - يسترجع الماضى . يوافق أثناء

مـهرجـان فـينيـتـسـيا على إظهـار احترامه العاطفى للسيدة «مادّالينا» (مارجريت كليمنتى) طمعاً فى التمتع بكرم عشيقة السفير الفرنسى. تعتقله سلطات «التفتيش» ويحاكم بتهمة ممارسة السحر الأسود يهرب من السجن وينزل فى باريس ضيفاً على ماركيزة «أورفيه» (سيسلى براون) التى تطمع فى الحصول منه على سر الخلود. يغادر باريس ويعاود نشاطه المتلاحق كفاتن للنساء فى دوامة من مغامراته العاطفية. ثم المغامرة الفاشلة مع «هنرييت» (تينا أومون) التى تدفع به إلى قمة اليأس والإحباط. يظن أنه مصاب بالزهرى ويفكر فى الانتحار. ثم مغامرات روما؛ ممارسة الجنس الكامل ثمانى مرات متواصلة؛ المرض؛ اللقاء بالبابا وبفولتير، وبالأم (مارى ماركويه) التى ما عادت تهتم بأحواله. وفى النهاية تحل الشيخوخة، وينطفىء سحره، ويهمله البلاط، ويرقص وحيداً مع دمية ميكانيكية (أديلى أنجيلا لوجوديتشى). ذكريات ماض سحيق.

بروفة الأوركسترا Prova d'orchestra «١٩٧٩»:

قصة: ف. فيلينى ـ سيناريو: ف. فيلّينى، بالتعاون مع ب. روندى ـ تصوير (تكنكولور): ج. روتونّو ـ موسيقى: ن. روتا إنتاج: إيطاليا/ ألمانيا (الاتحادية) ـ تصريح الرقابة: فبراير ١٩٧٩ ـ مدة العرض: ٧٠ دقيقة.

القصة:

داخل بقايا محفل دينى عتيق تجرى بروفات كونشيرتو سيمفونى. العازفون يحتلون أماكنهم فى تجمعات صغيرة أمام حاملات النوّت. ممثلو النقابة فى أحد الأركان. صحفى تليفزيونى (خارج الكادر بصوت فيديريكو فيلّينى) يستجوب الموسيقيين حيث يتحدث كل واحد منهم عن آلته الشخصية وتجربته الذاتية. بوصول المايسترو (بالدوين باس) الذى يتحدث بلكنة ألمانية ملحوظة، تبدأ البروفة فى هدوء. ثم تتوقف فجأة نتيجة احتجاج أعضاء الأوركسترا يغادر المايسترو الصالة إلى حجرته متبوعاً بالصحفى الذى يريد إجراء مقابلة صحفية معه. الثورة فى المحفل على أشدها: الاعتراض التام على كل شىء، بدءاً بالمدير حتى نوّت التقسيمات الموسيقية. تسود الفوضى والفوضوية. تُلطّخ الجدران بشعارات ورموز التمرد. يبدأ المبنى في الاهتزاز فجأة نتيجة تلقيه لضربات آخذة فى التصاعد إلى أن تخترق الجدار كرة مهولة من الصلب، وتلقى عازفة الهارب (كلارا كولوزيمو) حتفها تحت الأنقاض. بعد لحظات من الارتباك وصرخات الرعب يسود الصمت من جديد وتستأنف البروفة. المايسترو مرة أخرى على المنصة يوزع أوامره، بشكل عصبى وديكتاتورى.

مدينة النساء La città delle donne «١٩٨٠»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، ب. تسابّونى؛ شارك فى السيناريو: ب. روندى ـ تصوير (تكنوفزيون ـ ألوان): ج. روتونّو ـ موسيقى: لويس باكالوف ـ فكرة الديكور: ف. فيلّينى ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى ـ تصريح الرقابة: مارس ١٩٨٠ ـ مدة العرض : ١٤٥ق.

القصة:

النوم يداعب سيداً وقوراً فى الخمسينيات بمقصورته فى القطار الذى يعبر منطقة ريفية. تظهر حسناء مجهولة (بيرنيس ستيجيرس)، يتبعها السيد الوقور «سنابوراتس» (م. ماسترويانّى) حتى التواليت فتهبط من القطار فجأة فى منطقة غامضة. هكذا يصل سنابوراتس إلى جراند هوتيل ميرامار حيث تعقد الحركة النسائية مؤتمراً دولياً. سنابوراتس يواصل البحث عن الراكبة الغامضة ويبدو كأنه صحفى فيتعرض للاعتداء .تنقذه جرسونة (دوناتيلا داميانى) تجرى على عجلات التزحلق. أثناء

فراره تزل قدمه على السلم ويهوى إلى المخزن السفلى حيث يلتقى بامرأة ضخمة (إيوله سيلفانا) تصحبه بالموتوسيكل نحو المحطة، وفى الحقول المكشوفة تحاول اغتصابه. يواصل سنابوراتس الفرار وفى أعقابه حشد من النساء الهائجات يحتمي بقصر الدكتور كاتسونى (إتّورى مانّى) زميل دراسته سابقاً الذى يستعد للاحتفال بتاريخه الماجن. يلتقى فى الحفل بزوجته (أنّا بروكنال) التى تنهال عليه ـ مخمورة ـ بالسباب والشتائم، ويلتقى أيضاً بالجرسونة منقذته. زعيمات الحركة النسائية يقبضن عليه ويحاكمنه ويفرجن عنه. يلتقى مرة أخرى بالجرسونة التى تقتله هذه المرة برصاص المدفع الرشاش. يستيقظ فى القطار، جالساً فى مواجهة زوجته، قبل دخول القطار فى نفق طويل مظلم.

القافلة تسير E la nave va حرفياً وتمضى السفينة «١٩٨٣»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، ت. جويرّا (نصوص الغنائيات: أندريا تسانتسوتّى) ـ سيناريست فرقة العمل الفرنسية: كاتيرين بريّات ـ ملاءمة الحوار الإيطالى: روبرتو دى ليونارديس ـ تصوير (تكنيكولور): ج. روتونّو ـ موسيقى: جان فرانكو بلينتسيو ـ إنتاج إيطالى/ فرنسى ـ مدة العرض: ١٣٢ ق. شارك فى التمثيل: باسكوالى تسيتو، بينا بوش، إليزا ماينارادى.

القصة:

ميناء نابولى، يوليو ١٩١٤: عابرة القارات «جلوريا ن». على وشك الإقلاع. حول الرصيف حشد من الأطفال والباعة الجائلين. يصل المسافرون مسرعين للإبحار. يصل أيضاً رماد المغنية الشهيرة «إدميا تيتوا» (جانيت سوزمان) الذى تم تنظيم الرحلة فى اتجاه «إريمو» بالتحديد لنثره فى البحر. يوجد على السطح أيضاً الصحفى «أورلاندو» (فريدى جونس) الذى يقوم بواجب الضيافة مع الركاب وهم فى معظمهم نجوم فى عالم الغناء، ومديرو فرق موسيقية أوركسترالية، وعشاق لإدميا: إحدى المغنيات تريد الاستحواذ على أسرار مهارتها، ونبيل إيطالى يحول مقصورته إلى معبد جنائزى لإدميا. تتصاعد من العنابر رائحة خرتيت بشعة لا تطاق. يُرفع الخرتيت على السطح ويغسل. يتم انتشال جماعة من الصربيين الهاربين بعد أحداث سراييفو. تنشط الحياة على ظهر الباخرة. يتم نثر رماد إدميا فى البحر على مرأى من إريمو. يقذف أحد الصربيين بقنبلة على باخرة نمساوية/ مجرية فترد بالمدافع وتغرق «جلوريا ن.»، وتغرق معها إثر الانفجار. الصحفى أورلاندو الذى نجا يجدف مسروراً بمجاديف قارب الإنقاذ الطويلة، وفى مقدمة القارب يجتر الخرتيت غذاءه فى سلام.

جينجر وفريد [١٨] Ginger e Fred «١٩٨٥»:

قصة: ف. فيلّينى، ت. جويرّا ـ سيناريو: ف. فيلّينى، ت. جويرّا، ت. بينيلّى ـ تصوير (ألوان): تونينو ديلّى كولّى، إنّيو جوارنييرى ـ موسيقى: نيكولا بيوفانى ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى/ ألمانيا (الاتحادية) ـ تصريح الرقابة: أكتوبر ١٩٨٥ ـ مدة العرض: ١٢٥ ق.

القصة:

فى محطة القطار الرئيسية تهبط «أميليا» (ج. مازينا): راقصة سابقة تحت الاسم الفنى «جينجر»، أرملة ذات عائلة كبيرة العدد صاحبة لمصنع صغير. ستظهر فى التليفزيون لترقص بعد ثلاثين عاما مع زميلها «بيبّو» (م. ماسترويانى) :«فريد». يسود ارتباك عام بسبب أعياد الميلاد المجيد. تستقل جينجر أتوبيساً صغيراً وتلتقى بشخصيات غريبة. تصل إلى فندق كبير حيث انشغل العاملون بمشاهدة مباراة كرة قدم

فى التليفزيون. لم يصل فريد بعد. تهبط جينجر إلى الطريق ويحيط بها بشكل مهدد جماعة من راكبى الموتوسيكلات. تعود إلى غرفتها. تسمع شخيراً وتكتشف وجود فريد وقد هزمته الشيخوخة وتضعضعت أحواله. أجبرته حاجته إلى المال على قبول عرض التليفزيون. يريدان تجربة «نمرتهما» القديمة ولو لمرة واحدة قبل العرض ولكن يصعب عليهما ذلك بسبب هرج ومرج ذوى الهيئات الغريبة، هم أيضاً ضيوف على نفس البرنامج: «وإليكم الآن». يتمكنان أخيراً من إجراء البروفة، النتيجة: كارثة. إطراءات رئيس التليفزيون وحدها هى التى تشجعهما على الاشتراك فى البرنامج الذى بدأ فى الحال: الشخصيات الغريبة تستعرض مهاراتها بالتناوب. يأتى الدور عليهما، يرقصان، النتيجة: نجاح ساحق. اليوم التالى فى المحطة يتعرف الجمهور عليهما ويسألهما التوقيعات. يقترض فريد من جينجر بعضَ النقود. ترحل . أضواء المحطة تنطفىء ويبقى إشعاع جهاز التليفزيون وحده بإلحاح إعلاناته التجارية.

مقابلة صحفية Intervista «١٩٨٧»:

قصة وسيناريو: ف. فيلّينى، شارك فى السيناريو: جان فرانكو أنجيلوتشى ـ تصوير (إيستمانكولور Dolby stereo): تونينو ديلّى كولّى ـ موسيقى: ن. بيوفانى ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى (إبراهيم موسى) ـ مدة العرض: ١١٣ ق. شارك فى الأداء فرقة عمل فيلّينى بالكامل.

القصة:

وفد من الصحفيين اليابانيين يجرى مقابلة صحفية مع فيلّينى (هو نفسه) فى «مدينة السينما» أثناء تصويره فيلماً مأخوذاً عن قصة «أمريكا» لكافكا. يحكى المخرج تحت وابل أسئلتهم أول زيارة قام بها لاستديوهات روما عام ١٩٤٠. كان هو أيضاً صحفياً فى بداية طريقه وقد حضر إلى «مدينة السينما» ليجرى مقابلة صحفية مع «نجمة» شهيرة. تتكاثر ذكريات فيلّينى وتتداخل مع أسئلة الصحفيين المنهمرة: رُتب كبيرة فى اللباس العسكرى الفاشى؛ فلاحات يؤدين التحية الرومانية (تحية فاشية)؛ هو (سيرجو روبينى) فى الترام يعبر الريف الرومانى فى طريقه لمدينة السينما؛ الأفيال الإمبراطورية وجماعات من الهنود. ها هو يجرى أخيراً مقابلته الصحفية مع النجمة (باولا ليجوورى)، بينما مساعد فيلّينى الحالى (ماوريتسيو ماين) يبحث عن وجوه جديدة فى محطات المترو. تصل الشرطة التى تلقت بلاغاً تليفونياً عن وجود قنبلة. يظهر مارتشيلّو ماستروويانّى (هو نفسه) فى رداء ساحر القصص المرسومة «ماندريك»؛ ويُظهر بعصاه السحرية مشاهد من فيلم «الحياة الحلوة» بين تصفيق الحاضرين ودموع أنيتا إكبرج (هى نفسها). اليوم التالى أثناء تصوير «أمريكا» توقف العمل عاصفة هائلة. عصابة من الهنود الحمر تهاجم «مدينة السينما» مسلحة بهوائيات التليفزيون بدلاً من السهام. ينتهى تصوير الفيلم ويتبادل الجميع التحيات والتهنئة بأعياد الميلاد المجيد.

صوت القمر La voce della luna «١٩٩٠»:

القصة: مستوحاة بحرّية من رواية إرمانّو كافاتسونى « قصيدة المعاتية Il poema dei lunatici» ـــ سيناريو: ف. فيلّينى، شارك فى السيناريو: ت. بينيلّى وإ. كافاتسونى ـ تصوير (تكنيكولور): ت. ديلّى كولّى ـ موسيقى: ن. بيوفانى ـ إنتاج: إيطالى/ فرنسى ـ تصريح الرقابة: فبراير ١٩٩٠ ـ مدة العرض: ١١٨ق. شارك فى التمثيل: باولو فيللادجو[١٨] .**القصة:**

فى ليلة مقمرة، ينجذب «إيفو» (روبرتو بينينى [١٩]) لصوت ما، يطل فى أحد الأبيار، ثم يثير فضوله جمع من الرجال يعبر الحقل. يتبعهم

ويشهد من خلف ستار «نمرة» تعرّى خالة أحدهم. يتنبه هذا الأخير لوجود صاحبنا فيطرده لأنه لم يدفع ثمن الفُرجة. يصل صديق لإيفو ويمضيان معاً. يتبع ذلك مقابلات غريبة، جدة إيفو (أوتا شميت) تقول له فى إحداها: «إن الذكرى أجمل بكثير من الحياة نفسها» . وفى ليلة أخرى ممطرة، يتمكن إيفو من تأمل وجه حبيبته حتى تستيقظ فتطرده. تعم الفوضى الهائلة ساحة البلدة فى اليوم التالى: باعة جائلون وجماعات من السياح اليابانيين. يلجأ إيفو إلى أحد السطوح. يعتقد الجميع أنه يريد الانتحار. يقوم رجال المطافىء بإنقاذه. فى هذه الأثناء يحاول الأخوة ميكيلوتسى (دومينيك شيفالييه، نيجيل هاريس، فيتو) اصطياد القمرالذى يقال إنه يصدر أوامره إلى صغار الشيّاطين على الأرض. ينجحون فى ذلك وتريد القرية بأكملها مشاهدة القمر السجين. يتم ذلك بعرض الصورة على شاشة تليفزيونية هائلة. يطلق رجل النار على الشاشة فتنطفىء. يخلو الميدان من الناس، ويبقى إيفو بناء على دعوة من القمر. يثرثران معاً ■

الهوامش:

١ ـ فيديريكو فيلّينى Federico Fellini :

١٩٢٠ ـ ؟؟، أربعة أوسكار لأفلام: الطريق (٥٦)، وليالى كابيريا (٥٧)، وثمانية ونصف (٦٣)، وأماركورد (٧٤)؛ وأوسكار لتاريخه الفنى في يناير من هذا العام؛ يبلغ رصيده الفنى كمخرج ٢٣ فيلماً طور فيهاأسلوب عرض داخليات الإنسان الحميمة مضيفاً إليه نغمة تهكمية، غنية باللمحات الاجتماعية، متنبهة إلى عوامل إثارة الذاكرة، وبعين واعية للتقاليد؛ تظهر فى أفلامه ذكرياته الشخصية بصورة مؤثرة وإنسانية.

٢ ـ جولييتًا مازينا Giulietta Masina :

١٩٢٠؛ برعت فى أداء الشخصية الدرامية المؤثرة فى سينما الواقعية الجديدة الإيطالية وفى أفلام زوجها: الطريق (٥٤)، ليالى كابيريا (٥٧)، جولييتًا والأشباح (٦٥)، جنجر وفريد (٨٥).

٣ ـ مدينة السينما Cinecittà :مجمع يضم كل ما يتعلق بالعمل السينمائى من مبان ومعامل واستوديهات، تم تأسيسه عام ١٩٣٧ فى ضواحى روما.

٤ ـ جوليو اندريوتى Giulio Andreotti :

١٩١٩، سياسى ينتمى إلى الحزب الديمقراطى المسيحى (ينهار الآن بعد الفضائح الأخيرة وقد يتلون تحت اسم «حزب شعبى»)، تقلد مناصب: وزير الداخلية (١٩٥٤)، المالية (٥٥ ـ ١٩٥٨)، الخزانة (٥٨ ـ ١٩٥٩)، الدفاع (٥٩ ـ ١٩٦٦و١٩٧٤)، الصناعة (٦٦ ـ ١٩٦٨)، الميزانية (٧٤ ـ ١٩٧٦). رئاسة مجلس الوزراء (٧٢ ـ ١٩٧٣و٧٦ ـ ١٩٧٩)، وزير الخارجية (٨٣ ـ ١٩٨٩)، رئاسة مجلس الوزراء مرة أخرى عام ١٩٨٩. حالياً عضو مجلس الشيوخ مدى الحياة.

٥ ـ البرتو لتوادا Alberto Lattuada :

١٩١٤؛ من البدايات المبكرة للواقعية الجديدة: جاكومو المثالى (٤٢)، إلى كوميديات الأزياء: صرصار الليل (٨٠)، وللتليفزيون: كريستوفر كولومبوس (٨٥).

٦ ـ انيو فلايانو Ennio Flaiano

١٩١٠ ـ ١٩٧٢، روائى: الوقت المناسب للقتل (٤٧)، الظلال البيضاء (٧٢)، كاتب مسرحى ساخر: أحد سكان المريخ فى روما (٦٠)، كتب سيناريوهات ليفيلّينى وغيره.

٧ ـ ميكيلانجيلو انطونيونى Michelan-gerio Antonioni :

١٩١٢؛ عرض فى أفلامه مجتمع إيطاليا فيما بعد الحرب الثانية من وجهة نظر مثقفة واعية، وأحاط سواء بموضوعات الواقعية الجديدة أو التغريب؛ من: وقائع قصة حب (١٩٥٠)، حتى: تحديد هوية امرأة (١٩٨٢)، وهو الآخر مريض حالياً.

٨ ـ ألبيرتو سوردى Alberto Sordi :

١٩٢٠؛ يعد من أبرز ممثلى الكوميدية على الطريقة الإيطالية، ممثل ساخر لنقائص وعيوب البورجوازية.الصغيرة، مثل أفلام : الشيخ الأبيض (١٩٥٢)، العجول (١٩٥٣)، الحرب الكبرى (١٩٥٩)، إلى المنزل جميعاً (١٩٦٠)، رجل المافيا (١٩٦٢)، دخان لندن (١٩٦٦، وإخراجه)، ماركيز الجريلّو (١٩٨١)، البخيل (١٩٩٠).

٩ ـ تشيزارى تسافاتّينى Cesare Zavat-tini :

١٩٠٢ ـ ١٩٨٩، كاتب وسناريست؛ يكتب بروح الدعابة السريالية: فلنكثر فى الحديث عنى (١٩٣١)، توتو الطيب ـ١٩٤٣)؛ سيناريست الواقعية الجديدة: مع فيتوريو دى سيكا من شوشا حتى أومبيرتو د. ؛ كتب لفيسكونتى جميلة جداً ١٩٥١؛ أخرج ومثل: الحقيقة (١٩٨٢)، وهى عبارة عن وصية روحية.

١٠ ـ بيير باولو بازولينى Pier Paolo Pasolini :

(١٩٢٢ ـ ١٩٧٥) مقتولاً؛ شاعر وكاتب وروائى ومخرج تجربة القلق الوجودى

الايديولوجى اللغوى دفع بالواقعية إلى ضفاف التقليدية والتعبيرية. (سنتناوله بتفصيل فى عدد قادم).

١١ - جيوفانى بوكّاتشو Giovanni Boccaccio:

(١٣١٣ - ١٣٧٥) ؛ كاتب فلورنسى (عاصر دانتى ١٢٦٥ - ١٣٢١ فى أواخر أيامه)؛ مؤلف الديكاميرون Decameron (= عشرة أيام) ٤٨ - ١٣٥٣، وهى عبارة عن مجموعة من ١٠٠ قصة (رواية قصيرة)، يرويها بالتناوب على مدى عشرة أيام ٧ سيدات و٣ شبان كانوا قد احتموا بإحدى الفيلات هرباً من الطاعون فى فلورنسا عام ١٣٤٨. وتدور فى أغلبها حول موضوعات فكاهية تتناول جو المقالب والمؤامرات وألعاب الدهاء، مع واقعية مثيرة عند تناول العلاقات العاطفية (الجنسية)، إلى جانب قصص أخرى يغلب عليها الطابع الدرامى وتتناول المشاعر البطولية والعواطف السامية.

١٢ - ماريو مونيتشيلّى Mario Monicelli:

١٩١٥؛ مخرج: عسكر وحرامية ١٩٥١، ضد مجهولين ١٩٥٨، الحرب الكبرى ١٩٥٩، رهط برانكاليونى ١٩٦٦، لعلها أنثى ١٩٨٦.

١٣ - لوكينو فيسكونتى Luchino Visconti:

(١٩٠٦ - ١٩٧٦) مخرج مسرحى وسينمائى. أول أفلامه: الفكرة المتسلطة Ossessione ١٩٤٣، ثم تبعه: الأرض ترتجف ١٩٤٨، جميلة جداً ١٩٥٢ وهى من العلامات الصلبة فى الواقعية الجديدة الإيطالية. واجه القرن الثامن عشر بفيلم إحساس Senso ١٩٥٤؛ ثم الميلودراما والسقوط فى: الليالى البيضاء ١٩٥٧، روكو وأخوته ١٩٦٠، جاتو باردو Il Gattopardo ١٩٦٣ - نجوم الدبن الأكبر والأصغر الغامضة ١٩٦٥، ثم الرقى التعبيرى فى أفلامه الأخيرة: سقوط الآلهة ١٩٦٩، الموت في فينيتسيا ١٩٧١، لودفيج ١٩٧٣. غير تجاربه الغنائية فى المسرح واهتمامه بأعمال فيردى.

١٤ - فيتوريو دى سيكا Vittorio De Sica:

١٩٠١ - ١٩٧٤؛ مخرج وممثل مسرحى وسينمائى. بعد قيامه بنجاح بأدوار الشاب المحب في أفلام «التليفونات البيضاء»، انتقل للإخراج فى ١٩٤٠ وقدم بالتعاون مع تسافاتّينى بعض قمم الواقعية الجديدة الإيطالية (شوشا ١٩٤٦)، لصوص الدراجات ١٩٤٨؛ معجزة في ميلانو ١٩٥١؛ أومبيرتو د. ١٩٥٢). ثم تبعها بأفلام: ذهب نابولى ١٩٥٢، شوشارا (امرأتان) ١٩٦٠، بستان فينتسى كونتينى ١٩٧١. وكممثل: هؤلاء الرجال الأوغاد ١٩٣٢، خبز وحب وفانتازيا١٩٥٣، الجنرال ديللا روفيرى ١٩٥٩.

١٥ - بيترونيو الحكم Petronio Aarbitro:

توفى عام ١٩٦٦ ميلادية كاتب لاتينى حجة فى الذوق السليم - انتحر تجنباً للحكم عليه فى مؤامرة ضد نيرون - مؤلف ساتيريكون: رواية بالنثر والنظم تحاكى الروايات العاطفية المعاصرة له،، مدعمة بالحواديت الإغريقية.

١٦ - عائلة أورفيى أشهر أصحاب الأسراك فى إيطاليا؛ مثلوا ولعبوا؛ وتوارثوا كل أدوار ومهارات السيرك من عام ١٨٢٠ حتى الآن.

١٧ - جاكومو كازانوفا Jinger Casanova:

١٧٢٥ - ١٧٩٨ مغامر، مقامر، عمل كدبلوماسى، جاسوس، عاشق أسطورى. سجن وفر عديداً من المرات. ترك مذكراته باللغة الفرنسية ونشرت فيما بعد بين ١٨٢٢ و١٨٢٨.

١٨ - جينجر روجرز Ginger Rogers

١٩١١؛ ممثلة أمريكية. نجمة الأفلام الموسيقية، رقصت ومثلت مع فريد أستيرفى أفلام موسيقية وكوميدية.

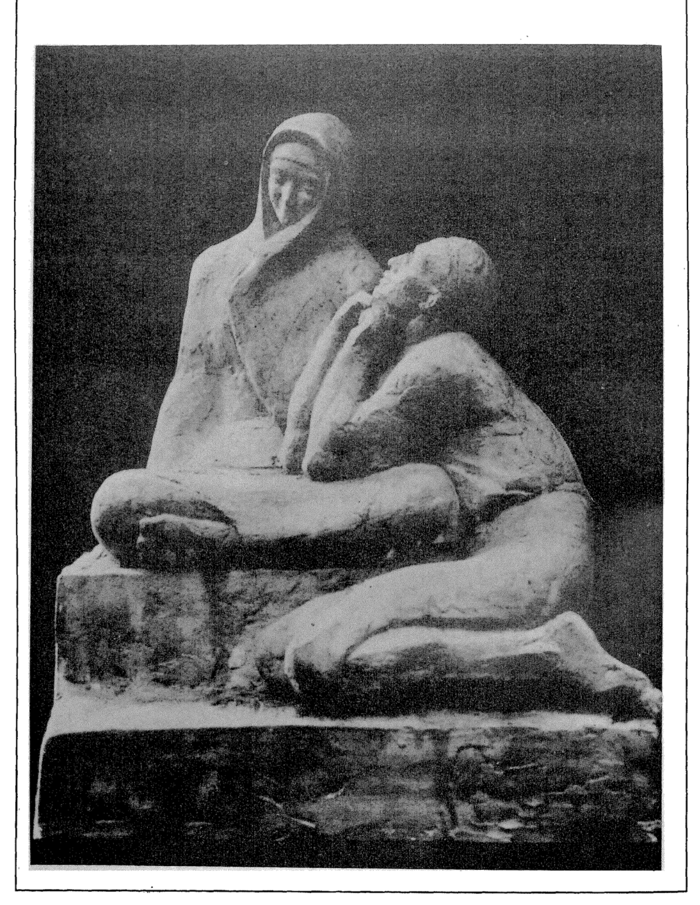
- فريد آستير Fred Astaire: ١٩٠٠ - ١٩٨٧؛ ممثل وراقص ومغن أمريكى حاز على نجاح كبير وشهرة واسعة.

١٩ - باولو فيللادجو Paolo Villaggio:

١٩٣٢؛ ممثل ، نبغ في أدوار الكاباريه ، أغنى السينما والتليفزيون بشخصيات كوميدية - تغريبية من «فانتوتسى» حتي «فراكيا».

٢٠ - روبرتو بينينى Roberto benijni

١٩٥٢؛ ممثل كوميدي بمنحى سرُيالى مبنى على اللهجة المحلية الفلورنسية. نشط فى التليفزيون والمسرح والسينما [أتمنى لك الخير يابيرلينجوير Berlinguer ti voglio bene(بيرلينجوير : سكريتر الحزب الشيوعى الإيطالى سابقا) ١٩٧٧، Daunbailo ١٩٨٦ ، صوت القمر ١٩٨٩. وكمخرج : إنك تقلقنى Tu mi turbi ١٩٨٣ ، الشيطان الصغير ١٩٨٨ ■







إيطاليا ليلة رحيل فلليني

ق تفكّه أحد الظرفاء أخيراً فطالب الحكومة الإيطالية بإضافة ضريبة ملاهٍ إلى رسم دخول إيطاليا تحصَّل بالمطارات والموانىء وعلى حدود شبه الجزيرة. والحق أن العرض الذى تقدمه إيطالياً السياسية هذه الأيام يفوق فى إثارته وقوة جذبه وغموضه كل كنوز ونفائس متاحف وآثار إيطاليا الفنية الشهيرة. كأضخم لونا بارك فى التاريخ: يعود الجمهور الإيطالى آخر النهار، من قمة رأس جبال الألب حتى إخمص القدم الجغرافى (أنظر شكل إيطاليا على الخريطة)، إلى بيته: يعود من

ليلة رحيل فلليني

يعمل من عمله والعاطل من تسكعه والغاضب منهما من إضرابه أو مظاهرته، ليجلس مذهولاً متسمراً أمام العرض المقدم على خشبة المسرح (التليفزيوني) المضيئة المبهرة. عبثاً يحاول ـ من يملك منهم القدرة على المحاولة (؟) ـ العثور على عرض آخر فى قناة أخرى من قنوات جهازه الخمسين (فى المتوسط ما بين قومية ومحلية)فالعرض المقرر على الجميع واحد وإن اختلف ترتيب المشاهد. وقد يصيح داخله أو بين جدران بيته كشخصية بيراندلّية [1] حائرة: ماذا يحدث هنا بحق السماء (أو الجحيم حسب الانتماء العقائدى أو السياسى أيهما أقوى)؟ . لا يبحث أحد هنا عن المؤلف فالمادة متوافرة إلى حد التخمة، بل البحث جار عن المُخرج المجهول وعن مَخرج من هذا الموقف التراجيدى (بين «قديم يتهاوى وجديد لم يظهر بعد»، كما يقولون!)، حيث يبدو جلياً أن ثمة انقلاباً عسكرياً بوليسياً سياسياً اقتصادياً وربما أيضاً ماسونياً على وشك الحدوث إن لم تكن ساعة الصفر قد تزامنت بالفعل مع رفع الستار. ومشاهد العرض ومواقفه تتتابع وتتداخل:

الموقف الأول ـ شبح ألدو مورو[2]، الذى اختطفته الألوية الحمراء وقتلته منذ أكثر من خمسة عشر عاماً لم يهجع بعد. إنه لا يبدو شبحاً شكسبيريا: فهو لا يطالب بانتقام ولا يفتح فما (حتى رسائله من السجن، التى ظهرت واختفت ثم ظهرت مبتورة يكتنفها الغموض عبر السنين، والذى يطالب فيها بالتدخل لإنقاذه أنكر عليه أصدقاؤه أبوته لها: «لا نعرف من كتب هذا الكلام، من المؤكد أنه ليس ألدو مورو الذى نعرفه»، ولم يحركوا ساكناً كما بدا فى حينه)، ولا يبدو أنه يحضر حين يحضر (فى الأزمات القومية الدقيقة كالمعتاد) من تلقاء نفسه، بل يبدو كالمستحضَر إثر جلسة سرية (مستديمة) لتحضير الأرواح منعقدة فى غرفة خفية وراء الكواليس. يجلس الشبح فى صفوف المتفرجين لا يظهر له فى خلفية المشهد كل حين وحين إلا منظرين مستهلكين: أحدهما لعربته الخاوية منه بعد اختطافه وقد تناثرت حولها جثث خمسة من حراسه، والآخر لعربة مسروقة وقد جثت فى حقيبتها الخلفية جثته معدومة الحياة بعد ٥٥ يوماً من المنظر الأول. تحت الأضواء على خشبة المسرح مجموعتان تتصايحان فى تداخل: المجموعة الأولى لأعضاء الألوية الحمراء من رجال ونساء كانوا شباباً أيام الحادث، يقول أحدهم: «الحقيقة أن من قتله كان هذا». فيرد هذا: «فعلاً، أنا الذى قتلته. إنها مسئولية الزعيم، وقد كنته». فيقول آخر: «ولماذا اعترف إذن ذلك بقتله؟ ولم لم يفه بكلمة طوال هذه السنين؟». فلا يرد ذلك بل يجيب هذا: «هو لم يعترف، لكنه لم ينكر، وعموماً فالمسئولية واحدة». بينما تتعالى صيحات المجموعة الأخرى المكونة من سياسيين وصحفيين ومثقفين وغيرهم: «الحقيقة. نريد معرفة الحقيقة. من كان وراء الألوية الحمراء؟ من كان يحركها خلف الستار؟». «المخابرات السرية». «المحلية؟». «يجوز، والدولية أيضاً». «الأمريكية أم الروسية؟». «إحداهما أو كلتاهما، المؤكد أن للموساد الإسرائيلية يد فى الأمر». «بل كانت مستقلة. كانت حركة شيوعية مستقلة. وقد آن الأوان لغلق تلك المرحلة المرعبة بحل سياسى شامل». وهكذا، وهكذا، دون كشف الستار عن سر الحقيبة، كيف وقعت حقيبة ألدو مورو بأوراقها السرية فى أيدى الألوية؟ من الواضح أنها كانت فى عربته عند وصول البوليس بعد اختطافه، كما تؤكد ذلك الصور الحديثة التى ظهرت مؤخراً. «وأين كانت هذه الصور قابعة طوال السنين الماضية؟». العرض مستمر.

الموقف الثانى ـ المصروفات السرية للأجهزة السرية (مباحث أمن الدولة حتى الآن) كانت توزع ذات اليمين وذات اليسار على السياسيين

وكبار موظفى الدولة وكبار وصغار «المخبرين» الصحفيين. مليارات وملايين. يتم القبض على بعض رؤساء المخابرات المتقاعدين فيصرخون: «الكل يعرف. الكل استفاد. وزراء (الداخلية على الأخص) ووكلاء ورؤساء الأجهزة الكبيرة الحاكمة. اسألوا رئيس الجمهورية نفسه، هو ليس غريباً عما كان يحدث، اسألوا مدير مكتبه أيام كان وزيراً للداخلية». القصر الجمهورى يرتجف غضباً. رئيسا مجلسى الشيوخ والنواب يرفعان صوتيهما فى تحذير: «الديمقراطية فى خطر». هيبة القصر الجمهورى تتأثر بالحادث. الحكومة تعلن من جديد عن عزمها على تطهير وإعادة تنظيم أجهزة المخابرات والمباحث السرية. «أمين خزينة جهاز المباحث يعترف: «رئيس الجمهورية الحالى كان يتقاضى مرتباً شهرياً سرياً حين كان وزيراً للداخلية». البرلمان يرتجف وأصوات المعارضة المتطرفة تطالب رئيس الجمهورية بالاستقالة. رئيس الجمهورية يوحد قنوات التليفزيون الرسمية ويتحدث إلى الشعب: «سأواجه القنابل والفضائح. لن أستقيل وسأدافع عن الديمقراطية»، (يعتبر هذا أول اعتراف من مسئول كبير بانتماء القنابل إلى أجهزة الدولة الرسمية). وزير الدفاع يحذر من المحاولات الانقلابية (التى كان قد أنكر وجودها، أنظر الموقف الثالث). الأحزاب القديمة والحديثة من ذات اليمين وذات اليسار تتهيأ لأيام صعبة. الحكومة تعيد تشكيل المباحث والمخابرات: تنظيم واحد بشقين للعمل فى الخارج وفى الداخل تحت اسم «أنيس». قوات الأمن التابعة للحربية بينما تعمل تحت إدارة الداخلية تطالب باستقلالها أو تبعيتها للداخلية. هل ستختلط مفرقعات الاحتفالات برأس السنة هذا العام بمفرقعات دموية شريرة؟ العرض مستمر.

الموقف الثالث ـ «الجنرالات يستعدون لانقلاب عسكرى ويتجرون فى الأسلحة والمفرقعات. لقد رأيت ذلك بنفسى وزوجى الضابط المتقاعد (لأسباب صحية) على علم به ونعرف أيضاً أن العناصر الفاشية ضالعة فى المؤامرة، وأن أحد المتآمرين الفاشيين (وهو مدفون حالياً فى أسبانيا منذ سنوات)، ما زال على قيد الحياة وقد رأيته بأم رأسى، اسألوا زوجى الذى يعرفه جيداً فقد كان عشيقاً لأمه العجوز لسنوات طويلة وكان زميلاً له فى التنظيمات الفاشية». التصريحات التليفزيونية السابقة لعشيقة ضابط جيش كبير كان قد رفع قضية ابتزاز (٦٠٠ مليون ليرة) ضدها وزوجها زميله المتقاعد، وزارة الدفاع **تنكر** وجود محاولات انقلابية بين صفوف القوات المسلحة وتوقف الضابط الكبير ضحية الابتزاز. أم الفاشى تؤكد موت الابن وترفع قضية تشهير ضد عشيقها السابق وزوجته. وزير الدفاع يفصل رئيس الضابط الكبير لإهماله فى التنبه لخطورة تصرفات مرؤوسيه. قائد الجيش يقدم استقالته احتجاجاً على تصرف الوزير. الوزير يقبل الاستقالة بسرعة خاطفة. الجيش قلق ومتذمر. رئيس الجمهورية يؤكد أنه رغم محاولات الاصطياد فى الماء العكر فالوضع مستقر وليست هناك أية تهديدات بأية انقلابات. رئاسة الجمهورية على علاقة بالمصاريف السرية (أنظر الموقف الثانى). إلقاء القبض على «امرأة الانقلاب» وزوجها بتهمة التشهير الذاتى. «السنيورة» تعلن من خلف أسوار السجن: «لعل الفاشى قد مات، لعلنى رأيت من يشبهه. أنا لا أنوى الانتحار. حياتى فى خطر». العرض مستمر.

الموقف الرابع ـ ظهرت بالميادين منشورات (١٥ منشورا) موقعة بشعار الألوية الحمراء تعلن استمرار الألوية فى الكفاح ضد الإمبريالية وعملائها (أنظر الموقف الأول). المسئولون يؤكدون أن وزير العمل والمسئول الأول عن قطاع السيارات

ليلة رحيل فلليني

فى فيات وبعض القادة النقابيين تشملهم لائحة المستهدفين من قبل الألوية الحمراء الجدد. العرض مستمر.

الموقف الخامس ـ أمر بالقبض على المهندس كارلو دى بنديتى[3] (الإيطالى اليهودى) صاحب مؤسسة أوليفتى، إحدى أكبر دعائم الرأسمال الصناعى فى إيطاليا، بتهمة التواطؤ فى جريمة رشوة تربو على العشرة مليارات من الليرات خرجت من خزينة المؤسسة إلى جيوب كبار موظفى وزارة البريد (التى تشمل إلى جانب البريد كافة وسائل الاتصال من تلغراف وتليفون وتليفزيون ووسائل النشر العامة). لا أثر للمهندس، لعله فرّ بطائرته الخاصة متوجهاً إلى باريس. شائعات عن تورط غريمه الأول إمبراطور تليفزيون القطاع الخاص فى إيطاليا سليفيو بيرلوسكونى[4] فى جرائم شبيهة. تكذيب واحتجاج. المهندس يقدم نفسه للعدالة بعد أيام ويعود إلى بيته فى نفس اليوم: حبس منزلى. العرض مستمر.

الموقف السادس ـ المسئول الأول عن قطاع الأدوية بوزارة الصحة يحصل وزوجته على رشوة بالمليارات من مصانع الأدوية لإضافة منتجاتها فى قائمة الوزارة المصرح بها. يتم القبض عليه. يسفر تفتيش بيت المسئول عن ثروة ذهبية جديرة بمهراجا، غير مليارات الليرات فى بنوك إيطاليا وسويسرا لحسابه ولحساب الزوجة. يسفر التحقيق عن قيام زوجة المسئول بالاتجار فى المخدرات الكيماوية، وعن قيامهما معاً فى الاتجار فى الدم الملوث. القبض على الزوجة أيضاً. المطالبة برأس وزير الصحة السابق، الذى يحتمى بالحصانة البرلمانية من اتهامات سابقة بالرشوة والفساد الانتخابى. الرأى العام ينقسم: هل من العدل استمرار حبس المتهمة وهى أم لشاب معوق فى حاجة إليها؟ نعم: لأسباب إنسانية. لا: لمسئوليتها عن مرض وموت عشرات ومئات الشباب من أبناء أمهات آخرين العرض مستمر.

الموقف السابع ـ تسريح العمال يتم بالآلاف والمظاهرات والإضرابات لا تنقطع. النقابات لا تسيطر على الموقف. الحكومة تواجه الأزمة المالية بفرض مزيد من الضرائب التى يتحمل أعباءها ـ كالعادة ـ الموظفون والعمال والمسنون والفقراء. البوليس يهاجم منازل المهاجرين ويلقى بهم في الطرقات. قطاعات كبيرة من الشعب الإيطالى تعتقد حقاً أن المهاجرين هم سبب البطالة والأزمة الاقتصادية فى البلاد حسب دعايات أحزاب اليمين. الاعتداءات العنصرية ضد المهاجرين الملونين تتزايد. العرض المستمر.

الموقف القادم ـ بداية محاكمات قضايا الرشوة وتطورات الصراع على السلطة. حزب الرابطة الشمالى يهدد بالانفصال عن إيطاليا وسحب أعضائه من البرلمان وإقامة حكومة محلية. قادة الحزب الديمقراطى المسيحى المتفتت يهددون باستخدام القوات المسلحة ضد الانفصاليين. القوات المسلحة ترفض الانصياع لأوامر قيادة سياسية فقدت شرعيتها. هل ستؤيد القوات المسلحة الانفصاليين؟ الذروة ■

(م. أ.)

هوامش:

١ ـ لويجى بيرانديلّو Luigi Pirandello : (١٨٦٧ ـ ١٩٣٦): كاتب ومؤلف مسرحى: حائز على جائزة نوبل عام ١٩٣٤. بعد بضعة مجموعات شعرية قدم أولى رواياته على نسق «الحقيقة»: (المستبعد ١٩٠١)، ثم واصل تعمقه فى مأساة الشخص المنعزل فى واقع غريب عنه: (المرحوم ماتيا باسكال ١٩٠٤: روايات قصيرة على مدار العام جُمعت سنة ١٩٢٢ وما تلاها). وقد تحقق هذا الاتجاه (الذى نظر له فى مقالته التهكم ١٩٠٨) فى المسرح التحقيق الأمثل. عبر تكنيك واع وقاس لتعرية وفضح نسبية الظروف الإنسانية، حتى وصل إلى التبادلية الممكنة بين حالة الجنون والحالة «العادية». وقد توصل إلى ذلك بواسطة شكل من أشكال العدمية اليائسة، التى عبر عنها مسرحياً بهيمنة «الظاهر»، وبالتحول من «اليقين» إلى ضده وبازدواجية «المسرح فى المسرح». من روائع أعماله: ليولا

١٩١٦، اعقل ياجاكومينو! ١٩١٦، هكذا (إذا شئت) ١٩١٧، القبعة ذات الأجراس ١٩١٧، لعبة الأطراف ١٩١٨، ليست مسألة جدية ١٩١٨، هنرى الرابع ١٩٢٢، ست شخصيات تبحث عن مؤلف ١٩٢٢، عمالقة الجبل (لم تكتمل) ١٩٣٧.

٣ ـ آلدو مورو Aldo Moro (١٩١٦ ـ ١٩٧٨): سياسى. انتخب سكرتيراً للحزب الديمقراطى المسيحى (١٩٥٩ ـ ١٩٦٥)، تقلد منصب الوزير عدة مرات، ورئاسة مجلس الوزراء (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨)، مبتدع سياسة يسار الوسط. وزير خارجية (١٩٦٩ ـ ١٩٧٤)، رئيس مجلس الوزراء مرة أخرى (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦)، رئيس الحزب الديمقراطى المسيحى اعتباراً من ١٩٧٦، ساعد على اشراك الحزب الشيوعى الإيطالى فى مسئولية الحكم.اختطفته الألوية الحمراء فى ١٦ مارس ١٩٨٧، وتم العثور عليه مقتولاً فى٩ مايو.

٣ ـ كارلو دى بنديتى Carlo De Benedetti : (١٩٣٤): قطب صناعى ورأسمالى. امتلك فى ١٩٧٦ ا«الشركات الصناعية المتحدة» CIR، وفى ١٩٨٧ تولى مسئولية «أوليفيتى» كرئيس لمجلس إدارتها ومديرها المفوض. بعد صراع طويل للسيطرة على دار النشر «موندادورى»، تمكن من ضم مجلة «الإكسبريس» وجريدة «لا ـ ريبوبليكا» إلى دائرة نفوذ الـ CIR.

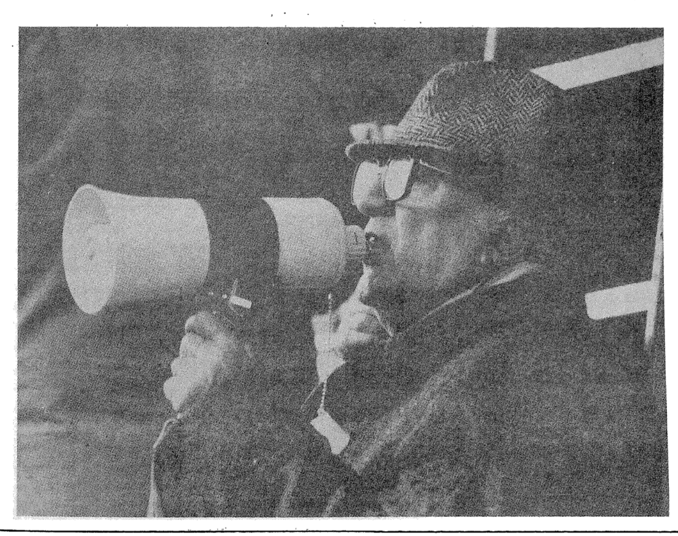
٤ ـ سيليفيو بيرسكونى Silivio Berlusconi : (١٩٣٦)، رجل أعمال، رئيس مجموعة «فينيفيست» Fininvest المالكة لثلاث قنوات تليفزيونية ذات بث على المستوى القومى منافسة لتليفزيون الدولة، غير مشاركتها فى عديد من القنوات الخاصة الاخرى ، وسيطرتها على جانب من وسائل النشر الصحفية (جرائد ومجلات) وإسهامها فى نشاط تجارى موسع على مستوى الجمهورية. أيضاً رئيس نادى «ميلان» لكرة القدم فى ميلانو .

قاود إخراج جزء آخر من فيلم **مذكرات مخرج**، دفتر الملاحظات الذى بدأ تقريباً بمحض الصدفة ـ فى برنامج تليفزيونى خاص عن فيلم **رحلة ج. ماسترونا** الذى لم يكتب له أبدا أن يرى النور ـ، ثم تواصل العمل فيه على هيئة تحقيقات صحفية فى مناسبات أخرى من تعاملى مع التليفزيون، كما حدث فى فيلم **المهرجون** وكما حدث مؤخراً فى فيلم **مقابلة صحفية**.

القصد فى الواقع هو تجميع «يوميات» سينمائية شديدة الخصوصية، تتضمن حواديت السينما ورموزها وطقوسها وفولكلورها، مروية ببهجة ومبهجة، ذات هدف مستور ضمنى غير مباشر لتقديم مرجع صغير فى فن السينما، مجموعة من الملاحظات التعليمية تشبع فضول الشباب المتزايد نحو هذه المهنة وتطفىء حنين الشيوخ الذى قد يستمر نحو هذه الظاهرة سريعة التغير فى مشاهدها وألوانها وأصواتها والتى أصبحت أسطورة.

الأمر إذن هو حكاية شاهد «منهم»، بنغمة حوارية غنية بالنوادر تصويرية ساخرة مفعمة بالإعجاب، لحكايات الرحلات الفنية والأحلام والحواديت الأسطورية والعشق والمغامرات المفاجئة ولقاءات ومصادمات ومشاكل العمل، هو اكتشاف عالم خيالى أرستقراطى، ثرثار يتم ولوجه عبر ستارة خلفية من الورق الملون، ليجد المرء نفسه محرك دمى وسط أنوار مضاءة عن آخرها.

ويتكون المشروع من سلسلة من ثلاث أو أربع أو خمس حلقات تليفزيونية تروى فيها حكاية المصابيح المضاءة والمطفأة فى هذا العالم الذى يتخيله المتفرج دون معرفة شىء عن: أبطاله وأماكنه وأحداثه وقصصه وعاداته ورذائله وتقاليده (أو أزيائه) وأدواره (أو وظائفه) وادعاءاته. ألعب أنا فيه دور المرشد السياحى فى هذا الكوكب، الذى أعايشه على تعاقب الفصول متجولا بعائلية فى متاهاته المتعددة المسالك والدروب،



لاستعراض جزيئاته وتجاويفه وكنوزه ومحابيسه وسكانه الأسطوريين.

من سبق له مثلا أن حكى لنا شيئاً عن المصور: فنان الإضاءة، باعث الأنوار، مدير التصوير، حامى حمى الكاميرا ومعدات الإضاءة، الساحر المتمتع بسلطة خفية وعاتية والمختفى وراء تابلوهات الإضاءة ومفاتيح مصابيح الـ «عشرة آلاف»؟

عندما بدأ اهتمامى بالسينما سواء كصحفى يجوب الاستوديوهات بفضول لعمل تحقيقات صحفية أم كسيناريست فيما بعد، كان «النجم» الحقيقى هو المصور: كان يتوقف عليه كل شيء. كان محترما مدللا مطبطبا عليه من المنتج. إذ كان بإمكانه هو ضمان إيقاع الفيلم، باختصار الوقت على الأقل. وكان هو الذى يحدد «الكادر». وهو الذى يقرر ماذا يمكن وماذا لا يمكن عمله.

باختصار، كانت فرقة العمل تعترف بالمصور كالرئيس الحقيقى الأوحد، الذى بيده السلطة ؛ الساحر القادر على إبعاد القتامة وإخراج النور من الظلمات بفرقعة من أصابعه أو بنفخة فى صفارته، مثل **بريتسى**، الذى كان يشبه نظار محطات السكك الحديدية. أتحدث هنا عن الأسطورة: **أنكيزى بريتسى**، أحد كبار مصورى السينما فيما قبل الحرب الثانية، وكان يمثل مع **كارليتو مونتوورى**، **وجايتانو أراتا**، **وماسيّمو تيرتسانو** رباعى إنجيل الكاميرا المقدس..

من الواجب إظهار هذه الشخصية المركزية فى السينما ، بعظمته ، وبعناده المحترم غير المحتمل سواء فى المواسم التى كان فيها بطلا أو تلك التى كان فيها مجرد عامل، وبهذيان جنون العظمة عنده فى الوقت الذى كانت فيه السينما نعيما لرأس المال الذى لا يفنى.

ومن الواجب أيضا إظهار حيائه، تواضعه، يقظته، عنايته الحرفية المكرسة لخلق الصورة . ثم من خلاله إظهار سر الضوء الغامض الجليل.

إذا كانت السينما هى الصورة فمن البديهى أن يكون الضوء

فن السينما

بقلم

فيديريكو فيلينى

دعامتها الأساسية الضوء فى السينما فكرة وعاطفة ولون وعمق وجو وأسلوب وقصة وتعبير شاعرى. الضوء هو القدرة السحرية التى تضيف وتحذف وتلطّف وتثرى وتبدد الحواف وتعظّم وتوحى وتضفى الأهمية وتجعل الخيالى معقولا ومقبولا أو تخلق على العكس جوا من الشفافية يبدو من خلالها الواقع الرمادى اليومى شاعريا حواديتيا.

بعاكس واحد وزوج من الحواجز الضوئية يبدو الوجه الأغبش، بقدرته التعبيرية التى لا تتجاوز قدرة رُكْبة، ذكياغامضا جذابا؛ والوجه السمين الطيب المسالم مشئوما مهددا مثيرا للفزع. وتحت الضوء يكشف أفقر الديكورات وأبهتها وأكثرها ارتجالا عن زوايا ومنظورات خلابة مثيرة. وبمجرد تحريك مصباح الـ «خمسة آلاف» وإضاءة آخر فى مواجهته يختفى كل إحساس بالقلق ويعم الصفاء والراحة والعائلية. باختصار ؛ بالضوء يُكتب الفيلم، وبه يعبر السينمائى الأصيل عن أسلوبه.

كم أود أيضا لو تمكنت من الحديث عن المنتجين كما عرفتهم شخصيا. بالمناسبة، أين ذهبوا؟ هناك من يتندر عنهم كالديناصورات التى اختفت فى أعقاب العصر الجليدى. **روفيرى، ريتسولى ، دينو دى لاورينتس نفسه، زانوك ، سيلزنيك** . أين هم؟ ومن الذى حل محلهم؟

أريد أن أعرفكم على بعض المنتجين الأمريكيين الذين التقيت بهم على مدار السنين. شخصيات أسطورية أخرى، آلهة «أوليمب» مختلف ، تحيط بهم غمامة من دخان متصاعد من السيجار الضخم كسيقان الخنزير المملحة. سراب ثروات مثيرة للعجب تشجع على الحلم بمشروعات مقدامة مستحيلة كالهلوسة. منذ عشر سنوات يدور الحديث عن دانتى وعن كوميديته الإلهية، وتسمع فيه أسماء **جوستاف دوريه ، وميكيلانجلو ، ولوكا سينيوريلى ، وجورج لوكاش ،** وشركة الإنتاج السينمائية **زويتروب**، والمؤثرات الخاصة الإلكترونية ، وشركة سونى بكل مخترعاتها التى تجاوزت المستقبل نفسه . وهناك فى انتظارى بموتوراتها الشغالة أسراب من طائرات الهليوكوبتر الجاهزة للإقلاع للقيام بجولة المسح على الطبيعة، للتوجه نحو الصحراوات سحيقة البعد، والبحار الهائجة كالغليان، ومخيمات الاستكشاف القطبية، والبراكين فاغرة الأفواه ، وفوارات «أيسلندا» البخارية: لقد تحول العالم كله إلى استوديو تصوير واحد مترامى الأطراف رهن إشارتى.

المنتجون الأمريكيون؟ استحالة مطلقة للعثور على أرضية مشتركة، أو اتفاق ، أو وسيلة تفاهم من أى نوع، أو تبادل فى وجهات النظر، أو حتى علاقة تآمرية مفيدة. الحلم الأمريكى الذى لا تغرب عنه الشمس فى الخلفية دائما. أمريكا برؤوس أموالها، بمنظماتها المتعالية، بتكنولوجيتها المذهلة، أمريكا القادرة على كل شىء.

إخراج فيلم عن أمريكا، أو إخراج فيلم فى أمريكا . كيف، ومتى؟

هل أستجيب لنداءات **دينو دى لاورينتس** التليفونية المتحمسة المتدفقة الحنون، عندما يوقظنى بانتظام فى عز الليل زاعما نسيانه لفروق التوقيت ليعيد على اقتراحه، كفكرة عبقرية أخاذة، بإعادة إخراج بنت **كنج كونج أو حرب الكواكب** للمرة الخامسة والعشرين؟ أم أستسلم لإغراءات «آباء المافيا الروحيين» الذين لا أعرفهم والمستعدين لفعل أى شىء بهدف إقناعى بالمغامرة فيما وراء المحيط ؟

أود لو حكيت عن سيرينيللا الجانجستر، المجرم الـ «إيطالو/أمريكانو» العجوز الذى كان قد عهد إليه بمرافقتى وحمايتى أثناء قيامى بمسح استطلاعى بنيويورك، وكان قد دُرِّب على إقناعى، وأمر

بإبهاجى، وبتحقيق كافة رغباتى، فى جو منحرف وتآمرى، بين ليتيل إيطالى وبروكّلينو («إيطاليا الصغيرة» و «بروكلين» كما ينطقها إيطاليو أمريكا)، والهيمنة الشاذة لسلطة غامضة شريرة.

ثم هناك المنتجون الإيطاليون الذى يفترض أن يتم الحديث معهم بلغة مشتركة، وباتفاق على نفس الأمور، وبمعرفة مسبقة لمدى الصدام، وبشكل محدد للموضوعات المسببة للخلاف الذى سيظل ناشبا لفترة ما فى الطريق المشترك بين الطرفين المتعارضين، كعاشقين غريمين.

ذلك الطابور من الشخصيات الملونة التى تطبع فى العادة عملية إنجاز الفيلم بطابعها، والتى تستعيد علاقات الصداقة فيما بينها دائما وحتما، حماة الفن والمبدعين، إنهم كزملاء الدراسة الذين يجدون أنفسهم متجاورين فى نفس الفصل مع مطلع كل عام دراسى جديد.

ثم ماذا عن التليفزيون، محتكر الإنتاج طوال عشرات السنين الجارية؟ كيف يمكن تجاهل الأطراف الجدد من الفئة الوظيفية التليفزيونية، أو اللغة والعرف السائدين حاليا، أو «عقود التشغيل»، أو توقيع «رئيس القطاع»، أو المقاولات المتداولة بين أيدى الطبقة الصاعدة بهمساتها خلال أجهزة التليفونات الهوائية المحمولة، وبطوافها خلال الممرات التى لا نهاية لها مزودة بخرائط لا تخطىء، أو الأبواب نصف المغلقة، أو موظفات السكرتارية الغوامض؟

كم من مرة تحدثت فيها عن الممثل خلال سنوات عملى؟ ومع ذلك ، ليس بما فيه الكفاية بقدر ما أود الحديث: هذا تصريح بالحب من محرك الدمى لمخلوقاته الرائعة.

المقابلات الصحفية التى سيتم الحصول فيها على الحكايات والحواديت الخيالية المختلفة، يمكن أن يكون مجالها خشبة مسرح جرداء فى صالة خاوية مغطاة بقطعة هائلة من المشمع الأبيض الذى يعطيها هيئة بحر هائج أو حقل مغطى بالجليد.

أريد استدعاء خمسة أو ستة ممثلين نموذجيين على خشبة المسرح، وباستفزازهم وتشجيعهم بأسئلة فضولية وجريئة إلى حد ما، فى ذلك الفضاء الساحر المصنوع من الظلمة المضاءة أجعلهم يتحدثون عن ذواتهم عن مهنتهم، عن علاقتهم بالجمهور، عن أحلامهم، عن عاداتهم الخفية، عن لوازمهم العصبية، عن اهتماماتهم الصبيانية الخارجية، عن غرورهم، عن عصبيتهم النفسية فى حالات أزمات البحث عن الذات وهكذا كى نتمكن من رسم صورة مطابقة، أو بتحديد أفضل لوحة ملامح نفسية للنمط الإنسانى الذى يجسده الممثل مستجيبا دوما لتلك الموهبة الدفينة الأسطورية التى تدفعه إلى التقنع، وإعادة خلق نفسه، والظهور بمظهر الآخر، ممثلا الحياة والموت أمام من يسمعه فى ثقة وبرغبة هائلة فى أن يكون كل مايراه حقيقياً.

ماجيرونى ، فيبومارى، جوستافو جورجى، مويسى: كانت هذه هى التوقيعات المكتوبة بميلان بخط متماوج على الصور الكبيرة التى كانت تحتوى وجوه شخصيات ذات تعبيرات قاسية، وعيون مضيئة، وابتسامات مريرة، وملامح متغطرسة، وشعور مرسلة سائحة تغطى الأكتاف أحيانا، تماماً كشعر ماجيرونى فى **الأشباح**.

هذه الوجوه الملكية الرومانتيكية، كانت تظهر فجأة ذات صباح شتوى، فى العادة قبل أعياد «الكرنفال» مباشرة، على واجهات المنازل، وخلف فترينات القهوة التجارية، وفى الميدان وفى المحطة، وتطل علينا من عليائها دون أن ترانا، كآلهة يستحيل الوصول إليها، واعدة بأنه من المحتمل حقا، أن تأتى للقاء بنا، متجسدة. هبة السماوات إلى مدينتنا الصغيرة الفقيرة الناعسة المنسية. ذوات خارقة للطبيعة، جنس آخر، وها هو ذا فندق الأسد الذهبى الذى

يستضيفهم لعدة ليال يأخذ بعدا أسطوريا كالأوليمب.

لم يمكنني أبدا تخيل حياة للمثل بعيدا عن خشبة المسرح أو شاشة السينما البيضاء ولقد أسعدنى الحظ يوما برؤية **ماجيرونى** واقفا على قدميه أمام بنك الطوانى دوفيزى، بتلفيعة بيضاء حريرية كبيرة، وقبعة رمادية لؤلؤية على رأسه ، وبمكياج خفيف في وجهه، وكان يرتشف من خلال مصاصة من القش شرابا مدخنا في كوب صغير ذى أذن فضية، أخبرنا الجارسون فيما بعد أنه مشروب «البنش» باللوز.

فإذا كنت قد حصلت على فكرة فيما يتعلق بحياة **ماجيرونى** بعيدا عن خشبة المسرح ، فماذا عن الباقين ؟عن كل الآخرين ؟ حين يمحو الستار الأحمر الكبير العجائب التى رأيناها ، وتنزل فى الصالة الأنوار الرقيقة على وجوهنا الفقيرة المعتادة ، أين يذهب المثلون جميعا ؟

هذا التخيل الغامض بحياة لا واقعية للممثلين ظل عندى حتى الآن فى علاقاتى بهم ولا يؤسفنى ذلك . بل أعتقد أنه مفيد لى فى عملى . يبدو لى أنى أفهمهم بشكل أفضل ، وأنى أتفق معهم على مستوى شديد الخصوصية ، سرى .

أريد إذن ، لو كان من الممكن ، أن أقابل وأجرى تحقيقا صحفيا مع سالفو راندونى ، رمز الممثل المسرحى ، المفسر العظيم ، الوسيط الروحى ، الطوطمى ، محبوب الجماهير ، المحافظ على أعرق تقاليد : **إيرميتى زاكّونى ، روجيرو روجيرى ، ميمو بيناسّى ، رينتسورتيشى ، ثم فيتوريو جاسمان** . ثم الممثل/ النجم **مارتشيلّو ماسترويانّى** . ثم **جولييتّا مازينا** كنموذج للممثل الأسلوبى ، المهرج الأبدى ؛ ثم **بييترو دى فيكو** أو **بوبيللا مادجو** ، أو أحد ممثلى القناع النابوليتانى التاريخى **بولتشينيللا** صاحب التقاليد التى توشك على الغروب ، الوحيدة القادرة على منافسة المسرح الشكسبيرى العريق .

أريد أن أتمكن من اكتشاف ما الذى يعنيه بالنسبة للممثل : الجمهور ، الصالة المعتمة ، المرآة ؟ ماذا تعنى الميدان والجبوت ؟ الرحيل ، القطارات ، الجولات الفنية ، المغامرات العاطفية ؟ ماذا عن الذاكرة والمكياج ؟ ماذا تعنى الظلال ، التى غالبا ماتسبقنا نحو الشيخوخة ؟ ماذا تعنى الشيخوخة نفسها ؟

وماذا عن الطقوس المعتادة المبجلة بقدر تفاهتها فى رحلة البحث عن أماكن التصوير الخارجى ؟ إن فائدتها الوحيدة هى فى اكتشافك لبعض المزارع التى تحسن طهى العجة ، أو بعض المحلات التى تقدم «بيتسا» جيدة بالمورتاديلا الحقيقية .

ثم هذه هى فرقة العمل وقد اختصرت إلى حدودها الضرورية ، تستولى على المدن ؟ والريف ، والقرى ، والبروج ، والكفور ، وعلى كافة السكان ، بالعنجهية المتعجلة المميزة للعمليات العسكرية . يبدأ العمل بمقايسة سريعة ، ثم بنظرة ثاقبة تتم التقديرات الحيوية ، ثم تؤخذ القرارات المهمة : توزيع الأماكن والمهمات جغرافيا ، التموينات الغذائية ، النقل والمواصلات ، الإمدادات ، إمكانية وكيفية العثور على الكومبارس . ثم التخاطب بين أعضائها بلغوة المهنة بخطورة وباحتداد لإذهال السكان المتعرضين للغزو ، التى تتم إقامة علاقات صداقة رفاقية مرتجلة معهم ، باسم المصير البطولى المشترك الذى لا أدرى لماذا يجب على الآخرين مقاسمتنا فيه .

إنها السينما ، التى تصل دائما كجحافل **تيمورلنك** بهيئة من يملك سلطة التفتيش والاستيلاء والتسيد واحتكار النساء واستعباد الرجال .

البحث عن مناطق التصوير الخارجى خطوة لابد منها فى رحلة الإعداد للفيلم ، مرحلة تحظى

بتصفيق الجميع وإن كانت فى أفلامى ذات قيمة نسبية ، حيث يجرى تصويرى الخارجى كله فى أوستيا ، وتروفايانيكا ، أو على أكثر تقدير فى الحقول المتاخمة لـ «مدينة السينما» .

هذا البحث الاطلاعى يمكن أن يستمر طويلا داخل أسرار وألوان مهنة قائمة على المراحل ، والدرجات ، والتراكم المتعاقب .

فهناك جلسة السيناريو، عندما كانت الموضة تحتم وجود السيناريست الأمريكى الجاهل تماما باللغة الإيطالية لكنه هو المفضل بلا جدال عند الـ Majors شركات الإنتاج الكبرى المقتدرة.

ثم بناء الديكور، تحت القيادة الضابطة للمدير الفنى، من تصميمات وورق شفاف ، وارتفاعات، ومصاطب، وأرضيات، ورسومات المساقط المتناثرة كالخرائط الاستراتيجية على موائد كيلومترية يقطع امتدادها بين الحين والحين كالمحطات: نماذج مجسمة من البلاستيك، ونماذج من الجبس اللدن، وموديللات ، تماما كما يحدث عند إعادة بناء أمة بأكملها.

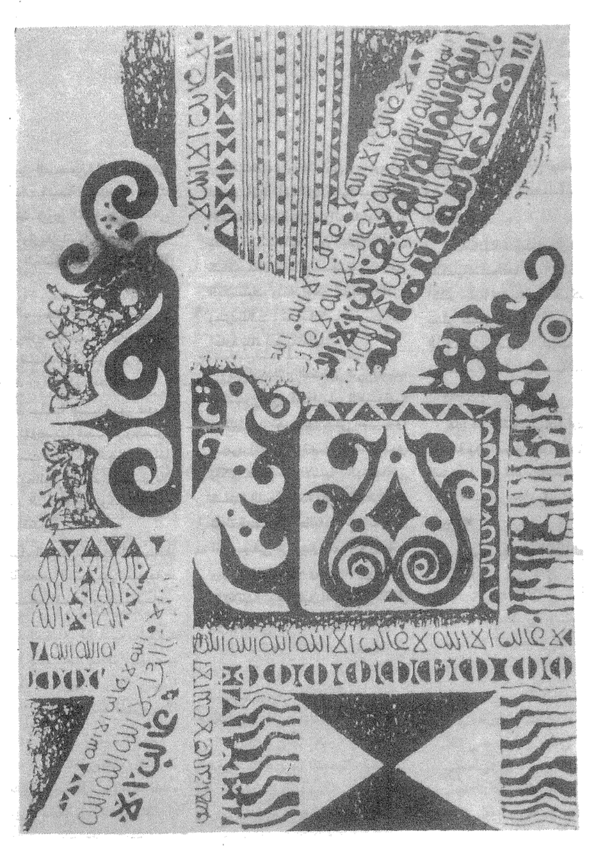
ثم الدوبلاج الصوتى فى الفيلم، المنسوج من التوازنات الصوتية لممثلين قد تضاءلوا حتى أصبحوا مجرد أصوات، تصبح فجأة أقوى وأكثر حيوية من الأشباح الهائجةعلى شاشة التحكم، كالهاربة من فيلم قد تم تقطيعه إلى حلقات ، ثم تسجيل الموسيقى فى جو الصالة المبطنة، والنوت الموسيقية، ومدير الأوركسترا، والآلاتية، وعازفو المنفرد والأفكار التى تتحول فجأة إلى نوت، وتيمات، وميلوديات أوركسترالية، ومصاحبات.

هذه كلها فصول من قصيدة ملحمية ستجدها فى الغالب مبهجة أكثر منها بطولية، لو حركت بقدر يسير منشور الرواية الضوئى متعدد الوجوه، مغيرا الموقف، والنظرة ووجهة النظر، ودرجة الحرارة الانفعالية.

هذا هو بالتقريب ما أود عمله: دردشة بين أصدقاء موجهة لأصدقاء السينما التى تظل، بالنسبة لى على الأقل ، مهنة رائعة، وفريدة ، وشبه إلهية. ■

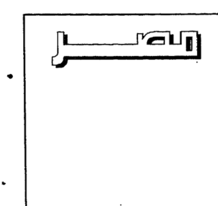
ترجمها عن الإيطالية:

م . أ



لوحه للفنان : أحمد عز الدين


الاشارات والتنبيهات



[على مبارك] رائد التحديث في مصر

(«على مبارك» رائد التحديث في مصر) هو عنوان الندوة العلمية التي عُقدتْ بقاعة مكتبة المجلس الأعلى للثقافة، في إطار احتفالات الذكرى المائة لوفاة هذا المعلم والتربوى الكبير (١٨٢٣ - ١٨٩٣) وذلك في الفترة ما بين ١٤ - ١٦ نوفمبر الجارى.

اشتملت الندوة على مجموعة من الجلسات تمَّ خلالها عرض ومناقشة البحوث المقدَّمة من المشاركين، والتي بلغت سبعة عشر بحثًا ومداخلة، تناولت بالتحليل الفترة التي اضطلع فيها على مبارك بالنهوض بالسياسة التعليمية المصرية، والتداخل بين الأوضاع السياسية وفرص التعليم المتاحة أمام الشعب، كما تناولت نشأة الرجل وفكره وأهم إنجازاته قبل وأثناء الاحتلال البريطاني لمصر.

اشتملت الندوة أيضا على جلسة موسعة من جزءين تحت عنوان «المثقف والدولة» جاءت ختاما للجلسات المنعقدة خلال يومى الاحتفال، أدار القسم الأول منها يونان لبيب رزق وضمت كلاً من مصطفى الفقى، فؤاد زكريا، سمير سرحان، أحمد حجازى، أسامة الغزالى حرب، مفيد شهاب وهالة مصطفى.

كما أدار القسم الثانى جابر عصفور وضمت كلاً من غالى شكرى، على الدين هلال، مراد وهبة، لطفى الخولى، حسن حنفى مكرم محمد أحمد، فوزى فهمى وأحمد أبو زيد.

وقد تناول الأساتذة المشاركون دور المثقف العربى داخل الإطار المدنى الحديث، بدءا من تعريف الثقافة المختلف عليه باختلاف النظام القائم ومدى الحاجة إلى إعلاء المفهوم أو الحاجة إلى الحطِّ من شأنه كما تمَّ التعرُّض لطبيعة العلاقة بين السياق العام المركَّب بأوجهه المتعددة، الذى يخضع فى الغالب لاعتبارات بعيدة عن الصواب المطلق أو المثالية، وبين الإطار المثال الذى يتحرك داخله المثقف بسببٍ من إغفاله للخيارات المتاحة، نقطة أخرى تمت مناقشتها وهى خاصة بالحيز المسموح به للمثقف من قبل الدولة فالدولة أو المؤسسة هى التى تقوم بالاتفاق على أماكن ومعاهد البحث ووسائل الخدمات الثقافية لكى تنتفع من هذا العقل التى ساهمت بمواردها فى صناعته واكتماله، فالعقل أو المثقف لابد له من عقد علاقة تبادلية بين فرص التحصيل وفرض التواجد وبين الانضواء فى السياق العام والمساهمة فى تقدّمه.

رائد التعليم القومى

دارت معظم البحوث المقدّمة، حول إنجازات على مبارك فى مجال التعليم وما ارتبط بها من مواقف وسياسات جاءت فى معظمها طليعية، وفى نفس الوقت يمكن تنفيذها بأقل قدر من النفقات، كما تناولت هذه البحوث أهم الصعوبات والمشكلات التى واجهت الرجل فى طريقه لتطبيق سياساته وأفكاره.

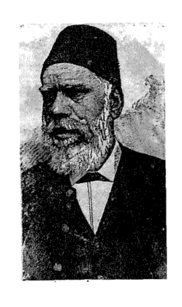
وقد تمثلت السياسة التعليمية لعلى مبارك فى العمل على إنشاء نظام قومى للتعليم يستمد عناصره من كلا النظامين، الحديث الممثل بمدارس الحكومة والقديم الممثل بالمكاتب والكتاتيب الأهلية بحيث يتم التوفيق بين حاجات الحاضر وماضى الأمة، بين النظام التعليمى الحديث والنظام التعليمى الأهلى.

وكانت فكرة على مبارك فى نشر التعليم القومى قائمة على أساس عجز الحكومة وحدها عن النهوض بعبء القيام بالتعليم، ومن ثمَّ فلابد أن تنهض به الدولة كلها حكومة وشعبا، وأن تتبوفّر له إلى جانب ميزانية الحكومة المحدودة ميزانية شعبية تقوم الحكومة ببعض أعبائها المالية، ويقوم الشعب بتوفير باقى النفقات.

فى نفس الوقت كان يرى إلى التعليم باعتباره أداةً لخدمة الشعب وتربيته تربية سياسية تساعده على فهم حقوقه وواجباته، لا على أنه وسيلة وأداةً تعد للحكومة الموظفين فحسب، كما دعا إلى أن يكون الدخول إلى المدارس دون استثناء، مسلم أو مسيحى، غنى أو فقير.

وقد ظل على مبارك على رأس الإدارة الخاصة بشئون التعليم فى مصر فى عهود مختلفة شاغلا مناصب متعددة، فقد أشرف فى عهد عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) على شئون التعليم فى المهندسخانة. وملحقاتها (مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية) مدة أربع سنوات مساهما فى ارتفاع مستواها التعليمى وتطويره، كما تولى فى عهد الخديوى إسماعيل وظيفة ناظر المعارف لثلاث فترات ثم شغل وظيفة وكيل ديوان المعارف ووظيفة مستشار لناظر المعارف بالإضافة إلى نظارته لديوان المكاتب الأهلية. وفى هذه الفترة لعب على مبارك دورا رئيسيا فى تنظيم التعليم وإنشاء المدارس الجديدة مثل مدرسة اللسان المصرى القديم ومدرسة المساحة والتلغراف ومدرسة دار العلوم، كما أنشأ خلال تلك الفترة دار الكتب المصرية.

وأثناء الاحتلال البريطانى تولى على مبارك نظارة المعارف لمدة ثلاث سنوات توفر خلالها على النهوض بالتعليم وتوسيع نطاقه بالاهتمام بالتعليم الأولى فى الكتاتيب والعمل على الرقى بها وتنظيمها سواء فى مكاتب المعارف أو الأوقاف أو الكتاتيب الأهلية، كما اهتم بتوفير معلمين على مستوى جيد للنهوض بمستوى التعليم. ويُعدُّ مشروعه فى التعليم القومى المعروف بلائحة رجب (١٨٦٨) أهم إنجازات على مبارك فى ميدان التعليم وقد تناولت هذه اللائحة مصادر الانفاق على المدارس



والمكاتب من موارد مختلفة منها ميزانية الدولة وريع الأوقاف وتبرعات الأهالى كما تعرضت لأغراض التعليم والتوجيهات التربوية للمعلمين حتى يفي التعليم بالغرض المطلوب منه وتحقق التربية أهدافها، ونصت اللائحة أيضا على أن تكون جميع المدارس تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة، وامتحانات سنوية ومتابعة من تفتيش المعارف وبذلك أصبح التعليم مطلبا وطنيا على يد على مبارك الذى رأى فى توسيع قاعدة التعليم فى مرحلته الأول وتيسير التعليم فيها مع تحسين مادة التعليم وطرائق التدريس أفضل توظيف للتعليم فى خدمة النهضة والحضارة.

كذلك تصدى على مبارك للعديد من مشكلات التعليم التى واجهته فى تلك الفترة واستطاع أن يصل لحلول لبعض المشكلات بينما استعصت عقبات أخرى على التجاوز بحكم الظروف العامة للمجتمع وكان من بين هذه العقبات، موضوع التعليم الأجنبى الذى قام فى مصر مستظلا بالامتيازات الأجنبية، دون خضوع لسياسة الدولة، وغير ومعنى إلا بنشر ثقافته الأجنبية.

كذلك كان على مبارك يرى فى نظام التعليم الدينى بالأزهر نظاما جامدا لا يفى بحاجات العصر ولا يتناسب مع متطلبات المجتمع، فقد كان تدريس العلوم الحديثة كالكيمياء والتاريخ والرياضيات محرما فى الأزهر الذى انحصرت دراسته فى علوم اللغة والدين مع قفل باب الاجتهاد، لذلك انصرف عن الأزهر إلى محاولة إنشاء نظام تعليمى بديل يقوم على أساس الثقافة الإسلامية، مع الإلمام بعلوم الحضارة الحديثة وتمثل هذا النظام التعليمى فى مدرسة دار العلوم.

ومما يحسب لعلى مبارك من إنجازات دوره الكبير فى تعليم المرأة وإنشاؤه أول مدرسة لتعليم البنات فى عهد الخديوى إسماعيل وهى مدرسة السيوفية، التى عُرفت فيما بعد باسم المدرسة السنية.

إن الاحتفال بالذكرى المائة لوفاة على مبارك يُعَدُّ مقاما مناسبا للبحث فى سياسات التعليم الحالية ومدى ملاءمتها لمتطلبات الواقع الآنى، كذلك متابعة التجارب والمقترحات التى توضع موضع التنفيذ وتقييمها، للوصول إلى نسق تعليمى يعالج الانفصال الحادث بين المؤهل الذى يحمله الفرد وبين قدرته على المشاركة فى مجالات الحياة المتعددة. ■

كريم عبدالسلام

مــأسى المهمــشين

ثمة اصوات جادَّة طازجة وواعية .. تنضم لموجة كُتَّاب جيل الستينيات الذى جدَّد واصَّل واغنى فن الرواية المصرية الجديدة المعاصرة وجعل منها بانوراما موسعة وعريضة تقرا وتنقد وتحلل التحولات التى مست اللوحة الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والمجسَّدة لصعود وانكسار وازمات وتناقضات ثورة ٥٢ .

إن قدراً خلاقاً من الرؤية الروائية المستقبلية والاسلوبية التعبيرية الحافلة والمسلحة بكل اساليب التغيير الحديثة والمستفيدة من فنون التصوير والموسيقى والسينما والشعر والدراما ؛ كل ذلك يشكل مساراً روائياً يطرح سؤالاً مرهقاً يحكم كل هذه الروايات .. يتعلق بجدل العملية الإجتماعية فى مرحلة الانهيارات والتبعية والمهادنة ، وسيادة نظام حكم يتبدى فاقد الهوية والصلاحية على الاستمرار .. هذا السؤال الاساسى الذى تطرحه موضوعات هذه الروايات الجديدة .. هو : ما هى حياتنا وما يجب ان تكون عليه ؟؟

ومن انشط الاصوات الروائية الشابة التى اتيح لى التعرف على إبداعها الخلاَّق المتجدد تجدد حياتنا وهمومنا .. محمد المنسى قنديل ، ومحمود الوردانى ؛ صلاح والى ، رضا البهات ، خيرى عبد الجواد ، مصطفى نصر ، سعيد عبد الفتاح ، احمد زغلول الشيطى ، حجاج حسن ادول واخيراً ربيع الصبروت .

ونتوقف هنا عند إسهامات - ربيع الصبروت - ربما لانه يحقق لحد ما وبداب فى كلية أعماله القصصية والروائية ، بصيرة ورؤية واعية ذات مفردات جمالية واقعية تشكل اسلوبه التعبيرى وصوته الخاص ، ويكثف عن قدر من فهم واستيعاب تحولات وانهيارات الواقع الاجتماعى والسياسى والأخلاقى ، ويرصد ويصور حياة وعذابات ومصائر المهمشين المغمورين البسطاء فى قاع السلم الطبقى فى مجتمعات بشرية تقع بين المدينة والقرية ، وتتبدى نماذجه وشخصياته حيَّة ونابضة بعراقة وعبق تراث وتقاليد الحياة الشعبية بمثلها وقيمها وأساطيرها واعرافها ... غير انه ينحو فى نهجه الواقعى نحو شىء من الفوتوغرافيا التسجيلية ويتجنب الفانتازيا فى تصوير لا معقولية وعبث حياة ضيقة الافق روتينية تتنفس الضجر والملل واللا مبالاة

وحصيلة رحلته الإبداعية .. ثلاث مجموعات قصصية ١ - الماء - ٢ - انكسار الروح - ٣ - المبتسم دائماً ورواية قبض الجمر .. وهى من منشورات جماعة شباب جاد ينشرون على نفقتهم الخاصة تسمى جماعة نصوص ٩٠

غير انه يصل إلى النضج وإحكام الصنعة والسيطرة نوعاً ما على موضوعه الروائى وأدواته التعبيرية فى روايته القصيرة العذبة [على هامش النصر]

وعندما نتامل دلالة ورمزية العنوان [على هامش النصر] فسوف ندرك على الفور بداية القصد الدلالى والمعنى البعيد الهامس المتعدد المستويات والرؤى للموضوع الروائى ، وقضايا الحياة السوسيولوجية والسياسية والاخلاقية والمصيرية التى طمحت هذه الرواية القصيرة لتشيدها وتجسدها بالصورة والرمز فى واقعية نقدية رحبة وإنسانية تصور وتجسد ملهاة ومأساة حياة الإنسان المصرى المغمور المهمش الغارق والضائع والمستهلك فى دوامة وسطوة الحياة اليومية ، والسعى المجهد من اجل الرزق والاستمرار الغريزى فى قاع السلم للمجتمع الوثنى

فالرواية تحكى وترصد وتقدم فى وعى وبصيرة حياة ومثل وقيم المهمشين التعسة البعيدة عن السعادة والاطمئنان والاستقرار والفرح رغم انها تنتزع من براثن المجهول والفقر والمهانة طقوس سعادتها وافراحها ، وتسعى للتواصل الإنسانى ودفء العشيرة والاهل والاستمرار وتجاوز القيود .. هى حياة مجموعة من الرجال والنساء والاطفال المغمورين .. يعيشون ابداً فى مجتمعات تقع على الحافة بين المدينة والقرية تختلط وتتمازج بمتناقضات الحياة واساليب المعيشة والتقاليد بين القرية والمدينة .. فى هذه الحافة النابضة بالسعى والاحلام والانكسارات والصراعات بين المصائر .

هذا ما يقصد به تعبير على (هامش) اما المقصود (بالنصر) فهو انتصار المهمشين على مستغليهم وقاهريهم .. فبرغم عذابات وويلات الصراع وانكسارات الاحلام وحصاد المهانة والذل لمجموعة المهمشين الفقراء الذين تتعرف عليهم فى انماط ونماذج روائية رسمها الكاتب باقتدار وحيوية ابرزهم (الراوية) الذى يسرد ويقدم وقائع واحداث ومكونات (الرواية) وابرز نماذجها وهو (محاسب) يعمل فى احد مصارف المدينة وهو من ابناء الناحية الذين اتموا

تعليمهم بصعوبة رغم قسوة الظروف هو واحد من مجموعة صحاب ورفقة ارتبطت حياتهم منذ الطفولة والصبا وجمعتهم مرحلة الدراسة الابتدائية .. التى يسهب (الراوية) فى وصف تقاليدها وصرامتها فى معاملة التلاميذ وقتل مواهبهم البكر ، وعبر هذا التقديم نتعرف على ابرز ابطال الرواية حيوية وصخبا وإنسانية وشعبية .. (فرج) نموذج المصرى الفهلوى اللماح الذكى ابن البلد المتمرد على القيود والظروف والقهر والمطاردة والمحمل بروح السخرية والتحدى والفروسية ، وهو محور احداث ونسيج العمل الروائى .. فهو بحركته وتحديه للقهر ومغامراته وتلقائيته ومجونه وعبثه وشهواته يشكل بؤرة الحدث الروائى . الذى تتوزع آلياته وتشكيلاته .

(فرج) منذ الطفولة متمرد ، دائما ما كان يتشاجر ويتهجم على المدرسين ويدخن ولا يمارس الانضباط .. يردد دائما « انا احب ان اقول من دماغى واعمل اللى فيه ! إنما حفظ الكتب ده تقيل وسمج » ولم يكن يحضر من دروس المدرسة إلاّ درس مدرسة الرسم التى يحبها وتحبه وتقبله فى شهوة .. كذلك درس الموسيقى ، ولتسيبه وفوضويته لايتم التعليم .. فيترك الدراسة فى المرحلة الإعدادية ، وينغمس فى هدير الحياة السفلية .. يتاجر فى كل شىء : الكراسى الخيزران والفاكهة ... دائما مطارد من كل مكان يقف به مع بضاعته حتى يستقر فى الكشك مع بقية الصحاب من الباعة الجوالين الضائعين امام المحطة .. وهو .. يدخن الحشيش والخمر ويتزوج من امراتين ، ويفضل الصغيرة ويتغنى بممارسة الجنس معها ، ومع نمو (فرج) فى السن والخبرة وعراك الحياة يصل إلى ذروة التمرد التلقائى والغريزى السياسى فى تعرية وكشف بشاعة نموذج الاستغلال الطبقى والقهر السياسى والذى يتحالف مع البوليس متجسداً فى شخص (صفوت بك) سليل بقايا الأسر الإقطاعية التى لم يقض على نفوذها وسطوتها قرارات ثورة ٥٢ ، وهو صاحب العزبة والأراضى الواسعة المحاطة بالأسوار العالية والمقيم فى فيلا صارخة الأناقة وسط اكواخ وبيوت الفلاحين والعمال الواطئة السقف ، (فرج) يتصدى فى شجاعة وفروسية (لصفوت بك) ويقود المهمشين والفقراء ضده ، و (صفوت بك) تسلل لحزب السلطة والثورة المضادة وفرض نفسه نائباً للناحية ، ينجح اربع مرّات بالتزوير والرشاوى واستخدام قوى الامن ... ضد كل هذا يقف (فرج) فى إحدى الاجتماعات السياسية ويهاجم (صفوت بك) بل ينجح فى إقناع الأهالى باختيار مرشح منهم يتصدى (لصفوت بك) وينافسه ويكاد يفوز ، ورغم ذلك يكسب بالتزوير والقهر (صفوت بك) الدائرة .

ويساند (فرج فى تصديه (لصفوت بك) (ممدوح) عبقرى الخط العربى منذ طفولته فى المدرسة والذى دفعه فقر والديه ورغبة (صفوت بك) فى استخدامه لكتابة يفط الانتخابات السابقة إلى ترك الدراسة ويبدو ان (ممدوح) نظر لاعلى فقد احب ابنة (صفوت بك) رغم تعاليها وعجرفتها ... ويوما ما سيكتشف ممدوح مدى الإهانة والإذلال لكرامته عندما يكتشف ان ابن (صفوت بك) حاول الاعتداء على إمه التى تعمل فى خدمة (صفوت بك)

إن كلا من (فرج) و (ممدوح) وقد ضاعت واغتصبت عدة قراريط من ملكية الأرض استولى عليها أصحاب النفوذ واعوان (صفوت بك) .. وفقدا القدرة لإثبات حقهما القانونى .. كل هذا القهر يجعل من كل منهما رمزاً للتمرد والسخط .. ولكنهما يجسدان منارة يتجمع حولها الأهالى المسحوقين من مطاردة وقهر قوى الامن التى تسجن وتعتقل كل من يتجرا على إعلان سخطه ، بجانب سطوة رجال الليل وفرضهم الاتاوات على الأهالى ومساندتهم (صفوت بك) .

فى ظل هذه العلاقات الاجتماعية المهترئة يواصل المهمشون حياتهم ، يتزوجون وينجبون الاطفال ويتجمعون فى الموالد ، ويتساندون فى المآسى التى تنزل بالبعض منهم ، ويقيمون الأفراح ويختلقون المتعة والتسلية لينسوا الامتهان والذل الذى يعيشونه فى مجتمع طبقى رغم الشعارات الضخمة الزاعقة عن العدالة والحرية والاشتراكية

إن الكاتب يرسم لوحة لتفكك مجتمع يعيش فترات الانتقال الحرجة ، وتفشل فيه مشروعات الإصلاح من اعلى غير انه يقدم هذه التراجيديا بشكل وصفى ... وبواقعية تسجيلية صارمة لم تتغلغل فى مصائر الشخصيات وعكسها جدل الصراع الطبقى فى التحام المصير الفردى مع الجماعة ... إنه فى كثير من بنائه السردى يقدم الواقع كمعطى جاهز ... مستوفياً الشروط ، غير صاخب بالحركة والتعدد والتناقض ، فيتبدى فى بعض الفصول مباشراً زاعقاً

ولن نغالى فى إيراد التفاصيل عن حياة هذه المجموعة من المغمورين ... والتى يدفع (فرج) و (ممدوح) فاتورة الحساب عن استغلالها ، فهم يخرجون من السجن بعد ان

اهان (فرج) (صفوت) واعتدى عليه أمام الأهالى واشبع غريزتهم فى الانتقام وجسّد لهم عملية التحول من القهر والتبعية إلى إدراك قانون استغلالهم فتجمعوا متحدين واسقطوا (صفوت بك) فى الانتخابات مما ادى إلى اصابته بالقهر والحصار والموت كمداً أخيراً ، وهذا هو (هامش النصر) والدلالة المجازية لعنوان الرواية .

لقد التف الباعة حول (فرج) الذى تحسس جيوبه كانما تذكر شيئاً ، توجه إلى جهاز التسجيل الموضوع على فاترينة السجائر واخرج شريطاً دسه فى الجهاز بحرص وادار مفتاح الصوت ، وعاد مكانه ، وانطلقت اناشيد واغان وطنية الجمتنا وارتعشت لها جلودنا [ع الدوار .. ع الدوار دقت ساعة العمل الثورى بكفاح الأحرار]

غير ان قوى القهر لا تتوقف عن معاودة هزيمة أحلام الأهالى وتنقض عليهم بالمطاردة . وتعتقل (فرج) و (ممدوح) بتهمة الشغب والقتل ويسود الجو المريب من المطاردة وتهدد زوجة (صفوت بك) بانها ستترشح نفسها فى الانتخابات فى دائرة زوجها كدليل على استمرار قانون الاستغلال والقهر . وتنتهى الرواية بالهزيمة والانكسار وانتظار الخلاص .. وتجسدها بدلالة شاعرية إنسانية عبارات الراوية (المحاسب) الذى بدأت به الرواية وها هى تنتهى به [كنا ننتظر تغييراً او عفواً يختصر مدة السجن ، وقد سمعنا انه ربما يفرج عن (ممدوح) فى أول مناسبة قومية قادمة ! وكان عيد الثورة ولم يخرج ، ونحن فى حالة الانتظار التى طالت ، حصلت على عقد عمل بالخارج ، كنت اقف على الرصيف بحقيبتي وأوراقى ، مهموماً من اغتراب قاس وشعرت بانقباض ، واشتغلت نفسى توزنى للنكوص وإلغاء السفر ،

واحسست بانى اساوم (وماذا تفعل فى النقل التعسفى المفاجىء إلى الحدود ؟! وما بال التشدد الصارم من رؤسائى فى الفترة الأخيرة ؟ وما ذنب الأقربين إذ شتتوا بسببى ؟!)

واقفاً على الحد اناضل حتى تعبت [مع اول موجة لطمت مركبى ، فى أول بعاد ـ آنشق قلبى ، وريقى جف ، وآل ماشى غضبان !! وانا اللى ياما بكيت وصرخت ، لجل الحال يتعدل ، وانهزمت ثم قمت وانهزمت ، قليه يا قلبى انخطفت .. وفزعت ، كما الطير سمع أسر ! وشفت كالهرم ، حب هاجم ياكلنى ، فالتفت ومسحت ما نزل ثم قلت ! يا بنت الإيه يا بلدى !!!]

هذه العبارات الحزينة ترثى ضياع أحلام جيل الثورة الذى انكسرت طموحاته مع حصاد الثورة المضادة وانقلابها على المشروع الناصرى .. وسيادة المهادنة والتبعية وتردى الواقع السياسى والأخلاقى وانتهت به الأحلام الضائعة وخيبة الأمل إلى السجن ، والهجرة إلى مدن الخليج .. مدن الملح

وهى بذلك رواية تنضم لكثير غيرها من روايات جيل الستينيات التى ناقشت وحلّلت وصوّرت التاريخ السرى والحياتى لصعود وهزيمة ثورة يوليو ٥٢ .. التى يبدو انها شاخت ... غير انها تبشر بحياة يتخلق فيها بذرة ثورة جديدة تمسح الادران والاوحال عن حياتنا .

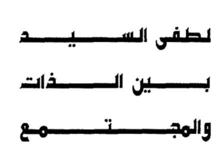
وربما يقال أن قراءة وتصوير مآسى وأحلام المهمشين المغمورين .. ملح الأرض من أهالى المدينة والريف وصراعهم مع مستغليهم ، وقوى القهر .. بجانب الوعى ببقايا وبرواسب الندوب والتشوهات الأخلاقية والاجتماعية التى مازالت تعانيها

حياتنا رغم الثورة وما أحدثته من تعديلات طبقية فى نسيج العلاقات الاجتماعية ربما يقال إن هذا موضوع مستهلك مكرر تناوله ومعالجته عند العديد من أجيال الروائيين ، غير أن (ربيع الصبروت) ورغم عدم عمق فهمه لتطورات وآليات الواقعية الجدلية ... فقد حقق فى بعض أجزاء ومشاهد الرواية تقديم لوحة الصراع الاجتماعى برؤية شمولية لحد ما ، رحبة غير إجرائية او آنية او جزئية تتحدث عن مجتمع محدَّد وبيئة محددة وزمن محدد واشخاص محددين ، بل حاول أن ينطلق إلى التعميم من الجزئى إلى الكلى ، والآنى اللحظى إلى المتحول المتغير المستمر ... إنه يرى الغابة رغم توقفه عند الشجرة .

إن نوعيات الصراعات والصدام بين الفقر والثروة ، بين معاناة القهر والتسلط والرغبة المستحيلة فى الحياة الآمنة ، بين البراءة والنذالة ، بين القاع والقمة ، تقدم هذا لحد ما فى بعد إنسانى شمولى وحتى يجعل قضايا النضال والتمرد والحرية والبحث عن عدالة مفتقدة ، والتسامح ... قضايا أبدية تخاطب الإنسان فى كل مكان وزمان .

غير أن الكاتب غالى فى التزام الصرامة فى اسلوبه السردى وتجنب الشاعرية والرمز فى تصوير اللحظات والمواقف الإنسانية التى تتطلب التعبير بالصورة والمجاز والأداء اللغوى غير المباشر ... لقد كان زاعق النبرة واضح الاسلوب ، غير انه كان لحد ما مدركاً لشروط الاقتصاد فى الوصف وتجنب الحوار على حساب درامية الحدث وتحولاته ، وتصوير تعدد جوانب الشخصية . ■

عبد الرحمن أبو عوف



لطفى السيد بين الذات والمجتمع

لقد وصل الحراك الاجتماعى فى مصر إلى ذروته نتيجة لتقلب الفئات الاجتماعية وانحسار دور المؤسسات الكبرى فى أعمال هامشية، مما أدى إلى تزايد موجات العنف القائمة على النفى والاستئصال دون حوار خلاق يحتكم إلى قيم معيارية تؤسس سياقا اجتماعيا خاصا. وقد تجلى هذا بوضوح فيما هو ثقافى، وزاد من حدته عدم مصداقية المرموز الثقافية لتنقلها بين تيارات شتى لا يمكن الجمع بينها.

وأمام هذا الإشكال انحازت المؤسسة الثقافية لرواد النهضة لمواجهة هذه الأزمة، خاصة وأن الإشكاليات السياسية والحضارية التى عالجوها مازالت قائمة. ومن هذه الرموز «أحمد لطفى السيد» فأعادوا نشر كتابة «قصة حياتى» وهى تجربة سياسية ثقافية فى المقام الأول وإن اتخذت طابعا شخصيا. فقد ولد فى ١٥ يناير ١٨٧٢م وحفظ القرآن بكتاب القرية وهو فى السادسة من عمره وأتم تعليمه الابتدائى عام ١٨٨٥م بمدرسة المنصورة، وبعدها التحق بالمدرسة الخديوية وفيها تعرف على «عبدالعزيز فهمى» وقرأ «أصل الإنسان» لداروين ترجمة «شبلى شميل»، وحفظ بعض المعلقات وأشعارا لكبار الشعراء.

وفي عام ١٨٨٩ التحق بمدرسة الحقوق، وفيها عرف الشيخ محمد عبده والشيخ «حسن الطويل»، واشتغل بالصحافة وهو طالب فعاون جريدة «المؤيد» بترجمة تلغرافاتها الخارجية، وسافر إلى استانبول عام ١٨٩٣ وقابل فى إحدى المقاهى سعد زغلول وكان قاضيا بالاستئناف والشيخ على يوسف وحفنى بك ناصف وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الأفغانى فصحبهم إلى منزله، وقد ذاع صيته فى الشرق الإسلامى كمصلح دينى وفيلسوف جليل وسياسى خطير، فأراد أن يتتلمذ عليه، وكان له ما أراد.

أتم دراسته عام ١٨٩٤ وعمل كاتبا بالنيابة ثم معاونا ثم وكيلا ببنى سويف وهناك التقى مع صديقه القديم «عبدالعزيز فهمى» وأنشأوا جمعية سرية غرضها تحرير مصر . وكانت هذه الجمعية مؤلفة من: عبدالعزيز فهمى (وكيل نيابة)، أحمد طلعت (رئيس النيابة)، محمد بدر الدين (وكيل نيابة)، عبدالحليم حلمى (دكتور)، محمد عبداللطيف (صيدلى بطنطا)، أحمد لطفى السيد.

وعندما التقى بمصطفى كامل بالقاهرة قال له: إن الخديو عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وأغراظها وعرض عليه المشاركة فى حزب وطنى تحت رئاسة الخديو فوافق وقابل الخديو وتحدثوا عن أغراض الحزب وطلب منه الخديو أن يسافر إلى سويسرا لكى يكتسب الجنسية السويسرية ثم يعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى. بعدها اجتمع هو ومصطفى كامل فى بيت محمد فريد لإنشاء الحزب الوطنى كجمعية سرية يرأسها الخديو. سافر إلى جنيف سنة ١٨٩٧ وفى الصيف التقى بالشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وكان يؤلف كتاب «تحرير المرأة»، وقد غضب الخديوعباس من لقائه بالشيخ محمد عبده، وعند عودته إلى مصر أرسل تقريرا إضافيا إلى الخديو يقول فيه : إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها وإن أوروبا لن تساعدها على حساب انجلترا.

فى عام ١٩٠٥ استقال من النيابة، وفى تلك الأثناء كانت مشكلة «العقبة» بين مصر وتركيا تشغل الرأى العام وكان الأتراك يدعون أنها لهم والانجليز يقولون إنها ملك مصر. وكانت الجرائد القومية تنصر الأتراك، ففكر هو وصديقه محمد محمود باشا فى ضرورة إنشاء جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو إلى

إحدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد، وقد اتفقا أن تكون الجريدة ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية. وفى بيت محمود باشا سليمان ألفوا شركة الجريدة وانتخب أحمد لطفى السيد رئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات، ومحمود باشا سليمان رئيس الشركة. وبعد تأليف الشركة أخذت الجرائد المتصلة بالخديو تتهم القائمين عليها بمغازلة الإنجليز، وما كاد يمضى على صدورها أيام حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر فخطب خطبته الشهيرة فى الأوبرا وعلقت عليها الجريدة تعليقا عنيفا وسارت الجريدة على مبادئها تنتقد أعمال السلطة الفعلية التى كانت للإنجليز، كما كانت تنتقد أعمال السلطة الشرعية الممثلة فى سلطة الخديو. وعلى أثر استقالة اللورد كرومر نشر تقريرا تناول فيه طبيعة المصريين وأخلاقهم وأفكارهم كما تناول ميولهم نحو الجامعة الإسلامية فرد أحمد لطفى السيد قائلا: إن فكرة الجامعة الإسلامية قد توجد بخواطر بعض الناس الذين لايزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الأمور العامة بشىء من التدقيق. وكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شىء يضير مصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التى استقلت واستنتجوا من ذلك أن



ذنب مصر أنها أمة إسلامية وأن أوروبا لا تساعد فى الشرق إلا الأمم المسيحية، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة كالتى توجد فى أوروبا. ولقد علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شىء يجمع بين الناس إلا المنافع فإن تناقضت المنافع استحال أن يجتمعوا لمجرد قرابة فى الجنسية أو الدين. وأن هذه الفكرة تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوروبية لتستر أعمالهم فى الشرق.

بعد ظهور الجريدة ببضعة أشهر تألف حزب «الأمة» فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٠٧م وقد تضمن منهاجه المطالبة بالاستقلال التام والمطالبة بالدستور تدرجا إلى إيجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطات الشعب. وقد اتخذت بعض الصحف مبدأ المطالبة بالاستقلال التام ذريعة للتشنيع على الحزب واتهامه بالخروج على الباب العالى، لكنهم لم يكفوا عن مهاجمة الحكومة الفردية الاستبدادية، وتوالت الكوارث فألغت الحكومة الجيش المصرى والعلوم الحربية وكذلك مجلس النواب ووافقت على قانون المطبوعات وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأى.

وقد أفلحت محاولات الخديو فى إقناع بعض الشركاء بالخروج من شركة الجريدة وطلب حلها عام ١٩١٠م.

فى عام ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه حسين رشدى فذهب إليه لطفى السيد يطلب منه أن يبدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم وكان يوسف وهبة وزير الخارجية حاضرا فقال له: إن هذا الكلام سابق لأوانه، ثم رجع له مرة أخرى يطلب منه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية وأن تنصب الخديو ملكا عليها ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال ورجاه أن يعرض هذا على الخديو والمعتمد البريطانى. فرفض المعتمد بحجة أن انجلترا لا تريد مضايقة تركيا الآن. ورأى الخديو أن يؤلف وفدًا من سعد زغلول وعدلى باشا وأحمد لطفى السيد ويذهبوا للتفاوض مباشرة مع الحكومة الانجليزية. وفى هذه الأثناء قام الأمير عمر طوسون وبعض الكبراء والأعيان بجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى الحرب وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ويشترون المؤن والأسلحة ويرسلونها للجيش التركى بطرابلس.

وأمام هذه الحالة من التأييد لم يتم المشروع.

فى عام ١٩١١م ظهرت لأول مرة بوادر ما يسمونه بالجامعة العربية فقد وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان هما السيد شكرى العسلى من دمشق والسيد ثابت من أعيان بيروت وكان الغرض الذى جاءا من أجله السعى لضم سورية إلى مصر ولم يكن متفقا معهما فى هذا الرأى، فلطفى السيد منذ زمن طويل ينادى بأن مصر للمصريين وأن من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين فهو يقول بقاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمه مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها، تلك قاعدة تتمشى مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ويحب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية. أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لنفوذ الغرب وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها، فالاستقلال هو المطمع الوحيد.

فى عام ١٩١٢ دعا إلى تاليف نقابة للصحافة المصرية إلا أن هذه الدعوة لم تعمر طويلا لأن الحرب العالمية الأولى أتت عليها. وفى عام ١٩١٦ دعاه إسماعيل عاصم مع عدلى باشا ورشدى باشا والأستاذ يعقوب صروف إلى بيته وتحدثوا فى ضرورة إيجاد مجمع للغة العربية. ودعا لطفى السيد حفنى بك ناصف وعاطف بركات ووضعوا قانونا للمجمع وألفوه برئاسة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر.

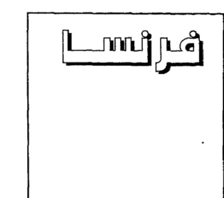
وعندما وصلت إليهم مبادىء ويلسون تحركوا للمطالبة بالاستقلال فنفت الحكومة سعد ورفاقه إلى مالطة وبعد المفاوضات والمحاورات واندلاع ثورة ١٩١٩م وقيام الجمهوريات الصغيرة بالقطر مثل جمهورية المنيا أفرجوا عن المنفيين وسمحوا للطفى السيد بالسفر والتقوا جميعا فى مؤتمر السلام الذى لم يسفر عن شيء.

أما فكرة الجامعة فقد جاءت عام ١٩٠٦ عندما اجتمع نخبة من أهل التربية فى دار سعد زغلول وتعاقدوا على الدعوة لإنشاء الجامعة وقرروا أن تكون بمعزل عن السياسة وفى عام ١٩٠٨م اجتمع المكتتبون تحت رئاسة سمو الأمير أحمد فؤاد فى ديوان الأوقاف وسموها الجامعة المصرية وفى عام ١٩٢٣ انضمت الجامعة المصرية إلى الجامعة الجديدة، وعام ١٩٢٨ وضعوا حجر الأساس لمبانيها الحالية بحضور جلالة الملك فؤاد.

فى عام ١٩٢٨ شكل محمد محمود باشا الوزارة وأسند إلى لطفى السيد وزارة المعارف والتى استمرت خمسة عشر شهرا واستقالت، وفى عام ١٩٣٠ جاء مديرا للجامعة وقد حرص منذ توليه أن يكون لها استقلالها ولكن حدث أن اعتدت وزارة المعارف على هذا الاستقلال فنقلت طه حسين من عمادته بكلية الآداب إلي أحد الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة فلم يقبل هذا التدخل وذهب لرئيس الوزراء إسماعيل صدقى واقترح أن يرجع طه حسين استاذ أول ليس عميدا احتراما لرأى الوزير لكن الوزير لم يقبل فقدم استقالته فى ٩ مارس ١٩٣٢ وعندما رجع مديرا للجامعة عام ١٩٣٥ ضم إلى الجامعة كلية الهندسة والتجارة والزراعة والطب البيطرى.

هذه مسيرة رجل ليبرالى أراد لبلده أن تكون دولة مدنية ولابد لها أن تتحرر من الاستعمار الانجليزى والدولة العثمانية وأن تعتمد فقط على ابنائها ومواردها الطبيعية وهذا لن يحدث إلا عن طريق الديمقراطية والتمثيل النيابى لكافة فئات الشعب والدعوة إلى تنوير العقول بتخليصها من الخرافات والأساطير التى تعوض مسيرة التقدم.■

فتحى عبدالله



احتفالية الوجود والعدم

في ٢٥ يونيو عام ١٩٤٣ ليس تاريخاً عادياً في تاريخ الفكر الغربي المعاصر لسبب بسيط وهام إنه تاريخ صدور كتاب الوجود والعدم لجان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المعروف، ضمن سلسلة «مكتبة الأفكار» التي كان يديرها آنذاك برنارد جووتوزي في دار نشر جاليمار الشهيرة. وهذا الكتاب الذي يبلغ من العمر هذه السنة نصف قرن، كان محاولة من سارتر لإقامة علم فلسفي ينظر إلى الوجود من وجهة فينومينولوجية أو من زاوية ظاهراتية، أو بعبارة أخرى أراد سارتر أن يقيم الوجود على ظاهره لا على ما يبطنه. ونزل الكتاب إلى الأسواق في ١١ أغسطس من نفس العام ١٩٤٣. وكان سارتر قبل ذلك التاريخ بعامين قد شارك ممع ميرلو بونتي، وجان توسان وزونتي وغيرهم من الفلاسفة الذين لمعوا بعد الحرب العالمية الثانية في تأسيس مجموعة من المثقفين لمقاومة الغزو النازي. وقبل صدور الكتاب إذن لم يكن جان بول سارتر يحلق في السماء بعيداً عما تعتصر بلاده من صعاب حادة ومصيرية. بل ربما كان جواب الفيلسوف على السؤال الوطني هو الخلفية البعيدة لكتاب شديد التجربة ككتاب الوجود والعدم والذي نقله الدكتور عبد الرحمن بدوي إلى اللغة العربية خير نقل.

وكان عام ١٩٤٣ عاماً غاية في الأهمية لأنه شهد تغيراً كاملاً في الحرب العالمية الثانية. وكان سارتر بعدما عاد من الاعتقال وقبله قد ناضل في مجموعة الاشتراكية والحرية إلى جانب البحوث الفلسفية التي كان يقوم بها في سبيل إنتاج ما أسماه على نسق زمن ووجود لمارتن هايدجر الفيلسوف الألماني الكبير الوجود والعدم. وهي البحوث التي قادته من الخيال إلى تعالى الذات ثم تمهيد لنظرية الشعور والمخيلة حتى الكتاب الضخم والأساسي. إذ لم يكن سارتر بخيلاً في استنباط المفاهيم ونحت المصطلحات النظرية الجديدة. كان يمتلك نوعاً عجيباً من «الوفرة الطبيعية» في التفكير. أما في الفلسفة الفرنسية وقتئذ فقد كانت في غالبيتها العظمى مندهشة من هذا الفيض غير العادي في الكتابة الفلسفية الإبداعية إلى درجة الشك المطلق في قدرة سارتر وطاقاته الحقيقية. كان سارتر قد برز قبل الوجود والعدم بروايته الغثيان باعتباره كاتباً مزعجاً. كما كان معروفاً قبل ذلك أنه ينتوى كتابة المسرح وإخراجه. فأثيرت الأسئلة في الشارع الفلسفي الرسمي، وأقيمت علامات استفهام عديدة على طاقة جان بول سارتر الإبداعية.

وكانت الفلسفة الفرنسية الرسمية في ذلك الوقت من صنع فلاسفة أمثال لوسيني ولافيل الذين خلفاً لبرانشفيج بعدما سيطر السيطرة الكانتية النقدية الجديدة إلى فترة طويلة في المؤسسات الفلسفية التعليمية والعلمية والثقافية المرموقة. كانت مدرسة لوسيني ولافيل هي المسيطرة عام ١٩٤٣. قللت من شأن سارتر وسخرت منه السخرية المتعالية.

والجدير بالذكر أن الدهشة الجماعية التي أصابت أنصار سارتر وأعداءه على السواء بعد صدور الوجود والعدم كانت ترجع أيضاً إلى أنه حتى عام ١٩٤٣ لم يكن قد أصدر كتاباً فلسفياً ضخماً وتقنياً إلى هذه الدرجة.

قرأ الفلاسفة المحترفون في فرنسا والغرب عموماً. أما في أمة العرب فلا أدرى. أظن أنها قلة قليلة جداً قمعت نفسها وانقضت عليه. على كل حال في الغرب والعالم العربي تصفحه المتخصصون وتداولوه. لكن شهرة سارتر ليس سببها الوجود والعدم وإنما عمله السياسي والكتابة الأدبية التي لا ترقى أبداً إلى مستوى فلسفته. كتب جان فال أستاذ الفلسفة الفرنسي الكبير بعد عودته من الولايات المتحدة دراسة يشرح فيها الخمسين صفحة الأولى أو المائة صفحة الأولى من الكتاب. وبدا في شرحه متردداً. صحيح أن أول عرض للوجود والعدم كان لإلكسندر ستروك في مجلة شعر ٤٤ وكان إلكسندر شديد الإعجاب بسارتر. لكن الكسندر أصبح فيما بعد سينمائياً لافيلسوفاً متخصصاً وبالتالي فإعجابه لا يمكن

أن يكون معياراً لضبط التقييم الفلسفى العلمى الدقيق والذى لا يتأتى إلا بالتحديد المسبق لمشروع جان بول سارتر فى الوجود والعدم.

ولم يحاول سارتر فى الوجود والعدم ما سبق أن حاوله إدموند هوسرل فى مختلف مؤلفاته الفلسفية والأساسية. لم يحاول سارتر أن يعيد تأسيس الفلسفة، إنما حاول أن يجذر الفلسفة فى الخبرة وليس فى التعليم والثقافة فقط. إذن حاول أن يجذر الفلسفة فى أعمق وأقرب ما فى فعل الوجود أو الموجود هنا وحاول عرض أشكال هذا التجذير.

وربما يبدو الوجود والعدم اليوم وكأنه شكل من أشكال السيرة الذاتية أىّ أن محاولة سارتر الفلسفية هى محاولة نفسية فى الوقت نفسه. وهو ضبط لمواقف الفكر ومواضعه وظروفه. ضبط الفكر وهو يتجسد فى أشخاص. ومن هنا الصلة الوثيقة بين التأليف الروائى والمسرحى والفلسفى.

ولكن الفكر فى لحظات عمله المختلفة يتجسد على نحو فينومينولوجى بمعنى أن الفكر سيرة ذاتية مقنعة حيث تكتفى البنية الكونية لفعل الحياة والأنا الذى يعيش أو يفكر. أعيش فعل الحياة ولكن معيشتى هذه بنية كونية يوضحها المفكر فور أن يبدأ فى الحديث عنها. والمشكلة بالطبع هى اكتشاف اللغة التى تطابق ما يستطيع أن يقوله حول ما يستطيع أن يراه. هذا هو ما كان موضوع بحث جان بول سارتر فى الوجود والعدم. واستخدم عدة أدوات لغوية. تحليل المفاهيم الذى أحياناً ما تبلغ تقنيته



سارتر فى يونيو من عام ١٩٤٤ «فيض طبيعى من الأفكار!

مداها. إعادة تأويل التراث الفلسفى الذى كان يعرفه سارتر تمام المعرفة. الخبرة المعيشية ضمن المواقف الكونية. إذ لم يكن سارتر يختار نماذجه البشرية كما يقولون وإنما كان يستقى الحياة نفسها. لم يكتب كهوسرل الكتابة الافتراضية - الاستنباطية ولم يفكر فى المواضيع العامة. أو بالأحرى لا يقيم فينومينولوجيا الموضوعات المجهولة أو الغائبة وإنما ينطلق فى بحوثه الفلسفية من المواقف المتخيلة التى هى ليست موضوعات خيالية محضة بل هى خبرة متخيلة.

وبالضبط ما كان ينقص الفلسفة الفرنسية حتى ظهور الوجود والعدم العناية بالخبرة المتخيلة. كان الهم الذى يؤرق سارتر هو الكشف عن الشىء نفسه .. عن مضمونه وتطوره.

والجانب الحاسم الذى أثّر فى الأجيال اللاحقة من الفلاسفة هو الجانب النفسى. لم يكن الوجود والعدم سيكولوجيا فلسفية محصورةً فى الحدود الضيقة للذات النرجسية.

كذلك أيضاً كان تعالى الذات قبل الوجود والعدم بل مصدر الوجود والعدم هو تعالى الذات .

نجد أن هناك ما أخذوا عليه بعض المآخذ. لم يهتم سارتر كثيراً بقضية اللغة فى تحديد الصلة التعبيرية التى تربط الأنا بالآخر. وأطلق على اللغة اسم «المخيلة» أو فضاء «المحتمل» ... وفصل سارتر بين الوجود فى ذاته، أى بين جانب الوجود المتكتل والصامت وبين الوجود لذاته أى بين جانب الوعى فى الوجود بينما مصير الوجود فى ذاته هو الوجود لذاته. وكان يقتضى ربط هذا الفصل كتابة ميتافيزيقية وليست وجودية. ولذلك لم يؤلف سارتر قط كتاباً فى الميتافيزيقا. غير أننا كيف نفسر تعالى الذات؟ فالتعالى مشكلة ميتافيزيقية محضة وليست وجودية.

ومن هنا المفروض أن الفلاسفة ناقشوا جان بول سارتر أثناء الحرب العالمية الثانية، وربما قرأه كافافيس قبل أن ينقض عليه النازيون. كان منذ عام ١٩٤١ أستاذاً غير متفرغ بالسوربون واقترح على سارتر أن يقدم كتابه لنيل درجة الدكتوراة. لكن الأمور جرت على نحو مغاير وتخلى سارتر عن هذا الاقتراح تماماً بعد انتهاء الحرب.

تفجرت الفلسفة الوجودية عام ١٩٤٥ وظل كتاب الوجود والعدم

مستعصياً على القراءة. فالأربعة والثلاثون صفحة الأولى (المقدمة) غاية فى الصعوبة. إلاّ أنه رغماً من صعوبته أحبه الناس. لكن كم منهم قرأ الكتاب القراءة الحقيقية هذا سؤال من الصعب حسمه. أما الأفكار العامة التى يتضمنها الكتاب فانتشرت الانتشار الواسع. غير أن الماركسيين فى ذلك الوقت رفضوا حتى هذه الأفكار العامة وبدالهم الكتاب خطيراً لما يقترحه من منظومة لا تتعارض مع المنظومة الماركسية بقدر ما كان الوجود والعدم يتحرك فى إطار إشكالى ليس غريباً تمام الغربة عن الإطار الماركسى لأنالوجود والعدم يضع الفكر فى مواضع العالم.

والماركسيون الذين انضموا إلى سارتر قبل الحرب تركوه ابتداءً من عام ١٩٤٥. والأمر الأعقد أن سيمون دى بوفوار قرأت عام ١٩٤٦ ترجمة بوتيجيلى لمخطوطات ١٩٤٤ لكارل ماركس وقالت: «وما هذا؟ هذه هى الفينومينولوجيا!». النتيجة المؤكدة إذن أنه حدث منذ بداية انتشار الفلسفة الوجودية نوع من أنواع التداخل العضوى بين الفلسفة الماركسية وبين فلسفة سارتر من جانب الماركسيين والوجوديين على السواء بغض النظر عن الرفض المتبادل للمنطلقات المبدئية. وقد خاف قادة الحزب الشيوعى أن يخلط الفلاسفة بين فلسفة ماركس الشاب وبين محاورالوجود والعدم . إلاّ أن هذا بالضبط ما حدث بعد ذلك فى الستينيات رغماً عن خوف الحزب من سارتر عام ١٩٤٦ و هجومهم عليه الهجوم العنيف.

ولم يكن خوف الحزب بالضبط من الوجود والعدم وإنما كان خوفاً من الأفكار التى كانت تجرى مجرى القانون والتى كانت منحوتة فى ذلك الوقت من محاور فلسفة بسكال. وصيغت على نحو غير متماسك ألبتة. ودارت حول قضايا القلق والوحدة البشرية. كما هاجموا سذاجة الأفكار الوجودية التى صارت موضع ثرثرة بالمقاهى. أما الوجود والعدم فظل كتاباً متخصصاً بعيد المنال.

ومن هنا هذه النادرة التى دائماً ما يرويها بيير نورا أن توزيع الوجود والعدم عام ١٩٤٨ كان يحوى فى كل نسخة نسختين من نفس الملزمة، أى أن كل نسخة كان ينقصها ملزمة ولم يصل إلى دار نشر جاليمار سوى اعتراض شخصين! فى حين أن دار جاليمار باعت ما يقرب من الثمانية الآلاف نسخة.

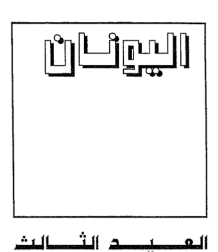
وهكذا ظل الوجود والعدم كتاباً يضعه الغالبية العظمى فى المكتبة الخاصة دون أن يفتحوه. أما المتخصصون فى الفلسفة المعاصرة فيرجعون إليه حتىٰ اليوم.

لكن هذا لا يعنى أن الوجود والعدم يضاهى من حيث الأهمية الفلسفية الدقيقة زمن ووجود لمارتن هايدجر. كما أنه لا يرقى إلى مستوى مؤلفات إدموند هوسرل الكبرى. فهوسرل وهايدجر غيرا معاً مجرى تاريخ الفلسفة الغربية وصنعا نمطاً فكرياً جديداً تمام الجدة. وأما سارتر فهو يدور فى الفلك الذى فتحه هوسرل وهايدجر. هو ليس تلميذهما وإنما هو يفكر فى إطار فلسفتهما ويبنى داخلها ويتفرد بها. سارتر فى الوجود والعدم كاتب مسرحى يكتب بأسلوب المفكر. وهذا الربط الذى أقامه كان غاية فى الجدة وهو السبب الذى يجعل الكتاب قادراً على البقاء.

والجدير بالذكر أن الجامعة الرسمية ظلت ترفض الوجود والعدم وظلت ترفض اعتبار سارتر فيلسوفاً. فكانت ترى فيه لصاً وشخصاً غير محترم لما اقتحمه من مجالات معرفية عدة فضلاً عن سلوكه الاجتماعى الذى أخذ شكل السلوك المتمرد. وليس ما قصدته الجامعة هو تعدد المواهب فى شخص سارتر وإنما ما رفضته هو رغبته الشبقية فى معرفة المواقف وأساليب وسلوك الناس فى الحياة، بل رغبته الشديدة فى المعرفة القريبة من الناس ومشاهدتهم المشاهدة المباشرة واستخلاص الفكرمن إقامته بينهم.

أما الفلاسفة الرسميون فلا يرون فى الفيلسوف سوى ذلك الشخص الذى ينسحب ليضبط وحدة فكره. فيضبط فكره حقاً لكنه لا ينتج شيئاً ■

وائل غالى



العيد الثالث لمهرجان كافافيس [١٣ - ١٥ نوفمبر]

في أمسية حميمة من الأمسيات الثقافية أقيمت بدار الأوبرا جمعت بين أدباء ومثقفي مصر وأدباء ومثقفي اليونان لإحياء ذكرى الشاعر السكندرى المولد، المصرى الإقامة، اليونانى الجنسية كافافيس.

وقد حضر اللقاء الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب فقال أن كافافيس بحسه المصرى العميق كان السبب فى خلق المدهش فى الشرق والغرب. ونبه على اهتمام وزارة الثقافة بدعم هذا المهرجان السنوى لأنه يمثل نقطة التقاء بين الحضارتين الشرقية والغربية وحضره جورج بابندريو نائب وزير الخارجية اليونانى وإيفانجلوس جورجيو سفير اليونان بالقاهرة والأديب ثروت عكاشة والشاعر اليونانى كوستس موسكوف المستشار الثقافى لسفارة اليونان بالشرق الأوسط.

وتكلم الأستاذ ثروت عكاشة عن اللقاء فقال إن أهميته تأتى من أن كافافيس سكندرى المولد، مصرى الإقامة، يونانى الجنسية فهو نقطة التقاء بين حضارتين.

ثم ألقيت بعض أشعار كافافيس باليونانية ثم ترجمة لهذه الأشعار من الدكتور نعيم عطيه. وقراءة فى قصة ستراتيس تسيركاس (نور الدين بومبة) - التى صدرت حديثاً فى القاهرة - وأعلنت جوائز العيد الثالث لمهرجان كافافيس:

ففاز بجائزة الشعر العربى محمود درويش لتعبيره عن النضال الفلسطينى.

وفاز بجائزة الشعر المصرى رفعت سلام وملك عبد العزيز لإنجازهما الشعرى وكتابتهما المعبرة عن المجتمع المصرى.

وفاز بجائزة النقد الدكتور نعيم عطية لجهده فى ترجمة العديد من أعمال أدباء اليونان (كافافيس - سيفيريس - ساما راكيس - سولوموس) وصدر له حديثاً ترجمة أشعار موسكوف.

وفاز بجائزة الشعر اليونانى أنتونيس فوستييرس وجائزة خاصة للمدرسة الثانوية باثينا لجهدها فى ترجمة أعمال كافافيس.

وقد فاز بهذه الجائزة فى العامين السابقين أحمد عبد المعطى حجازى ومحمد عفيفى مطر ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة.

وألقيت قصائد الشعراء الفائزين باللغات اليونانية والانجليزية والعربية فقرأت قصائد أنتونيس ثم ترجمة لهذه القصائد من الدكتور نعيم عطية وقرأ الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة قصائد محمود درويش.

وقرأت الشاعرة ملك عبد العزيز قصيدة (أن ألمس قلب الأشياء) وقرأ الشاعر رفعت سلام قصائد (أشياء صغيرة تومىء لى).

وفى الفترة من (١٣ - ١٥) انتقل المهرجان الثقافى إلى مدينة الاسكندرية حيث أقيم فى النادى الثقافى اليونانى وقدم العديد من الباحثين أبحاثهم عن تسيركاس وكافافيس ومن هذه الأبحاث التى قدمت فى اليوم الأول دراسة فى شعر كافافيس قدمها (باناجوبولوس) فقسم شعر كافافيس إلى قسمين قصائد ذات طابع كلى وقصائد ذات طابع أثرى أو تاريخى وطبق قصيدة ٢٠٠ قبل الميلاد على هذه الملاحظة.

وقدم (بابايو آنو) بحثاً عن مكتبة الروائى تسيركاس وأبرز تأثر الطلبة اليونانيين اليساريين بتسيركاس وهى تعرف بفترة مقاومة الديكتاتورية وأن إنقاذ مكتبته والتى تحتوى على ١٥٠٠ حتى عام ١٩٦٢ تمت بواسطة (أنديفونى خاتزيا نذريو) وتم اهداء الجزء الأكبر منها للمدارس اليونانية لأنه فى ذلك الوقت كانت الكتب ممنوعة من التصدير، وقدم (كارابوستوليس) بحثه فى اللذة عند إبيكورس وكافافيس.

ويوضح أن شعر كافافيس يحاول التوحد بين الروح والجسد عن طريق الحصول على المتعة وشعر كافافيس يختلف عن إبيكورس حيث إن الذهن

لا يهتم مقدماً بالنتائج ولكن يقبل بعد ذلك بأى نتيجة تحدث وبالنسبة لمرسيل بروست فإن المتعة تبدأ من الحاسة إلى الذاكرة بينما عند كافافيس تبدأ من الذاكرة إلى الحس وكافافيس يحاول أن يجعل الجسد منتجاً للرغبات والأفكار.

وقدم (سبيروس تساكنياس) بحثاً عن تسيركاس الكاتب الوطنى، وتكلم عن أبرز قصصه وهى (نور الدين بومبة) حيث إنها تبرز حب تسيركاس لمصر وشعبها وهو حب فرد من أفراد الشعب وليس حباً من فرد أجنبى، وبعد ثورة ١٩٥٢ كان تسيركاس يعتبر نفسه سفيراً للثورة فى أثينا وكان يقول إن الرئيس يحب الفلاح والدليل على حب تسيركاس للفلاحين أن أول ديوان له كان بعنوان (الفلاحون) وقصته (نور الدين بومبة) تمت كتابتها بعد عشرة أيام من تاميم قناة السويس.

وفى اليوم الثانى فى مدينة الاسكندرية كان هناك عدة أحاث فمنها بحث إدوارد الخراط عن كافافيس والاسكندرية.

وقدم الدكتور أحمد عثمان بحثاً فى الدراسات الكلاسيكية فى مصر وتكلم عن التأثير بين الحضارتين اليونانية والمصرية وتكلم عن أشهر المترجمين كحنين بن إسحاق وأن أول عمل ترجمة لرفاعه الطهطاوى كان متأثراً باليونانية وأن مؤسس الدراسات الكلاسيكية فى مصر هو الدكتور طه حسين وأن هناك العديد من الأدباء المتأثرين باليونانية كالحكيم وجماعة أبولو والبياتى ونازك الملائكة والسياب.


كافافيس

وقدّم الدكتور محمد العبودى بحث (المدينة فى كافافيس).

وألقى لطفى عبد الوهاب قصيدتين باليونانية ثم العربية. ومن أهم الأبحاث التى قدمت (إحساس العزلة عند كافافيس) لباديناس دى لابينا وتكلم عن شخصيته ولغته وطريقته فى الكتابة وأكد أن كافافيس شاعر مغرم بالموضوعات التاريخية بل هو من وجهة نظرة أهم شاعر تاريخى فى التاريخ اليونانى الحديث وأنه قبل وفاته بستة أشهر أكد أنه ينوى كتابة ٢٥ قصيدة من المفروض أنها كانت ترتبط بفترة التاريخ البيزنطى وهو يتعامل مع اليونانية بمفهوم الأزلية وفي اليوم الأخير ١٥ نوفمبر ١٩٩٣.

قدم كريسوس توميدس بحثاً فى (تسيركاس كمؤرخ) وتناول فيه كتاب تسيراكس (كافافيس ورفاقه) ويتحدث عن تاريخ اليونانيين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وقدم تسيانتس بحثه فى كافافيس محاولاً الاقتراب من قصيدة كافافيس عندما تخلى الإله عن أنطونيوس وأن لها بعد رمزى حيث إنها تعبر عن أحاسيس وتجارب الشاعر ثم نبذة تاريخية عن موقعة أنطونيوس وأكتافيوس وتخلى الإله الحامى عنه.

ثم تحدث الدكتور سيد صادق عن شخصية كليوباترا وأنه لا يمكن تصديق المؤرخين الرومان الذين زعموا أن شخصية كليوباترا كانت تنوى احتلال روما ذاتها عن طريق إفساد زعماء الرومان وفى كتاب (بلوتارك) نجد البعد الدرامى فى شخصية أنطونيوس الذى فضل الأنثى على الواجب وأن شكسبير تأثر بقصة الحب مع إبراز الحس الوطنى لدى كليوباترا مصادفة وأن أحمد شوقى اهتم بالأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا معتمداً على الترجمة الفرنسية للنص الانجليزى.

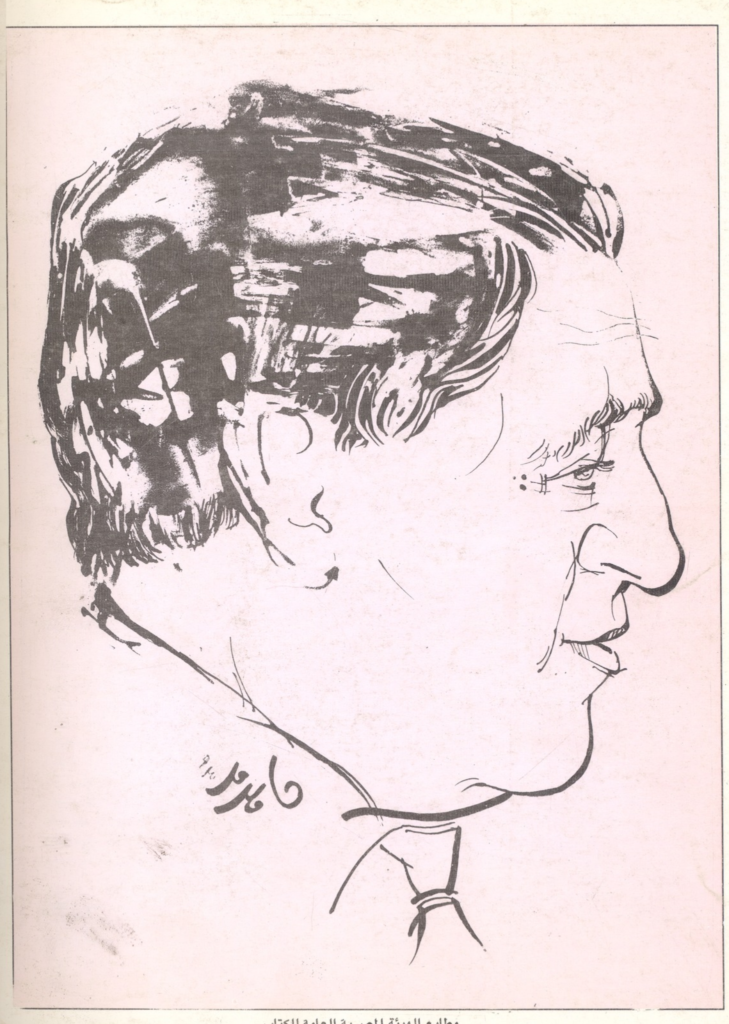
كما أقيم على هامش المهرجان لقاء أدبى جمع الأدباء إدوارد الخراط ورفعت سلام وهالة البدرى وعبد العظيم ناجى وعبد الله السمطى وعبد الوهاب داود وطاهر البربرى وأحمد عثمان ومجموعة من شباب الإسكندرية وقد علق موسكوف الشاعر اليونانى فى نهاية اللقاء أن الحضارة اليونانية جزء من حضارة البحر المتوسط التى تتميز بالاتجاه إلى الآخر وهذا موجود عند كافافيس بينما الغرب مازال الفرد مسكونا فى الوحدة وأن الاهتمام بهذا اللقاء هو اهتمام بالثقافة المشتركة بين مصر واليونان.■

عادل حلمى بدر

الغلاف الأخير

محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥)

بريشة الفنان : **مكرم حنين**



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب